
ملف
الهرمل
22 الهرمل البعيدة عن عين الوطن وقلبه
92 علاقة العشائر بالأحزاب والدولة، من أقوى ممن؟
116 طفار الجرود
المفكرة القانونية
تحقيق سعدى علّوه

تحقيق وإعداد: سعدى علّوه
تحرير: نزار صاغية ولمياء الساحلي
تدقيق لغوي: لمياء الساحلي
تصوير: كامل جابر، مايا مزبودي، حسن الساحلي

أجريت المقابلات في إطار إعداد هذا الملف في شهرَي شباط وآذار 2021

الطبعة الأولى، آب 2021
الناشر: المفكرة القانونية
info@legal-agenda.com

بناية جوزيف معوّض 1970، الطابق الأوّل، شارع بني كنعان، بدارو - بيروت، لبنان.
هاتف/فاكس: 009611383606
www.legal-agenda.com

طبع في لبنان
تصميم المطبوعة: علي نجدي
رسم الغلاف: رائد شرف
رسوم الملف: روائد عيسى
الخطوط: 29LT Azer - Bahij The Sans Arabic

للحصول على مطبوعات المفكرة القانونية، الرجاء زيارة الصفحة الإلكترونية:
https://legal-agenda.com/request-publications-lebanon

يمكن تحميل الكتاب مجاناً على موقع المفكرة

HEINRICH BÖLL STIFTUNG
بيروت
الشرق الأوسط

تمّ إنتاج هذه المطبوعة بدعم مالي من مؤسسة هينرش بول - مكتب الشرق الأوسط. الآراء الواردة هنا تعبّر عن آراء المؤلفين وبالتالي لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤسسة.

الفهرس

مقدّمة

الهرمل أو في مجاهل العاصي - نزار صاغية / سعدى علّوه 08

بطاقة تعريف عن قضاء الهرمل
لمحة تاريخية عن المنطقة 10

01. الهرمل المدينة

عاصمة قضاء أم قرية فقيرة؟
الهرمل البعيدة عن عين الوطن وقلبه 22

طبّ الحالات الباردة في الهرمل 42

الهرمل ومدارسها
أعلى مستويات للتسرّب الدراسي 48

شابات وشبّان الهرمل 58

بيسرقونا؟ بيخطفونا؟ معكن حشيشة؟
تهم جاهزة للهرمل «العسكرية» 64

«حكي عالبلدي»
أو حين تمرّد شباب الهرمل على بلديّتها - رشدي حمادة 72

02. عشائر الجرد الغربي

العدالة في أعراف العشائر 78

العشائر والدولة والأحزاب
مَن أقوى ممّن؟ 92

عن الحزبي ابن العشيرة
الذي ينتقد عشيرته وحزبه 106

العشيرة في ميزان السوسيولوجيا - د. فؤاد خليل 110

الطفّار 116

بنت العشيرة في الحيّز الخاصّ
أو "الحرّية المسؤولة" 128

محوّل الكهرباء «خربان» منذ ١٩٨٣ لدى الدنادشة
أسطورة «حرز» الوادي 138

وادي الكرم
عندما يحوّل الإهمال القرى إلى أطلال 146

عن جرد عشيرة علّوه القابع في مثلث الحرمان
لا أثر إنمائي أو أمني للدولة 152

آل الحدشيتي الذين لم يعودوا بعد 162

جرد عشيرة ناصرالدين
الشجرة تُبقي الناس والحرمان يهجّرهم 166

جرد عشيرة جعفر
حين يثبّت التهريب المواطنين في أرضهم 174

حرق إطارات ونفايات طبية في الأودية
كسّارات محميّة ومجهلة تقتل آل جعفر وتهجّرهم 182

قانون تشريع زراعة القنّب ما زال «في الجارور»
«شرَّعوها» بالنسبة للمزارعين فماذا عن الدولة؟ 192

ابنة العشيرة التي كُنت 198

القوى الأمنية تصل متأخّرة وتبويس اللّحى هو الحلّ
أمن الهرمل في فوّهة بندقية العشائر 202

03. الهرمل والطبيعة

من يحمي نهر العاصي؟ 214

الجرد والعاصي
والأمل الدائم بموسم سياحي جيّد 228

بلاد الأرز و... اللزّاب 238

04. الحدود

حوش السيّد علي اللبنانية
«الله يفرجها ع سوريا لننفرج» 246

القصر الحدوديّة
رأسها في لبنان وجسدها وحياتها في سوريا 254

عن سوريا «أم الفقير»
في ذاكرة الهرمل ووجدانها 260

مقدّمة

الهرمل أو في مجاهل العاصي

نزار صاغية - سعدى علّوه

"مجاهل الهرمل"، لطالما استُعمِلت هذه العبارة في أمثلة يتداولها اللبنانيّون للدّلالة على شيء مجهول بالنسبة إليهم أو بعيد عنهم. وحتّى بعض الصور التي يحفظونها أو يتلقّونها من حين إلى آخر عن هذه المنطقة، جلّها صور نمطية مؤدّاها تعميق المسافة بينها وبينهم. وبنتيجة ذلك، باتَت المنطقة بأرضها وناسها (الذين يناهز عددهم المائة ألف) تعيش على هامش خريطة الوطن رغم صغْره، مع ما يستتبع ذلك من تضييق لسبل كسب العيش ودفع الكثيرين من شبّانها إلى القيام بأعمال مخالفة للقانون. وقد تعزّز ذلك بفعل إهمال متمادٍ من الدولة في مختلف أنظمة الحكم التي عرفتها ومراحله للمنطقة. فما شهدناه في زمان الدولة العثمانية والانتداب الفرنسي، شهدناه أيضاً إلى درجة كبيرة في دولة ما بعد الاستقلال كما في دولة ما بعد الطائف. وعليه، وبدل أن تتّبع الدولة سياسة تنمويّة دامجة لأطرافها، بدَتْ وكأنّها تتكيّف مع تحويل المنطقة إلى منطقة خارجة عن القانون ومرتع لزراعة حشيشة الكيف والأفيون والتهريب، وهو الأمر الذي يُترجم في عدد المذكّرات الغيابية الصادرة بحقّ الآلاف من أبناء المنطقة الذين باتوا يشكّلون فئة وازنة من سكّانها، فئة الطفّار. وبذلك، بدَتْ الدّولة وكأنّها تدفش بذراعها اليُمنى (ذراعها الجنائيّ) منطقةً كان يُفترض أن تكون في حضنها.

انطلاقاً من ذلك، رأَتْ "المفكّرة القانونيّة" ضرورةً في إنْجاز تحقيقٍ شامل عن المنطقة في مسعى للإحاطة بها والإضاءة عليها وإدْراجها ضمن مشاغل الوطن المأزوم والذي يُفترض أن يكون في صدد البحث عن غدٍ مغاير عن أمسه. وبذلك، حاولنا من خلال هذا العدد أن نرسم بمعيّة أبناء وبنات المنطقة بطاقة تعريفية حقيقية لها تعكس حكاياتهم وقضاياهم وآمالهم وأوضاعهم من دون مواربة أو مجاملة أو مبالغة، فلا تبقى أصواتهم ضائعة على مدى ١٨٠ كيلومتراً تفصل بين أبعد نقطة في القضاء ومراكز القرار في بيروت. وقد واجه سعْيُنا صعاباً كثيرة بفعل نقْص المعطيات الموثوقة وندرة الدراسات الحديثة، وهذا مؤشّر آخر على بُعد المنطقة عن الاهتمام العامّ.

وما زاد من ضرورة قيامنا بذلك، أمران:

الأوّل، أنّ المنطقة طوّرت منذ عقود تنظيمات موازية لتنظيمات الدولة، وهي تنظيمات عشائرية ما برحت تنجح في فرض أعرافها في جغرافيّتها والفضاء العام على طول القضاء. وفي حين تتأثّر هذه التنظيمات منذ بدء التسعينيّات بتنامي العصبية الطائفية وتنامي تواجد حزبَي "الثنائي الشيعي" في المنطقة، فإنّها ما برحت تؤثّر في الآن نفسه فيهما وتضع حدوداً لنفوذهما أو هامشاً لتحرّكهما. ولهذا الواقع العشائري انعكاساتٌ اجتماعية لا تقلّ أهميّة عن انعكاساته السياسية، وهي تتمثّل في تنظيم طرق موازية وبديلة عن قوانين الدولة لضمان احترام القيم والمصالح المشروعة المتعارف عليها والأهمّ في إرساء سلّم قيم مختلف عن سلّم القيم الرسمي، سلّم قيم أكثر انسجاماً مع حاجات المنطقة تفرضه سياسات التخلّي عنها. فعلامَ تقوم هذه التّنظيمات البديلة؟ وما هي الأعراف والقيم السائدة فيها؟ وما هي الأزمات التي تعترضها؟

الثاني، أنّ اقتصاداً بديلاً نشأ في المنطقة، غالبه على هامش القانون وبخلاف صريح معه. وهذا الاقتصاد يقوم بشكل خاص على زراعة القنّب والإتجار به والتهريب عبر الحدود السورية الذي تضاعفت غنائمه في ظلّ اعتماد لبنان سياسات دعم السلع ونفاذ قانون قيصر. وقد بدا كأنّما المنطقة تعصي تماماً كالنهر الدافق الذي ينبع منها وتبيح لنفسها النشاطات الاقتصادية المخالفة للقوانين الوضعية، من باب استيفاء حقّها الضائع في التنمية.

ومن هنا، وكما بدا من الضروريّ أن يحتلّ قضاء الهرمل ما يستحقّ في اهتمامات دولة غالباً ما همّشته، بدا من الضروريّ أن نفهم جيّداً النسيج العشائري فيه كما مقوّمات اقتصاده الناشئة تمهيداً لمعالجتها وأخذها بالحسبان في سياسات الغد.

بقي ختاماً أن نأمل استكمال هذا التحقيق بتحقيقيْن آخريْن عن جارتيْ الهرمل المتروكتيْن والمهمّشتيْن مثلها: عكّار والضنّية، لقناعة منّا أنّه ليس بإمكان لبنان التوازن خارج هذه السيبة الجغرافية التي تحتضن نحو ربع السكان عددياً وربع مساحة البلاد جغرافياً.

بطاقة تعريف عن قضاء الهرمل

لمحة تاريخية عن المنطقة

تركت الحضارات التي تعاقبت على الهرمل وقضائها عدداً من الصروح الأثرية أبرزها: قاموع الهرمل عند مدخل المدينة، وقناة زنوبيا التي سمّيت تيمّناً بملكة تدمر التي جرّت مياه نهر العاصي إلى مملكتها، ولوحة نبوخذ نصّر (الثاني) في صريفا في وادي الشربين، ودير مار مارون وقصر البنات على نهر العاصي.

وفي حين شكّلت الهرمل في الحقبة العثمانية جزءاً من ولاية الشام، كانت محلّ صراع ثلاثي قام بين العثمانيين وإمارة الحرافشة (١٥٢٠-١٨٦٦) وإمارة فخرالدين الثاني، حيث كان الأخيران (الحرافشة وفخرالدين) "مقاطعجية" عند العثمانيين"[١]، مع محاولات للتمتّع بما أمكن من استقلالية وحيّز يصغُر ويكبر وفقاً لوتيرة العلاقة مع السلطنة. ولاحقاً، تقرّر ضمّ الهرمل إلى متصرفية جبل لبنان[٢].

وفي حين باتت الهرمل جزءاً من لبنان الكبير منذ إعلانه في ظلّ الانتداب الفرنسي، انتظر سكّان الجرود إلى ما بعد الاستقلال، وتحديداً دفء العلاقة مع عهد الرئيس فؤاد شهاب ليرفعوا العلم اللبناني على جبالهم. تلك العلاقة، أسس لها شهاب عندما كان قائداً للجيش برفضه قمع عشائر الجرد الغربي مطالباً الدولة اللبنانية بمقاربتهم بالإنماء قبل الأمن.

ديمغرافيا الهرمل

تقدّر الكثافة السكانية في الهرمل بـ٦٦ شخصاً في الكيلومتر المربّع الواحد، وهي نسبة الكثافة الأقل في لبنان [٣] بعد قضاء بشري.

وفي حين لا يوجد إحصاء رسمي دقيق لسكّان القضاء، قدّر عدد من الدّراسات الحديثة[٤] عدد سكّان الهرمل بـ٣٠ ألف و٥٠٠ نسمة. ويلحظ أنّ عدد ناخبي منطقة الهرمل (مدينة وجرود وبلدات وقرى) بلغ في انتخابات ٢٠١٨، ٦٥ ألف نسمة، اقترع منهم نحو ٣٥ ألفاً في الاستحقاق عينه. وبانتظار إحصاء دقيق، يفسّر حالياً الفارق بين عدد السكّان التقديري وعدد الناخبين بأنّه عائد إلى نسب النزوح المرتفعة في القضاء التي تلامس ٤٧,٦٪[٥] وهي أعلى نسبة نزوح في لبنان وفق أرقام الإحصاء المركزي. وللمقارنة، تبلغ نسبة النزوح وطنياً ٣٢,٤٪ وهي ١٣,٦٪ في كسروان و١٠,٦٪ في المتن، و٢٤,٥٪ في عكار، وفق مسح الأحوال المعيشية والقوى العاملة لإدارة الإحصاء المركزي ٢٠١٨-٢٠١٩. ولم تحظَ جرود الهرمل بتقدير خاص بها لمعدّل النزوح منها، حيث تمّ دمجها مع كامل قضاء الهرمل، بما يغيّب نسبة نزوح أهلها المرتفعة والتي تلامس ١٠٠٪ في بعض الأحيان. وبيّنت الجولة الميدانية التي قامت بها "المفكرة" في أعالي القضاء تحوّل بعض القرى

(١) الدكتور فؤاد خليل: "الحرافشة إمارة المساومة"، دار الفارابي، سنة ١٩٩٦.
(٢) شادية علاء الدين: الإدارة العثمانية في مدينة طرابلس الشام، ١٨٤٠ - ١٩١٤، دار مكتبة الإيمان، طرابلس - لبنان، ٢٠١١.
(٣) الموقع الرسمي لبلدية الهرمل، ودراسة الإحصاء المركزي ٢٠١٨-٢٠١٩.
(٤) مسح القوى العاملة والأحوال المعيشية للأسر في لبنان (الإحصاء المركزي) للعام ٢٠١٨-٢٠١٩.
(٥) المصدر نفسه.



في شتاء الهرمل | **تصوير كامل جابر**

والمراحات والأودية إلى أطلال نتيجة نزوح أهلها عنها نهائياً بسبب الإهمال وعدم توفّر المياه والطرقات المعبّدة والمدارس وحتى الكهرباء، ومنها على سبيل المثال مزرعة الفقيه في وادي الكرم وكذلك وادي بنيت.

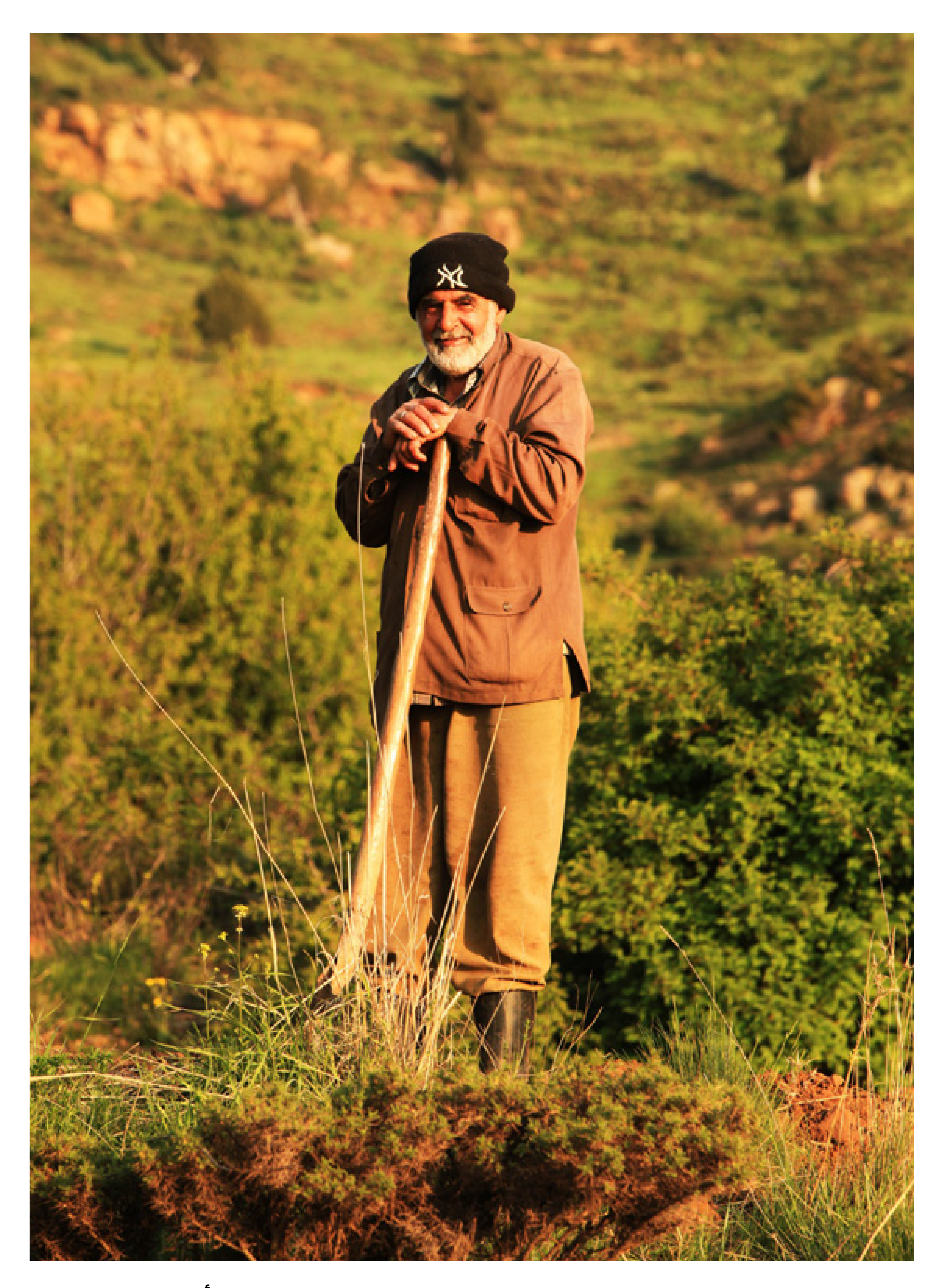
وتتميّز التركيبة السكّانية للمنطقة بحضور لافت للنسيج العشائري حيث يبلغ عديد مقترعي قرى القضاء التي تسكنها العشائر مع عدد قليل من العائلات نحو ٣٥ ألف ناخب من أصل ٦٥ ألفاً. كما ينتمي السكّان في غالبيتهم الكبرى إلى الطائفة الشيعية.

وبفعل تشكيل الأنشطة غير القانونية جزءاً مهمّاً من اقتصاد الهرمل من زراعة حشيشة الكيف وترويج المخدّرات وتجارتها والتهريب عبر الحدود وغيرها، نشأت فئة جديدة من السكان هم الطفّار أي الخارجين عن القانون لأسباب مقبولة على سلّم قيم المنطقة. وفي حين يصعب إحصاء هؤلاء، تشير المعطيات إلى وجود أكثر من ٢٠ ألف مذكّرة توقيف وبحث وتحرّ بحق أشخاص من قضاء الهرمل.

جغرافية الهرمل:
بين القرنة السوداء ونهر العاصي

يمتدّ قضاء الهرمل على مساحة ٧٣١ كيلومتراً مربّعاً، أي ٦٫٩٪ من مساحة البلاد، ينحدر من القرنة السوداء، أعلى قمّة في لبنان (٣٠٨٠ متراً)، متمدّداً نحو السهل لينبسط على ضفاف نهر العاصي، ويكمل باتّجاه الشمال الشرقي حيث خاتمة الحدود مع سوريا. هناك تتشارك الهرمل مع سوريا أراضي عدد من القرى اللبنانية أهمّها القصر وحوش السيّد علي، وهناك نحو ٢٣ قرية سورية معظم سكّانها من الهرمل ومنطقتها منها مطربا التي سمّي المعبر الحدودي غير الرّسمي على اسمها.

وهرباً من قيظ الصيف حيث تلامس الحرارة أحياناً ٤٠ درجة مئوية في السهل، يصعد القضاء غرباً ليتّصل بقضاءي عكّار والضنّية عبر سلسلة من الجبال المكتنزة بالسنديان والبلّوط واللزّاب والشوح والأرز. هذا التنوّع في الارتفاعات من ٦٠٠ متر في وادي العاصي إلى ٢٥٠٠ متر في بعض الجبال على الحدود العكّارية ومع جبل المكمل، يفرض تنوّعاً مناخيّاً ما بين شبه الصحراوي الجاف في الهرمل وسهلها حيث لا تتعدّى الهطولات المطرية ٢٥٠ ميليمتراً في السنة، والمناخ المعتدل في الأودية (٤٠٠ إلى ٦٠٠ ميليمتر) إلى البارد والمثلج شتاء في الأعالي (١٠٠٠ ميليمتر). موقع يجعل من القضاء أحد أحواض جبل المكمل الجوفية فينفجر متدفّقاً عبر ١١ نبعاً إضافة إلى نهر العاصي، أبرزها نبع الحور في مرجحين ونبع رأس المال المصدر الأساسي لمياه الشفّة في الهرمل-المدينة، يليه ينابيع بديتا والريسي والأحد عشرية والنهرية والهوة وعين أم شرف والشواغير.



رجل هرملي في أرضه | **تصوير كامل جابر**



الهرمل من الأعلى | **تصوير كامل جابر**



جرد الهرمل وقد بدا جبل المكمل | **تصوير كامل جابر**



من الكهوف المنتشرة في وادي نهر العاصي | **تصوير كامل جابر**

قضاء الهرمل إدارياً والمراكز الرسمية

بموجب القانون ٥٢٢ الصادر بتاريخ ١٦ تموز ٢٠٠٣، بات قضاء الهرمل رسمياً قضاءً مستقلاً في محافظة بعلبك – الهرمل بعدما كان جزءاً من قضاء بعلبك. إلّا أنّ سكّانه انتظروا ١١ عاماً لتنفيذ القانون وتعيين محافظ للمنطقة (بشير خضر) في ٢ أيار ٢٠١٤. وقد تمّ تدشين سرايا الهرمل في ٢٠٠٦، ونقل إليها مركز القائمقامية الذي كان في شقّة مستأجرة وكذلك المحكمة التي هي عبارة عن قاضٍ منفرد كان يداوم سابقاً في شقة مستأجرة أيضاً.

ويتكوّن قضاء الهرمل إدارياً من تسع بلديات تضمّ ٣٣ بلدة، يتراوح حجم مجالسها بين ٢١ عضواً (الهرمل المدينة) و٩ أعضاء (مزرعة سجد). وتتوزّع هذه البلديات على جرد عشيرة جعفر (بلدية جوار الحشيش وفيسان) وجرد عشيرة ناصرالدين (الشربين ومزرعة سجد) إضافة إلى بلدية الكواخ وبلدية القصر-سهلات المي (على الحدود مع سوريا)، وبلدية الشواغير على كتف نهر العاصي. أمّا بلدية الخرايب المحسوبة على قضاء الهرمل فهي أقرب إلى بلدة العين في المنطقة الفاصلة بين الهرمل وبعلبك ولكنّها محتسبة عقارياً ضمن قضاء الهرمل. وتجتمع كلّ هذه البلديات في اتّحاد واحد هو اتّحاد بلديات الهرمل.

ويوجد في القضاء ثكنة صغيرة للجيش اللبناني موروثة من الحقبة العثمانية يسمّيها أهل المنطقة بـ"القشلة" وهي تعني الثكنة باللغة التركية، ومخفرا درك، الأوّل في الهرمل المدينة وآخر في بلدة القصر الحدودية، ومراكز للأمن العام وأمن الدولة ومخابرات الجيش. وقد اتّخذ مؤخراً قرار إنشاء غرفة للسجلّ العدلي في السرايا (لم تنفّذ بعد). والأمر نفسه بالنسبة للدائرة التربوية الخاصّة بالقضاء. ولا تتمتّع دائرتا الضمان الاجتماعي وتعاونيّة موظفي الدولة اللتين استحدثتا مؤخراً بأكثر من صلاحية استقبال الطلبات والمساعدات المرضية وإرسالها إلى مقرّيهما الرئيسيين في بيروت من دون البتّ فيها، أي أنّهما بلا صلاحيات إدارية.

خدمات عامّة

تبقى الخدمات العامّة في المنطقة في حدّها الأدنى، حيث ما برحت الهرمل تنتظر حصّتها من "الإنماء المتوازن".

ولم تتحسّن الطريق الرئيسية من زحلة نحو الهرمل، وتحديداً بين رياق ومدخل مدينة بعلبك إلّا بعد عدوان ٢٠٠٦، فيما بقيت الطريق من بعلبك إلى الهرمل على حالها من السوء وعدم الإضاءة والحفر، كما في داخل الهرمل المدينة. وتُصنّف معظم الطرقات من الهرمل إلى بلدات وقرى القضاء وجروده محفّرة وضيّقة وبعضها غير صالح إلّا للسيارات الرباعية الدفع. وثمّة طريقان آخران الأوّل يربط الهرمل بالضنّية والثاني بعكّار.

لا يوجد في القضاء شبكات للصّرف الصحي إلّا في الهرمل-المدينة ولكن تقتصر نسبة المنازل الموصولة إلى الشبكة على ٤٠٪ من عدد الوحدات السكنية فيها. وهناك مشروع لمد شبكة صرف صحّي في بلدة القصر الحدودية ولكن لم ينفّذ بعد. ويذهب الصرف الصحي في بقية القضاء إلى حفر لا يوجد رقابة فعلية عليها للحؤول دون تلويثها المياه الجوفية وتحوّلها إلى آبار مفقودة القعر.

على صعيد المؤسّسات التربوية، يوجد في الهرمل ٢٣ مدرسة رسمية يتعلّم فيها ٧٥١٤ تلميذاً وتلميذة. تتوزّع هذه المدارس على ١٤ مدرسة رسمية في قرى القضاء منها ٤ مدارس تكميلية وثانوية واحدة (في بلدة القصر الحدودية) والباقي ابتدائي، يقصدها ٢٢٨٩ تلميذاً بينهم ١٨٣ في المرحلة الثانوية. ولا يوجد في الهرمل أي خدمات جامعية.

حتى العام ٢٠٠٦، بقيت الهرمل من دون مستشفى حكومي، حيث اقتصر حضور الدولة الطبّي طوال ٦٦ عاماً بعد الاستقلال على مستشفى ريفي هو أشبه بمستوصف، بلا غرفة عمليات ولا حتى مختبرات للتحاليل الطبيّة. ووفق إدارة الإحصاء المركزي (٢٠١٨-٢٠١٩) سجّلت المنية والضنية والهرمل أدنى المستويات من حيث التغطية الصحّية بنسبة ٣٨,٩٪ للهرمل و ٣٧,٣٪ للمنية والضنية، بينما سجّلت كسروان (٧٧,٨٪) وجبيل (٩١,٩٪) أعلى نسبة، في مقابل ٥٥,٦٪ للمستوى الوطني.

في حين شملت تغطية شبكة الكهرباء معظم المجمّعات المأهولة في الهرمل (بعضها انتظر حتى ٢٠٢٠)، فإنّ المنطقة تشهد تقنيناً قاسياً يصل إلى نحو ٢٠ ساعة يومياً في ظلّ تمنّع أصحاب المولّدات عن تشغيلها بسبب أزمة المحروقات في لبنان ومع ارتفاع وتيرة تهريب المازوت إلى سوريا. أخيراً، تعاني الهرمل من عدم وصول المياه إلى نصف السكان على الأقل رغم الينابيع الـ١١ التي ذكرناها سالفاً.

الوضع الاقتصادي

توثّق دراسة الإحصاء المركزي (٢٠١٨-٢٠١٩)[٦] أنّ دخل ٥٤٪ من القوى العاملة في بعلبك الهرمل لا يزيد عن مليون و٢٠٠ ألف ليرة لبنانية، علما أنّ ٢٦٪ من بين هؤلاء يقلّ دخلهم عن ٦٥٠ ألف ليرة. وتعود هذه الأرقام إلى ما قبل الأزمة الاقتصادية التي تفجّرت في لبنان في الربع الأخير من ٢٠١٩، وأدّت إلى خسارة نحو ٦٠٪ من اللبنانيين وظائفهم وأشغالهم، معطوفة على أزمة كورونا التي فاقمت الأوضاع.

يقوم جزء هام من اقتصاد المنطقة على النشاطات غير الشرعية، وبخاصة التهريب غير الشرعي وزراعة حشيشة الكيف والإتّجار بها والكسارات والمقالع. وفي إثر فشل القوى السياسية الممثلة في مجلس النواب في التوصّل إلى تسوية لإقرار قانون عفو عام، حاولت القوى السياسية "تبييض" صفحتها تجاه حرمان بعلبك

(٦) المسح الشامل للقوى العاملة والأوضاع المعيشية للأسر في لبنان ٢٠١٨-٢٠١٩.

الهرمل فأقرّت قانون تشريع زراعة القنّب في نيسان ٢٠٢٠ من دون دراسة الجدوى الاقتصادية للقانون ومردود الزراعة على المزارعين أهل الأرض، ولم يوضع القانون قيّد التنفيذ حتى اليوم. وإلى جانب هذه الأنشطة غير الشرعية التي يصعب رصدها أو معرفة حجمها، تشير خلاصات المسح الاجتماعي السريع لمجلس الإنماء والإعمار ما بين ٢٠٠٢ و٢٠٠٨ للمنطقة، بأنّ الزراعة والرعي يشكّلان المصدر الأساسي للدخل. وتشير دراسة لمنظمة الغذاء العالمي "فاو" في ١٩٩٦ إلى أنّ مساحة الأراضي القابلة للزراعة تبلغ ٥٦٥٣٥ هكتاراً لم يكن يُزرع منها فعلياً سوى ١١١٩٤ هكتاراً، أي ما نسبته ٢٠٪ منها. ويومها خلُصت "فاو" إلى وجود حاجة وإمكانات لزيادة المساحات الزراعية والمراعي.

وإلى جانب هذه النشاطات التقليدية، نشهد تنامي نشاطات اقتصادية كمزارع الأسماك التي نشطت ابتداء من من التسعينيّات والسياحة البيئية التي نشطت ابتداءً من ٢٠٠٠ وتعاني مذّاك من تردّي الوضع الأمني وبخاصّة بعد الحرب السورية. في المقابل، لا يوجد مصنع واحد في كلّ قضاء الهرمل يشغّل أكثر من ٤ أشخاص.

ومن مصادر الدخل الأخرى، الرواتب والتعويضات التي يسدّدها حزب الله لعدد من المتفرّغين في صفوفه أو كمّ من العائلات وبخاصّة عائلات شهدائه. وتتمتّع هذه الفئة من أبناء القضاء باستقرار مالي واقتصادي تعزّز مع انهيار الليرة حيث يتلقّون رواتبهم بالدولار، أو الورقة



الخضراء، كما يشيرون إليه. ولم يعد سراً الكلام عن رخاء يتمتّع به هؤلاء، مع من يمارسون التجارة الحدودية أيضاً، في ظلّ الأزمة التي تخنق بقية أبناء المنطقة.



جرد الهرمل شتاءً | **تصوير كامل جابر**

01



الهرمل المدينة

عاصمة قضاء أم قرية فقيرة؟

الهرمل البعيدة عن عين الوطن وقلبه

سعدى علّوه

قبل ٢٣ عاماً أقمت حفل زفافي على ضفاف نهر العاصي ودعوت إليه أصدقائي من بيروت بعضهم لم يسبق أن زار الهرمل. بدأت الاتصالات تنهال عليّ بدءاً من الساعة ١٢ ظهراً: «وصلنا ع منطقة ما فيها حدا، وين هيدي الهرمل؟ لوين آخدتينا؟». وكان معهم كلّ الحق حيث أنّ هرملنا تقع في أقاصي البلاد جغرافياً وإنمائياً.

عندما تدخل الحيّز الجغرافي لبعلبك الهرمل تتغيّر الطبيعة الجغرافية والمناخية شيئاً فشيئاً. فالمنطقة المفتوحة على البادية السورية تكتسب مناخاً شبه صحراوي، فتنبسط الأرض على جانبي الطريق ذهبية جافّة، فيما تلتحف بعض القرى سفح السلسلة الغربية وكأنّها تتلطّى طمعاً ببعض الاخضرار ومياه الينابيع. فراغ أغبر تكسره منازل البلدات المتشكّلة حول الطريق متّصلة بعضها ببعض في معظم الأحيان إلى أن تصل إلى منعطف بلدة رأس بعلبك. من هناك تلوح الهرمل ولكنها تبقى بعيداً ١٨ كيلومتراً، بقعة سكنيّة يكسر إسمنتها بعض اخضرار نجا من تمدّد عمراني شرس أكل بساتينها التي طالما اشتهرت بها.

من بعيد، تبدو الهرمل نائية وحيدة. ولكنّ الهرمل ليست فقط تربة ومناخاً وصخوراً ونهراً غزيراً عاصياً، و١١ نبعاً يتدفّق في أرجائها. والهرمل ليست فقط عاصمة قضاء، ولا مدينة مفتوحة على سوريا وأهلها، ولا تلك المدينة التي تتركّز في سفح سلسلة جبال لبنان الغربية حيث تضمّ جرود البقاع الشمالي مع بعض عشائره. الهرمل هي كلّ هذا معطوفاً على مئة ألف مواطن تُركوا هناك بعيداً عن عين الوطن وقلبه، لينزح ٥٠٪ على الأقل من بينهم، وفق إدارة الإحصاء المركزي ٢٠١٨-٢٠١٩. فالبُعد يصعّب مشوارهم في الحياة من صرخة الطفل منهم عند الولادة، مروراً بخطواته الأولى نحو مدارسها المتعثّر بعضها، إلى الجامعة التي تبعد ١٥٠ كيلومتراً، وصولاً إلى الحق في خدمة صحية جيدة وفي أمن لا ينفصل عن التنمية، وبدورها لا تنفصل عنه.

مدينة الشهداء

بعد رأس بعلبك بنحو كيلومترين يتركّز حاجز للجيش اللبناني عند نقطة «المحطّة» - نسبة إلى محطة القطار القديمة التي ما زال مبناها قائماً - فيما تواطأ اللواء الراحل غازي كنعان في عزّ سطوة السوريين في لبنان مع أحد نافذي المنطقة لفك «سكّة التران» وبيعها. هناك عُلّقت لافتتان الأولى تشير إلى الطريق الدولية نحو القاع وسوريا، والثانية ترشد القادمين للانعطاف يساراً نحو الهرمل. القاع، جارة الهرمل وأقرب

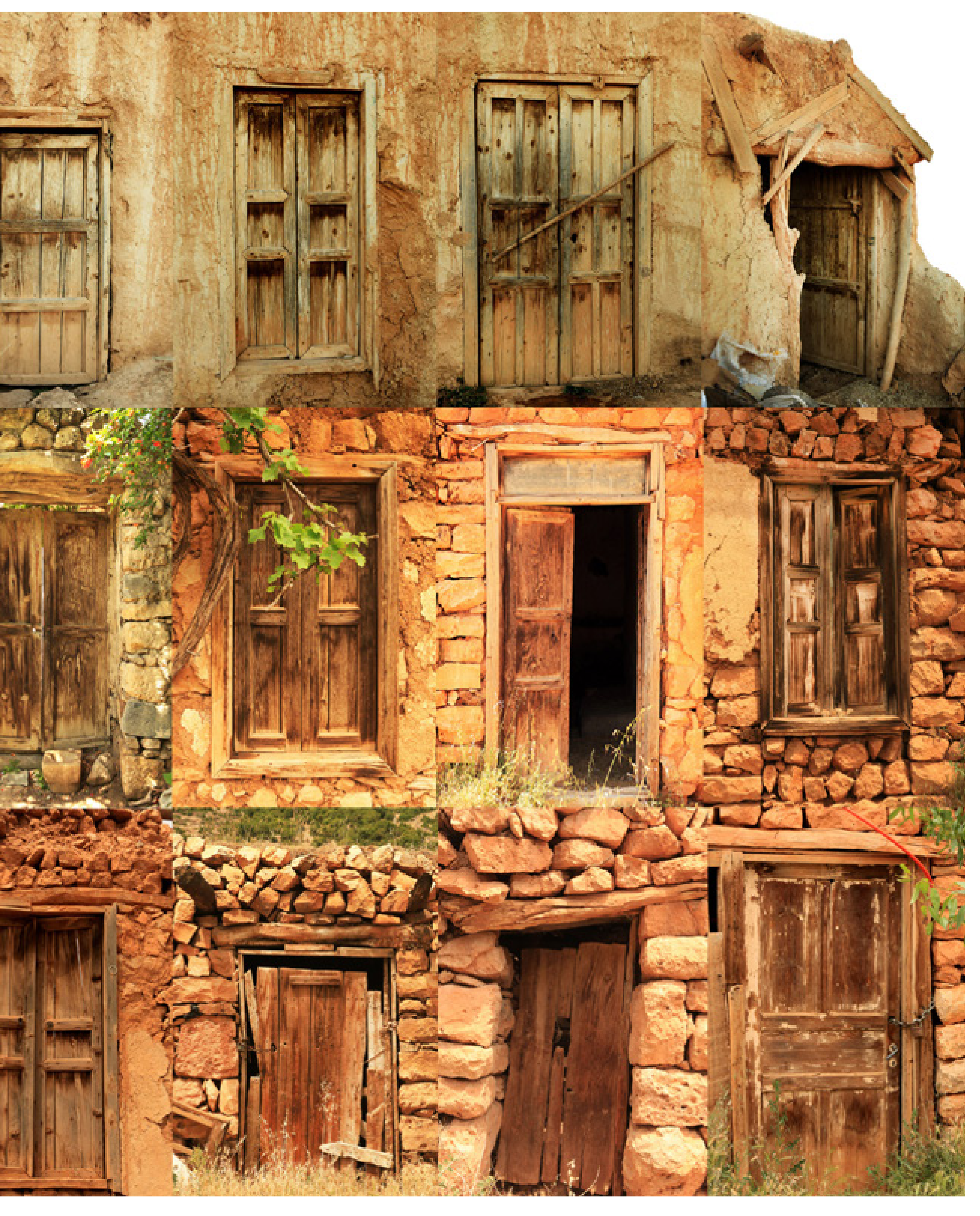
القـرى القابعـة في سـفح السلسـلة الشرقيـة عـلى الحـدود مـع سـوريا إليهـا (حـوالي ٧ كيلومـترات) هـي أقـرب إلى الهرمـل بنحـو ٥٥ كيلومـتراً منهـا إلى بعلبـك، ومـع ذلـك أتبعتهـا الحسـابات الانتخابيـة الطائفيـة مـع رأس بعلبـك والفاكهـة والجديـدة إلى قضاء بعلبـك، ليُحتسـب سـكانها مـن الطائفـة المسـيحية قـوّة مؤثّـرة مـع ناخبـي ديـر الأحـمر وعيناتـا وشـليفا والمقـدم وغيرهـا مـن قـرى قضاء بعلبـك، فيُمنحـوا نائبـين ولا يضيعـوا في الغالبيـة الشـيعية في قضـاء الهرمـل.

مـع الانعطـاف نحـو الهرمـل، تـرسم لوحـات الإضـاءة الشمسـية المعلّقـة عـلى العواميـد شـكلاً هندسياً يشبه رفّ الطيـور الكبـيرة فـاردة أجنحتهـا مـع كل مـوسم هجـرة. للأسـف، لم يبـقَ مـن مـشروع إضـاءة مدخـل الهرمـل الموحـش للقادمـين الغربـاء، وخصوصـاً ليـلاً، سـوى الأعمـدة المطفـأة ولوحـات تخزيـن الطاقـة الشمسـية لتحويلهـا إلى كهربـاء. قبـل نحـو عـشر سـنوات أشـاع القيّمـون عـلى المـشروع الـذي نُفّـذ في عهـد وزيـر الأشـغال الأسـبق غـازي العريـضي، أنّ مصابيـح الأعمـدة (أي اللمبـات) قـد سرقـت ولـذا لم يعـد بالإمـكان إنـارة مدخـل الهرمـل برغـم مئـات آلاف الـدولارات الـتي دفعـت عـلى المـشروع. المهنـدس بومديـن السـاحلي الـذي دأب عـلى مراقبـة مشـاريع المنطقـة ضمـن لجنـة مـن المهندسـين المهتّمـين بإنمـاء القضـاء وعاصمتـه الهرمـل، يؤكّـد أن فسـاداً اعـترى صرف المـال وأدّى إلى خلـل تقـني عطّـل الإضـاءة وليـس صحيحـاً أنّ السـبب هـو السرقـة: «بـس لأنّـه النـاس بتصـدّق أنـه في سرقـات فـوق فاستسـهلوا رمـي المسـؤولية عـلى النـاس». هـذا لا ينفـي أنّ بعـض البطاريـات والمصابيـح اختفـت عندمـا لم يعـد هنـاك جـدوى للأعمـدة الجميلـة سـوى أن تؤنـس المدخـل الـذي ينسـاب وحيـداً نحـو وادي العـاصي عابـراً عـلى كتـف نبعـه الأول عـين الزرقـا.

مـن مدخـل الهرمـل تسـتقبل القادمـين إلى المدينـة بعـض الشـجيرات وأحـواض الـورد المعتـنى بهـا، وهـو مـشروع تفتخـر بـه بلديـة الهرمـل أشـد افتخـار، كـون المدخـل بقـي صحـراء قاحلـة إلى أن نفّـذت تشـجيره قبـل نحـو ١٥ سـنة. وفعـلاً نجـح في كـسر التصحّـر المترامـي الأطـراف لـشرق المدينـة.

عنـد مدخـل القامـوع، وهـو مـن الآثـار الشـهيرة في الهرمـل، يرتفـع قـوس نـصر نفّـذه اتحـاد بلديـات القضـاء ويرأسـه عـادة رئيـس بلديـة الهرمـل. يتحـدّث بعـض المهندسـين عـن فسـاد اعـترى إنشـاء هـذا القـوس، عـدا عـن أنّ كـثراً يـرون أنّ المـال الـذي خُصّـص لـه كان يمكـن اسـتثماره في أمـور تشـكّل أولويـة لمنطقـة محرومـة كمـا الهرمـل. يتحـدّث أهـل المدينـة أنّـه جـرى تلـزيم القـوس بـ٥١ مليـون لـيرة في المرّة الأولى، لكـن مـا لبثـوا أن ألغـوا المناقصـة ولزّمـوه بـ٩٥ مليـون لـيرة، ثم اكتشـفوا أنّ أعمـدة الدعـم لا تكفـي لحملـه فخصّصـوا ٥٠ مليـون لـيرة إضافيـة لتدعيمهـا.

تحـت القامـوع تبـدو إحـدى البحـيرات الزراعيـة الـتي كان القصـد مـن إنشـائها تجميـع ميـاه الشـتاء لاسـتخدامها في الـري شـاهدة عـلى هـدر الأمـوال عـلى شـحّها. البحـيرة فارغـة فيمـا تخربـت منشـآتها



الأبواب القديمة لبيوت الحجر والطين في الهرمل | **تصوير كامل جابر**



في دليل حسّي على مشاريع التنفيعات التي انتشرت في أعوام سابقة عبر برك مائية زراعية مماثلة سواء في السهل أم في الجرد.

بعد قوس النصر بنحو مئة متر، تدلّ اللوحة إلى جانب الطريق قرب مستشفى الهرمل الحكومي الذي افتتح في ٢٠٠٦ وأدى اختلاف الثنائي الشيعي الذي يمثل المدينة (حزب الله وحركة أمل)، على تحاصص مجلس الإدارة رئيساً وأعضاء، إلى تأخير وضعه في خدمة الناس ٦ سنوات. ٦٣ عاماً من حرمان الهرمل وقضائها من مستشفى حكومي بعد الاستقلال لم يشكّل حافزاً للقوى السياسية للتعالي عن المصالح الضيقة لصالح المواطنين.

من المستشفى الحكومي نزولاً نحو وادي العاصي يستقبلك حاجز ثان للجيش اللبناني هو نفسه الذي استهدفه أحد التفجيرات الثلاث التي هزّت بالهرمل إبان تواجد مسلحي تنظيمي داعش والنصرة في جرود عرسال ورأس بعلبك والقاع والقلمون السوري. هناك استشهد الملازم الأول الياس الخوري، ابن بلدة الفاكهة ومعه الجندي حمزة الفيتروني من الهرمل اللذين نقل أنّهما تمسكا بالسيارة المفخخة التي كانت تقصد الهرمل فاضطر سائقها إلى تفجيرها بهما، فافتديا المدينة وأهلها. وبرغم مطالبة العديد من أبناء المدينة بتسمية الشارع باسمهما وفاء لتضحيتهما، لم تستجِبْ بلدية الهرمل حتى الآن لذلك.

بعد جسر العاصي بأمتار تظهر تباعاً صور شهداء حزب الله الذين سقطوا مع المقاومة جنوباً على الحدود مع فلسطين المحتلة. عدد الصور يفوق عديد الأشجار ليمنح الهرمل لقبها «مدينة الشهداء». مدينة الشهداء الذين سقطوا أيضاً خلال الحرب الأهلية وفي صفوف المقاومة الوطنية في الجنوب والبقاع الغربي وخلال اجتياح ١٩٨٢ في بيروت.

عاصمة قضاء أشبه بقرية

برغم نسبة النزوح العالية التي تجعل الهرمل تنزف أبناءها نحو أحزمة البؤس في العاصمة والضاحية بنسبة تقارب ٥٠٪ كمدينة وليس كقضاء، إلاّ أنّ التطور العمراني الذي شهدته في السنوات الثلاثين الماضية كبير. بناء غير منظّم، أنشئ معظمه بلا ترخيص بنسبة تلامس ٩٧٪ وفق معطيات إدارة الإحصاء المركزي. تكاد منازل الهرمل أن تصل إلى العاصي من مدخلها حيث تضاءلت المسافة بينهما إلى نحو مائتي متر بعدما كانت سابقاً لا تقلّ عن كيلومتر ونصف الكيلومتر. اتصلت المدينة بالمناطق المجاورة لها سواء من الشرق بقرية الشواغير المتركّزة على كتف العاصي، وكذلك بقرى المنصورة والبويضة والقصر على الحدود السورية شمالاً. فيما صعدت أحياؤها في الدورة والمُرحَين الشمالي والجنوبي لتلامس مداخل الأودية لناحية الجرود. أما جنوباً فقد توسّعت باتجاه وادي الكرم مشكّلة حي رأس المال الذي حمل اسم النبع الرئيسي الذي يغذّيها بمياه الشفة وأهم ينابيعها الـ١١ بعد ينابيع العاصي.

أعلنـت الدولـة اللبنانيـة بعلبـك الهرمـل محافظـة مستقلّة عـن البقـاع بموجـب القانـون ٥٢٢ في ١٦ تموز ٢٠٠٣. واسـتبشر الهرمليـون خـيراً بإعـلان مدينتهـم عاصمـة للقضـاء الـذي يحمـل اسمهـا، بمـا يسـتلزم ذلـك مـن إنشـاء دوائـر خدماتيـة أساسـية بعـد أن كانـوا يسـافرون إلى زحلـة مسـافة ٩٠ كيلومـتراً لإنجاز أوراقهـم في نـواح عـدة، بخاصّة وأنّ القضاء يضـم ٣٣ بلـدة يسـكنها مـع الهرمـل نحـو ١٠٠ ألـف مواطـن. إلّا أنّ الدولـة انتظرت ١١ عاماً حتى تباشر تنفيـذ القانـون، فعيّنـت محافظاً لها (بشير خضر) في ٢ أيـار ٢٠١٤، بعـد أن تمّ تدشـين سرايـا الهرمـل في ٢٠٠٦. وفي حـين أنـشئ قلـم لقـاضٍ منفـرد في الهرمـل منـذ السـتينيّات تمّ نقلـه لاحقـاً مـن شـقة مسـتأجرة إلى السرايـا الحكوميـة بعـد تدشـينها، إلّا أنّ أحـداً مـن أهـل الهرمـل لم يـرَ القـاضي المعـيّن فيهـا منـذ مـا قبـل كورونـا. ويؤكـد نائـب رئيـس بلديـة الهرمـل عصـام بليبـل أنّ البلديـة رفعـت كتابـاً إلى وزارة العـدل تبلغهـا فيـه بعـدم حضـور القـاضي إلى محكمتـه في الهرمـل ولكـن «مـن دون أي نتيجـة، يعـني مـا صـار شي بنـاء عـلى كتبنـا»، بحسـب بليبـل. ولـذا تُختـصر محكمـة الهرمـل اليـوم بكومـة مـن المسـتندات والملفـات الـتي لا يلمسـها أحـد «حـتى أوقـات بيسـألوا القـاضي إذا بينزّلـوا لـه الملفـات ع بـيروت فبقلّهـم مشـغول»، وفـق مـا يؤكـد أحـد محامـي الهرمـل.

تمّ مؤخراً إقرار غرفة للسجل العدلي في السرايا ولكن اختـلاف الثنـائي الشـيعي عـلى التوظيفـات داخلهـا أجّل تنفيذهـا. وعليـه، مـا زال أهـل الهرمل والقضاء يقصدون بعلبـك للحصول عـلى سجل عـدلي.

وكذلـك حصـل مـع استحداث دائـرة تربويـة خاصـة بالقضاء لتسهيل إنجاز المعاملات التربوية للتلامذة والمدارس الـتي تحصـل في بعلبـك. وبرغـم اللافتـات الـتي رفعـت في الهرمـل شـاكرة فلانـاً وعلّانـاً وهـذا الحـزب وذاك عـلى استحداث الدائـرة التربويـة الـتي لم توضـع قيـد التشـغيل، حالـت الحسـابات الحزبيـة هـي الأخـرى دون قيامهـا فعليـاً. أمـا اسـتحداث دائـرة للضمـان ودائـرة لتعاونيـة موظفـي الدولـة فقـد اقتـصر دورهمـا عـلى اسـتقبال الطلبـات مـن دون البـتّ بهـا، أي أنهمـا بـلا صلاحيـات إداريـة. ولـذا عـلى المواطنـين والموظفـين أن ينتظـروا إرسـال البريـد إلى بعلبـك وعودتـه لتسـيير أمورهـم.

مدينة مختلطة
أم كانتونات عائلات وعشائر

تـكاد الهرمـل أن تكـون المدينـة الوحيـدة في لبنـان الـتي تضـمّ سـجلات قيودهـا لبنانيـين يعيشـون في بلـد آخـر ليـس بسـبب نزوحهـم أو اغترابهـم إليـه، بـل لأن سـايكس- بيكـو، الاتفاقيـة الـتي فصلـت لبنـان وسـوريا إلى دولتـين، قطعـت أجـزاءً مـن قضـاء الهرمـل وألحقتهـا بسـوريا، فصـارت قـرى لبنانيـة داخـل الحـدود السـورية، لا يقـلّ عديدهـا عـن نحـو ١٥ بلـدة ينتخـب أهلها في الهرمـل المدينـة، وفي قضائهـا وخصوصـاً في القـصر وحـوش السـيد عـلي والشـواغير.

وللهرمـل مـيزة ترتبـط بنسـيجها العشـائري حيـث تتركّـز العشـائر تاريخيـاً في الجـرود الـتي لا يشـاركها

أحد في ملكيّتها، اللّهم إلّا بعض العائلات الصغيرة التي لا تغيّر في موازين القوى المسيطرة على كل منطقة. وتتخذ كّل منها جرداً يسمّى باسمها «جرد آل علوه»، «جرد آل ناصر الدين» إلخ.. وحين نزلت العشائر من سلسلة جبال لبنان الغربية قبل نحو ستين عاماً ونيّف، لم تتوزّع بشكل كبير داخل المدينة وإنّما اتخذت لنفسها مناطق خاصّة باتت بمثابة امتداد جغرافي لمناطق نفوذها، حيث لا يشاركها أحد في السيطرة على طرقاتها التي تربط جرد كلٍّ منها بمنطقة تمركزها في المدينة. ومع أنّنا نجد ناخبين من عشائر السلسلة الغربية كآل ناصرالدين ودندش وعلوه وآل جعفر (ولو بنسبة أقل) في الهرمل الإدارية نفسها، وتحديداً في أحيائها الرئيسية: الحارة والوقف وبديتا، حيث يقارب عددهم ثلث الناخبين البالغين نحو ٣٠ ألف ناخب في المدينة نفسها. إلّا أنّ تموضع هذه العشائر الأساسي كمقترعين وملاك أراضٍ، يبقى في أقلام اقتراع الأودية التي كانت تعجّ بهم كسكّان قبل أن ينزحوا إلى المدينة.

وبالإضافة إلى العائلات المتحدّرة من العشائر، نجد عائلات الهرمل، وخصوصاً الأساسية منها والتي تفوق العائلات الصغيرة عدداً، تتوزع الأحياء بصبغة عامة لهذا الحي أو ذاك، ففي حي الحارة وامتداداً نحو ساحة السبيل مثلاً تتمركز عائلات طه والساحلي وصقر (تمتد الأخيرة نحو حي المُرح)، ونجد ثقل عائلتي محفوظ وشاهين في حي الضيعة والبيادر. ولكن هذه الحال شهدت اختراقات توسّعت مع الوقت وخصوصاً مع تمدّد الهرمل وإنباتها أحياء مستجدّة مختلطة سكنتها الأجيال الجديدة التي كانت تحتاج للبناء بعيداً عن بيت العائلة الأم. وبقي سكن العشائر حتى في الأحياء المختلطة محكوماً بقرب الأخيرة من كانتون هذه العشيرة أو تلك. ففي حال كان الحي المختلط قريباً من منطقة نفوذ عشيرة ما، فإنّ أبناءها يسكنون فيه مع عائلات الهرمل من غير العشائر، فيما أنّ أبناء العشائر الأخرى يتجنّبونه بشكل عام مع بعض الاستثناءات القليلة لأشخاص يغرّدون خارج سرب المفاهيم التي تحكم موازين القوى بين العشائر.

المدينة ومساحاتها المشتركة

ليست التركيبة السكنية والديموغرافية الموزّعة حسب العشائر والعائلات التي تحكم الهرمل وحدها التي غيّبت مساحات التلاقي في المدينة فقط. فالهرمل البلدة نمت وتطوّرت لتصير مدينة من دون أي تنظيم مدني ولا حتى تراخيص لإنشاء نحو ٩٧٪ من بيوتها، وهي تخلو اليوم من الحدائق العامة التي يمكن أن تشكل متنفساً لقاطنيها، فكانت أزقة الأحياء مثلا هي ملاعب أطفالها، إضافة إلى بعض العقارات غير المبنية التي تتحول إلى ملاعب ترابية لكرة القدم.

وللهرمل ساحتها الرئيسية، هي ساحة السبيل وفيها سوقها الرئيسي الذي يمتد شمالاً حتى آخر منطقة الدورة. وفيها أيضاً موقف للحافلات عبر السنين، وكانت شاهدة منذ القدم ولغاية اليوم على مغادرة أبناء المدينة نحو العاصمة



حيّ الضيعة كما بدا من تلّة مقابلة | **تصوير كامل جابر**

وعلى النزوح الكثيف من المنطقة. وتخلو الساحة من المقاهي، ويقتصر وجود المطاعم فيها على مطعم فول لا يتسع لأكثر من ثلاث طاولات كحد أقصى ومحلات سندويشات. قبل سنوات، افتتح مطعم فول آخر أكبر بقليل من الأول، فيما صمد مقهى يتم مخصص للرجال للعب ورق الشدة. وفي آخر شارع ساحة السبيل، وتحديداً في بداية منطقة السرايا الحكومية افتتح مقهى لشخص من عشيرة علوه، شكّل ملتقى متواضعاً لجزء من شبان وشابات المدينة. وتعرّض هذا المقهى في أوائل نيسان ٢٠٢١ خلال إشكال عشائري لإطلاق نار أصاب قارورة الغاز داخله ممّا أدى إلى انفجارها واحتراقه بالكامل.

ولكن ساحة السبيل التي بقيت ساحة الهرمل الوحيدة لسنوات طويلة قبل أن تنشأ مؤخراً ساحة السرايا الجديدة التي اتّخذ منها ناشطو حراك الهرمل أثناء ثورة ١٧ تشرين مركزاً لاعتصامهم. لم تكن يوماً مكاناً آمناً كمساحة مشتركة بسبب المشاكل ذات الطابع العشائري التي غالباً ما تكون مسرحها. وكثيرة هي جرائم القتل سواء العمد أو العشوائي التي حصلت فيها، عدا عن إطلاق النار، والقذائف مؤخراً في خلال تشييع أبناء العشائر وخصوصاً الوجهاء من بينهم.

ويوجد في الهرمل تاريخياً مساحة خضراء واحدة هي منشيّة الوقف التي كانت مقصد أبناء الهرمل قبل الثمانينيّات حين كانت ملكاً بلدياً قبل أن «يضمّنها» المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى لأحد أبناء عشائر المنطقة، لمدة ٩٩ عاماً، ففقدت وظيفتها الأساس فعلياً. ومؤخّراً، رفعت بلدية الهرمل دعوى قضائية لدى قضاء العجلة كونها مالكة أرض الوقف لاستعادتها ولكنّها تعجز لغاية اليوم عن ذلك، وهي تحاول حل الموضوع «حبّياً». وفي أواخر ٢٠١٩ حصل تطوّر إيجابي في قضية منشية الوقف حيث قامت جمعية أجنبية بالتعاون مع اليونيسف وفي إطار دعم المجتمع المضيف للنازحين، بتركيب ألعاب للأطفال فيها وتحويل «مرجتها» إلى ملعب لكرة القدم مع تركيز ثلاث طاولات لل»بيك نيك». ولكن حتى اليوم، وربما بسبب كورونا، لا نجد إقبالاً من أبناء المدينة عليها، وما زال ضامنها من آل عوّاد يسكن فيها ويفتح دكاناً يبيع فيه مشروبات غازية وعصائر وبعض «النقرشات» للرواد في حال أتوا.

ورغم وقوع الهرمل على ضفاف العاصي وإن فصلتها عنه نحو ٣ كيلومترات كحد أقصى، إلّا أنّ العلاقة مع النهر لم تتحوّل إلى ملتقى جماعي إلّا في الأفراح التي درج تنظيمها في مطاعم العاصي في العشرين سنة الأخيرة. فالعلاقة مع النهر ما زالت فردية وعائلية، والأهم أنّ النهر ليس سوى مقصداً لتناول الطعام في مرافقه السياحية، والاختلاط مع من يقصده من خارج الهرمل.

وقد حاولت جمعيات ولجان أهلية تحريك الركود في الأنشطة الثقافية والأدبية والفنية ومعها الاجتماعية في المدينة، وهي محاولات نشطت

في فترة زمنية محدّدة لتنطفئ أو تخمد بعدها. ففي أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، تجمّع عدد من ناشطي الهرمل من مستقلّين وفاعلين في أحزاب تقدّمية ليشكلوا لجنة أهلية لإنماء المدينة وتمكّنوا من إنشاء مبنى لمركز ثقافي يحتوي على مكتبة عامّة. ولكن المبنى بقي بلا مكتبة مجهزة، واقتصر دوره على مع بعض الأنشطة المحدودة كالندوات.

وعرفت الهرمل في النصف الثاني من الثمانينيات رابطة شباب الهرمل التي ضمّت في أوجها نحو ٦٠ شاباً وشابة، وفق أحد مؤسّسيها حسن شاهين. وعبر أنشطتها الثقافية، نظمت الرابطة مهرجانات شعرية أبرزها للشاعر أحمد فؤاد نجم وهو حدث لم تشهدْ مثله الهرمل من قبل، بالإضافة الى أمسيات شعرية للشعراء ممدوح عدوان وشوقي بغدادي وشوقي بزيع. وأقامت معارض رسم لكلّ من الفنانين أبي ذر الغفاري وناجي العلي. وبما أنّ الهرمل لم تعرف السينما، حدّدت الرابطة يوماً في الأسبوع لعرض أفلام سينمائية مختارة، يعقبها نقاش بين الحضور. وعرفت الهرمل للمرّة الأولى مع الرابطة تشكيل فريقي كرة طائرة للشبّان وآخر للشابات نافسا على مستوى منطقة البقاع. وقد أصدرت الرابطة نشرة فصلية للإبداع في البقاع الشمالي، نجد العدد الثاني منها في ١٩٩٢ مخصّصاً لذكرى المفكر مهدي عامل. ولكن الرابطة انتهت مع مغادرة معظم كوادرها للدراسة والعمل في الخارج أو في بيروت. في أواخر النصف الثاني من الثمانينيات أيضاً، تشكلت لجنة العمل الثقافي في الهرمل (تأسّست في ما بعد كجمعية تحمل اسم منتدى التراث والثقافة)، وتمكّنت من إنشاء مكتبة عامّة والإفادة من قاعة المسرح في المبنى الذي شيّدته اللجنة الأهلية في أوائل الثمانينيات. وعملت اللجنة، وفق إحدى مؤسّساتها زينب شمس، على جمع الكتب من منازل أهل الهرمل «كل حدا تبرع لنا من بيته بشوية كتب» مما شكل نواة لمكتبة فُتحت لعامة الناس وشكلت ملتقى لتلامذة المدارس في الهرمل خصوصا مع اعتماد المنهجية الجديدة في ١٩٩٨ وإدخال الأبحاث كجزء من العملية التربوية التطبيقية. فتحولت المكتبة العامة إلى مكان لتلاقي جميع طلاب المدارس، وقام أعضاء لجنة العمل الثقافي بكتابة نصوص مسرحية وإخراجها ليؤدّيها التلامذة، كما نظّموا دورات تقوية للمحتاجين من بينهم. وإذ استردّت بلدية الهرمل بعد ذلك المكتبة العامة من اللجنة، نجح منتدى الثقافة والتراث من الحصول على تمويل وبناء مركز مع مسرح للأنشطة ومكتبة عامة واستمر بتنظيم الأنشطة الثقافية للبنانيين واللاجئين من سوريين وعراقيين في الهرمل، ولكنه اليوم مقفل بسبب كورونا ويعاني من أزمة تمويل قد تعيق استمراره كواحة في ظل حاجة الهرمل إلى مساحات تفاعلية مشتركة.

أحياء الهرمل

حي الحارة

يعتبر حي الحارة أكبر أحياء الهرمل وأقدمها إذ ما زال يضمّ بعض المنازل الترابية والحجرية القديمة التي تدلّ على الطابع القروي الفقير الذي طبع المدينة لسنوات طويلة. ما زال الحيّ الذي يتفرّع من ساحة السبيل مكتظّاً وعبارة عن كتلة من الإسمنت حيث تتمتّع منازل قليلة بواحة صغيرة أمامها، فيما تشقّه طريق ضيّقة متعرّجة لا تتّسع لسيّارتين في معظم الأماكن. يبلغ عدد ناخبي حي الحارة نحو ١٠٢٠٠ ناخب (كانوا ٩ آلاف في ٢٠١٨)، وفق أحد مخاتيرها الستّة بسّام طه. تسكن الحي معظم العائلات الهرملية الكبيرة تتصدّرها عائلة صقر (١٣٠٠ ناخب).

يقول المختار طه إنّ الهرمل توسّعت من حي الحارة بالأساس الذي يمتدّ من محطّة وقود آل العميري على زاوية سرايا الهرمل الحكومية إلى «مهنيّة» الهرمل على الحدود مع حي المنصورة شمالاً، ويمتدّ داخل الهرمل نحو حي الضيعة على مدخل حارة عشيرة آل حمادة مقابل ضريح رئيس مجلس النواب الراحل صبري حمادة، ثم ينعطف نحو حدود حي التلّ في أطراف الهرمل لناحية بلدة الشواغير على كتف العاصي. وعليه يضمّ حي الحارة ساحة السبيل، الدورة، وجزء من المرج الشمالي، والكعيدية.

حي الوقف

يكتسب حي الوقف اسمه من الوقف، وهو المنشية أو الحديقة اليتيمة في الهرمل والتي ذكرناها أعلاه. وفيه المقبرة الأساسية للمدينة، إضافة إلى مقبرة آل حمادة الذين خصّوا وجهاءهم بأضرحة مقبّبة، وهي غير المقبرة التي تضمّ ضريح صبري حمادة ونجله الوزير الأسبق الراحل ماجد حمادة.

ويضمّ حي الوقف أيضاً جزءاً من المرج الجنوبي حيث تتركّز عشيرة آل علوه، وحيّيْ البيادر والمعالي. يقول أحد مخاتيره الخمسة زين ناصر الدين إنّه من أكثر أحياء الهرمل اختلاطاً إذ يبلغ عدد ناخبيه من العشائر (علوه، ناصر الدين وحمادة وشمص) نحو ثلث المقترعين البالغ عددهم نحو ١٢ ألف ناخب.

حي بديتا

يمتاز حي بديتا عن حيَّي الحارة والوقف كون معظم ناخبيه الـ٧٧٠٠ يسكنون خارجه، إذ لم يبق فيه سوى ٢٠٠٠ ناخب، بينما تتوزّع البقية على من نزحوا من الهرمل قبل أكثر من ٣٠ سنة، إضافة إلى من يسكنون بالأساس في قرى سوريّة. يقول أحد مخاتير حي بديتا

سليمان شمص إنّ الحرمان وقلّة فرص العمل والعلم هجّرت ناخبيه. وفي بديتا أيضاً ينتخب نحو ٢٥٠٠ شخصاً من العشائر وتحديداً شمص ودندش وعواد وعلام. وهناك ضيع قائمة بذاتها مثل الخرايب والمعيصرة ووادي العس والزيرة ينتخب أهلها في حي بديتا، بينما أملاكهم وكل حياتهم خارج الهرمل. تتركّز بديتا على أعلى تلال الهرمل ثم تتوسّع جنوباً لتضم مناطق العسري والإيرانية، ثم تتدرّج نحو الهرمل فتشمل حيي الضيعة والبيادر.



بداية سوق الضيعة القديم في الهرمل | **تصوير كامل جابر**



منزل قديم في حي آل حمادة في الضيعة | **تصوير كامل جابر**



أحد الأحياء القديمة في الهرمل | **تصوير كامل جابر**



حزب الله يسيطر على البلدية وسط تنامي الأصوات المعترضة

كما كلّ لبنان، شهدت الهرمل الانتخابات البلدية الأولى بعد الحرب في ١٩٩٨. يومها تنافست لائحتان الأولى من العائلات والأحزاب، بما فيها حركة أمل، والثانية من حزب الله فازت كاملة. في الدورات التي تلت دورة ١٩٩٨ ولغاية الانتخابات الأخيرة في ٢٠١٦، صارت اللائحة الفائزة مكوّنة في غالبيتها من حزب الله بالتحالف مع حركة أمل، إضافة إلى عضو لحزب البعث وأحياناً عضو ثان للحزب السوري القومي. وكانت هذه اللائحة تفوز بفارق أصوات كبير عن اللائحة أو اللوائح المنافسة وحتى على المرشحين المستقلين. ومن اللوائح المنافسة في انتخابات ٢٠١٦ لائحة «معاً» التي تجمّع لتشكيلها ناشطات وناشطون من الهرمل في محاولة للانتفاض على هذا الواقع، ونالت ثلث أصوات المقترعين، فيما فازت لائحة حزب الله بالثلثين.

من بين أعضاء اللائحة زينب شمس وفداء الساحلي الأولى (زينب) معلّمة مدرسة، فيما تحمل فداء إجازة في إدارة الأعمال والتسويق. سبق لزينب أن خاضت الإنتخابات البلدية لـ٣ دورات متتالية قبل تجربتها مع «معاً». كانت في كلّ مرة تضع برنامجاً انتخابياً للإنماء والعمل البلدي الشفاف والسليم وتدور على الأحياء لتخبر الناس عن أهمية التغيير وعن حقوقهم البديهية. تضحك وهي تخبر «المفكرة» عن ذلك وتقول «كانوا يقولوا لي هالحكي حلو بس مش بوقته، بدنا ننتخب لايحة الحزب والحركة لأنه بدنا نوظف أولادنا». ترى أنّ المواطن يعرف كل شيء «بس محتاج للوظيفة ولكرتونة الإعاشة وللمئة دولار أيام ما كان في دولارات».

تسأل زينب عن دور الجمعيات والأحزاب في توعية المواطن، لتجيب نفسها: «الأحزاب فسُدت لأنها ملحقة، والجمعيات مثلها تماماً».

ترى فداء بدورها أنّ الزبائنية دائمة ولا تنبت في وقت الانتخابات فقط: «غير الدين، حيث هناك متديّنون، يمسكون الناس بالمستشفيات، وبالخدمات التي هي حقوقهم، وبالجامعة اللبنانية وكأنه ليس من حق الشباب أن يدخلوا إلى الجامعة الوطنية، أو عن طريق وظيفة». تتذكر كيف اتهموها أنّها ضد المقاومة لأنّها ترشحت، لتؤكّد أنّ المنافسة في الانتخابات البلدية ليست على أساس المشروع أو البرنامج الانتخابي أو الكفاءة، بل هل أنت مع الحزب أم مستقلّة؟ وللدلالة على مستوى المحاسبة تشير إلى أنّ البعض وصل به الأمر أن طلب منها أن تتوقّف عن الخروج برفقة كلبها لأنّ البعض يعتبر الكلب نجساً، وأسماها بعض خصومها بـ»أم كلاب».

تتذكر زينب أيضاً أنّ جارتها طلبت منها أن تشطب لها أحد أسماء لائحة الحزب والحركة وتضع اسمها مكانه. هنا استنفرت إحدى مندوبات لائحة أحزاب السلطة وقالت لها «ييييه يا حاجة أنتي ما بتحبي الحسين؟». عندها قالت لها زينب «وشو خص الحسين بالانتخابات البلدية؟: غابت جارة زينب قليلاً ثم غافلت مندوبة اللائحة

المنافسة وطلبت منها أن تضع اسمها «ما بدي رد عليهم، حطّي لي إسمك». سيدة أخرى أخبرت أعضاء لائحة «معاً» أنّ مندوبة اللائحة المنافسة قالت لها «إذا بتنتخبي اللايحة المرشحة ضد الحزب بتروح حجّتك»، أي أنّ حجّتها تبطُل.

بلدية بموازنة تشغيلية

يبدأ نائب رئيس البلدية الحالية عصام بليبل جردة حساب العمل الإنمائي لبلدية الهرمل منذ ٢٠١٠، «ما لحقّنا نبلش نشتغل إلّا وبدأت الحرب السورية وشحّت الموارد». ولكن ألم تكن البلديات السابقة من خطّكم السياسي والحزبي؟ نسأله، فيعترف أنّ الحكم استمرارية «بس رح إحكي عن ولايتنا، حيث توالى قدوم النازحين السوريين ليصلوا إلى نحو ١٠ آلاف ساكن جديد في الهرمل ممّا شكّل ضغطاً على الصرف الصحي والكهرباء والمياه». وعندما نذكّره أنّ الهرمل تعاني من عدم وصول المياه إلى نصف السكّان على الأقلّ، كما أنّ ٦٠٪ من المنازل غير موصولة إلى شبكة الصرف الصحي، يقول إنّ ذلك يعود إلى التوسّع المستمر للمدينة باتجاه بديتا والعسري جنوباً، وبلدة القصر شمالاً وكذلك نحو الوديان من ناحية الغرب وبلدة الشواغير ونهر العاصي باتجاه الشرق «يعني مش عم نلحّق نلاقي تمويل لنلحّق على ٩٠٠٠ وحدة سكنية هي تعداد منازل الهرمل، مثلاً كنّا بحاجة لـ٢٠ ألف متر من الأنابيب لشبكة المياه تمّ تأمينها من مجلس الإنماء والإعمار، عادت المدينة وتوسّعت وصرنا بحاجة إلى ١٠ آلاف متر من جديد». ويضيف بليبل إلى عمل البلدية «تفريغ الجور الصحّية» للمنازل غير الموصولة إلى شبكة الصرف: «نحن بصدد إنشاء محطّة تكرير بتمويل من الاتحاد الأوروبي وستخدم ٤٠٪ من المنازل الموصولة إلى الشبكة، ولازم نعمل محطّات تكرير صغيرة في مناطق مختلفة من الهرمل». من هذه المحطّات الصغيرة، كانت البلدية تخطّط لمحطّة في وادي الجوز قبل حي الإيرانية حيث يسلّط السكان هناك مجارير منازلهم إلى ساقية نبع الإحدى عشرية التي تستعمل في ري بساتينها «بس الناس ما قبلوا وتوقف المشروع»، كما يقول. أمّا محطّة تكرير الصّرف الصحّي لحي راس المال فوق النبع الأساسي الذي يغذّي المدينة فتتعرّضت لـ»سرقة كابل الكهرباء وتتوقّف إلى حين تمديد كابل جديد»، وتستعمل مياهها للري أيضاً.

تذهب موازنة بلدية الهرمل البالغة مليارين و٧٠٠ مليون ليرة سنوياً، وفق بليبل، للتشغيل «كل يوم عنّا مصاريف بـ٤ ملايين ليرة بين أجرة عمّال ومحروقات وصيانة». ومع ذلك وصل البلدية من مستحقّاتها ٨٠٠ مليون ليرة في «عزّ كورونا، ونصف موازنة ٢٠١٨ في شهر تموز ٢٠٢٠، فيما «لم يدفعوا لنا نصف موازنة ٢٠١٨ وموازنتَي ٢٠١٩ و٢٠٢٠ والعام الحالي ٢٠٢١».

ويردّ بليبل الظلمة التي تعمّ معظم طرقات الهرمل إلى غلاء الأسعار «من ٢٠١٠ ولغاية اليوم وضعنا ٦٠٠٠ جهاز إنارة، لكننا غير قادرين على

تغيير ما يتعطّل منها لأنّ كل مصباح يكلّف مع تجهيزاته ٥٠ دولاراً». وعندما نسأله عن مشاريع المسلخ ومعمل علف السمك اللذين أقفلا ونادي أجيال الذي يضمّ ملعباً رياضياً، يقول إنّ هذه مشاريع جرى تمويلها من منظمات دولية وليس من البلدية وإنّ إقفال المسلخ ومعمل العلف يعودان إلى أنّ معظم الجزّارين فضلوا الذبح في مسالخ خاصة وكذلك فضّل مربّو الأسماك شراء العلف من شركات تستلم منهم إنتاجهم من السمك أو تبيعهم أحشاء الدواجن الذي هو أوفر لهم. وأشار إلى أنّ هناك تمويلاً من بلديات فرنسية لاستكمال بناء نادي أجيال الذي بوشر بتشييده في ٢٠٠٢، وتوقّف يومها بسبب عدم توفّر المال.

مدينة الينابيع.. عطشى

يوجد في الهرمل ينابيع عدّة منها رأس المال، بديتا، الريسي، الإحدى عشرية، النهرية، الهوة، عين أم شرف والشواغير. يعتبر نبع رأس المال من أغزر ينابيع الهرمل، وساعد تفجّره في أعلاها في اعتماده لتغذيتها بمياه الشفة. وبرغم بدء العمل على الحقوق المكتسبة من نبع رأس المال منذ ١٩٦٥، إلاّ أنّ مياهه لا تصل إلى كامل منازل الهرمل التي يعتمد جزء كبير من أهلها على الآبار الجوفية فيما يسدّ الجزء الآخر حاجته من المياه بالصهاريج. توضح فاتن علّام التي نفذت إضراباً عن الطعام أمام بلدية الهرمل ومن ثم السرايا في ٢١ آب ٢٠١٧ احتجاجاً على الانقطاع الدائم للمياه عن معظم أحياء الهرمل ومن ضمنها حي المعالي الذي تسكنه أنّ «هناك إهمال وفساد في تنفيذ مشروع مدّ الهرمل بالمياه». وتضيف أنّ مجلس الوزراء أقرّ قبل نحو ٣ أعوام مبلغ ٧ ملايين دولار لاستكمال شبكة المياه في الهرمل أضيفت إلى ٢٠ مليون دولار سبق صرفها على مشاريع مياه أيضاً: «أين هي هذه الأموال؟»، تسأل.

يتحدّث الناشط محمد علّوه بدوره عن أكثر من ٢٠ تجمّعاً للبيوت لا تصلها مياه الهرمل «عدا عن التلوّث»، ليسأل عن المسؤول عن تلزيم وبناء ومراقبة إنشاء ٣ خزانات مياه فوق نبع رأس المال لضخّ حاجة الهرمل وسكّانها منها. وكيف تسلّمت بلدية الهرمل هذه الخزانات وهي ترشح المياه ولا تخزّنها. ويلفت إلى أنّه تمّت صيانة أحد هذه الخزانات بدفع أموال إضافية فيما تبيّن أنّ عطلاً كبيراً أصاب الخزّانين الآخرين ولذا لا يمكن إصلاحهما.

نائب رئيس بلدية الهرمل عصام بليبل يعترف خلال ردّه على استيضاح «المفكرة» عن الأمر، بالعطب الذي يعتري الخزانات ليؤكّد أنّ البلدية أصلحت أحدها، وأنّ المتعهّد هو المسؤول عن هذا الخلل. وعندما نسأله لماذا لم تراقب البلدية تنفيذ مشروع بهذه الحيوية للمدينة، يؤكّد أنّ البلدية فعلت ما بوسعها «بس المتعهّد قوي وما حدا بيقدر له».

مخاتير الهرمل: «آخ يا هرمل»

يشكو جزءٌ من مخاتير الأحياء الثلاثة تهميشهم في المدينة وخصوصاً في علاقتهم مع البلدية: «يعني إذا مش محسوب ع أحد أحزاب السلطة ما بيستشيروك بشي»، كما يقول أكثر من مختار. يرى هؤلاء أنّهم يمثلون الأحياء وأنّ المواطنين انتخبوهم ليطرحوا مشاكلهم ومطالب أحيائهم مع البلدية: «بعد الانتخابات البلدية والاختيارية بـ١٥ يوم وعدونا باجتماع شهري للتشاور والوقوف على قضايا الأحياء التي نمثّلها»، كما يقول أحد المخاتير، ليضيف: «اجتمعنا مرّة وحدة وبعدين خلص التشاور». هذا الكلام يوافق عليه أكثر من مختار، فيما يؤكّد بعضهم أنّ البلدية تتشاور في أمور الأحياء مع روابط حزب الله فيها، كون البلدية محسوبة على الحزب «يعني حزب بعضهم، بينما لا يتمّ التشاور مع المخاتير من غير المحسوبين على الحزب».

يتنهّد مختار الوقف زين ناصر الدين حين تسأله عن الإنماء في الهرمل ويختم تنهيدته بـ»آخ يا هرمل». ويضيف: «نحن الدولة اللبنانية مهمشتنا وهاملتنا وحارمتنا، كلّ مؤسّسات الدولة مسيّسة والهرمل مغيّبة». ينطلق من ٣٣ ألف ناخب اقترعوا في دورة ٢٠١٨ أي نحو ٤٠٪، ليسأل عن بقية المواطنين «الباقي ما إله رأي؟ المعتكف عن الانتخاب كمان عنده موقف». يقول إنّ الهرمليين لا يعرفون شيئاً عن حصّتهم من الإنماء، وإنّ القوى السياسية تتعامل مع الناخبين كما في كلّ المناطق «بتضحك عليهم. نوابنا بيقولوا الدولة لا تخدم الهرمل، فإمّا هم متواطئون مع الدولة، أو عليهم أن يعطوا الهرمل حصّتها من الإنماء». يقول ناصر الدين إنّ البلدية وطوال ٥ سنوات هي مدة ولايته الاختيارية «ما شاورتني بأي شيء يتعلق بحاجات الناس وأوضاعهم ومشاكلهم وكيف يمكن أن نعالجها». حتى في المساعدات، كما يقول «لا يأخذون بالأسماء التي نقترحها».

كلام ناصرالدين نفسه يردّده المختار سليمان شمص والمختار باسم طه لناحية حصّة الهرمل الإنمائية وحاجات سكان أحيائهم الثلاثة التي تتكوّن منها المدينة.

«آخ ع الهرمل»، أيضاً تخرج مع تنهيدة من فم المختار بسام طه، ليصف إنماءها بـ»التعتير، الهرمل لاحقها ظلم كبير». يرى أنّ مدينته «ضحّت وقدّمت كلّ ما طُلب منها، وفيها ناس تعلّمت، ولم تقصّر ولكن السياسيين هم الذين قصّروا معها». والهرمل «محرومة من زمان، ونحن تأمّلنا خيراً بالطبقة التي جاءت من ١٩٩٢ ولغاية اليوم والخير لم يأتِ بعد». لا نسمع، وفق طه «سوى الوعود وإن شاء لله خير، واليوم وصلنا إلى التفليس والوباء وناطرين الله يفرجها». يعتقد المختار طه أنّ كلّ المشاريع «بتتلزّق تلزيق. نحن منحكي بالفساد عَ صعيد لبنان بس الفساد له رأس وله ذنب، وما زال الفساد موجود بالروس الكبيرة يعني موجود بالدناب». يقول إنّ ما لدينا من مؤسّسات رسمية في الهرمل هي «تنفيعات أكثر ممّا هي دوائر حكومية فعّالة،



وهناك دوائر تعجّ بالموظّفين من دون أن يكون لديهم أشغال فعلية». نردّ على شكاوى المختار بتذكيره بحصول الثنائي الشيعي على غالبية أصوات الناخبين (٢٨ ألف صوت من ٣٣ ألف مقترع)، فيجيب «مزبوط، فمع كل المساوئ، في مطرح من المطارح لي كاسر لنا ضهرنا هي الدماء والشهداء والناس يلّي ضحّت، حتى لو يتمّ استثمار هذه الدماء والتضحيات في المكان الغلط وصرفها بالمكان الغلط. بس نحن بالهرمل بعدنا عم نتصرّف إنّه ما بدنا نعرّيهم ولا ننكسر أمام الأعداء».



مقابر بقبب لوجهاء من عشيرة حمادة | **تصوير كامل جابر**

طبّ الحالات الباردة في الهرمل

سعدى علّوه

يمرّ كريم في ساحة السبيل، وهي ساحة الهرمل الرسمية حتى بعد أن استحدث مبنى السرايا في القضاء ساحة جديدة إثر افتتاحها في ٢٠٠٦، برفقة والدته التي تمسك بيده وتعبر به إلى الضفة الثانية من الطريق. لا يستطيع الشاب العشريني، عبور الطريق لوحده لسبب بسيط جداً وهو أنّه ولد في الهرمل، المنطقة حيث حق أبنائها في الحياة والصحة والعلم أقل بثلاث مرات من أبناء محافظتي جبل لبنان وبيروت، بحسب دراسة لبرنامج «اليونيسيف» أجريت قبل ٣٠ عاماً.

فقبل ٢٠ عاماً، ولد كريم مصاباً بـ«الصفيرة»، وهي الاسم الشعبي لمرض اليرقان الذي يصيب حديثي الولادة، وتم معالجته بوضع الطفل في العناية الفائقة تحت الضوء ومراقبته لكي لا يُصيب اليرقان الدماغ بأيّ ضرر أو للتأكّد من عدم الاضطرار لتغيير دم الطفل. عندما ولد كريم لم يكن في الهرمل هناك غرفة عناية مركّزة خاصّة بالأطفال وحديثي الولادة. وأدّى عدم قدرة عائلته على نقله إلى خارج الهرمل إلى تضرّر دماغه وبالتالي إصابته بتأخّر ذهني. اليوم بعد عشرين سنة على ولادة كريم وحظه السيئ، كحديث ولادة غير معافى في الهرمل، وبعد ٧٨ عاماً على الاستقلال، لم تجد الجهات الرسميّة ضرورة لاستحداث غرفة عناية مركّزة بحديثي الولادة في كلّ القضاء.

٢٠٠٦ عام حصول الهرمل على مستشفى حكومي

في العام ١٩٩٦، حين لم يكن هناك مستشفى حكومي بعد في الهرمل، توفّي أحد شبّان المدينة نتيجة حادث عمل بعد أن عجزت الإمكانيات المتوفّرة عن إنقاذه. يومها وتحت ضغط الرأي العام وفضيحة موت مواطن في نهاية القرن العشرين بسبب الافتقاد للحق في الصحة، قرّرت الدولة تحويل المشفى الريفي إلى شبه مستشفى ووظفت ١٥ طبيباً خارج ٦ و٦ مكرّر كما تجري الأمور عادة. ويومها صار المركز يؤمّن معاينات لأطبّاء مختصّين من الطب النسائي إلى الرئة إلى الأعصاب والقلب وغيرهم. جهّزت منظمة الصحة العالمية المركز بغرفة عمليات لم يتمّ تشغيلها لأسباب غير معروفة، وحظيت غرفة الأشعة بالمصير نفسه وكذلك مختبر الدم. وكانت نساء الهرمل قبل هذا المركز يُعاينّ ويلدن خارج الهرمل قبل أن يعود بعض الأطباء الذين تخصّصوا بالطب النسائي إلى مسقط رأسهم في المنطقة.

يقول طبيب من عداد الذين تمّ توظيفهم في هذا المركز إنّ الطبيب النسائي كان يعاين في الشهر نحو ٤٠٠ سيدة، ممّا يبرهن الحاجة الماسة إلى خدمات مماثلة في المدينة. بعد فترة من تشغيل المركز، تعطّلت آلة التصوير بالموجات

فـوق الصوتيـة (echographie) الخاصّـة بالعيـادة النسـائية ولم يـتم إصلاحها إلّا بعـد سـنوات طويلـة وبعدمـا كانـت وزارة الصحـة قـد حوّلـت الأطبـاء الموظفين إلى أطباء مراقبين لحساب وزارة الصحّة وذلـك في إثـر افتتـاح المستشـفى الحكومـي في الهرمـل عـام ٢٠٠٦. اليـوم، مـا زال المركـز مفتوحـاً ولكنـه تحـوّل إلى مركـز للتـدرّن الرئـوي (مـرض السـل) وللترصّد الوبـائي، ومـا زال إيجـاره السـنوي ٢٥ مليـون لـيرة لبنانيـة ولا أحـد يعـرف مـاذا يعمل تحديـداً وكيـف يخـدم النـاس وصحتهـم.

وبالتـالي بقيـت الهرمـل وقضاؤهـا مـن دون مستشـفى حكومـي لغايـة العـام ٢٠٠٦ وقبـل ذلـك كان أهـل الهرمـل والأوديـة والجـرود يقصـدون بعلبـك الـتي تبعـد عنهـم مـن ٦٠ إلى ١٠٠ كيلومـتر (حسـب موقـع الجـرد مـن مدينـة الشمـس) لإجـراء فحص دم عـادي، أو صورة شعاعية. ومن المفترض أن يخـدم المستشـفى مناطـق القـاع ورأس بعلبـك والجديـدة والفاكهـة والعـين واللبـوة وصـولاً إلى عرسـال الـتي تقـع في منتصف المسافة بين الهرمـل وبعلبـك.

وحتى لـدى استكمال إنشاء المستشفى الحكومي، أدّى اختـلاف الثنـائي الشـيعي، حركـة أمـل وحـزب الله، عـلى المحاصصـة في تعيـين مجلـس إدارتـه إلى تأخـير وضعـه في خدمـة قاطـني القضـاء سـت سـنوات.

ويقـول أحـد الأطبـاء في المدينـة، ممّـن عملـوا في المستشـفى، إنّـه بسـبب التأخـير في التشـغيل أضحـت بعـض الأجهـزة الطبّيـة خـارج الخدمـة، وتـضرّرت بعـض تجهيزاتـه ومعهـا أدويـة ومحاليـل. كمـا انخسـف جـزء مـن أرضيّـات السـيراميك فيـه.

لا رنين مغناطيسي ولا ميموغرافي صالحة

اليـوم يقـدّم المستشـفى الحكومـي فحوصـات الـدم العاديـة وتصويـر الأشـعة السينية والتصويـر المقطعـي ولكنـه يفتقـر ومعـه الهرمـل وقضاؤهـا إلى تقنيـة التصويـر بالرنـين المغناطيـسي MRI و Pet Scan الخاصّـة باكتشـاف الأورام، وغيرهمـا مـن تقنيـات التصويـر المتطـوّرة. كمـا يرفـض بعـض الأطبّـاء صـورة الثـدي الشـعاعية أو مـا يعـرف بـ»الميوغـرافي» الـتي تجـرى في المستشـفى الحكومـي عـلى مـا تـروي فريـال مـا حصـل معهـا ومـع شـقيقتها بفـارق ١٠ سـنوات. قبـل ١٠ سـنوات، أجـرت فريـال «ميوغـرافي» في مستشـفى الهرمـل الحكومـي وتبـيّن وجـود ورم في ثديهـا فقصـدت طبيبـاً مختصّـاً بـالأورام في بـيروت. يومهـا، رمـى الطبيـب صـورة الـ»ميوغـرافي» الـتي جلبتهـا معهـا مـن الهرمـل في سـلّة المهمـلات وقـال لهـا إنّـه لا يوجـد مستشـفى في العـالم مـا زال يسـتخدم هـذه التقنيـة في التصويـر. قبـل شـهرين مـن اليـوم تكـرّر الأمـر نفسـه مـع شـقيقتها إذ رفـض طبيبهـا النسـائي صـورة الثـدي الـتي أجرتهـا في المستشـفى الحكومـي «كلّهـا ضبـاب مـش واضحـة أبـداً» وطلـب منهـا أن تقصـد مستشـفى آخـر لإجـراء صـورة جديـدة.
ومنـذ تعيـين مجلـس إدارة لمستشـفى الهرمـل

الحكومي في ٢٠٠٦، لم يتم تغييره رغم أنّ القانون ينصّ على تعيين مجلس إدارة جديد كل ٣ سنوات. وعلمت «المفكرة» أنّه لم يبق من أعضاء مجلس الإدارة سوى عضو واحد بينما استقال البقية من دون الإفصاح عن الأسباب حيث اكتفى كلّ من استقال بالقول «لأسباب شخصية». ويقول أحد المتابعين لملف المستشفى إنّ رئيس مجلس إدارته وهو المدير التنفيذي في الوقت عينه يحتكر كلّ القرارات ويفعل ما يشاء. ويعزو المصدر إلى المدير توظيف العديد من أفراد عائلته «مش بس لأنّهم من عشيرته، كمان لأنّهم إما من الحركة أو مناصرين لها».

الموت على الطرقات أو بانتظار سرير استشفائي

اليوم وحتى مع وجود مشفيين خاصّين في الهرمل، أحدهما لحزب الله (البتول) والثاني خاص لآل علام (مستشفى العاصي)، ما زالت الهرمل تفتقر إلى غرفة إنعاش للقلب CCU، أو لفحص القسطرة القلبية أو ما يعرف بـ«التمييل»، وحتى لأي عمل جراحي صغير في القلب طبعاً. وتروي سناء فخرالدين أنّ جارهم في الجرد محمود الحاج حسين مات بسبب عدم وجود غرفة إنعاش خاصّة بمرضى القلب: «كان محمود سهران عنّا وذهب لتناول العشاء مع أخوته وفجأة أصيب بنوبة قلبية». نقل محمود إلى مستشفى البتول وتمّ إسعافه بالمتوفّر ولكن كان يجب نقله إلى مستشفى مجهّز بغرفة عناية للقلب «ما تركوا أهله نائب أو وزير أو أي حدا وما قدروا يأمّنوا له سرير بأي مستشفى». عاش محمود ٤ ساعات منتظراً تأمين سرير خارج الهرمل ثم مات عن عمر ٣٩ سنة.

وكما محمود، نقلت سيدة من الهرمل إلى مستشفى البتول لمعاناتها من وجع في الصدر. قال طبيب الطوارئ إنّها تحتاج إلى تمييل للتأكّد ما إذا كانت تعاني من انسداد في شرايين القلب أم لا. طبعاً هذا الفحص غير متوفّر في الهرمل كونه لا يوجد غرفة عناية فائقة متخصّصة ولا غرفة عمليات للقلب. خاطرت عائلة السيدة بإبقائها في الطوارئ حتى نجح طبيب من أصدقائهم في تأمين سرير لها في مستشفى بالقرب من زحلة على حساب وزارة الصحة. «ومع هيك دفعت العائلة مبلغاً كبيراً للمستشفى من خارج حساب وزارة الصحة. قال مدير المستشفى منستقبلها ع حساب الوزارة شرط أن تدفع العائلة مبلغاً من المال للمستشفى لأنّ وزارة الصحّة ما بتدفع كتير وأوقات بتتأخّر كتير لتدفع»، بحسب ما يروي أحد الأطباء. قبل محمود، وفي كل عام تفقد الهرمل عدداً من أبنائها، وإن كان لا يوجد إحصاء دقيق لعددهم، ولكن في العام ٢٠١٨ وحده، توفي ثلاثة شبان في غضون شهرين تتراوح أعمارهم ما بين ٥٠ و٦٠ عاماً في أزمات قلبية على الأقلّ على طرقات الانتقال إلى خارج الهرمل سعياً وراء خدمة صحية إنقاذية غير متوفّرة.

نواقص إضافية

هـذا الإهمـال يطـال أطفـال الهرمـل أيضـاً حيـث لم تقبـل إدارة المستشـفى الحكومـي بافتتـاح غرفـة للعنايـة بالأطفـال حديـثي الـولادة مـن دون أي مبرّر منطقي. ورشَح أنّ مدير المستشفى الدكتور سيمون ناصرالديـن اختلـف مـع وزيـر الصحّـة حمـد حسـن حـول اسم الطبيـب الـذي سيتولّى مسؤولية الإشراف عليهـا، حيـث أنّ المديـر محسـوب عـلى حركـة أمـل وحسـن محسـوب عـلى حـزب الله. وأسـعار التحاليـل والصـور في مستشـفى الهرمـل الحكومـي تفـوق الأسـعار في مستشـفى البتـول. فعلى سبيل المثال وليس الحصر، تكلّف صورة مقطعية للرئة Scan في الهرمل الحكومي ٢٠٠ ألف ليرة، برغم أنّ الآلة جاءت المستشفى كهبة، بينما تتلقّى البتـول ٥٦ ألـف لـيرة عنهـا بعـد احتسـابها على حسـاب وزارة الصحـة و١٠٠ ألـف لـيرة مـن دون وزارة الصحـة، وهكـذا دواليـك. وهنـاك فحوصـات تغطيها الوزارة ولكن يدفع المريض ثمنها من دون أن يعـرف إذا تمّـت تغطيتهـا عـلى حسـاب الـوزارة أم لا. يقـول أحـد الأهـالي إنّـه لم يتمكّـن مـن تحمّـل كلفـة فحوصـات ابنتـه، بينمـا حـضر رجـل بسـيارة حديثة وتلقّى موظفو المختبر تعليمات من الإدارة بعـدم قبـض لـيرة واحـدة منـه عـن الفحوصـات الـتي أجراهـا. إحـدى المريضـات الـتي عانـت مـن فـيروس كورونـا، أفـادت «المفكـرة» أنهـا كادت أن تمـوت مـن الصقيـع داخـل المستشـفى الحكومـي حيـث لا يـتمّ تشـغيل التدفئـة برغـم وجـود وقـود خـاص لهـذا الغـرض. حـتى أنّهـا سمعـت الممرّضـات يتهامسـن بـأنّ الصقيـع يشـكّل بيئـة مناسـبة لانتشـار فـيروس كورونـا. وتقـول هـذه السـيدة إنّـه جـرى تشـغيل «الشـوفاج» مـرة واحـدة خـلال تواجدهـا في المستشـفى عندمـا جـاء الوزيـر لتفقّـد القسم: «شغّلوا التدفئة كـم ساعة قبل ما يجي الوزيـر وبـس فـلّ وقفوهـا».

مستشفيات الحالات الباردة

يختـصر الدكتـور أنـور علـوه، الـذي يطبّـب أهـل المدينـة منـذ نحـو ٤٠ عامـاً، الوضـع الصحّـي في الهرمـل بجملـة مفيـدة: «المستشـفيات بالهرمـل للحـالات البـاردة فقـط لا غـير، وعـلى أبنـاء المنطقـة الذهـاب مـن زحلـة ومـا بعدهـا في حـال حصـول أيـة تعقيـدات طبيـة». وفي الذهـاب نحـو بـيروت أو حـتى زحلـة تعقيـدات وعوائـق إذ أنّ «نحـو ١٥٪ مـن سـكان المدينـة فقـط يتمتعـون بتغطيـة صحّيـة مـن الضمـان أو الأجهـزة العسـكرية أو تعاونيـة موظفـي الدولـة، والبـاقي بدهـم يدبـروا حالهـم إمـا عـلى حسـاب الـوزارة أو حسـابهم الخـاص»، كمـا يؤكـد د. علـوه بنـاء عـلى خبرتـه الطويلـة في التعاطـي مـع المـرضى. أي أنّ الحصول على الخدمة الصحية الجيدة «ليس متاحـاً بسـهولة في الهرمـل ومنطقتهـا». ويشـير د. علوه إلى وجود نحو ٨ إلى ١٠ مستوصفات في الهرمل ومنهـا مركـز التـدرّن الرئـوي، ولكـن المسـتوصف في أقـصى حالاتـه يؤمّـن دوامـاً لعـدد مـن الأطبـاء بكلفـة رمزيـة. ولكـن مـاذا عـن الفحوصـات والصـور والتحاليـل؟ ومـاذا إن احتـاج المريـض لصـور أو فحوصـات لا تتوفّـر تقنياتهـا في الهرمـل؟».



يـرى الطبيـب النسـائي د. عبـد السـلام شـاهين أنّ الحـق في الصحـة بشـكل عـام مؤمّـن بنسـبة ٥٠٪ في الهرمـل «يعـني إذا شـخّصت لسـيّدة أنّهـا بحاجـة لعمليـة اسـتئصال ليفـة مـن الرحـم، يمكنـي أن أجـري لهـا العمليـة في اليـوم التـالي»، أي أنّ وزارة الصحـة غالبـاً مـا تؤمّـن التغطيـة للذيـن لا يتمتعـون بـأي تغطيـة صحيـة. ومـاذا لـو احتـاج أي طفـل ولـد عـلى يديـك، إلى عنايـة للأطفـال؟ يسـكت د. شـاهين قليـلاً ويقـول «مـا في عنايـة للأطفـال ولا لحديـثي الـولادة في الهرمـل».



مستشفى الهرمل الحكومي | **من صفحة المستشفى على فيسبوك**

الهرمل ومدارسها

أعلى مستويات للتسرّب الدراسي

سعدى علّوه

لا يقيس معلّم الثانوي المتقاعد شفيق الساحلي موقع الهرمل بالنسبة لبيروت بالمسافة التي تفصل بينهما: "١٥٠ كيلومتراً ليست شيئاً مقارنة بالمساحات الشاسعة في البلدان الكبيرة". المشكلة ليست بالمسافة حيث أنّ لبنان بلد صغير حتى وإن كانت الهرمل هي أبعد المناطق عن العاصمة. "لكن في هذه البلاد كلّما ابتعدت كيلومتراً إضافياً عن المركز تبتعد مسافات ضوئية عن الإنماء والتعليم والخدمات وكل الحقوق". وما إن أنهى شفيق جملته هذه حتى استرسل في شرح معاناته الذاتية لكسب العلم (كادر). وعندما تسأله عن الفرق بين ما كانت عليه الهرمل يومها وبين حالها اليوم، يضحك ويقول "صار في كتير مدارس صحيح، وصارت الهرمل أكبر بعشرات المرات، بس بعد في ناس ما بتقدر تكفّي علمها من الحرمان والفقر". يستشهد بقصص كثر من تلامذته بعدما أصبح مدرّساً في ثانوية الهرمل الرسمية ليقول: "كان عندي كتير تلاميذ شاطرين، ما قدروا ينزلوا ع الجامعات لا ببيروت ولا حتى بزحلة، يعني متلي أنا من خمسين سنة لمّن رجعت من بعلبك لأنّه ما معي حق مازوت مع أجرة الغرفة".

التعليم في المدارس بالأرقام

نعم وضع المدارس في الهرمل اليوم مختلف كثيراً عن الزمن الذي كان شفيق يجهد فيه لكسب العلم. فوفق وزارة التربية الوطنية، يوجد في قضاء الهرمل ٢٣ مدرسة رسمية يتعلّم فيها ٧٥١٤ تلميذاً وتلميذة. تقع ٩ منها في مدينة الهرمل الإدارية، تستقبل ٥٢٢٥ تلميذاً في كل المراحل. ومن بين هذه المدارس ثلاث ثانويات تشمل المرحلة المتوسطة (التكميلية) أيضاً، وتحتضن ١١٠٥ تلاميذ، من بينهم ٨٣٤ طالباً وطالبة في الثانوي. ويعود ارتفاع أعداد طلاب المرحلة الثانوية بالنسبة إلى المرحلة الإعدادية إلى التحاق نسبة مرتفعة من تلامذة المدارس الخاصّة بالثانويات الرسمية، لغياب التعليم الخاص في هذه المرحلة.

أما سائر المدارس الـ١٤ فتقع في قرى القضاء ويقصدها ٢٢٨٩ تلميذاً. وتضمّ مدارس القضاء ثانوية واحدة تضمّ المرحلة المتوسطة أيضاً (في بلدة القصر الحدودية) و٤ مدارس تكميلية والبقية مدارس ابتدائية. ويوجد في ثانوية القصر ١٨٣ تلميذاً بينهم ١٣٦ في المرحلة الثانوية. وعليه يوجد ٩٧٠ طالباً وطالبة في المرحلة الثانوية في كلّ قضاء الهرمل (قرى ومدينة).



إحدى قاعات التدريس في مدرسة جوار الحشيش | **تصوير حسن الساحلي**

ويوجد في الهرمل ١٣٧ أستاذاً في ملاك وزارة التربية في مقابل ٣٤١ أستاذاً رسمياً متعاقداً.

ومن الملفت عدم وجود أيّ مدرسة خاصّة في قرى قضاء الهرمل فيما نجد ١٤ مدرسة خاصّة في المدينة، بعضها مجاني ونصف مجاني وغير مجاني يقصدها ٣٨٧٣ تلميذاً وتلميذة. وهناك ترخيصان بفتح ثانويتين ضمن المدارس الخاصّة المسجّلة على لوائح وزارة التربية ولكن ليس لها وجود على أرض الواقع[1]. وهذا ما يدفع وفق شهادات مدراء الثانويات الرسمية العديد من تلاميذ المدارس الخاصّة للالتحاق بالثانويات الرسمية.

وعليه، وإذا حسبنا تلاميذ المرحلة الثانوية التي يحتكرها التعليم الرسمي في الهرمل، نصل إلى أنّ تلامذة الهرمل في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة ينقسمون على النحو الآتي: ٦٥٤٤ في التعليم الرسمي (أي ما يقارب ٦٣٪) مقابل ٣٨٧٣ في التعليم الخاص (أي ما يقارب ٣٧٪). ويلتقي هذا الرقم مع أرقام دائرة الإحصاء المركزي (٢٠١٨-٢٠١٩) التي تفيد أنّ الطلاب الذين تتراوح أعمارهم بين ٣ و ٢٤ سنة في الهرمل "أكثر عرضة للالتحاق بمؤسّسات التعليم الرسمية (٦٤,٩٪). ويرجّح أن تزيد هذه النسبة مع تفاقم الأزمة الاقتصادية.

بقي أن نشير إلى أنّ جزءاً من تلامذة الهرمل يلتحقون بمدارس في بلدات الفاكهة ورأس بعلبك والقاع، ومن بينها مدارس للراهبات.

(١) أرقام وزارة التربية عن العام ٢٠٢٠-٢٠٢١.

التسرّب الدراسي

لا يوجد دراسات توثّق نسب التسرّب المدرسي في الهرمل، لكن نجد بعض المؤشرات في مسح القوى العاملة والأحوال المعيشية للأسر في لبنان والصادر عن إدارة الإحصاء المركزي (٢٠١٨-٢٠١٩). من أهمّ هذه المؤشرات أنّ معدل القيد (التسجيل المدرسي) يبلغ في المرحلة الابتدائية ٩٢,٥٪ ولكنه ينخفض إلى ٤٦,٥٪ في المرحلة الثانوية. وتجدر الإشارة إلى أنّ معدل القيد في الهرمل كان أعلى من المعدل الوطني ٨٧,٢٪ في المرحلتين الابتدائية والتكميلية، ولكنّه أدنى في المرحلة الثانوية: ٤٦٪ في الهرمل مقابل ٥٤,٩٪ على المستوى الوطني. ويؤشر ذلك إلى أنّ معدلات التسرّب في الهرمل أعلى مما هي عليه على المستوى الوطني.

ويجد هذا المؤشّر تأكيداً لدى مجمل المسؤولين والمدراء في الثانويات في الهرمل الذين أمكننا الاستماع إليهم وطلبوا منّا عدم الكشف عن هوياتهم. ويعزو هؤلاء التسرّب إلى ثلاثة عوامل: (١) تدنّي مستوى التعليم الابتدائي و(٢) الفقر الذي يطبع حال عائلات المنطقة والذي يدفع العديد من التلاميذ لدخول سوق العمل في سنّ مبكرة (٣) أنّ الأعمال التي تدرّ مداخيل مرتفعة في المنطقة لا تتطلّب شهادات علمية مثل الأعمال غير المشروعة كالتهريب وزراعة القنّب وأيضاً التفرّغ مع الأحزاب وتحديداً حزب الله.

ويجمع هؤلاء على أنّ النسبة الكبرى من التسرّب تحصل لدى الانتقال من المدارس الابتدائية إلى المدارس التكميلية بفعل عدم قدرتهم على التكيّف معها بفعل ضعف التعليم الابتدائي. "من الواضح أنّ هناك مشكلة كبيرة في الابتدائيات الرسمية"، كما يقول أحد المدراء لـ"المفكرة"، ليؤكد أنّ نسبة التسرّب في هذه المرحلة الانتقالية من الابتدائي إلى المتوسّط "تصل إلى ٥٠٪ في بعض الأحيان". ويؤكّد المدير نفسه أنّ "غالبية تلامذة ثانويات الهرمل يأتونها من المدارس الخاصّة فيما تأتي نسبة قليلة منهم من المتوسّطات الرسمية حيث نشهد نسبة مرتفعة جداً من التسرّب".

مدارس بموارد غير كافية

يشير مدير إحدى المدارس الرسمية في حديث مع "المفكرة" (طلب عدم ذكر اسمه) إلى عطب أساسي يتعلّق باختصاصات الأساتذة: "بينقلوا لي أستاذ رياضيات مثلاً أو لغة أجنبية وبيجيبولي محلّه أستاذ أدب عربي ليعلّم رياضيات أو لغة فرنسية، طيّب كيف بدّه يعلم هيدا وبأي مستوى؟" ويؤكد أنّه من "أصل ٤٠ أستاذاً بين مثبّت ومتعاقد هناك ٥ أو ٦ بيعلموا باختصاصهم فقط". وانتقال الأساتذة هو مشكلة تعاني منها مدارس الهرمل وخصوصاً في اللغة الفرنسية. ويُجمع مدراء المدارس والثانويات على استمرار مشكلة اللغات الأجنبية في الهرمل وانخفاض مستواها بين التلامذة والطلاب، وعدم وجود خيار غير اللغة الفرنسية في كلّ التعليم الرسمي في القضاء، مع الإشارة إلى بدء إعطاء اللغة الإنكليزية



ملعب مدرسة في الوادي | **تصوير حسن الساحلي**

في المرحلة الثانوية ولكن بمستوى مبتدئ. كما يشكو مدراء الثانويات من ضعف تجهيزات المختبرات ممّا يؤثر على الأنشطة التطبيقية في مواد أساسية، وكذلك عدم منح وزارة التربية ساعات تعاقد للأساتذة للعمل في المختبرات، حتى أنّنا لا نجد محضّر مختبر (أي أستاذاً متفرّغاً للعمل التطبيقي والعملي) في أيّ من الثانويات الأربعة المتواجدة في قضاء الهرمل.

ناظر إحدى المدارس يصف واقع الحال بالقول: "مدارسنا تشبه المدارس وليست مدارس حقيقية". يفنّد توصيفه بـ"عدم وجود بناء مؤهّل، مثلاً عنّا نشّ ورطوبة وروايح عفونة بالصفّ، في بعض المدارس بنيت غرفة ورا التانية، وفي غرف مترين بتلات أمتار، معقول هيدي تكون صف لتلاميذ لازم يستوعبوا ويرتاحوا؟" يضحك ساخراً ليضيف "بتصدّق الناس إذا خبرتهم إنّه حتى مي ما عنّا بالمدرسة؟" يقول إنّه "من إيجابيات كورونا أنّ التلامذة بيقدروا يشربوا من بيوتهم ويفوتوا ع مراحيض فيها مي". أما بالنسبة إلى الهاتف الأرضي فقد تعطّل قبل ٥ سنوات و"حتى اليوم لم يستجيبوا لطلبنا بإصلاحه، في كتير مدارس ما فيها هواتف متلنا". وقد تفاقم الوضع مع التعليم أونلاين "ما في أكتر من ٣٠٪ من الطلاب عم يتابعوا الدرس عن بعد ومش كل الأساتذة مؤهلين". يقتصر الأمر، كما يقول على بعض الأساتذة الذين يرسلون تسجيلاً صوتياً أو فيديو أو صورة مع شرح صغير، وهذا لا شيء مقارنة بالمدارس الخاصّة المؤهّلة أفضل من المدارس الرسمية". يروي عن والد أحد التلاميذ الذي جاءه

شاكياً "عندي تلفون واحد وخمسة تلاميذ، مين بنقّي منهم ليتعلّم؟ وشو بعمل بالباقيين؟"، قال له قبل أن يخبره "السنة عزينا عزا العلم".

أمّا الطامة الكبرى فهي في "عدم تأمين الدولة الكتب لبعض التلامذة كما كان يحصل في السنوات السابقة حيث كان يجري تبديل الكتب مداورة وبالمجان"، كما يقول "عندي تلاميذ بلا كتب وأهلهم عاجزين يشتروا لهم كتب". في الأساس، ونسبة لأعمار التلامذة لا يمكن تبديل الكتب في " الحلقتين الأولى والثانية". أما ما فعلته الدولة، فقد اقتصر على الطلب من المدارس إبلاغ الأهل بتنزيل الكتب الرقمية "عندي أولاد جُرد بمدرستي، كيف بده ينزّل كتاب رقمي ويدرس عليه هيدا التلميذ؟ وعلى أي جهاز إلكتروني؟"

ويعبّر مدير إحدى المدارس في الهرمل عن تخوّفه من مشكلة التدفئة التي قد تكون عائقاً أمام فتح المدارس في أشهر الشتاء القارسة البرودة. ويقول إنّ مدرسته تحتاج إلى ٣ ملايين ليرة ثمن مازوت في الأسبوع "يعني بدنا ستين مليون ع ٥ أشهر نضطر فيها لتدفئة المدرسة، بينما لا تزيد إيرادات صندوق الأهل عن ٣٠ إلى ٣٦ مليون ليرة، هذا إذا دفع كلّ الأهالي نظراً إلى الأوضاع الاقتصادية الصعبة". وبما أنّ صندوق الأهل لا يغطّي ثمن المازوت "يعني نحن سنؤمّن إما نصف التدفئة أو أقل إذا بقيت الأسعار كما هي اليوم مع الدعم، ولكن ماذا عن وضع مدارسنا إذا رفعوا الدعم؟"

الزبائنية حتى في التعليم

يربط معلّم المدرسة والنقابي التربوي ركان الفقيه مشكلة التربية في الهرمل بالوضع الإنمائي العام للقضاء وعاصمته الهرمل وبكلّ المستوى التعليمي الرسمي في لبنان.

وبعدما شدّد الفقيه على استقرار الأستاذ المدرسي الاجتماعي والاقتصادي، رأى أنّ هذا العنصر غير متوفّر ببلوغ نسبة الأساتذة المتعاقدين نحو ٧٠٪ من مجمل الأساتذة "في أساتذة متعاقدين من عشرين سنة مثلاً" (١٣٧ أستاذاً متفرّغاً مقابل ٣٤١ متعاقداً). وينتقل الفقيه إلى مشكلة إدارات المدارس المرتبطة بالولاءات السياسيّة في الهرمل كما في كلّ لبنان حيث "يستلم مدير المدرسة أيّاً كان موقعه بناء على ولائه السياسي والحزبي وليس وفق الكفاءة"، وهذا ينطبق على التعليم الأكاديمي كما على المهني في القضاء. وبذلك تتحوّل كلّ مدرسة إلى معقل للجهة السياسية التي أتت بإدارتها، و"هذا ينسحب على الكفاءة والعطاء ومستوى المدرسة".

في مقابل هذه الإشكاليات التربوية، يتحدّث أساتذة كثيرون عن نهب منظّم في بعض المدارس. ويروي موظّف في إحدى المدارس الرسمية عن بعض ممارسات المدير الذي لا يترك شيئاً إلّا ويبيعه أو يصادره من المدرسة "عدا عن المحسوبيات وإدارته السيئة". ويؤكّد أنّ هذا المدير باع حتى القرميد الذي رُكّب على سطح المدرسة ومعه وقود المازوت للتدفئة، وكذلك

بعض الأجهزة الإلكترونية من آيباد وكمبيوترات محمولة "ومرة شفنا كمبيوترات المدرسة مع أولاده". ولماذا لا يحاسب هذا المدير؟ نسأله، فيرد ساخراً: "معقول ما بتعرفوا إنّه كلّ مدير مدعوم ومحمي ما حدا بيقدر له، وهذا المدير محمي من أكثر من جهة حزبية وسياسية مع أنّ ملفه السيئ وصل إلى وزارة التربية بلا جدوى".

قصص أشغال شاقّة على طريق الجامعة

لا يوجد إحصاء لعدد الطلّاب الجامعيين في الهرمل بشكل مستقلّ عن محافظة بعلبك الهرمل حيث أنّ الإحصاء الرسمي يدمجهم ضمن عدد طلاب المحافظة والذي يصل إلى ١٥,١٪. حتى أنّ وزارة التربية عجزت عن إجابة طلبنا بالحصول على هذه المعلومة (عدد الطلاب الجامعيين والخرّيجين في الهرمل). ويرجّح أن تكون نسبة التعليم الجامعي على مستوى قضاء الهرمل أدنى من النسبة المذكورة على صعيد محافظة بعلبك الهرمل، بفعل سهولة الوصول إلى الجامعة من بعلبك (٢٥ كيلومتراً عن زحلة)، ممّا يخوّلنا القول إنّ نسبة التعليم الجامعي في الهرمل كما في عكار (حيث تبلغ ١١,٥٪) هي الأدنى في لبنان. وللمقارنة، يذكر أنّ محافظة بيروت تحتلّ المركز الأوّل من حيث الوصول إلى التعليم الجامعي بنسبة ٢٩,٤٪ تليها محافظة جبل لبنان بنسبة ٢٥,٤٪.

وبالإضافة إلى إشكاليّات التعليم المدرسي ونسبة التسرّب الدراسي، يصطدم شبّان وشابات الهرمل ببُعد فروع الجامعة اللبنانية المتاحة لهم. ففيما عدا الفرع المستحدث في كلية العلوم في بعلبك الذي يضمّ اختصاصات رياضيات وكيمياء وفيزياء وعلوم الحياة والذي يقتصر على السنة الأولى فقط، يتعيّن على سائر الراغبين في إكمال تعليمهم الجامعي الانتقال إلى زحلة أو بيروت. ولا تخصّ الدولة طلّاب المناطق النائية بأيّ تسهيلات سكنية أو وسائل نقل عامّة يمكن أن تساعدهم في تخفيف أكلاف الانتقال إلى المجمّع الخاصّ بالجامعة اللبنانية. وبالتالي يعجز كثيرون من طالبات وطلّاب الهرمل عن التحصيل الجامعي بسبب عدم قدرة عائلاتهم على تحمّل أكلاف انتقالهم إلى بيروت كسكن ومستلزمات عيش ودراسة وما يستتبعها من مصاريف.

قصة جنين

تختصر طالبة الثانوي - فرع العلوم العامّة، جنين علوه أحلامها بنيل منحة دراسية جامعية ترشّحت للحصول عليها من إحدى المؤسّسات الدولية "غير هيك ما بقدر روح ع الجامعة". يعمل والدا جنين في التعليم. بالكاد يبلغ راتباهما مجتمعين ٣ ملايين و٥٠٠ ألف ليرة "يعني أقلّ من ٢٠٠ دولار اليوم". تعصر ذهنها بحثاً عن حلول "حتى لو سكّنوني عند أقارب ببيروت"، ترى أنّه سيكون من الصعب على والديْها تحمّل مصاريفها في العاصمة "عندهم ولد غيري وأقساط مدرسية

ومصاريـف، وهـلّأ بالـكاد بيأمنـوا كلّ ضروريـات البيـت، وكمان صعـب كتير إضطرّ وقّف علـم".

في ١٨ كانـون الثـاني ٢٠١٨، قـرّر مجلـس الـوزراء افتتاح فرع للجامعة اللبنانية في الهرمل من ضمن فـروع في مناطـق أخـرى. اسـتبشر أهـالي المنطقـة مـن الهرمـل إلى القـاع ورأس بعلبـك والجديـدة والفاكهـة وحـتى العـين وعرسـال خـيراً، بخاصّـة وأنّـه تمّ تحديـد موقعهـا عـلى كتـف العـاصي مـا بـين الهرمـل وبلـدة القـاع. بعـد ثـلاث سـنوات ونيّـف عـلى القـرار، اختفـت العلامـات الهندسـية الـتي وُضِعـت عـلى العقـار المخصّـص للجامعـة فيمـا تفـوح الروائـح الكريهـة مـن مكـبّ النفايـات الـذي استحدثته بلديـة الهرمـل عـلى بعـد عشرات الأمتار من مكان الجامعة التي ذهبت مع الريح. يومها رشح أنّ رئيس حركة أمل، رئيس المجلس النيابـي نبيـه بـري، أراد أن تقـام الجامعـة عنـد منعطف بلدة حربتا، ما بين بعلبك والهرمل من دون تفسير واضح. في النهاية لم ترَ الجامعة النور ولا حظي طلاب الهرمل بفرصة عدم النزوح ١٥٠ كيلومتراً سعياً وراء العلم، وإلّا الاستسلام. فيما عـلى أبنـاء جـرود الهرمـل أن ينتقلـوا مـن ١٨٠ إلى ٢٠٠ كيلومـتر في مـا لـو رغبـوا في تحصيـل شـهادة جامعيـة، مـن دون أي تسـهيلات مـن الدولـة أو إدارة الجامعـة اللبنانيـة، وطبعـاً وزارة التربيـة.

جنـين لا تريـد فرعـاً للجامعـة اللبنانيـة في الهرمـل "كلّ الفـروع بتتحـوّل دكاكـين ومحسـوبيات وبتصير فرصة للاستزلام". تريـد أن تذهـب إلى المدينـة الجامعيـة في الحـدث "الجامعـة اللبنانيـة لازم تكـون جامعتنـا كلّنـا طـلّاب لبنـان"، بالنسـبة لهـا هـي "أفـق للتطـوّر والنمـو ومعرفـة الآخـر والخـروج مـن القوقعـة المناطقيـة". وتتابـع: "مـش الدولـة مسؤولة عنّا؟ ونحـن أولادها؟ يعـني لازم تأمّـن لنـا سـكن جامعـي بأسعار رمزيـة وتعطينـا منـح مقبولـة لنـدرس بعيـداً عـن مناطقنا ونتعرّف ونتفاعـل مـع طـلاب المناطـق الأخـرى". حـتى أنّ جنـين تضـع في أحلامهـا خططـاً لمـا تسميـه "دولـة العدالـة الاجتماعيـة": "ليـش مـا بتسـتفيد الدولـة مـن قدراتنـا كشـبّان وشـابات وتشـغّلنا في أعمـال تطوّعيـة وطنيـة وتمنحنـا مسـاعدات جامعيـة في المقابـل، وهيـك بتسـتفيد منّـا وبتساعدنا ننطلـق بحيـاة جديـدة؟"

قصة إيلينا

راعـت إيلينـا ظـروف عائلتهـا وقـرّرت أن تـدرس في الجامعـة اللبنانيـة في زحلـة "يعـني كلّ يـوم بـدّي سـافر ٩٠ كيلومـتر لأوصـل ع الجامعـة"، بخاصّـة وأنّهـا تحـبّ اختصاصهـا "الأدب العربـي، وهـو متوفّـر في زحلـة". تبـدأ محاضرتها الأولى عند الثامنـة والنصف صباحـاً (قبـل كورونـا والأونلايـن) "يعـني بـدّي إمـشي مـن الهرمـل السـاعة سـتة الصبـح"، ولا تنتهـي قبـل السادسـة مسـاء "مـا بعـود لاقي فـان (حافلـة صغـيرة) لإرجـع". لـذا غالبـاً مـا كانـت تـترك محـاضرات مهمّـة وتقفـل عائـدة بعـد الظهـر لتصـل قبـل الليـل إلى منزلهـا". لا تقـلّ رحلـة إيلينـا اليوميـة إلى الجامعـة عـن سـاعتين ونصـف ذهابـاً ومثلهـا إيابـاً "عنـدي ٥ سـاعات مـن

نهـاري ع الطرقـات"، كانـت تدفـع يوميـاً مـا لا يقـلّ عـن ٢٠ إلى ٢٥ ألـف لـيرة، إضافـة إلى تعبهـا "إذا مـا نمـت شـوي بعـد مـا إرجـع، مـا بقـدر أدرس أو إعمـل شي، بكـون كتـير تعبانـة". ومـن أيـن لهـا النـوم؟ إذ تضطـر إيلينـا أن تعمـل للمسـاهمة في مصاريفهـا الجامعيـة، يعمـل والدهـا في الزراعـة وتسـاعده والدتهـا في بعـض المزروعـات البيتيـة وفي تربيـة الدواجـن للبيـض البلـدي لدعـم مدخـول الأسرة "قلت بعطي دروس خصوصية وبأمّـن جزء مـن مصروفي خصوصاً وأنّهما يتحمّـلان مصاريـف دراسـة أخـي في صـف الماسـتر في بـيروت". تصـف إيلينـا رحلـة نصـف الطـلاب الجامعيـين في الهرمـل وقضائهـا بـ"الأشـغال الشـاقة"، كـون هـؤلاء، أي نصـف طـلّاب الجامعـة، يتعلّمـون في زحلـة "نقضي طيلـة اليـوم مـا بـين الطرقـات والـدوام الجامعـي، عـدا عـن مصاريفنـا الكبـيرة نسـبة إلى أوضاعنـا، نحـن نتعـب كثـيراً ويؤثّـر الأمـر عـلى قدرتنـا عـلى منـح اختصاصاتنـا الوقـت المطلـوب لتطويـر أنفسـنا".

تتمنى إيلينـا لـو أنّ ظـروف أهلهـا تسـمح لهـا بالدراسـة في الجامعـة اللبنانيـة في بـيروت أو حـتّى السـكن قـرب جامعتهـا في زحلـة "كنـت بعطـي اختصـاصي حقّـه، يعـني الأدب العربـي مـا بـدّه دراسـة سـطحية، بـدّه تعمّـق وبحـبّ طـوّر مهـاراتي بالكتابة وبتثقيف نفسي وهـذا غـير متـاح". اليـوم تـدرس إيلينـا عـن بُعـد بسـبب كورونـا "أخـدت سبعة طـلاب لإعمـل مصـاري أكـتر لأنّـه الأوضـاع كتـير سـيئة"، وعليـه، تتابـع المحـاضرات ليـلاً بعـد عودتهـا مـن تعليـم التلامـذة "بـس لي قاهـرني إنّـه بـس عـم بـدرس البرنامـج وأوقـات مـا بلحّـق، بحـب إشـتغل ع حـالي". تنطلـق إيلينـا مـن وضعهـا ووضـع زملائهـا في الهرمـل لتقـول "متلنـا في كتـير طـلاب مـن المناطـق النائيـة هـون بالبقـاع، وطبعـاً بعـكار وغـير مناطـق، يمكـن الدولـة مـا بتعـرف إنّـه في طـلّاب جامعـات بالأريـاف أو المسـؤولين مـا بيهمهـم نتعلّـم أو لا".

مجالات التعليم المهني في الهرمل

يقـول طالـب في أحـد المعاهـد المهنيـة الرسميـة الثلاثـة في الهرمـل إنّـه انتقـل إلى التعليـم المهـني حبّـاً بالـدروس التطبيقيـة وليـس عـلى طريقـة مـا يفكّـر البعـض "منفشـل بالأكاديـمي فمنروح ع المهـني". ويؤكّـد لـ"المفكـرة": "مـا بحـب الأكاديمـي، قلـت بـدرس مهـني ويـا ريتـني لم أفعـل". يشـير هـذا الطالـب إلى أنّ كلّ أسـاتذته في المهـني مـن المتعاقديـن "ع السـاعة"، أي أنّهـم يقبضـون مستحقّاتهم مـرّة في السنة "وأوقـات سنة ونـص ليقبضوا". وهـذا يؤثّـر على طريقة تعاطي البعض منهم مع التعليم: "في كتار بيحاولوا يعيشوا مـن شـغل تـاني". لا يوجـد مقـرّرات أو كتـب لغالبيـة المـواد، وفـق مـا يؤكّـد الطالـب نفسـه (وهـو مـا تأكّـدت منـه "المفكـرة" مـن أسـاتذة ومسـؤولين في المهنيّـات). فبعـد تحديـث المناهـج قبـل ثـلاث سـنوات، لم تقـم وزارة التربيـة ومديريـة التعليـم المهـني بطبـع مقـرّرات للمضامـين الـتي طـوّرت المناهـج. "وهيـك في كتـير مـواد مندرسـها حسـب مقـدّرات الأسـتاذ ومـدى التزامـه بالاهتمام بمهنتـه وطلابـه، وأوقـات مـا منفهـم شي ومـا منعـرف شـو بدنـا نـدرس". ويشـير الطالـب نفسـه إلى أنّـه

كان يرغب في دراسة اختصاص صناعي "ولكن بسبب نقص الأجهزة في المصانع خفّ الإقبال على هذه الاختصاصات". فتسجل محاسبة وهو اختصاص أقرب للنظري منه للتطبيقي. "يعني كأنّي ما جيت ع المهني". ويعطي مثلاً عن أجهزة الكمبيوتر "عنّا ١٠ كمبيوترات في منهم ٧ خربانين، بالكاد كلّ طالب يطلع له يستعمل الكمبيوتر ٥ دقايق". حتى أجهزة الكمبيوتر غير المعطّلة "قديمة، وتعود البرامج التي تشغّلها للعام ١٩٩٨، يعني قديمة كتير".

هذا الكلام يؤكّد عليه بعض أساتذة المهني، وإن كان هؤلاء يركزون على أوضاعهم المتردّية: "منذ العام ٢٠٠٠ لم يتمّ تثبيت أي أستاذ في المهني، فبقي معظمنا متعاقدين، ولا تصل نسبة المثبّتين إلى أكثر من ٤٪ في أفضل الأحوال من مجمل أساتذة المهني، ويحتلّ المثبّتون مراكز إدارية". ويكاد معظم أساتذة الملاك في التعليم المهني أن يتقاعدوا "يعني يمكن ما يعودوا يلاقوا أستاذ مثبّت حتى يعيّنوه مدير أو ناظر". يشكي أساتذة التعليم المهني المتعاقدون من عدم تمتّعهم بضمان أو تغطية صحية وبعدم تلقّيهم بدل نقل ومن قبض مستحقاتهم مرّة كلّ عام وبأسعار منخفضة جداً "تراوح ساعة المهني بين ٢٠ و٣٥ ألف ليرة، واختلفت قيمة مستحقاتنا مع انهيار الليرة قبل أن تعطينا إياها الدولة، فيكي تقولي كأنّه صرنا عم ناخد دولار ع الساعة، وهذا أقلّ من أجرة أي عامل آخر من دون إجازة ولم يقضِ عمره في التعليم لتحصيل شهادة تردّ عنه العوز".

يوجد في الهرمل ١٣٠٠ طالب وطالبة في التعليم المهني الرسمي، وبرغم الملاحظات التي يبديها كثيرون على المعاهد المهنية، إلّا أنّ القيّمين عليها يؤكّدون أنّ نسب النجاح في الشهادة الرسمية تراوح بين ٩٠ إلى ١٠٠٪ (لم يتسنّ لنا التحقّق من ذلك)، ويشيرون إلى أنّ نتائج المتقدّمين من مهنيّات الهرمل إلى وظائف مجلس الخدمة المدنية يأتون بنتائج جيدة جداً: "فقد نجح ١٧ ممرضاً وممرضة من ١٨ تقدّموا للتوظيف في مستشفى الهرمل الحكومي عبر مجلس الخدمة المدنية، على سبيل المثال لا الحصر". ويرى المدافعون عن التعليم المهني أنّ الأخير يؤمّن دراسة الليسانس التقنية (LT) في نحو عشرة اختصاصات، وهو ما يوفّر على أبناء الهرمل الانتقال إلى بيروت أو زحلة لمتابعة تحصيل التعليم العالي، والليسانس التقنية تعادل شهادة الليسانس الجامعية. ولكنها شهادة في الاختصاصات غير الصناعية. ويعزو القيّمون على المهنيات عدم تطوّر الاختصاصات الصناعية بعد المرحلة الثانوية (BT) إلى عدم وجود أساتذة في الاختصاصات الصناعية المطلوبة مثل الميكانيك والكهرباء وغيرهما.

هكذا أصبحت أستاذا ثانوياً

كان شفيق الساحلي (وهو أستاذ ثانوي متقاعد) السبعيني، في عمر السبع سنوات عندما أرسله والده للتعلّم على يد "المقرّي" (كما يسمّيه) حسن بوتة، خال أبيه الذي كان يدرّس الصغار في كتاب القرآن. في التاسعة، نقل إلى المدرسة الحكومية الوحيدة في الهرمل "كنت إقرا عربي، ما كنت بعرف حرف واحد أجنبي". انتظر شفيق لغاية الصف الثامن تكميلي حتى توفّر في المدرسة مدرّس عربي وآخر للتاريخ. ولكن لم يكن هناك أساتذة للرياضيات والعلوم واللغة الأجنبية: "نحن لازم ندبّر حالنا". اعتمد شفيق على المعلّم فيلمون جبّور الذي كان أستاذاً من منطقة الكورة يأتي به أبو سويدان ناصرالدين لتعليم ابنه سويدان. كان جبّور يسكن عند أبو سويدان وكان شفيق يجمع كلّ ما لا يفهمه من عمليات حسابية ومن دروس في العلوم ويقصده ليشرحها له، أو يدعوه ومعه سويدان، صديقه، لشرب الشاي في منزله، لينهل من علمه.

في صفّ البروفيه، ولمّا لم يتوفّر أساتذة للمواد العلمية، قرّر والده مع عائلتين أخريين، إرسال أبنائهم إلى بعلبك للدراسة تحضيراً لخضوعهم لامتحان الشهادة المتوسّطة الرسمية. استأجروا غرفة مشتركة وكانت أمهاتهم يزوّدنهم بوجبات طعام ومؤن تعينهم في "اغترابهم". عندما اشتدّ الصقيع، عجز شفيق ورفاقه عن تحمّل كلفة التدفئة والمازوت، فعادوا أدراجهم إلى الهرمل. بعدها قرّرت المدرسة أن تفتح لهم صفّاً، ولكن بأستاذين فقط، واحد للعربي والثاني للتاريخ. يقول شفيق إنه استعان بمعجم فرنسي-عربي ليعرّب كلمات الدروس العلمية ليفهمها، كما أتى بكتاب نماذج عن امتحانات الشهادة المتوسطة ليتعلّم الحلول ويتمرّن عليها. انتهى العام الدراسي وجاء وقع نجاحه بالبروفيه في الدورة الثانية كبيراً على العائلة. ومن شدّة فرحه بنجاحه، قرّر والده، وكان تاجر مواشٍ، أن يرسله ليكمل المرحلة الثانوية في بعلبك. لكن القدر كان له بالمرصاد، فوافته المنيّة "وراحت البحبوحة معه"، كما يقول شفيق.

جاء الإنقاذ هذه المرّة على يد الوظيفة، إذ أعلنت الدولة عن امتحانات لتوظيف أساتذة للتعليم الإبتدائي، فنجح وصار أستاذا ابتدائياً. حين قبض راتبه الأول، قصد شفيق العاصمة السورية دمشق وتسجّل في صف الأوّل ثانوي، اشترى الكتب وأقفل عائداً إلى الهرمل. سنة بعد سنة حتى نال شهادة "الموحّدة" السورية التي تساوي شهادة ثالث ثانوي في لبنان. وصل إلى الجامعة العربية في بيروت وأنهى دراسة اختصاص الجغرافيا.

من رفاقه في الجامعة، عرف شفيق أنّ ظروفه التعليمية لم تشبه ظروف أيّ من رفاقه في المدن أو المناطق القريبة في جبل لبنان وبيروت "من يوم يومنا وضعنا غير شكل في الهرمل".

شابات وشبّان الهرمل

سعدى علّوه



شبّان وشابات من الهرمل يمارسون الهايكينغ | **تصوير بومدين الساحلي**

فكّر أبو سامي، أحد أبناء بلدة سهلات المي الحدودية كثيراً قبل أن يصف شعوره وهو يودّع ابنه البكر في مطار بيروت مغادراً لدراسة الهندسة في إحدى الدول الأوروبية «كنت عم إبكي، شي فرحاً شي افتقاداً، بتعرفي هيدا إبني الأوّل وعم إسلخه عن قلبي وإبعته وأنا ما بعرف إذا بيرجع». الفرح ليس فقط بسبب قدرته على تأمين كلفة تخصّص ابنه: «أخدت تعويضي وضبّيته بالبنك لعلّمه فيه»، إذ كان كلّ حلمه أن يراه «بش مهندس كما يقولون في المسلسلات المصرية». أمّا الفرحة الأكبر عند أبو سامي فهي «لأنّني تمكّنت من تسفيره إلى خارج منطقة الهرمل، من الحدود، وخارج لبنان أيضاً».

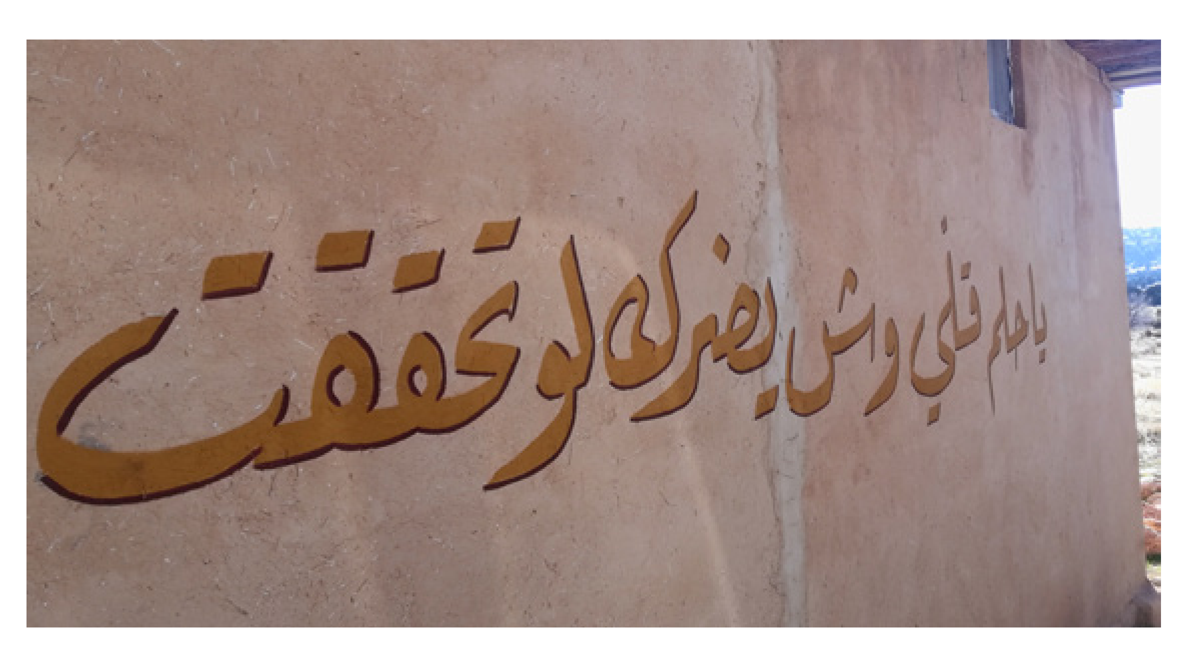
لكنّ حسابات أبو سامي لم تتوافق مع حسابات بيدر هذه البلاد، انهارت المصارف و«سرق السياسيّون والبنوك تعويضي» واضطرّ إلى إعادة سامي إلى سهلات المي: «صدّقي صرت آخد دوا ضغط، فقع قلبي وما حوّلوا له من مصريّاتي»، يضيف والمرارة قاسية في نبرة صوته «كنت بدي إبعده عن كلّ جو المنطقة، ما بدّي يشتغل لا بالتهريب ولا بالمخدرات، كنت بدّي شوف إبني متعلّم، لابس طقم وسايق سيارته ورايح ع شغله، كتير عليي هالقد؟»

يصل سامي الذي كنّا بانتظاره بعدما هاتفه والده لنتحدث إليه. شاب حيوي في الـ٢١ من

عمره، ولكن لا يظهر عليه القهر البادي على والده: «شو عم تعمل يا سامي؟». يضحك بخجل ويتحدّث بكل صراحة بعدما أخبره والده أنه وضعنا في جو تغيَّر ظروفه: «هلأ أنا مهَيْرب» (تصغير مهرّب) للدلالة على محدوديّة نشاطه مقارنة بكبار المهرّبين. وماذا تهرّب؟ «سكّر بالدرجة الأولى وقهوة وبس دبّر علف حيواني طبعاً مدعومين، وبهرّب ع سوريا».

وجد سامي أفقه مسدوداً: «خلّصت أوّل سنة هندسة واضطريت إرجع متل ما خبرك أبي، لا ورايي ولا قدّامي وما معي قرش بجيبتي». نظر سامي حوله بحثاً عن عمل «شو بدي إشتغل؟ حتى بدكان ما في شغل، ما في معامل ولا مؤسّسات لا بالهرمل ولا بالقصر ولا بسهلات المي». ولكن القصر تختلف عن الهرمل مستفيدة من موقعها على الحدود مع سوريا مباشرة: «معظم الناس عم تشتغل هون بالتهريب». بداية، عارض والده الفكرة: «بقسم إنّه أبي بكي لمّن خبّرته، وعارض». لكن سامي أصرّ وقال له: «بدّك تنقّي مخدّرات أو تهريب، ما بدّي أنطر القرش منّك». وعليه استدان سامي ثمن فان (حافلة صغير) «بالفايدة»، أي يردّ المبلغ مع فائدة مالية عالية عليه، وبدأ العمل على خطّ التهريب من لبنان إلى سوريا: «بعبّي الفان سكّر أو قهوة أو علف حيواني مدعوم وبهرّبهن ع سوريا». وكيف تحصل على السكّر والقهوة والعلف المدعومين؟ يأخذ سامي ورقة تفيد أنّه ينقل سكّراً أو قهوة إلى إحدى المؤسّسات التجارية الغذائية «بفرجيها للحواجز إذا حدا سألني، وبمرق». ولكن كيف تقطع الحدود وهناك حواجز للجيش اللبناني؟ يضحك سامي «كأنّك مش من المنطقة وبتعرفي إنّه الجيش عنده حاجز ع الطريق المعبّدة، وفي عشرين طريق ترابية ع القليلة، بروح ع واحد منها». ويكفي أن يأتي أيّ شخص بورقة تفيد أنّ لديه مواشي حتى يحصل على علف مدعوم «باخدهن وبسلّمهن فوراً ع الحدود، في مين بيجي ياخدهن دغري».

يبلغ مدخول «المهَيْرب» العشريني سامي «مليون ليرة صافي بالنهار»، يقول وهو يبوس يده ويضعها فوق جبينه «ألف نعمة». نقترح عليه أن يجمع كلفة دراسته ليعود ويكمل اختصاصه في الخارج ليحقق حلم والده. «ليش؟ عشان إتكلّف شي ٦٠٠ مليون ليرة ع القليلة لصير مهندس وإجي أقعد بلا شغلة ولا عملة أو بدّي بوس إيدين المسؤولين ليوظّفوني وبعدين إقبض مليون ونص بالشهر؟». عندما ينتبه سامي إلى وجه والده وقد تغيّر لونه ولم يعجبه حديث ابنه، يتوجّه إليه بالكلام: «ما تخاف رح جبلك شهادة». تسجّل سامي في كلية الهندسة في إحدى الجامعات الخاصّة: «كلّه أونلاين، بفتح ع الصّف أنا وعم سوق الفان، بهرّب وبتعلّم بنفس الوقت». سؤال أخير نوجّهه إلى سامي: «لماذا أطلقت على نفسك توصيف مهَيْرب، ويوميّتك مليون ليرة صافي؟». يضحك من سذاجتنا ويجيب: «لازم تعرفي إنّه كبير المهرّبين هون يوميته مليار ليرة، لديه على الأقلّ ٢٥ إلى ٣٠ صهريج مازوت، عدا عن سلع أخرى يشتغل بتهريبها».



جدارية في مشروع لزّاب في الجرد | **تصوير لميا الساحلي**

النزوح وقطع حبل السرّة مع الهرمل

هناك موقعان يرتبطان بذاكرة أبناء قضاء الهرمل بشكل خاصّ: السبيل وهي ساحة المدينة الأساسية، وجسر العاصي. معظم المحظوظين من بيننا، ممّن تسنّت لهم مغادرة المنطقة نحو بيروت فعلوا ذلك من موقف سيارات الأجرة والحافلات الصغيرة (الفانات) في السبيل. تبدو الساحة بالنسبة إلى الهرمل كمطار بيروت بالنسبة للعاصمة. تصل صبية أو شاب مع حقيبة كبيرة، برفقة الأهل أحياناً وجوب طقوس الوداع، فيلوّح لها/له العابرون مودّعين «بالتوفيق، الله معك». غالباً ما يكون الموقف مؤثراً وبخاصّة قبل تكاثر الحافلات حيث كان النقل يقتصر قبل نحو ١٥ عاماً على سيارات الأجرة وبكلفة أعلى ممّا هي عليه في الفان، وبالتالي لم تكن الزيارات الأسبوعية للأهل متاحةً لأصحاب الدخل المحدود، وكان الغياب يطول.

أمّا عبور جسر العاصي فيؤشّر إلى الفطام الثاني، أو كقطع حبل السرّة عن الهرمل التي تصبح وراء المغادرين، خصوصاً أنّ الطريق تنفتح بعد النهر على المدى الواسع المترامي لمنطقة الشرقي، فتبدو بمثابة الأفق المفتوح على بدء حياة أخرى.

كثر من أبناء الهرمل وقضائها لم تتحْ لهم هذه التجربة نحو بناء حياة خارج المنطقة، وخصوصاً فرصتهم في الدراسة الجامعية.

ومغادرة الهرمل نحو بيروت لمتابعة الدراسة الجامعية أو للعثور على عمل جيّد ليست «نعمة»

يتمتّع بها الجميع. وطالبة الجامعة سارة واحدة من هؤلاء. كبرت سارة على حلم راودها من صغرها «كنت أطلب ألعاباً من أهلي سمّاعة طبيب وعدّة فحص مرضى». رغبت إبنة الـ٢٣ عاماً اليوم أن تكون طبيبة «ع قلّة الطبيبات بالهرمل، كنت إحلم صير دكتورة وتشوف أمي حالها فيي». «عقبال ما شوفك دكتورة قدّ الدني يا ماما»، كانت تقول لها مع كل دفتر علامات تأتي به إلى المنزل وهي الأولى على صفّها.

نجحت سارة في الشهادة الرسمية الثانوية بمعدّل ١٧ على عشرين وصارت تسأل عن موعد امتحانات كلّية الطب في الجامعة اللبنانية في بيروت، إلى أن طلب منها والدها أن يتحدّثا قليلاً: «إنت بتفهمي يا بابا وأنا شايف حالي فيكي، بس محروق قلبي عليكي». تقول سارة إنّ دقّات قلبها تسارعت «وغبّش نظري وما عدت مركزة لأني فهمت شو بدّو يقول». أخبرها أنّ دخله كموظّف دولة ودخل والدتها من التعليم لا يتجاوزان مليونين ونصف مليون ليرة: «وعنّا ولادين غيرك يا بابا، ومصاريف بيروت كبيرة، عالقليلة بدّك مليون لوحدك، وشو بعمل بأخوتك ومصروف البيت؟». قبل أن تردّ عليه سارة أكمل والدها حديثه: «في حدا واعدني بمنحة بجامعة خاصّة ببعلبك لدراسة المختبر، بتقدري تروحي ع بعلبك وترجعي ع البيت يا بابا، المهمّ تكفّي جامعة». تقول سارة إنّ والدها لم يكن يبخل عليها «هالقد قدرته وهالقد قادر يأمّن لي»، فكذبت عليه: «ما تحمل همّ يا بابا، أصلاً أنا مش مصرّة ع الطّب، والمختبر كمان شي حلو وأنا بحبّه».

في اللحظة التي قالت له «ما تحمل همّ يا بابا»، رسمت سارة خطّة في رأسها: «قلت بكرا بخلّص وبشتغل وبكمّل دراسة الطب». اليوم بعد تخرّجها بعام وجدت سارة عملاً بمليون ليرة في أحد مختبرات المنطقة «عم قضّيها ع الطرقات رايحة جاية ع الهرمل، معاشي ما بيكفّي لإستأجر بيت ولا وقتي بيسمح أدرس طب، الطب بده درس كتير». ورغم ذلك لا يزال في رأس سارة مخطّط آخر «خيّي حابب يعمل طبيب، رح ساعده». قالت له عندما أخبرها عن مخاوفه من أن يلقى مصيرها نفسه «ما تخاف، أنا حدّك يا خيي، رح إنبسط كتير إذا إنت صرت دكتور».

ما لم تسمح به ظروف سارة لم يحصل مع يحيي ناصرالدين (٢٥ عاماً) الذي تخرّج العام الماضي من كلية الهندسة في إحدى الجامعات الخاصّة في العاصمة. يعمل يحيي اليوم في «كوفي شوب» في بيروت ويُعطي دروساً خصوصية لبعض الطلّاب: «مش بس ما لقيت شغل بإختصاصي، حتى ستاج (تدريب) ما لقيت إلّا بالواسطة». وجد يحيي عملاً في الهرمل شبيهاً بما يشتغله في بيروت ولكنّه فضّل عدم العودة إلى المنطقة لأسباب غالبها التهديد الأمني وأعمال الثأر: «في فقر بعكّار متل عنّا، في فقر بمناطق تانية طبعاً، بس نحن مميّزين بالسلاح والمشاكل»، ليسأل «مش تفصيل إنّه الواحد يحسّ حاله مش آمن، وما يحب يرجع يعيش بضيعته، حتى معظم رفقاتي فلّوا من الهرمل، ما عدت إرغب إجي عليها».

الأفق المسدود: إلى السلاح درّ

كان أسعد (اسم مستعار) مطلوباً بتهمة الإتجار بالمخدّرات «أنا ما تعلّمت، وما لقيت شغل فاشتغلت بالمخدرات»، يقول لـ«المفكرة». بعد خمس سنوات من عيشه حياة المطلوبين «كنت إشتهي إقدر إطلع من جسر العاصي ورايح، إشتهي شوف الدني خارج الحي لي عايش فيه». داهمت قوّة من الجيش اللبناني قبل سبع سنوات منزل أسعد وقبضت عليه: «انحبست خمس سنين وباع أبي قطعة أرض حتى دفع الغرامات المترتبة عليّ بقيمة ١٥ مليون ليرة». أوّل ما عزم عليه أسعد عند خروجه من السجن كان «عدم العودة إلى الحبس، مستحيل بعد إنحبس، دقت المر بالسجن وكنت رح موت». وعليه، فكّر في زراعة أرضه في الجرد: «بدّي تلاتين مليون لإصلاح الأرض، وشي ١٥ مليون لإعمل خزّان للري، ومدري كم مليون لإفلح وجيب بذار أصلي، ووووو... يعني بالمختصر مش قادر اشتغل بالزراعة».

قدّم على شركات كثيرة ومعامل في طرابلس وزحلة وبيروت ليشتغل أي شيء: «بس يعرفوا إنّي كنت مسجون من سجلّي العدلي يقولوا لي ما فينا نشغّل خريجي سجون، منعتذر منك». صار أسعد يستدين ليعيل أسرته المؤلّفة من أربعة أطفال وزوجة «أوقات نام بلا عشا حتى يشبعوا أولادي»، إلى أن أعطاه والده رشّاشه من نوع كلاشينكوف وقال له «بيعه ودبّر حالك فيه يا بيي». تمكّن أسعد من بيع الرشاش بأغلى من سعره بمئتي دولار: «كتير انبسطت، صرفت الميتين دولار ع بيتي، وجبت كتب لتنين من أولادي بالمدرسة»، ثم اشترى بأصل المبلغ رشاشاً آخر وباعه من جديد وربح به أيضاً. وهكذا صار أسعد اليوم تاجر أسلحة: «عالخفيف، يعني مش عم جوع أنا وأولادي، وإذا زوجتي استحلت غرض لبيتها فيي إشتري لها إياه». وهل هناك طلب على الأسلحة؟ نسأله. «إيه، سوريا مليانة سلاح عم تاجر ع الحدود بجيب سلاح من هونيك وبيبيعهن بلبنان». يصرّ أسعد أن يُفهمنا أنّه تاجر صغير يخاطر بحياته: «يعني بلقمة بياكلوني التجّار الكبار». قبل أن يقصد الحدود ليقطعها إلى الداخل السوري، يقبّل أطفاله «صدّقيني ما بعرف إذا برجع أو بقتل شي نهار». يرتدي سترة فضفاضة ويخبّئ كلّ مرة قطعة أو قطعتي سلاح تحتها ويعود قاطعاً الحدود: «أوقات بحسّ قلبي رح يوقف، بس شو بعمل؟ ما بدّي إرجع ع المخدّرات».

ونحن نتحدث مع أسعد، يرنّ هاتفه. فنسمع صوت امرأة على الخط الآخر. قال للمتّصلة «ما تحملي هم عندي طلبك». نسأل أسعد ما إذا كانت زميلة مهنة؟ يضحك ويقول «نعم» فنطلب منه تدبير موعد معها وطمأنتها إلى سلامتها «خبّرها إنه مش ممكن حدا يعرف فيها»، وهكذا كان.

ضربت لنا سميّة (اسم مستعار) موعداً في الليل وبعيداً عن بيتها «ما بدّي حدا يشوفك حدّ بيتي حتى ما يعرفني لمّن تكتبي عن تاجرة الأسلحة». قصدت سميّة بيروت لتتعلّم في الجامعة «تاني سنة ما عاد بيّي المزارع قادر يؤمن لي مصروفي

فاضطرّيت إشتغل بمحل بيع خرطوش وسلاح صيد». خلال عملها، كان البعض يسألها عن أسلحة حربية «في حواليكم شي رشّاش؟ أو قنبلة يدوية أو بندقية من نوع محدّد». وكلّما أخبرت سميّة صاحب المحلّ بطلب الزبون كان يلبّي طلبه «كنت حقّق له أرباح كتير». شيئاً فشيئاً بنت سميّة معرفة في السلاح وأنواعه وأسعاره «وما كان صاحب المحل كريم معي، ياخد ربح تجارة السلاح لحاله، وما يعطيني إلّا معاشي، فقرّرت إتركه». كانت عملية الإتجار بالسّلاح تتمّ عبرها: «الزباين بيرتاحوا يتعاملوا مع مرا لسانها دافي، يعني ما بتحكي عن حدا وما حدا بيشكّ فيها». وهكذا أخبرت زبائنها أنّها بدأت العمل لحسابها الخاص. اليوم تعيش سميّة من ربحها من تجارة السلاح «بيجيني زباين من الشمال، ومن بيروت، ومن المنطقة ومن البقاع الغربي». تبحث على الإنترنت لتميّز القطعة الأصلية عن المقلّدة: «مرّة واحد طلب منّي بارودة أميركية M٤ يعني M١٦ قصيرة فخفت يبيعوني وحدة تقليد لأنّه حقّها ٥٠٠٠ دولار، ولمّن تأكّدت منها اشتريتها وبعتها لزبونها وربحت ٥٠٠ دولار». ما دام معك هذه المبالغ لماذا لا تفتحين عملاً خاصّاً بك؟ نسألها. تضحك وتقول «فكرك معي ٥ آلاف دولار؟ أنا استلمت البارودة من صاحبها وقلت له أعطيني نص ساعة وبدفع لك حقها، ورحت بعتها للزبون ورجعت دفعت له مصرّياته وأخدت ربحاتي، هيك أنا بشتغل ما معي راس مال». تُميّز سميّة بين الزبائن وتعرف مناطقهم وفق طلباتهم: «عنّا ببعلبك الهرمل ما بيطلبوا إلّا السلاح التقليدي «رشاش كلاشنكوف وفرد ١٤ ومسدس غلوك» أمّا زبائن خارج المنطقة ف«مفرنجين» حسب سميّة، و«بأمّن لهم طلباتهم عبر شريكتي». شريكة سميّة تسكن في بيروت «بتأمّن لي سلاح من المخيّمات». أما أفضل مرحلة إتجار حصلت منها على ربح جيّد فكانت عندما وقعت معركة بين عشيرتين: «صرت بيع لشباب العيلتين» تضحك بخبث. يومها باعت صناديق خرطوش بـ١٠ آلاف دولار «خلّيهم يتخانقوا وأنا بربح» تقول. لكن سميّة تعيش في الخوف: «بعرف إنّي عم خاطر، عم فتّش ع شغل محترم ببيروت، بكرا إذا راحت كورونا موعودة بشغل، بدّي فلّ وأطوي هالصفحة البشعة من حياتي، انشالله يصدقوا معي».

بيسرقونا؟ بيخطفونا؟ معكن حشيشة؟

تهم جاهزة للهرمل «العسكرية»

سعدى علّوه

عندما طرحت على طلابي الـ٢٢ في مادّة الصحافة المجتمعية في كلّية الإعلام، في إحدى الجامعات الخاصّة، أن أصطحبهم في رحلة جماعية ميدانية إلى الهرمل ليخصّصوا عملهم التطبيقي التحقيقي عن نهر العاصي، فغر ٢١ من بينهم أفواههم إمّا استغراباً أو استنكاراً، فيما ضحكت طالبة واحدة ساخرة. كانت الأخيرة من منطقة بعلبك، فيما توزّع الآخرون على مناطق لبنانية مختلفة. مع ردّة فعلهم، سألتهم «ماذا يعرفون عن الهرمل وقضائها؟ توزّعت الإجابات على ٧ تهم جاهزة: هي بلاد المخدّرات، الطفّار، قطّاع الطرق، اللصوص، ثأر العشائر والقتل العشوائي، والتهريب. وأتبعوا أحكامهم الجاهزة بتوصيف جغرافي «بعدين آخر الدني». لم يرد في الأحكام الأوّلية أي إشارة إلى حرمان المنطقة، أو إلى حقوقها المهدورة أو فقر غالبية ناسها وحصّتهم المأكولة من الإنماء... لم يسمعوا عن جمال جرودها البكر ولزّابها النادر، ولم يروا نهرها الهدّار العاصي الذي ما زال أغزر أنهار لبنان والمحافظ على حدّ أدنى من النظافة. ولكنّ بعضهم قال شيئاً إيجابياً وحيداً «أهلها مشهورين بالكرم».

تصنيف الهرمل كمنطقة عسكرية هو ما لوّح به عارفو جيسيكا، ابنة جبل لبنان، عندما قرّرت وصديقتين أخريين زيارة الهرمل «كيف رايحين لحالكن لهونيك؟» قالوا لها باستغراب. لكنّ فضول اكتشاف المنطقة المجهولة بالنسبة إليهنّ، «وكمان حبّ المغامرة»، كما تقول، غلبا على حذرهنّ. في منطقة رأس العاصي، بالقرب من مغارة مار مارون، «ضعنا وما عدنا عرفنا حالنا وين» إلى أن مرّ بهنّ شاب على درّاجة نارية. «دلّنا ع الطريق وعزمنا ع بيته حتى نرتاح». لكن الصبايا الثلاث تردّدن قبل أن يقبلن دعوته. هناك في منزل الشاب وجدن أمّه وأخواته «رحّبوا فينا كتير وضيّفونا بكرم وقعدنا نتحدّث معهن شي ساعتين، ولولا مسافة طريق العودة كنّا بقينا عندهن أكتر».

العزلة الجغرافية

ليست الحرب اللبنانيّة وحدها التي عزلت الهرمل عن لبنان. فالمنطقة التي تصلها بعد بعلبك بـ٦٠ كيلومتراً، هي بالأساس معزولة جغرافياً، لا يأتيها إلّا قاصدها، إذا استثنيا مرحلة محدّدة خلال الحرب حين شكّلت معبراً إلى شمال لبنان عبر حدودها مع عكار، وتحديداً طريق الهرمل-القبيّات. يومها كان الانقسام في «عزّه» وكانت أيّام حاجز البربارة في قضاء البترون الذي شكّل



رسم رواند عيسى

خطـراً ومانعـاً لوصـول العديـد مـن النـاس إلى طرابلـس والشمـال، وخصوصـاً المحسـوبين عـلى المعسـكر الخصـم للميليشـيا الـتي كانـت تسـيطر عليـه. وعليـه، هنـاك كثـيرون عرفـوا الهرمـل كمنطقـة عبـور وليـس كمحطّـة. وشـكّل نهـر العـاصي خصوصـاً مـع ازدهـار رياضـتي الرافتينـغ والكايـاك المائيّتـين بعـض الجـذب السـياحي وكذلـك بعـض مشـاريع السـياحة البيئيـة الجرديـة.

والعـين بالعـين، فالمناطـق اللبنانيـة، وبخاصّـة البعيـدة عـن الهرمـل، كانـت مجاهـل بالنسـبة لأهـل القضـاء. إذ أنّ مـن نزحـوا مـن هـؤلاء عـلى كثرتهـم، جـاؤوا إلى أحزمـة البـؤس في الضواحـي الشماليـة الشرقيـة منهـا (قبـل الحـرب) أو الجنوبيـة، وتأخّـروا بسـبب الأوضـاع الأمنيـة في استكشـاف بقيّـة الوطـن، فتعـثّرت رحلـة التعـارف وتأخّـرت. وبسـبب بُعـد المنطقـة وحـال أهلهـا المادّيـة المتعـثّرة غالبـاً، عرفـت قلّـة مـن سكّـان المنطقـة السياحة الداخليـة وبالتـالي لم يتعـرّف إليهـم سـكان بـاقي المناطـق.

الخوف المسبق

تقـول سـوزان، المتخصّصـة بالسـياحة، وتعمـل في تنظيم الرحـلات الداخليـة في أحـد مكاتـب السـياحة المعروفـة في بـيروت، إنّ المكتـب حـذف الهرمـل مـن لائحـة الرحـلات السـياحية الداخليـة الأسـبوعية الـتي ينظّمهـا بحيـث لم تلـقَ الفكـرة إقبـالاً. «لا دخيلـك مـا بدنـا نـروح لهونيـك»، غالبـاً مـا يأتيهـا الجـواب خـلال عرضهـا للزبائـن فكـرة الذهـاب إلى الهرمـل أو العـاصي «بـس نحنـا للصراحـة ولا مـرّة حطينـا جـرود الهرمـل ضمـن رحلاتنـا، قلنـا بـالأوّل منتعـرّف ع الهرمـل وبعديـن منفكّـر بجرودهـا». يتـذرّع الرافضـون، وفـق مـا تقـول، بالمشـاكل الأمنيـة المتكـرّرة، «عطـول في قـواص وقتـل»، وكذلـك بحـوادث الخطـف والثـأر بـين العشـائر، وخوفـاً مـن قطّـاع الطرق «بيقولـو منـروح بـس مـا منعـرف إذا منوصـل أو إذا منرجـع».

وعـلى الخـطّ نفسـه، تسـير منظّمـات دوليـة تعمـل في المجـال الإنسـاني والإغـاثي والاجتماعـي وخصوصـاً مـع اللاجئـين السـوريين والمجتمـع المضيـف. فهـي تركّـز مكاتبهـا، حـتى تلـك الـتي تنفّـذ مشـاريع في الهرمـل وقضائهـا، في منطقـة زحلـة. وهنـاك موظّفـون في هـذه الجمعيـات مـن الهرمـل ويتكبّـدون عنـاء الذهـاب والإيـاب اليومـي مـن عاصمـة البقـاع وإليهـا.

مسـؤولية هـذا الواقـع يحمّلهـا المهنـدس الشـاب يحيـى ناصرالديـن بعـد الدولـة والأجهـزة الأمنيـة، إلى الإعـلام أيضـاً: «إذا بتراقبـي التقاريـر التلفزيونيـة عـن المنطقـة بتلاقيهـا كلّهـا عـن القتـل ومشـاكل العشـائر والخطـف والسرقـات والتهريـب والحشيشـة والمخـدّرات». يعـترف أنّ هنـاك حـوادث أمنيـة وعشـائرية في الهرمـل «بـس مـا عنّـا قضايـا تانيـة؟» ليسـأل: «مـتى جـاء الإعـلام إلى الهرمـل وتنـاول مشـاكلها الاقتصاديـة وحرمانهـا وغيـاب الدولـة وخصوصـاً غيـاب فـرص العمـل؟». فالهرمـل، كمـا يقـول، لا تهـمّ الإعـلام إلّا بأخبارهـا السـلبية «ولا نهار إجـوا وعملـوا تقريـر عـن الجـذب السـياحي،

عـن العـاصي أو عـن الجـرد وجمـال المنطقـة وحسـن الضيافـة والطيبـة الـتي تميّز أهلهـا، وخصوصـاً التَّرحـاب بالضيـف وإكرامـه، بـس بيصوّرونـا بُعبـع بيخـوّف». حـتى الإعـلام العربـي والأجنبـي وقـع في الفـخ نفسـه «بيجـوا بيعملـوا تقاريـر عـن تجّـار مخـدّرات وكبـار المطلوبـين، وبيصـير عـرض السـلاح والسـيارات الرباعيـة الدفـع ومشـاهد لرجـال مسـلّحين بوجـوه ملثّمـة، وللمخـدّرات وبيصوّرونـا مجموعـة عصابـات خارجـة عـن الدولـة والقانـون».

من الهرمل وبتعزف غيتار؟

الصـورة النمطيـة عـن الهرمـل اختبرهـا ابـن المدينـة عـازف الغيتـار الشـاب باسـل خيرالديـن. يومهـا التقـى مجموعـة مـن شبّان وشـابات لبنـان في إطـار تدريب على العمل الاجتماعي في أحد فنادق برمانا. بعـد وصـول الجميـع واجتماعهـم في بهـو الأوتيـل، أمسـك باسـل غيتـاره وبـاشر عـزف الموسـيقى. عندمـا انتهـى، اقـترب منـه شـابّ عشريـني وسـأله «إنـت عـن جـدّ مـن الهرمـل؟»، وعندمـا أومـأ برأسـه إيجابـاً، أكمـل: «بتعرفـوا تعزفـوا غيتـار فـوق؟». سـأله باسـل «لقيتـني بعـرف أم لا؟»، قـال لـه: «أكيـد وكتـير حلـو، بـس بيسمحـوا لـك تعـزف غيتـار بالهرمـل؟ قصـدي مجتمـع متـل مجتمعكـم متحفّـظ بيخلّيكـم تعزفـوا غيتـار؟».

وبرغـم أنّ هـذه «الخبريـة» صـارت نكتـة بـين المتدرّبـين بعدمـا روى لهـم باسـل سـؤال زميلهـم إلّا أنّهـم وبعـد يومـين مـن الاختـلاط وسريـان جـو مـن الـودّ بـين جميـع المشـاركين، وفـق مـا يخـبر باسـل، استمرّ الحـاضرون بالمـزاح معـه ومـع شـابة وشـاب مـن الهرمـل كانـا برفقتـه: «قدّيـش حـق الكشـك عندكـم؟ (في إشـارة إلى أنّ الأهـالي في المنطقة يتموّنون الكثير من الكشك لأنّهم فقراء) ومـا معكـم بطاطـا؟ مـع غمـزة مـن طـرف العـين والمقصـود حشيشـة. يقـول باسـل «السـؤال عـن الحشيشـة هـو أوّل سـؤال يطرحـه عليـك كلّ مـن يعـرف أنّـك مـن الهرمـل «صرت حسّ إنّـه نحنـا عنّـا جيبـة سرّيـة فيهـا حشيشـة، لمجرّد إنّا مـن الهرمـل».

الزواج من الهرمل

تخرج الصورة النمطيـة عن إطارهـا الفكاهـي عندمـا تصـل لتؤثـر عـلى حيـاة أبنـاء الهرمـل. وهـذا مـا حصـل تحديـداً مـع غـدي الـذي أغـرم بزميلتـه في الجامعـة وبادلتـه الحـب. «ع جثـتي مـا بتتزوّجـي واحـد مـن الهرمـل» قال لهـا والدهـا عندمـا أخبرتـه أنّ زميلها يرغـب بزيارتـه. علّل الأب رفضه بالخـوف عـلى حياتهـا: «ع أقلّ مشـكل هـودي بيقوّصـوا، مـا بدنـا مشـاكل». حـتى أنّـه روى لهـا طرفـة متداولـة عـن أهـل المنطقـة: «وقـع عـلي بالبـير فسـألت أم علي زوجها: شو منعمل منطلّعه أو منجيب غيره؟ فقـال لهـا اتركيـه منجيـب غـيره». وأعقـب مـا اعتـبره «نكتـة» بتعليـق «هـودي بيخلّفوا كتير يـا بيـي، بكـرا بتقضّيهـا خليفـة». أمّـا والدتهـا فنبّهتهـا مـن مـا اعتبرتـه سـلوكيّات «كلّ رجـال المنطقـة» وفـق تعبيرهـا «بيضربـوا نسـوانهم وكلّهـم بيتزوجـوا تنتـين، بكـرا بيخـفّ الحـب يـا مامـا وبيـتزوّج عليـكي». يقـول غـدي إنّ حبيبتـه، وبعـد

محاولات حثيثة تمكّنت من إقناع أهلها بالتعرّف إليه، «رحت وقلبي عم يدقّ ومش مرتاح». بعد السلام والكلام، قال له والدها «قبلت شوفك يا إبني حتى بلّغك قراري شخصياً، بنتي مش عم تقتنع معي، بس من الآخر ما إلك عنّا عروس». يقول غدي إنّه ترك منزل العائلة وقرّر أن ينهي علاقته بزميلته «ما كان ممكن صاهر هيك ناس هالقد رافضينّا، كيف بدي إتعايَش معهم ويكون في أولاد مشتركين بيناتنا؟». حزّ بنفسه جداً ما أسماه تعصّباً، «ما شفت غير التعصّب والتخلّف، مع إنّهم بيعتبرونا نحنا متخلفين».

سميرة خاضت تجربة مماثلة ولكنّها «انتصرت» في النهاية، كما تقول. تعرّفت هي الأخرى إلى شاب في عملها في بيروت. أحبّا بعضهما البعض وقرّرا الزواج «أهلي وافقوا مع أنّه من غير ديني». لكنّ أهل الشاب رفضوا بداية، وعندما أقنع والدته بالتعرّف إليها قالت له: «والله مرتّبة هالبنت مع إنها من الهرمل». قال له شقيقه «بكرا إذا تخانقت إنت وايّاها بيضربوك أخوتها، إذا طلقتوا بيشلّحوك الولاد أو بيخطفوك». حتى أنّ إحدى شقيقاته رفضت أن تحضر زفافه اعتراضاً. بعد سنوات من الزواج، نسأل سميرة عن علاقتها بعائلة زوجها «أنا كنّتهم المفضّلة اليوم، وبيطلعو لعند أهلي شي ٤ إلى ٥ مرات بالسنة وبيقعدوا ويك أند كامل، وبيحبوا المنطقة كتير»، حتى أنّ «عمّها»، والد زوجها، اعتذر من والدها لاحقاً «لي ما بتعرفو بتجهلو، وإنتو ناس طيّبين وأهل كرم وما بتشبهو لي بينحكى عن المنطقة أبداً».

لهجتك بتطفّش الزباين

مع عدم وجود فرص عمل في الهرمل، فرحت زهراء كثيراً بالعثور على وظيفة في أحد الأفران الكبيرة والمشهورة في بيروت. بعد يومين من دوامها من الثامنة صباحاً ولغاية السادسة مساء، أرسلت وراءها مديرة الفرن «إنت مبيّن عليكي شاطرة ونشيطة بس بدّي أطلب منك تزبّطي لهجتك شوي بس تحكي مع الزبونات». لم يسبق أن عاشت زهراء خارج الهرمل: «أنا خلقت هون وربيت هون وبحكي لهجة منطقتي لي بيعتبروها كتار دفشة وخشنة». في اليوم الثالث جعلت زهراء تستمع إلى لهجة زميلاتها في العمل لتحاول تقليدهنّ ولم تفلح. في نهاية الأسبوع الأوّل لعملها طلبتها المديرة، وقبل أن تقول لها شيئاً ناولتها مغلّفاً أبيض اللون «هيدا بدل أتعابك لمدّة أسبوع». ارتجف قلب زهراء لأن اتّفاقها مع الإدارة كان شهرياً، وقبل أن تفتح فمها بأي كلمة، ختمت المديرة الحديث «ما رح يمشي حالك عنّا، لهجتك بتطفّش الزباين، بعتذر منّك ما إلك محلّ عنا».

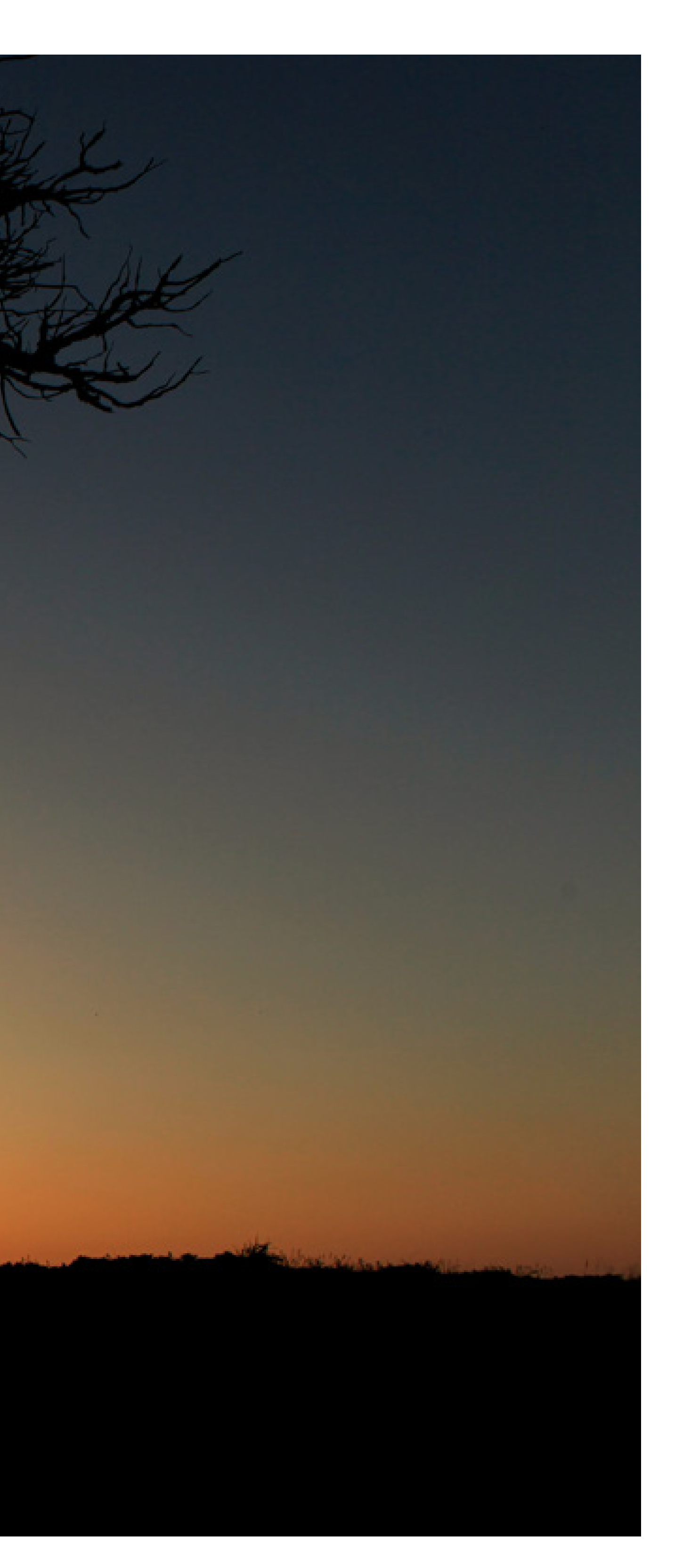
غادرت زهراء الفرن، اتّصلت بصديقة لها تسكن في بيروت وصارت تبكي من قهرها «قلت بأمّن مصروفي من عرق جبيني وما بعود انطر أبي وأخوتي ليتعطفوا عليي بـ٥ أو عشرة آلاف كمصروف شخصي، حسّيت بظلم كبير لأنّي اشتغلت من قلبي وكنت حابّة كمّل برغم التّعب وتدنّي المعاش». حاولت صديقتها مواساتها ومنحتها رقم موظّف في شركة أمن

«بدهـن بنـات احكيـه وروحـي قدمـي طلـب».
أرسـلت الشركـة زهـراء للعمـل كحارسـة أمـن في وسـط بـيروت «كنـت بالسّـواق تبـع المنطقـة لي إسمهـا داون تـاون، وكلّ محـل أتقـل مـن التـاني». بعـد أسـبوع مـن عملهـا شـاع في الشـارع أنّهـا مـن الهرمـل «صـاروا الموظّفـين يجـوا واحـد ورا التـاني يسـألوني إذا معـي حشيشـة؟ فيـكي تجيبـي لنـا حشيشـة؟». بدايـة كانـت زهـراء تضحـك وتعتقـد أنّ كل مـا في الأمـر «مزح بمزح»، حتى صارت المزحة مزعجـة «بالآخـر عرفـت إنّـه في كتـار عـم يحكـوا عـن جـد». لم يكـن الراتـب جيّداً «كانو يعطوني ٩٠٠ ألـف، مـا لقيـت غرفـة حـتى ع الأوزاعـي بأقـلّ مـن ٤٠٠ ألـف مـع مطبـخ وحمـام، والبـاقي قسّمتـه بـين أجـرة طريـق وفاتـورة كهربـا». مـرّت عليهـا أيـام لم تملـك مـا يكفـي مـن المـال للطعـام «كتـير أيـام كنـت أكتفـي بوجبـة وحـدة ووجبـة متواضعـة غـير مغذيـة». اشـتغلت ثلاثـة أشـهر وانخفـض وزنهـا سـبعة كيلوغرامـات «حـتى همّـتي قلّـت وصرت إمـرض كتـير». في آخـر الشـهر الثالـث، أدركـت أنّ بـيروت ليسـت لهـا، هـي الصبيّـة الـتي تسرّبـت مـن المدرسـة في الصـفّ الثـاني تكميـلي، وقـرّرت العـودة إلى الهرمـل «بكيـت كتـير، حسّـيت بخيبـة كبـيرة ومـا قـدرت كـون امـرأة مسـتقلّة عـن أهـلي»، وأقفلـت عائـدة إلى منزلهـا.

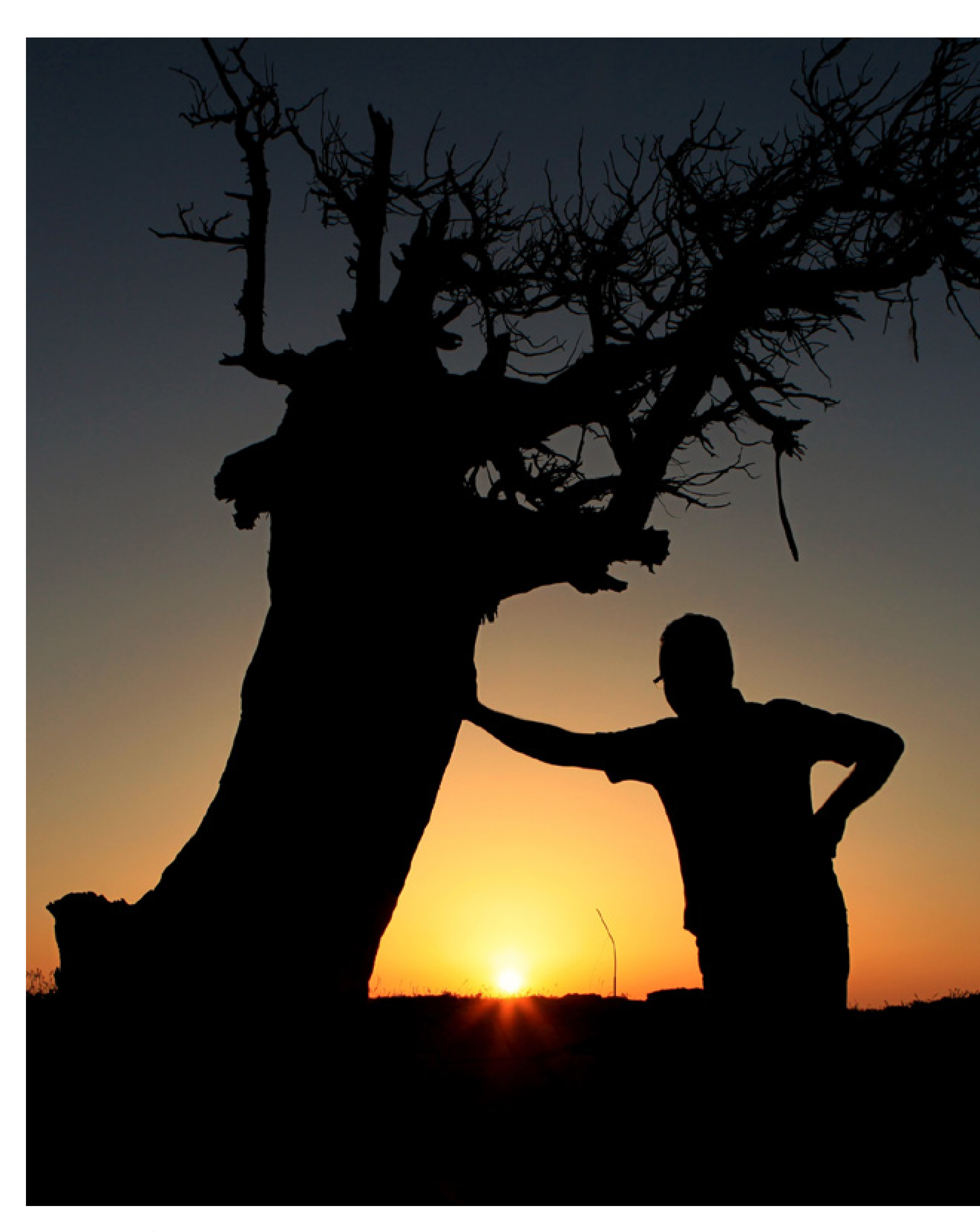
ربّمـا لا تجـد في الهرمـل وقضائهـا شـخصاً لا يضطـر للإجابـة على سـؤال يطرحه معظـم الذيـن يرغبـون في زيارتـه «إذا جيـت بسـيارتي معقـول تنـسرق؟ أو بقـدر إطلـع بسـيارتي لعنـدك؟»، وخصوصـاً مـن أولئـك الذيـن يمتلكـون سيارات فخمـة. بعـض زوار الهرمـل يسـألون مضيفيهـم مـن أهلهـا «معقـول يخطفونـا؟».
يعـترف رامـي اسـكندر أنّ هـذه الصـورة ليسـت وليـدة خيـال النـاس في المناطـق الأخـرى «خلّينـا نعـترف إنّـه نحـن كمـان عنّـا مشـاكلنا، وفي كتـير من هالمخاوف محقّـة». ومـع ذلـك يـرى أنّ كثيريـن لا يأبهـون بـكلّ مـا يحكى عـن المنطقـة «وبيسـوقوا ٣ سـاعات وبيتعذّبـوا وبيجـوا لعنّـا وبيحكـوا كتـير حلـو عـن ضيافتنـا وكرمنـا وإكرامنـا للضيـف، وعـن جمـال منطقتنـا».

هـدى واحـدة مـن هـؤلاء: «أكـتر شي بحـب إطلـع ع الهرمـل وع العـاصي وع الجـرد». لا تخفـي أنّهـا لا ترتـاح إلّا حـين تصـل إلى بيـت أصدقائهـا فيهـا: «مـا بـدّي كـذب وقـول إنّـه مـا بخـاف إطلـع بسـيارتي، أنـا مـش بنـت عشـيرة لكـون محميّـة». فصـورة العشـيرة عندهـا «قاسـية وفيهـا تخلّـف ودكتاتوريـة»، تقـول. وتخـاف هـدى الـتي غالبـاً مـا تـزور المنطقـة «لمّـن بمـرق بمساحات غـير مأهولـة كتـير بخـاف، حـتى مـرّة جينـا مـن الشمـال ع الهرمـل وكنّـا خمـس أشـخاص بالسـيارة ومـع هيـك خفنـا يطلـع لنـا طفّـار ع الطريـق».

في الجـزء الممتلـئ مـن الـكأس، تربـط هـدى الهرمـل بـ»الجـرود الجميلـة وبالزراعـة والعـاصي وبطيبـة النـاس وكرمهـم، وبخاصّـة بقـوّة نسـائها». تقـول إنّهـا تعـرف نسـاء مـن مختلـف مناطـق لبنـان «بـس بنـات الهرمـل أكـتر شي بيناتهـن متحـرّرات مـن السـلطة الأبويّـة وبالفكـر واعيـات، حـتى بالجـرد بتلاقيهـن عـم يشـتغلوا ويتحمّلـوا مسـؤولية



العيلـة والأهـم كتـير بيحبـو يعلّمـو أولادهـن وبناتهـن». وتحمّـل مسـؤولية الصـورة النمطيـة عـن الهرمـل للإعـلام «بيركّـزوا بـس ع الأخبـار لي بتخـوّف»، ولكنّهـا تطلـب مـن أهـل المنطقـة أن ينتـصروا لمنطقتهـم أيضـاً «كمـان لازم بعـض النـاس فـوق يتغـيّروا»، أمّـا المسـؤولية الكـبرى ف»عالدولـة، لمّـن بالهرمـل بحـس إنّـه مـا في دولـة لتحمـي النـاس ولتحميـني إذا صـار شي، طيّـب كيـف بقيـة اللبنانيـين بدهـم يكونـوا مرتاحـين ليجـوا ع الهرمـل إذا الدولـة نفسـها مـش جايـة».



الغروب في جرد الهرمل | **تصوير كامل جابر**

«حكي عالبلدي»
أو حين تمرّد شباب الهرمل على بلديّتها

رشدي حمادة
ناشط وأحد مؤسّسي
صفحة "حكي عالبلدي"

«حتى ما ننشر غسيلنا قدّام الغُرب وزوّار العاصي» بهذه العبارات اقترح ناشطٌ مغترب من الهرمل إنشاء صفحة مقفلة على فيسبوك خاصّة بأهل الهرمل وعَرَضَ الفكرة على من اعتبرهم مهتّمين بالشأن العام من شباب المدينة، فأُنشِئت صفحة «حكي عالبلدي» بوجه صفحة «حكي بلدي» المدارة من أعضاء في بلدية الهرمل.

كان ذلك في تموز ٢٠١٦. وخلال فترة وجيزة، اجتذبت الصفحة التي عرّفت عن نفسها بأنّها «مجموعة من أبناء الهرمل السّاعين للوصول إلى رؤية عصرية وفاعلة للحركة الإنمائية» أكثر من ٤٠٠٠ شخص من أهالي الهرمل التي لم يتعدّ عدد الناخبين في استحقاقها البلدي الأخيرة ٥٩٠٠ صوت. ومن أهم أسباب ثقة المجتمع الهرملاني بالصفحة كانت تنوّع التوجّهات السياسية للمشرفين عليها بين اليمين واليسار وخلفيّاتهم الاجتماعية حيث مثّلوا مختلف شرائح البلدة من العشائر والعائلات، إضافة للتنظيم الذي منع التعرّض «بالشخصي» لأحد لتفادي الصدامات. وبالتالي شكّلت منبراً للغيّورين على البلدة وشبكة لتبادل المعلومات والصور المتعلّقة بالشأن البلدي.

ظروف نشأة الصفحة

اجتمعت ظروف عديدة أدّت إلى ولادة صفحة «حكي عالبلدي» بدأت منذ ما قبل الانتخابات البلدية ٢٠١٦، حين بلغت النقمة الشعبية أَوْجَهَا. لم تكن الانتخابات لتُحسم بالطرق التقليدية المبتذلة، فإعادة ترشيح المجلس البلدي نفسه كانت بمثابة استفزاز لأهالي المنطقة. فلجأ نائبٌ محنّك إلى مقولة جوزيبّي دي لامبيدوزا «إذا ما أردنا إبقاء الأمور على حالها يتعيّن أن تتغيّر هذه الأمور»، فزجّ اسمين جديدين في اللائحة وجرى ترشيح شخص «منّن وفيهن» لينافسَ لائحة حزبهِ ويخرقها. ونجحت هذه المظاهر الشكلية للتغيير والتعددية المزيّفة بلملمة السخط الشعبي مؤقتاً وكسب مقاعد المجلس.

لم يحاول مسؤولو العمل البلدي في حزب الله تغيير شيءٍ في أداء المجلس رغم تجَلّي السخَط الشعبي بوضوح عبر مؤشراتٍ لم يألفها الحزب في الهرمل كتقلّص نسبة المقترعين إلى ٢٨ في المئة وحصد لائحة «معاً» المنافسة لـ«المحدلة» الانتخابية نحو ربع أصوات الناخبين.

ولكن «معاً» لم تنجح في أن تكون بلدية الظلّ المرجوّة ولا حتى مجموعة ضغط بل كانت بمثابة معارضة موسمية بهتت بعد الاستحقاق. وفي ذلك الوقت

كانت الهرمل على حالها: أكثر من ٢٠٠ مسمكة غير شرعية تلوّث نهر العاصي، انقطاع مستمرّ للمياه في بلدة الـ١٣ ينبوعاً، تسرّب مياه الصرف الصحي في الشوارع، مشكلة انقطاع الكهرباء، حرق النفايات ومطامر القرى المجاورة وغيرها الكثير. وتوّج كلّ ذلك باختيار موقع مشروع معمل تكرير الصرف الصحّي في محميّة الصنوبر قرب نهر العاصي مع اعتراف البلدية بأنّ دراسة الأثر البيئي لا تزال قيد التحضير ولصق القرار على حائط البلدية مرفقاً بدعوة للمعترضين للتقدّم باعتراضهم خلال ١٥ يوماً. كانت تلك هي الشعرة التي قصمت ظهر البعير لشباب وشبّان الهرمل الذين أطلقوا العنان لصرخاتهم على وسائل التواصل الاجتماعي جُمعت لاحقاً ضمن صفحة «حكي عالبلدي» كما على أرض الواقع باحتجاجات رافضة للمشروع.

ماذا أنجزت الصفحة؟

امتلأت «حكي عالبلدي» بالفضائح التي شابت العمل البلدي من توظيفات بالواسطة إلى التلزيم «حبّياً» بدون استدراج عروض وصولاً إلى مشاريع «التنفيعة» كجدار مكبّ النفايات في منطقة الشرقي.

وتقدّمت مجموعة «حكي عالبلدي» بشكوى إلى القائمقام بخصوص الجدار المذكور حيث تبيّن أنّ الملف بمجمله مخالف لأبسط القواعد المالية والإدارية إذ تبيّن أنّ القيمة المرصودة للمشروع تتجاوز ٣٥٠ مليون ليرة وبالتالي فهو يحتاج إلى موافقة وزير أو أكثر قبل إجراء أي مناقصة أو استدراج وفضّ عروض وعليه تمّ إيقاف الأعمال تحت طائلة المساءلة القانونية من قبل سلطة الرقابة.

كما تابعت المجموعة قضايا عدّة رفعتها إلى السلطات الرقابية كقضية المسامك التي تطعم أسماكها من مخلّفات المسالخ وأحشاء الدواجن حيث أعطت أسماء المسؤولين عن تلك المخالفات مرفقة بالصور والفيديوهات إلى المخفر الذي بدوره أرسلها للمدعي العام البيئي في البقاع أياد بردان وتمّ توقيف المخالف واغلاق المسمكة بالشمع الأحمر لأيام معدودة قبل أن يعاد فتحها وينتهي الأمر بالملف في أحد أدراج مكتب المدعي العام بأحسن الأحوال.

رقيب بلا حسيب

في البداية تجاهلت البلدية الصفحة ونُقل عن أحد أعضائها «المعتّقين» لدى سؤاله عنها وعن المشاكل المطروحة قوله: «ولاد وعم يتسلّوا» لكنّ زميله المستَجدّ أيقن وجوب الإنصات لمعرفة المشاكل واقتراحات الحلول فتابع كل ما يتداول على الصفحة وتفاعل مع المواضيع المطروحة. أمّا الرئيس والأعضاء «أصحاب الخبرة» فلم يبدوا أيّ نوع من التفاعل. لم يدم التطنيش طويلاً فالصدى وصل أبعد من توقّعات الريّس صبحي صقر، حيث وجّه عباس مرتضى مدير جمعية «إرشاد» التابعة لحركة أمل المعنيّة بالعمل البلدي (وزير الزراعة والثقافة

في حكومة حسّان دياب فيما بعد) للاجتماع بأفراد المجموعة. اعتبر حزب الله هذه الخطوة «تعليمة» عليه فسارع الوسطاء لطلب لقاءٍ بين المشرفين على الصفحة والمجلس البلدي. لبّت المجموعة الطلب فرتّب لقاء مع رئيس البلدية صبحي صقر حيث عرضت المجموعة المشاكل العالقة من شاحنات مخلّفات المسالخ وأحشاء الدواجن الآتية من الشمال لتباع لمربّي الأسماك على حوض العاصي وصولاً إلى المشاكل القديمة كالإنارة وتزفيت الطرقات وغيرها. فأجاب صقر بالكثير من الوعود. أما بخصوص الزفت والإنارة فقد برّر قائلاً: «نحن بدورنا عم نطلب بشكل مستمر من الحاج حسين النمر وناطرين متلنا متلكن». والنمر هو مسؤول العمل البلدي في حزب الله- فرع البقاع، وهو المعروف بسيطرته التامّة على عمل البلديات في المنطقة، وإشرافه المباشر على موازناتها وآليات صرف الأموال فيها عبر تقارير شهرية ترفع إليه من كلّ بلدية تابعة للحزب وجولات تفتيشية يجريها العاملون معه على هذه البلديات.

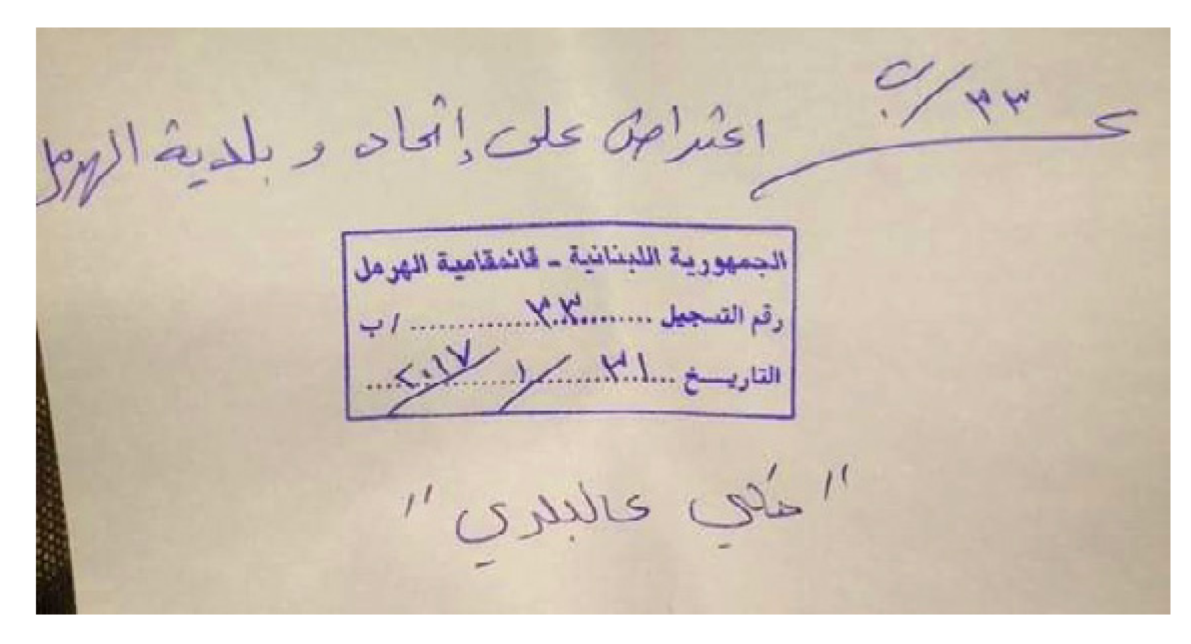
ومع ازدياد عدد متابعي الصفحة ازداد حجم البلبلة والامتعاض في أزقّة الهرمل، فأبدت البلدية اهتمامها بعدّة مشاريع سياحية مطروحة كالعمل على مجسّم: I love Hermel وحفل افتتاح الموسم السياحي وإنارة قاموع الهرمل وغيرها. ووجدت البلدية نفسها مجبرة على تغيير سياسة التلزيم بالتراضي وبدأت بطرح المناقصات للمشاريع العامّة كإنشاء حفر صرف صحّي عازلة على ضفتي نهر العاصي للمنشآت السياحية وبناء مبنى اتحاد البلديات وغيرها. ومن جهة أخرى، بدأت تسطير محاضر ضبط بحقّ المعتدين على مياه نبع رأس المال والمسامك المخالفة ولو أنّ تلك الإجراءات اتّسمت بالاستنسابية الواضحة من دون مبرّر مقنع.

نهاية غير متوقعة

في المقابل، بقيت الوعود التي أطلقها رئيس البلدية في اجتماعه مع المجموعة كلاماً في الهواء، كما عزفت البلدية عن تلبية طلب المتابعين بالكشف عن موازنتها واتّباع الشفافية المالية التي ينصّ عليها قانون حق الوصول إلى المعلومات.

ترافق ذلك مع حملة ترغيب من البلدية لأعضاء مجموعة «حكي عالبلدي» تمثّلت في دعوتهم للمشاركة في اللجان البلدية وهي دعوة رأوا فيها محاولة لإسكاتهم فرفضوا المشاركة، وتبع ذلك حملة ترهيب على أفراد المجموعة من تهديدٍ حيناً وتشهيرٍ أحياناً.

ولكن كل ذلك لم يُسكت صفحة «حكي عالبلدي» وبقيت تنشر الأخبار والوثائق التي تظهر تجاوزات البلدية وتقصيرها وذلك حتى تشرين الأوّل ٢٠١٩ قبل أسبوع من اندلاع انتفاضة ١٧ تشرين حين تعرّضت لهجوم رقمي أدّى إلى إغلاقها نهائياً، لتُطوى بذلك تجربة شبابية شكّلت علامة فارقة في الهرمل ومصدر قلق للسلطات المحلّية أو ربّما عُلّقت حتى إشعارٍ آخر.



٣٣/ب

اعتراض على إتحاد و بلدية الهرمل

الجمهورية اللبنانية - قائمقامية الهرمل

رقم التسجيل ....٣٠٣.............. /ب

التاريـــخ ...٣١........./١/٢٠١٧....

"حكي عالبلدي"

الاعتراض الذي قدّمته الصفحة إلى القائمقامية بخصوص جدار النفايات



جدار مكب النفايات وهو أحد "التنفيعات" المخالفة للشروط

02



عشائر الجرد الغربي

العدالة في أعراف العشائر

سعدى علّوه



رسم رواند عيسى

استفاق عدد من وجهاء عشيرة جعفر وفاعِلياتها في أحد أيام خريف ٢٠٢٠ على حركة غير اعتيادية أمام منازلهم، ليجد كلّ منهم امرأتين أو ثلاثاً من عائلة الجمل أمام بيته. فُتِحَت منازل العشيرة على الفور وتمّ استقبال نساء آل الجمل في "صدور" البيوت، أي جرى تكريمهنّ، وأُسكنَّ مع نساء الجعافرة "معزّزات مكرّمات"، كما يؤكّد علي عبدو جعفر أحد وجهاء العشيرة، لـ"المفكرة".

حقن الإتيان بالنساء الدم الذي كان سيسيل لو ثأر الجعافرة من عائلة الجمل لمقتل ابن العشيرة محمد شامل جعفر في كمين داخل الأراضي السورية، اتُّهم فيه أشخاص من آل الجمل. يومها، وعلى الفور، وإثر سعي ذوي الفقيد ومن ورائهم عشيرته إلى الثأر له، تمّ إخلاء جميع منازل آل الجمل في بلدة القصر التي يعيش فيها جزء كبير من الجعافرة أيضاً، وأقفل هؤلاء حي عائلة

الجمل ببوّابة تحول دون دخول أيّ كان إليه. وبرغم تدخّل الكثير من الوجهاء والفاعِليات من سياسية ومجتمعية وعشائرية لدى آل جعفر للمصالحة، وإبداء آل الجمل استعدادهم لدفع ديّة[1] كبيرة قيل إنها وصلت إلى ١٥٠ ألف دولار أميركي، في حين أنّ الديّة المتعارف عليها كانت يومها بحدود ٥٠ مليون ليرة (أي ما يعادل ٣٣ ألف دولار أميركي قبل انهيار الليرة)، إلاّ أنّ جبّ "الغنم" الجعفري، وهو جبّ القتيل، لم يرضَ بالصلح. وطبعاً لا يمكن للعشيرة أن تأخذ القرار بالمصالحة خلافاً لرأي أولياء الدم، أي أهل القتيل. وكانت اشتباكات بين عائلتي جعفر والجمل سبقت الخطوة الأخيرة، ومنها هجوم شنّه الجعافرة على قرية الجمل داخل الأراضي السورية، واسمها العصفورية، وعلى تجمّعهم (تجمّع عائلة الجمل) في بلدة زيتا، السورية الحدودية أيضاً، حيث تدخّل المصلحون يومها لإخراج الأطفال والنساء قبل الهجوم على منازل الجمل.

يرى أحد وجهاء العشائر (فضّل عدم ذكر اسمه) أنّ صاحب فكرة الإتيان بنساء الجمل إلى ديار عشيرة جعفر "داهية، وفي منتهى الذكاء". إذ أنّ هذا التقليد الذي كان رائجاً في تاريخ العشائر، كان وحده الذي سينجح في حقن الدماء مع رفض الجعافرة الصلح، وله أثر كبير في النفوس لارتباطه بـ"العرض" (ترك نساء الجمل في عهدة جعفر)، وهو (أي "العرض") أحد أقانيم العُرف العشائري التي يحددها الباحث سويدان ناصرالدين في بحثه حول عشائر الجرد الغربي بثلاثة "الدم والعرض والأرض، بما هي النزل (أي السكن) والمكان، وتنضوي تحت مفهوم واحد يجب حفظه وهو الشرف" [2].

وفور الانتهاء من ترتيب إقامة نساء عائلة الجمل، تنادى وجهاء آل جعفر إلى اجتماع طارئ لمواجهة الإرباك الذي أحدثته خطوة آل الجمل والعُرف الذي يقضي بالاستجابة للصلح، كونها (أي الخطوة) أكثر ما يمكن أن يضع العشيرة على محكّ ضرورة القبول بالمصالحة، وأرسلوا يطلبون من جبّ الغنم، آل الفقيد، جواباً في غضون ساعات، لتكون العشيرة على الموقف نفسه. وعليه، قام أولياء الدم بإيصال نساء الجمل إلى حي العائلة في القصر حيث أزاحوا البوابة بأنفسهم، وأدخلوا النساء إلى ديارهنّ، وطلبوا منهنّ دعوة رجال العائلة للعودة إلى بيوتهم. وقبل الجعافرة الصلح بعد نفي المتّهمين بقتل ابنهم وعددهم سبعة وحصر الثأر بهم دون بقية ذكور آل الجمل الذين عادوا إلى ممارسة حياتهم الطبيعية. يؤكّد أحد وجهاء آل جعفر علي عبدو جعفر أنّ ذوي الفقيد سمحوا بعودة عائلة الجمل، لكنّهم لم يقبلوا بقبض الديّة مهما ارتفعت قيمتها، ولم يصفحوا عن المتورّطين، بل حصروا الثأر بهم. وفي أوائل حزيران الجاري (٢٠٢١) أطلق شبان من آل جعفر النار على أحد المتهمين السبعة من آل الجمل قرب زيتا داخل الأراضي السورية وأصابوه بـ١٤ طلقاً نارياً لكنّه لم يمت وما زال يخضع للعلاج في إحدى المستشفيات السورية. وعلمت "المفكرة" أنّ جبّ الغنم، وهو جبّ القتيل محمد شامل جعفر، اعتبر بعد هذه الحادثة أنّه تم الأخذ بالثأر له، في حين يسعى الوجهاء وفاعِليات سياسية

(١) الديّة مبلغ مالي يُدفع جزية أو تعويضاً عن قتل أحد الأشخاص تمهيداً للمصالحة.

(٢) بحث للكاتب سويدان ناصرالدين حول الهرمل وعشائرها، الحلقة ١٣ "التقاليد سور البناء الاجتماعي وللعرف أصول وأحكام"، ١٩٨٨، جريدة السفير.

حالياً إلى عقد صلح يطوي هذه الصفحة نهائياً.

ينطلق العنوان الذي أطلقه الاختصاصي في علم الاجتماع والأستاذ المتقاعد في الجامعة اللبنانية الدكتور فؤاد خليل على كتابه عن عشائر جرد الهرمل "العشيرة دولة المجتمع المحلّي"، من افتراض امتلاك هذه العشائر منظومة متكاملة من الأعراف والعادات والتقاليد والسلوكيات التي تحكم الحياة ضمن مجتمعها وحتى مع المحيط، بما فيها منظومة السلطة داخل كل عشيرة ومع العشائر الأخرى. وإن كنّا اليوم أمام اضمحلال العديد من هذه الأعراف والسلوكيات وتغيّرها أو اندثارها من دون أن يوثّقها علماء الأنثروبولوجيا، على أهميتها، قبل رحيل الرعيل الأول الذي كان ما زال يحفظها ويتمسّك بها. إلاّ أنّ العديد من الممارسات العشائرية ما زالت قائمة ومعتمدة في بعض المحطّات، حتى بغضّ النظر عن انخراط هذه العشائر، وإن بالحدّ الأدنى، في الانتظام العام للدولة اللبنانية الغائبة فعلياً عن مناطقهم، حيث تقتصر مقاربتها على الأمن، والأمن المنقوص في معظم الأحيان.

وفي سياق العمل على هذه المقالة، أجرينا عشرين مقابلة مع وجهاء عشائر عدّة، تناولنا فيها العديد من نواحي الحياة من حرمة الدم، وحرمة المنزل، وحماية الدخيل على العشيرة، أي اللاجئ إليها، وإجراءات الصلح، والجاهيّة وهي لجنة المتدخّلين في الصلح بين عشيرتين والديّة وقيمتها وكيفية دفعها، وحرمة النسب والانتماء للعشيرة، وإحياء مراسم العزاء. وفيما توثّق المقالة بعض الأعراف والسلوكيات في قضايا العدالة والثأر وإيواء طالب الحماية لدى أي عشيرة والقتل والسرقات من منظور العشائر، فإنّ الجانب المتعلّق بجرائم "العرض" سيدرج ضمن تحقيق خاص حول نساء العشائر ننشره ضمن الملف عينه.

العدالة العشائرية: حكم مبرم

قبل نحو ٣٥ عاماً من اليوم، وكنت ما زلت صغيرة، تناهى إلى سمعي أنّ عشيرة علّوه قد أجرت تحقيقاتها في حادث العثور على أحد أبنائها جثة هامدة في جردها بعد تعرّضه للقتل وسرقة مبلغ ١٠ آلاف ليرة لبنانية كانت معه. وبالتواتر، عرفتُ أنّ العشيرة حدّدت القاتل وهو من أبناء العشيرة نفسها، وحكمتْ عليه إثر اجتماع عقده مجلسها المؤلّف من زعماء الأجباب والأفخاذ وعائلة الجاني. فكّرتُ كثيراً في الحكم الذي لم أعرف ماهيّته، وانتظرت حتى عودة أبي مساءً وسألته، فجاءني الجواب مقتضباً. فهمتُ منه أنّه لم يقل لي كامل الحقيقة: "نفوه يا بابا لبعيد ما بقى حدا يشوفه". قال لي بطريقة لم يبقَ لي معها مجال لسؤال آخر. لاحقاً، دأبتُ على متابعة الموضوع إلى أن عرفت أنّ العشيرة حكمت على الجاني بالقتل، وأنّ أسرته، أي أقاربه "اللّزم"، هي التي نفّذت الحكم بيدها، وتمّ دفنه في الجبال، وليس في مقبرة العشيرة أو أي مقبرة عامّة. لم يُقم له عزاء ولم يتقبّل التعازي به أحد.

يومها لم يكن ما عرفته ينطبق على ما أتعلّمه في كتاب التربية المدنية وسلطة القضاء والقانون في إطار الدولة التي يجب أن تتبع لها المنطقة التي نعيش فيها، كان خارج الانتظام العام برمته.

بعد ٣٥ سنة من هذه الحادثة، قضى الشقيقان شادي وإبراهيم جعفر في ٥ كانون الثاني ٢٠٢١ بنيران أطلقها عليهما لصوص كانوا بصدد سرقة محوّل الكهرباء في منطقة النعناعة في جرد عشيرة آل جعفر. وكان الشقيقان الضحيّتان قد قصدا منطقتهما بعد سرقة منزل العائلة في النعناعة بتاريخ ٤ كانون الثاني ٢٠٢١، أي قبل يوم من مقتلهما، فعاد اللصوص لنقل محوّل الكهرباء وأطلقا النار عليهما لدى محاولتهما الدفاع عن أملاكهما. وهزّت الجريمة الرأي العام خصوصاً أنّ الشابين اليافعين (في العشرينات) أصحاب سيرة حسنة ولا علاقة لهما بأي سلوكيات خارجة عن القانون.

حضرت القوى الأمنية وفتحت تحقيقاً في الجريمة، ولكنّ عشيرة آل جعفر تقصّت هي الأخرى وحُدّدت المشتبه بهم بالتورّط في الجريمة من بين ذوي السوابق وطلبت من ذوي كلّ واحد منهم تسليمه للأجهزة الأمنية (وهي مخابرات الجيش في المنطقة) تحت طائلة المسؤولية في حال عدم التجاوب مع طلبها. وعلمَتْ "المفكرة" أنّه كان هناك مطلوبون بين الذين تمّ تسليمهم للقوى الأمنية في قضايا متفرّقة ومع ذلك لم يتمّ التحقيق معهم سوى في جريمة مقتل الشابين وأعيد إطلاق سراحهم من دون فتح ملفّاتهم العالقة، ممّا يشير إلى أنّ هذا الأمر كان ضمن التسوية المتّفق عليها على آلية التسليم. وكان أثر التحقيقات ضمن العشيرة أصعب من تحقيقات الدولة لحساسية الموضوع داخل العشيرة نفسها. وفي إثر الحادثة، عمّمت العشيرة ميثاقاً حصلت "المفكرة" على نسخة منه ينصّ على الآتي "تداعت عشيرة جعفر وكلّ الكرام على اتفاق وميثاق نهائي مقرّر يُعمل به من أجل هذه الجريمة وما يليها من جرائم مشابهة لها لا سمح الله، تضمن البنود التالية:

١- كلّ من يظهره التحقيق أو يدان قانوناً من الموجودين لدى الأجهزة الأمنية بهذه الجريمة، تقرّر الاقتصاص منه بالإعدام من قبل ذويه أوّلاً.

٢- كل من يساند أو يتستّر على إخفاء معلومات عن هذه الجريمة ومرتكبيها، يُعتبر مداناً، إن كان قريباً أو بعيداً، يُطلب نفيُه خارج نطاق أراضي آل جعفر.

٣- بعد الاجتماع الحاصل، تقرّر أنّه بعد تبيان الحقيقة من الجهات المختصّة قانوناً، يكون المذنب الجاني هو المسؤول أوّلاً وحصر الجريمة بنطاقها الضيّق حسب العادات والمواثيق التي يُعمل بها منذ زمن عند عشيرة آل جعفر.

٤- أمّا بالنسبة لموضوع الحرامية (اللصوص) الموجودين والمعروفين شخصاً شخصاً (بسبب سوابق لهم في مجال السرقة)، وعلناً والكلّ

يعرفهم، فإنّه تقرّر بالإجماع: أي لص دخل منزلاً أو حاول سرقة سيارة أو تشليح أو خطف فهو مهدور دمه بحال قَتله، ولا يحقّ لذويه المطالبة بدمه، كائناً من كان ضمن نطاق آل جعفر أو خارج حدودهم.

وإذ يؤكّد أحد وجهاء العشيرة علي عبدو جعفر محتوى البيان، يشير إلى أنّ آل جعفر أرسلوا نسخة عنه إلى كلّ عشائر المنطقة وأنّ الأخيرة وافقت على مضمونه ليكون ميثاق شرف بين الجميع. وقال جعفر لـ"المفكرة" "نحن ساندْنا القوى الأمنيّة لكشف قتلة أولادنا، ولم نحلّ مكانها". ولاحقاً، تمكّنت مخابرات الجيش من كشف مرتكبي الجريمة، وفق ما نقرأه في البيان الذي أصدرته مديرية التوجيه في الجيش اللبناني عن عملية دهم في منطقة البحصة- عكار. وقد جاء في البيان: "بتاريخ ٢٠٢١/٥/١٦ أوقفت دورية من مديرية المخابرات المطلوب (أ.ع) في منطقة البحصة- دير دلوم – عكار خلال عملية دهم لمنزله... وأثناء عملية الدهم تعرّضت الدورية إلى إطلاق نار من المنزل المذكور ومحيطه، فاضطرّ العناصر إلى الردّ على مصادر النيران ما أدّى إلى مقتل العريفين الفارّين اللذين شاركا في الجريمة إضافة إلى مقتل المدعو (خ.ع) وإصابة زوجته (س.ض) والمدعو (م.ع). وضبطت الدورية كميّة من الأسلحة والذخائر. بوشر التحقيق بإشراف القضاء المختصّ".

وإثر كشف مرتكبي الجريمة، قام وفد من عكار بزيارة عشيرة جعفر لتقديم التعازي حيث استقبلتهم العشيرة في إشارة إلى طيّها صفحة الجريمة وعدم السماح بتسبّبها بأزمة بين عكار وعشائر الهرمل. وضمّ وفد عكار النائب وليد البعريني ورؤساء بلديات المنطقة ومخاتيرها وممثّل عن مفتي عكار وفاعليّات. واستقبلتهم عشيرة جعفر في ديارها بحضور النائبين غازي زعيتر (حركة أمل) وإيهاب حمادة (حزب الله) ووفد من حزب الله برئاسة الشيخ فيصل شكر ومفتي الهرمل الشيخ علي طه وشخصيات بلدية وعشائرية واجتماعية وسياسية. وبهذه الخطوة، تكون عشيرة جعفر قد سلّمت الأمر ختاماً للدولة ممثلة بمخابرات الجيش ومن ثم القضاء لتحقيق العدالة، وطوَتْ صفحة أي أمر يتعلق بالثأر.

صحيح أنّنا لا نجد في المَثَلين أعلاه التطابق التام، بعد مرور نحو ٣٥ عاماً ما بين الحادثتين ولكن ميثاق الشرف يحمل بعض الملامح المشتركة وعلى رأسها ملامح تحقيق العدالة عند العشائر في حالات القتل عبر الحكم بالإعدام على الجناة وتنفيذه على يد ذويهم (وفق البند الأوّل).

الثأر

يختلف الثأر بين العشائر حسب نتيجة الإشكال الذي أدّى إلى إراقة الدماء. فإذا اقتصر الأمر على التسبّب بجروح فغالباً ما تُعقد المصالحة بدفع تعويض بعد تدخّل المصلحين من وجهاء العشائر الأخرى، وخصوصاً إذا كان الحادث قضاء

وقدراً وغير مقصود، كأنْ يصاب ابن عشيرة ما في حين أنّ المقصود هو من عشيرة أخرى. أما إذا حصلت الإصابة قصداً أو عمداً، يصبح عقد المصالحة من دون الثأر أصعب، إذ يسعى المجني عليه ومن ورائه عشيرته، للثأر، حتى إن لم يصل إلى القتل بل اقتصر رد الفعل على التسبّب بجروح للجاني على طريقة "العين بالعين والسن بالسن"، ومن ثم تُعقد المصالحة "وحدة بوحدة". وحصل الصيف الماضي على سبيل المثال لا الحصر، أن قام أحد الأشخاص من غير أبناء العشائر، بل تنتمي أمّه لعشيرة ويعيش مع عائلته في ديرتها، بإطلاق النار على أحد أبناء عشيرة والدته، وإصابته بجروح بالغة من دون قتله رداً على إطلاق المجني عليه النار وإصابته بجروح قبل ذلك بنحو ثلاثة أشهر، برغم عقد مصالحة إثر الحادث الأول.

ومؤخراً، وإثر قيام شبّان من عشيرة علّوه بالاعتداء ضرباً على أحد أبناء عشيرة عوّاد، قام الأخير مع أقارب له بالهجوم على سيارة شبّان علّوه وأطلقوا نحو ثلاثين طلقاً نارياً عليها ممّا أدّى إلى مقتل شاب من آل علّام كان برفقة أبناء علّوه الذين أصيبوا بجراح. ولاحقاً قام شبّان علّوه بإطلاق النار على مهندس من آل عوّاد لا ناقة له ولا جمل بالحادثة ولا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بالجناة من أبناء عوّاد سوى الانتماء للعشيرة نفسها. وبعدما أصاب أبناء علّوه المهندس في قدمه، عُقدت مصالحة بين العشيرتين (علّوه وعوّاد).

وبرغم تأكيد وجهاء العشائر على مساعيهم لحصر عملية الثأر بالجاني، إلّا أنّ الوقائع على الأرض تقول عكس ذلك. إذ ولمجرّد حدوث إشكال بين اثنين من عشيرتين، يصبح جميع أبنائها معنيين بالثأر وخصوصاً في حال وقوع قتلى. حتى أنّ العشيرة تتنادى فوراً لدى وقوع إشكال بين عشيرتين وتخبر كلّ أفرادها بوجوب عدم التجوّل والاقتراب من مناطق نفوذ العشيرة الأخرى تجنّباً لتعرّضهم لاعتداء أو إطلاق نار أو حتى القتل سواء كان لهم شخصياً أي علاقة بالمتورّط في الإشكال.

وقبل سنوات طويلة كان أبناء العشائر يعيبون على بعضهم البعض في حال تقاعس أيّ منهم عن الأخذ بالثأر لقريب له، وخصوصاً الأب أو الأخ أو أبناء العمومة. ولكن اليوم، خفّ هذا التوجّه شرط أن تكون الدولة قبضت على الجاني وأنزلت به العقوبة التي يرونها متناسبة مع الجرم. ومع ذلك، يُمنع على الجاني التواجد في منطقة عشيرة غريمه حتى بعد قضائه محكوميته التي صدرت عن القضاء. ويحدث أن يقوم قاتل من عشيرة ما بتسليم نفسه للدولة إثر قتله أحد أبناء العشائر لحبس الدماء والثأر والثأر المضاد، ولكن قد يمتنع أهل المجني عليه عن الادّعاء الشخصي على الجاني ليخرج بعد قضاء عقوبة الحق العام فيتاح لهم الثأر منه. ونجد هنا أنّ عدالة العشيرة مقارنة بعدالة الدولة ليست نفسها في كلّ حالات القتل: فقد تقبل العشيرة بعدالة الدولة في حال وجدت الحكم متناسباً مع حجم الجرم، وإلّا فإنّها تعمد إلى

الثأر من الجاني وخصوصاً في حال عدم معاقبته بالعدل. كما لا تقبل العشيرة بوجود الجاني في منطقتها حتى لو قضى محكوميّته عند الدولة تحت طائلة الاقتصاص منه مجدّداً، إذ غالباً ما يعتبر تواجده في منطقة غريمه تحدّياً للعشيرة واستهزاءً بها يجب الرد عليه.

العتيق[٣]

من أبرز الأعراف عند العشائر في موضوع الثأر هو "العفو عند المقدرة" وهي عبارة مستقاة حرفياً من قول للإمام عليّ بالمعنى نفسه. وتتناقل الأجيال المتتابعة للعشائر قصصاً عن رجال عفوا عن خصومهم عند المقدرة، ومن بينهم رجال خرجوا للثأر لمقتل أخ أو أب أو عم وفاجأوا خصمهم وكان يمكنهم النيل منه عبر قتله فوراً، لكنهم، وعملاً بالعُرف القائل بعدم الغدر كانوا ينبّهون الخصم بعبارة "ما تقول أخذتك غدر"، وعليه يرفع الخصم يديه في دلالة على الاستسلام ويقول "أنا عتيقك" أي "أنت من عَتَقَ روحي" من القتل. وعادة يعلن الرجل المقصود بالثأر وجرى العفو عنه أنّه عتيق فلان. ويحتلّ من يعتق روحاً، عملاً بمبدأ العفو عند المقدرة، مكانة عالية من حيث الشهامة والشرف بين العشائر.

ومؤخّراً حصلت حادثة "عفو عند المقدرة" حين أحضر أحد وجهاء العشائر قاتلَي الشاب حسين عاصف ناصرالدين، من آل الهق إلى قبره فما كان من أخيه إلّا أنّ عفا عنهما. وكان حسين قتل خلال تواجده بالصدفة في حادثة أخذ ثأر بين آل ناصرالدين وآل الهق. وأصدرت عشيرة ناصرالدين، بتاريخ ٢١ حزيران ٢٠٢١، بياناً يوثّق الحادثة وفيه الرواية الكاملة مرفقة بصورة للضحية حسين عاصف ناصرالدين مع عبارة "أشرف الثأر العفو"، وهذا نصّه الحرفي:

"قال سبحانه:(وجزاء سيّئة سيّئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنّه لا يحبّ الظالمين). وقال سيّدنا الإمام علي (ع) العفو عند المقدرة. أمّا بعد: منذ عدة أشهر قُتِل الشاب الخلوق المظلوم حسين عاصف ناصرالدين خلال تواجده بالصدفة في حادثة أخذ ثأر بين آل ناصرالدين آل الهق، وحدث البارحة ليلاً بأن قام وجهاء العشائر بإحضار القاتلين إلى قبر المغدور وكان الرد من أخ المغدور "لم نقم بيوم من الأيام بتنكيس رأس عشيرة ناصرالدين وراياتها ولن نفعلها الآن ونقوم بقتلكم على قبر أخي، أنا عفوت عنكم". ومن المعروف بشرع العشائر أنّ الحضور إلى القبر والركوع عنده لها اعتبارات كبيرة.

إنّها لبصمة شرف كبيرة من حسن عاصف ناصرالدين أخ المغدور منذ اليوم الأول الذي غُدِرَ فيه أخوه ولم يقم بأعمال همجية، وصَبَرَ ثمّ كان العفو من شيَمه ورفع رأس عشيرته، آملين أن يتوقف سفك الدماء في منطقتنا ونرجو من غيرنا أن يتعلّم العفو عن قدرةٍ لا عن ذلّة. حتى يتأدّب المجرم ويعلم أن سفك دم البريء يُخنِع رأسه أمام الناس". وخُتم البيان بعبارة

(٣) في حالة العفو عند المقدرة يصبح المستهدف بالثأر، أي القاتل، "عتيق" الساعي للثأر في حال عفا عنه.

"ملاحظة: لم نقم بنشر أي مقطع فيديو أو صورة خلال تواجد القاتلين على قبر المغدور".

ويردّ وجهاء العشائر استمرار عادة الثأر إلى غياب الأمن في المنطقة وغياب الدولة حيث لا يتمّ في معظم الحالات القبض على القاتل ويبقى خارجاً عن القانون وطافراً في الجرود وهو ما يحتّم على ذوي المجني عليه، وفق قولهم، "الاقتصاص منه وإحقاق الحق". ويروي هؤلاء قصصاً كثيرة تمّ فيها تسليم الأمر للدولة ففوجئوا بتدخّل الوساطات وخروج القاتل بعد فترة وجيزة من دون أن ينال العقوبة التي يستحق.

ويكون المعني بالثأر داخل العشيرة الدائرة الأقرب للقتيل، أي أخوته ووالده ومن ثمّ الأعمام وأبناء الأعمام. أمّا إذا دخلت عشيرة في معركة إثر مقتل أحد أبنائها، فإنّ شبّان العشيرة ورجالها يجدون أنفسهم في قلب المعركة مجتمعين ويحمل معظمهم، وخصوصاً المحاربين من بينهم، السلاح ويخرجون نصرة لعشيرتهم. وقلّما نجد حاملي الشهادات الجامعية، ممّن يمارسون وظائف عامّة أو مهنة كالطب والهندسة والمحاماة والتعليم وغيرها في صفوف المتقاتلين بين العشائر، ولكن يحدث أن يضطرّ طبيب ابن عشيرة إلى إقفال عيادته في حال اندلاع نزاع بين عشيرته وعشيرة أخرى خوفاً من استهدافه ثأراً.

ولا يقتصر الثأر على القتل بين عشيرة وعشيرة مضادّة بل قد يحصل، وهناك أمثلة كثيرة، ضمن العائلة الواحدة وبين الأجباب والأفخاذ حتى. وفي حال وقوع جريمة ضمن العشيرة الواحدة، فإنّ الثأر هنا يكون بين جبّ القتيل وجبّ الجاني أو الفخذين اللذين يتحدّران منهما.

الجاهيّة والمصلحون

للمصلحين دورٌ كبير في حلّ قضايا العشائر. يتدخّل هؤلاء في حالات كثيرة من الخطف بقصد الزواج إلى الاختلاف على ملكية أراضٍ، مروراً بجرائم الجرح أو القتل. كما يتدخّلون في المعارك المسلّحة بين العشائر والتي قد تستمرّ لأيام. ويكون المصلحون من وجهاء العشائر غير المنخرطة في المعركة أو عملية الثأر، حيث يسعون لوقف شلّال الدم الذي قد لا ينتهي من دون تدخّلهم، إذ يجرّ الثأر ثأراً وهكذا. ففي حال حصول معركة بين عشيرتين يشكّل هؤلاء لجنة من مجموعة كبيرة يتمّ تقسيمها إلى فريقين يتوجّه كل منهما إلى متاريس العشيرتين المتقاتلتين في الوقت نفسه وهم يرفعون الرايات البيضاء علامة السلام ويقومون بإنزال المتقاتلين من المتاريس تمهيداً لبدء مفاوضات الصّلح. وقديماً كان المصلحون لا يغادرون ديرة العشيرة المقصودة، ولا يشربون قهوتها، إلّا بعد تسليمهم القضية وتعهّد وجهائها بالقبول بالحال الذي يرتأونه، وكذلك يفعلون مع العشيرة الثانية. ويدرس المصلحون القضية ويضعون الحلول التي تحفظ ماء وجه العشيرتين وفقاً لظروف النزاع، ولا يعلنون الحل الذي يقترحونه إلّا بعد التشاور مع المعنيين والتأكّد من تناسبه مع مطالبهم

مـن دون أن يقلّلـوا مـن موقـع العشـيرة الأخـرى. ويـأتي الاتفـاق عـلى الصّلـح ضمـن سـلّة متكاملـة تشمـل حـتى الملفّـات القضائيـة في حـال كان هنـاك مطلوبـون أو موقوفـون. ويجـري في كثـير مـن الأحيـان تسـوية الملفّـات القانونيـة للمعنيـين مـن ضمـن عقـد المصالحـة نفسـه. ومؤخّـراً، حصـل توتّـر بـين جبّـين في عشـيرة علّـوه عـلى خلفيـة ثـأر ممّـا اسـتدعى تدخّـل وجهـاء مـن عشـيرتي ناصرالديـن وجعفـر مـا زالـوا يسـعون لغايـة كتابـة هـذه السـطور للوصـول إلى تسـوية تمنع إراقـة الـدم بـين أبنـاء العشـيرة الواحـدة وهـم أبنـاء عـمّ بالمناسـبة. وعنـدما يعقـد الصلـح ويقتـضي بدفـع ديّـة، تسـاهم العشـيرة كلّهـا في جمـع الديّـة عـلى طريقـة: "قـرش دايـر عـلى رجالهـا" أي أن يترتّـب مبلـغ مـن المـال عـلى كلّ رجـل مـن العشـيرة. وقـد يتحمّـل المعنيّـون بالمشـكلة، الجـزء الأكـبر مـن الديّـة أو يتحمّلونهـا كلّهـا في حـال سمحـت أوضاعهـم الماديـة بذلـك.

الحماية وحرمة اللاجئ

درجـت العـادة عـلى لجـوء بعـض رجـال العشـائر ممّـن تعترضهـم حـوادث ضمـن عشـيرتهم، أو مـع عشـيرة أخـرى، إلى ديـار إحـدى العشـائر. بدايـة يـتمّ اسـتقبال طالـب الحمايـة في مـنزل الوجيـه الـذي قصـده، وقـد يُخصّـص لـه مـنزل مـع أسرتـه في حـال طـال بقـاؤه واسـتتبع اسـتقدام زوجتـه وأولاده للعيـش معـه. وحتمـاً تصبـح سـلامة اللاجـئ وكرامتـه مـن سـلامة وكرامـة العشـيرة المُجـيرة لـه (أي الـتي تسـتضيفه). وتقـوم هـذه العشـيرة بإبـلاغ العشـيرة المعنيّـة بالإشـكال مـع اللاجـئ بوجـوده عـلى أرضهـا وفي نطـاق نزلهـا، وهـذا يعـني أنّـه تحـت حمايتهـا وأنّ أيّ اعتـداء عليـه هـو بمثابـة اعتـداء عليهـا. لـذا لا يحصـل أن يحـاول أحـد الثـأر منـه طالمـا هـو في نطـاق العشـيرة الـتي لجـأ إليهـا. وتبـدأ العشـيرة المُجيرة بالاتّصـال بالعشـيرة الثانيـة وتشـكيل لجنـة صلـح مـن وجهائهـا والبحـث عـن حلـول. وفي حـال عجـزت وحدهـا عـن ذلـك تتعـاون مـع وجهـاء مـن عشـائر ثانيـة لمنـح لجنـة الصلـح ثقـلاً إضافيـاً ولتشـعر العشـيرة المعنيّـة أنّـه يـتمّ تقديـر موقعهـا والوقـوف عـلى خاطرهـا إلى حـين حـلّ الإشـكال. ولـكلّ إشـكال حلولـه وفـق نوعيتـه، وتقـضي الأعـراف العشـائرية بعـدم اسـتقبال أو حمايـة أيّ شـخص يقـدم عـلى فعـل مشـين يتعلّـق بالعـرض أو بالـشرف أو بالقتـل بقصـد السرقـة أو السرقـة عينهـا.

وقـد يحصـل ألّا تتمكّـن العشـيرة الـتي اسـتقبلت طالـب الحمايـة مـن حـلّ قصّتـه والتوصّـل إلى مصالحتـه مـع أهـل القتيـل، فيسـتمرّ طالـب الحمايـة بالعيـش مـع العشـيرة كمـا حصـل في عشـيرة جعفـر قبـل نحـو ٣٠ عامـاً عنـدمـا قصدهـم رجـل مـن عـكار مـع أسرتـه إثـر قتلـه لرجـل مـن منطقتـه. وحـاول آل جعفـر يومهـا حـلّ إشـكال ضيفهـم وإعادتـه إلى منطقتـه مـن دون جـدوى، وبقـي هـذا الرجـل بينهـم لغايـة اليـوم حيـث يعيـش مـع أولاده وأحفـاده وكلّ ذرّيتـه وبنـوا منازلهـم في ديـار عشـيرة جعفـر وتزوّجـوا مـن المحيـط ولم يعـودوا إلى منطقتهـم لغايـة كتابـة هـذه السـطور مـن دون أن يحـاول غريمهـم النيـل منهـم أو الثـأر حيـث لحمايـة

العشـيرة حرمتهـا، وكذلـك كـون أمنـه أصبـح مـن أمـن الجعافـرة وسـلامته مـن سـلامتهم.

الاقتصاص من السارق

برغـم إصرار جميـع مـن قابلناهـم أنّ موضـوع السرقـة يُـترك اليـوم للقـوى الأمنيـة والقضـاء، إلّا أنّـه لا بـدّ مـن الإشـارة إلى أنّـه يُحسـب ألـف حسـاب للسّرقـة في مناطـق العشـائر وخصوصـاً إذا كان السـارق مـن غـير أبنـاء العشـائر. وهـؤلاء، أي اللصوص مـن خـارج العشـائر، لا يجـرؤون غالبـاً عـلى السرقـة مـن مناطـق العشـائر المتركـزة في مناطـق محـدّدة ومعروفـة بشـكل عـام، في حـال لم يكونـوا غربـاء عـن المنطقـة، أي مـن خـارج القضـاء. وغالبـاً لا يقـدم ابـن عشـيرة عـلى سرقـة عشـيرة أخـرى لأنّ الأمـر قـد ينتهـي بالقتـل، فيما لا تـسري الحالـة نفسـها عـلى السـارق في حـال كان ابـن عشـيرة واسـتهدف في سرقتـه أمـلاك مـن هـم مـن غـير العشـائر. وقـد تقـع سرقـة داخـل منطقـة عشـيرة مـا في حـال كان للصـوص شركاء مـن العشـيرة المسروقـة نفسـها. ففعـل السرقـة بـين العشـائر لـه أعرافـه الـتي تجعـل مـن العقـاب أعـلى بأضعـاف. وكان عقـاب السرقـة، إضافـة إلى التشـهير بالسـارق بـين العشـائر، ٤ أضعـاف قيمـة المسروق إذا كان السـارق مـن خـارج العشـيرة والقربـى، و٨ أضعـاف إذا كان السـارق قريبـاً أو جـاراً و١٦ ضعفـاً إذا ارتكبـت مـن قريـب جـار، أي في حـال كان السـارق يمـتّ إلى المسروق بصلـة نسـب وجـيرة في الوقـت نفسـه. ويُبـاح دم السـارق ولا يطالـب بالثـأر لـه في حـال تمّ ضبطـه خـلال السرقـة وقـاوم صاحـب الملـك بعنـف لا يـترك لـه (للمقصـود سرقتـه) خيـارٌ سـوى قتلـه (قتـل السـارق). ومـن المستحسـن أن يـتمّ القبـض عـلى السـارق وتسـليمه إلى عشـيرته لتأديبـه ونهيـه، وفي حـال كـرّر فعلتـه برغـم ذلـك يصـار إلى نفيـه وإعـلام الآخريـن بذلـك، وهـذا يعـني رفـع الغطـاء عنـه وعـدم المطالبـة بدمـه في حـال اسـتمرار غيّـه. وفي حـال قتـل السـارق المسروق منـه، تكـون الديّـة مضاعفـة ويبقـى الثـأر قائمـاً ويهـدر دمـه.

ماذا بقي من سلطة عشائر مأزومة؟

يرتبـط الالـتزام بهـذه الأعـراف والسـلوكيات بمنظومـة السـلطة داخـل العشـيرة ومـدى تضامنهـا وشـدّة لحمتهـا. وكانـت السـلطة داخـل العشـيرة تقـوم عـلى وجـود زعـيم أسـاسي وزعمـاء أو وجهـاء لـكلّ جـبّ وفخـذ فيهـا، وقـد يكـون هنـاك أكـثر مـن زعـيم في حـال وجـود تسـاوٍ في قـوّة أكـثر مـن جـبّ نَسـباً وعديـداً وإمكانيـات. وكان أفـراد العشـيرة جميعهـم يقدّمـون الطاعـة لهـؤلاء ويعملـون بمشـورتهم ويلتزمـون بقراراتهـم عـلى صعيـد العشـيرة ككل. في المقابـل، يمـون زعـيم كلّ جـبّ وكل فخـذ عـلى أبنـاء جبّـه وفخـذه. وتتّخـذ العشـيرة قراراتها العامّـة في إثـر اجتماع يعقـده مـا يمكـن تسميته بـ"مجلـس العشـيرة" (وكانـت عشيرة علّـوه أول مـن كرّسـه في الثمانينيّـات) المكـوّن مـن الزعـيم الأوّل مـع زعماء الأجباب والأفخاذ، وتكـون قراراتـه ملزمـة للجميـع في المواقـف الـتي تعـني

العشيرة ككل، ومنها المعارك التي كانت تحدث مع العشائر الأخرى، وكذلك مع الدولة.

في سياق بحثنا، التقينا عدداً من وجهاء العشائر الذين يتحسّرون اليوم على أيام زمان عندما كانت وحدة العشيرة رأسمالها الأساسي وضمانتها وبوّابتها لاحتلال مكانة مرموقة سواء بين العشائر الأخرى أو في المجتمع المحلي وكذلك مع الدولة.

يقول علي عبده جعفر، أحد وجهاء عشيرته: "لدينا اليوم عشيرتان جديدتان هما عشيرتا حزب الله وحركة أمل"، في إشارة إلى تأثيرهما على ولاءات أبناء العشائر المنضوين في صفوفهما. ويُعتَبر جعفر من المصلحين المقصودة ديارهم لحلّ المشاكل بين أبناء العشائر، ولكنّه يرى أن "سلطة العشيرة اليوم وزعمائها على أبنائها لم تعد كما كانت"، ويضيف "بالكاد الواحد عم يمون ع أقاربه اللّزم".

بدوره، يختصر أحد وجهاء عشيرة ناصرالدين، غازي محمود ناصر الدين هذا الواقع بالقول: "كنّا عشاير وصرنا مزارع"، ليؤكّد أنّ الأب اليوم "بالكاد يمون على ابنه"، ويعلّل السبب بـ "تسيّس الشباب، وتوزّع ولاءاتهم للأحزاب الحالية، خصوصياً حركة أمل وحزب الله، وليس للعشيرة".

ويعزو أحد زعماء عشيرة دندش، رئيس مجلس إدارة مياه بيروت سابقاً ركان دندش، تفتّت الزعامات داخل كلّ عشيرة إلى المرحلة الشهابية أيضاً حيث "تمّ تلويث القيادات العشائرية بتعويدها على المنفعة وعلى المصروف من دون إنتاج، لضمان ولاء كلّ منها على حدة، وتفريخ زعامات جديدة ضمن كلّ عشيرة والإمساك بهم". وهذا ما أسّس برأيه الذي يوافقه عليه وجهاء آخرين من العشائر، لدقّ الإسفين الأول في وحدة الزعامة داخل كلّ عشيرة.

إضافة إلى لحظه تأثير الشهابية في الزعامات العشائرية، يخرج مفلح علّوه، أحد زعماء عشيرته، من تأثير الأحزاب ليرى أنّ "العشيرة تضمحل لأنّها صارت خارج المسار التاريخي للتطوّر"، مؤكّداً "أنّنا نفتقد اليوم للتضامن حتى داخل العشيرة". ويضيف علّوه معطىً آخر لانهيار السلطة داخل العشيرة: "كثرة المطلوبين والخارجين على القانون في ظلّ التفلّت الأمني" حيث صار كلّ شخص مسلّح يعتقد أنّ بإمكانه فعل ما يشاء "من دون عقاب جدّي". ويرى أنّ بعض هؤلاء "ولا أتكلّم هنا عن المطلوب بسبب زراعة أرضه بالحشيشة، بل عن كبار المهرّبين وتجّار المخدّرات الذين استغلّوا غياب الدولة وبنوا ثروات وصار كلّ منهم يقدّم نفسه وجيهاً أو زعيماً على مجموعة تواليه بحكم المنفعة وتلاقي المصالح، وهذا ينسحب على كل العشائر". وكان علّوه في أواخر السبعينيّات من أوائل الذين سعوا لتأطير السلطة داخل العشيرة عبر إنشاء مجلس عشيرة وإن كان يفضّل تسميته بـ "لجنة شعبية للعشيرة تجمع بين الكفاءات وتراعي العصبيات داخلها والمرتبطة بالأجباب والأفخاذ". وكان المجلس

يتّخذ قراراته بالأكثرية، ويرى أنّها كانت "تجربة ديمقراطية داخل العشيرة"، أمّا اليوم "فلم يتبقّ منها شيء".

يتمسّك جميع من قابلناهم بتبيان الأعراف الإيجابية للعشائر ومنها الكرم والنخوة ونصرة الضعيف وإكرام الضيف وتلبية الملهوف طالب الحماية ونصرة الضعيف، فيما يعتبرون كلّ الممارسات التي لا تلتقي مع هذه القيم "ممارسات فردية لزعران من العشائر لا توافق عليها أيّ عشيرة، ولكن الأب لم يعد يمون على ابنه"، وفق ما يقولون خلال مواجهتهم بحوادث كثيرة تقع ولا تمتّ بصلة إلى سلّم الممارسات الإيجابية التي يعتبرونها من مقدّسات العشائر ولا يمكن المسّ بها. ويُحمّل هؤلاء الأحزاب السياسية وعلى رأسها حزب الله وحركة أمل مسؤولية خلق انتماءات بين أبناء العشائر تُخرجهم عن سلطة العشيرة الأم "خلقوا كواع ما بتردّ ع حدا"، وفق ما يقولون. وينفي هذا الكلام الحزبيون من أبناء العشائر، وخصوصاً المنضوون في صفوف حزب الله، ليبدوا ملاحظات على أداء بعض من يعتبرون وجهاء في عشائرهم، وليقولوا إنّ "سلوكيّات بعض الوجهاء لا ترضينا ولا تتناسب مع أفكارنا وإيماننا ولذا لا نخضع لها ولا تعنينا، وليس للحزب علاقة بهذا".

والثابت أنّ زراعة الحشيشة بحدّ ذاتها بغضّ النظر إذا تحوّلت إلى تجارة المخدّرات أم لا، لا تُعتبر من السلوكيّات السلبية أو المدانة، وكذلك التهريب عبر الحدود وهو ما يفضّلون تسميته بالتجارة الحدودية الطبيعية التي تشكّل مع زراعة القنّب الهندي أحد مصادر العيش في منطقة أهملتها الدولة ولم تسعَ تاريخياً لإلغائها وخلق فرص عمل ومداخيل تعين أهلها على العيش بكرامة.



منزل من الداخل في الكواخ، أحد أودية الهرمل | **تصوير كامل جابر**



عزاء العشائر

قبل انتشار حزب الله وتعزيز التوجّه الديني وشعائره في منطقة الهرمل، كانت قلّة من العشائر تذيع القرآن وحده في العزاء في حال موت أحد أفرادها وخصوصاً من الوجهاء. كان هؤلاء، وهي عادة ما زال كثيرون يمارسونها حتى اليوم، يأتون بشعراء وعازفي ربابة، حيث تلقى أشعار عن شيم الفقيد ومكانته وتشيد بمواقفه ومسيرة حياته على وقع عزف الربابة. ولا تحصل هذه المراسم داخل البيت فقط بل يتمّ بثّها كما تجويد القرآن عبر مكبّرات الصوت وعلى مدى أيّام العزاء. وبرغم أنّ إطلاق النار في العزاء عادة قديمة إلّا أنّها تعزّزت حالياً وأضيف إلى إطلاق الرصاص استعمال الأسلحة الرشاشة الثقيلة والقنابل والقذائف.

وما زالت عادات بعض العشائر في العزاء تقضي بجمع المال وتقديمه كمساهمة إلى أهل الفقيد كون عزاءات العشائر مكلفة من ناحية ذبح الخراف وإعداد الطعام في يوم العزاء وفي ثالث أيّامه وبعد مرور أسبوع ومن ثمّ ٤٠ يوماً في بعض الحالات وخصوصاً إذا كان الفقيد من الوجهاء. ولا يكون جمع المال على أساس رقم محدّد بل يتبرّع كلّ من يرغب بالمبلغ الذي يتناسب مع وضعه ورغبته، وهو ما يحصل في الأعراس أيضاً ويسمّى "النقوط" للعريسين.

العشائر والدولة والأحزاب

مَن أقوى ممّن؟

سعدى علّوه

شكّلت الحملة التي شنّتها الدولة اللبنانية على عشيرة دندش في العام ١٩٤٨ في إثر ثأر أبنائها من أحد أبناء رأس بعلبك في ١٩٤٧ لمقتل زعيمهم حسن طعّان دندش في ١٩٢٩ (أي بعد ١٨ عاماً)، محطّة مفصلية في علاقة الجمهورية الأولى مع عشائر جرد الهرمل. فبعدما عجزت الدولة في هذه المعركة عن إخضاع الدنادشة المدعومين من أبناء عمومتهم من العشائر الأخرى بالرجال ومادياً ومعنوياً، متكبّدة خسائر كبيرة في الأرواح، أعطت الأوامر لقائد الجيش الراحل فؤاد شهاب (والذي سيصبح رئيس جمهورية لبنان بين ١٩٥٨ و١٩٦٤) بتعقّب الفارّين وإلقاء القبض عليهم. على الإثر، التقى اللواء شهاب رئيس الجمهورية الراحل بشارة الخوري بحضور رئيس الحكومة الراحل رياض الصلح وقال لهما عبارته الشهيرة: «نحن في الجيش لا نؤمن بإحداث معارك مع العشائر. فقبل أن نطالب المتمرّدين بالطّاعة علينا أن نقدّم لهم الأولويّات المفروض تأديتها من قبل الدولة، وتوفير حاجاتهم الأساسية، عندها فقط نطبّق عليهم نصوص القانون المدني»[1]. وهكذا ابتكر شهاب نظريته الشهيرة التي تقول بتعليم أبناء العشائر وشقّ الطرقات في مناطقهم وإنشاء المدارس لكي ينتقلوا من عصر البداوة إلى عصر المدنية «عندها يحق للدولة إخضاعهم لسلطتها». يومها، لم يكن في جرود عشائر الجبال الغربية أيّ طريق غير «القادومية» التي يشقّونها على ظهور الخيل أو الدواب أو سيراً على الأقدام. وتُبيّن مجريات المرحلة الشهابية أنّ اللواء قائد الجيش لم يكن يفكر آنذاك فقط في إنماء العشائر ومصلحتهم، بل أيضاً في كيفية دمج منطقة كانت منذ أيام الأتراك مروراً بالفرنسيين وصولاً إلى الاستقلال، خارجة على القانون والانتظام العام ضمن مشروع الدولة والأهم إخضاعها لأعين الدولة. فمع المرحلة الشهابية، شقّ الجيش أوّل طريق تقطع الجرد العشائري من حدوده مع عيون أرغش في جرد بشري (جنوب غرب) إلى حدوده مع الجرد العكّاري (شمال غرب)، مع مشمش وفنيدق على الحدّ مع قلعة عروبة، وإن بقي معظمها طريقاً عسكرية ترابية لغاية اليوم.

وعليه، لم تعد تلك الأرض عصيّة على دخول الجيش وآليّاته. ولا تزال زيارة اللواء شهاب مع قائد الدرك آنذاك الكولونيل جوزيف سمعان في ١٩٥٧ إلى سهل مرجحين في أعالي جرود العشائر قبل شقّ الطريق العسكرية عالقة في أذهان كبار أبناء المنطقة. ويروي الباحث سويدان ناصر الدين عن هذه الزيارة التي شهدها وهو طفل لـ«المفكرة» أنّ الرجلين وصلا السّهل على ظهور الخيل خلال جولة لهما للإشراف على تلف الحشيشة وتناولا الغداء مع وجهاء العشائر. وقد انتهى النهار بضبضبة المزارعين لشتول الحشيشة التي حصدوها على مرأى من الضّيفين من دون تلفها.

(١) العشيرة: دولة المجتمع المحلي، «عشائر جرد الهرمل»، الدكتور فؤاد خليل، فصل «بين بعبدا وقلعة عروبة»، دار الفارابي، ١٩٩٠، صفحة ١٥٩.



رسم رواند عيسى

حماية الظهر كاستراتيجية عسكرية

وفي المرحلة الشهابية، رفرف العلم اللبناني للمرّة الأولى على جرد الجبل الغربي تزامناً مع العفو العام عن الطفّار والمطلوبين من العشائر، كفعل اعتراف متبادل بينهم وبين الدولة. وكان اللواء شهاب سعى آنذاك لتمرير العفو العام[٢] في ظلّ انقسام سياسي حينها بين رافض ومؤيّد. ويومها تسلّح قائد الجيش بأنّه أقسم بشرفه العسكري للعشائر بالاستحصال على هذا العفو، مهدّداً بالاستقالة في حال عدم إقراره[٣]. وكان له ما أراد، وسط معارضة كبيرة من وزراء عدّة آنذاك.

تختزّن المنطقة الجغرافية لتواجد العشائر في سلسلة جبال لبنان الغربية، ومنها جرد الهرمل الغربي، الكثير من الأحداث عن العسكر والسياسة والسلطة والدولة والأحزاب، بعد الاستقلال وقبله. فالعشائر تحكم سيطرة عمودية على كانتونات ومناطق انتشار كل منها. تبدأ المنطقة من أعالي سلسلة جبال لبنان الغربية إلى مدينة الهرمل من دون أن تتداخل أرض هذه العشيرة مع تلك، بل تحدّها من شمالها وجنوبها مع العشيرة الأخرى ما يشبه خطوط تماس غير قابلة للتغيّر في ظلّ حرص

(٢) أقرّ في مجلس النواب في ٢٣ شباط ١٩٥٤ ونشر في الجريدة الرسمية بتاريخ ٣ آذار ١٩٥٤ تحت عنوان «منح قانون عفو عام عن بعض الجرائم المرتكبة قبل إنشاء المحاكم العسكرية اللبنانية».

(٣) الدكتور فؤاد خليل، المرجع نفسه صفحة ١٦٠ مع هوامشها.

تاريخـي لـدى كلّ عشـيرة عـلى عـدم بيـع أراضيهـا وخصوصاً لأبناء عشيرة أخرى[٤]. وبالتدقيق في الانتشار العمـودي للعشـائر، نعـرف الكثـير عـن الاسـتراتيجية العسـكرية الـتي تحـتّم حماية ظهر كلّ عشيرة. تكريس هـذه العسـكرة المتأصّلـة منـذ تهجير العشائر الحماديـة مـن جبـل لبنـان في الفتـوح وجبيـل والبـترون في أيـام العثمانيـين نجـد توثيقهـا في كتـاب الملازم ماميـة أحـد ضبّـاط الجيـش الفرنـسي إلى «القيـادة العسـكرية في سلسلة جبال لبنان الشرقية» بتاريخ ٢٣ تشريـن الأول عـام ١٩٢٤ تحـت عنـوان «معلومـات عـن قريـة الهرمل»، ومـن ضمنهـا تعـداد العشـائر بنـاء عـلى عـدد البنـادق: «عائلـة دنـدش ٢٥ بندقيـة و١٥ مسدسـاً، عائلـة علّـوه ٦٠ بندقيـة و٣٠ مسدسـاً، عائلـة ناصرالديـن ٣٠ بندقيـة و١٥ مسدسـاً، وعائلـة جعفـر ٦٠ بندقيـة و٣٠ مسدسـاً».[٥]

نجـد تأثـير هـذا الواقـع عـلى السـلطة داخـل العشـيرة نفسـها الـتي تهـبّ هبّـة رجـل واحـد عنـد أيّ اسـتحقاق يطالهـا كوحـدة مجتمعيـة عصبيـة، إلى علاقاتهـا مـع سلطَتَي الاسـتعمار العثماني والفرنسي، وصولاً إلى دولة الاسـتقلال ولغايـة اليـوم، مـروراً بالأحـزاب التقدّميـة ومـن ثمّ الطائفيـة المتمثّلـة بحركـة أمـل وحـزب الله.

العلاقة مع الأتراك والفرنسيين

نجـد في توثيـق مختـار قريـة البسـتان في جـرد عشـيرة جعفـر، حسـين وجيـه جعفـر (مواليـد ١٩٠١)، خـلال مقابلـة[٦] أجراهـا معـه الباحـث سـويدان نـاصر الديـن في صيـف ١٩٨٧، بعـض ملامـح علاقـة العشـائر مـع الأتـراك حيـث كانـت الهرمـل وجردهـا مـع العشـائر تابعـة لمتصرفيّـة جبـل لبنـان. عـن هـذه المرحلـة يقـول جعفـر «كان أسـياد السـلطة آل حمـادة (وكانـت زعامـة العشـائر الحماديـة معقـودة لهـم آنـذاك) معتمديـن كـوكلاء «مقاطعجيـة» مـن قبـل الأتـراك ويجبـون الضرائـب لصالحهـم، وكانـت السلطة تظلـم الشـعب وكانـت الضرائـب كثـيرة والطاعـة للسـلطة مفروضـة كرهـاً إن لم تـأت طوعـاً». ونتيجـة الظّلـم الواقـع عليهـم، حيـث كان يـتمّ تسـليط الآخريـن عـلى مـن يعـصي، كانـت العشـائر تحـلّ مشـاكلها بـين بعضهـا البعـض «ولا نُدخـل الدولـة، ونحـلّ مشـاكلنا وفـق أصـول معيّنـة». ووفـق جعفـر نفسـه، دفـع الأتـراك لاحقـاً ثمـن ذلـك الأداء لـدى انهزامهـم في الحـرب العالميـة الأولى، «فـكان العشـائر ينكلـون بجنودهـم ويقتلونهـم ويسـلبونهم بنادقهـم».[٧]

ومـع الفرنسـيين، كان موقـف العشـائر مـع الثـورة السـورية والانتفاضـة ضدّهـم. وحصـل الانفصـال الأوّل خـلال معركـة فيسـان بـين العشـائر والزعامـة الحماديـة (عشـيرة حمـادة) الـتي وقفـت مـع المسـتعمر الجديـد. وقـادت عشـيرة جعفـر ثـورة فيسـان ١٩٢٦ الشـهيرة ضـدّ الفرنسـيين وقاتـل معهـا عـدد مـن أبنـاء العشـائر الأخـرى. ولكـنّ الانفصـال عـن الحماديـة لم يمنـع الجعافـرة، مـن حمايـة سـعدالله حمـادة الـذي كان ملازمـاً في الجيـش الفرنـسي ومَـن وقـع معـه في الأسر إثـر معركـة فيسـان، مـن القتـل. يومهـا، وقـف سـعدالله حمـادة ومـن معـه ممّـن رفعـوا الرايـات البيضـاء في إثـر هزيمـة الفرنسـيين وقـال لآل جعفـر «أنـا بوجهكـم يـا بيـت جعفـر وهـؤلاء (أي مـن

(٤) إذا بدأنا من الحدود الشمالية للعشائر، يتركز آل جعفر من قلعة عروبة إلى الحدود السورية و تتركن عشيرة ناصرالدين من مرجحين إلى حوش السيد علي في سوريا. وتبدأ ملكية عشيرة علّوه من قضاءي الضنية و عكار مروراً بمرجحين وصولاً إلى المرح في الهرمل وتسكن عشيرة دندش من جباب الحمر نزولاً إلى بنيت والنيرة وصولاً إلى رأس العاصي.
(٥) العشيرة: دولة المجتمع المحلّي، «عشائر جرد الهرمل»، الدكتور فؤاد خليل، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٠، قسم الملاحق، صفحة ١٩٥ حيث يرد الكتاب معرّباً.
(٦) بحث للكاتب سويدان ناصرالدين حول الهرمل وعشائرها، نشر ضمن حلقات في جريدة السفير في ١٩٨٨.
(٧) المرجع نفسه، الحلقة ٣.

هـم خلفه) بوجهي»[٨]. وعلى الفور قبل أبو علي ياسين موسى جعفر «تجوّه» سعدالله حمادة، ووقف أمامه يحميه ويقول إنّ جميع من بقي هم أسرى والأسير ضيف حسب «العوايد». وفعلاً أُطلق جميع الأسرى وعددهم نحو ٤٠٠ أسير يحملون جرحاهم وأسلحتهم ومعهم سعدالله حمادة الذي قُتل ابن عمه أبو خزنة حمادة في المعركة.[٩]

بعد انتصار فيسان، عقدت العشائر مؤتمر مرجحين وجرى الاتفاق على تشكيل جيش أمير المؤمنين بقيادة زعيم الدنادشة حسن طعّان دندش لمتابعة الثورة. ولكن لم يتمّ المضي بقرارات المؤتمر، واستمرّ الكرّ والفرّ بين الجعافرة الذين فرّوا بنسائهم وأطفالهم إلى مناطقهم العليا في سفح قلعة عروبة واستمرّوا في مقاومة الفرنسيين يساندهم مقاتلون من العشائر، إلى أن أرسل الفرنسيون يفاوضونهم مقابل وقف تمرّدهم ومن دون أن يفرضوا عليهم أيّ تسليم للأسلحة والرجال وهكذا كان، وانتهت ثورة فيسان.

وكان تلا مؤتمر مرجحين ثلاثة اجتماعات للتخطيط لاستكمال الثورة. وعرض الفرنسيون على حسن طعان دندش ٥٠٠ ليرة ذهب ووضع جزء من سكّة الحديد من البقاع الشمالي إلى سوريا تحت حمايته في مقابل تعاونه معهم، لكنّه رفض واستمرّ يناور سياسياً إلى أن تدبّروا أمر مقتله في رأس بعلبك في ١٩٢٩، وجرّدوا حملة ضدّ الدنادشة واعتقلوا جميع رجالهم ونفوا نساءهم وأطفالهم إلى الميادين في الجزيرة في سوريا.[١٠]

العشائر
وجمهورية ما بعد الاستقلال

عندما قصد رئيس جمهورية الاستقلال بشارة الخوري منطقة عشائر الجرد الغربي وتوقّف أمام بعض البيوت وشرب القهوة في بيوت أخرى، أمل أهل قضاء الهرمل وجرده بتعامل مختلف للدولة اللبنانية مع المنطقة. ولكن الزيارة بقيتْ في إطار الجولة الاستكشافية إلى حين وضع قائد الجيش فؤاد شهاب رؤيته المشار إليها في مقدّمة هذه المقالة عن تنمية مناطق العشائر قيد التنفيذ.

عندما تسأل أياً كان من العشائر عن تاريخ إقرار بناء هذه المدرسة أو تلك في أوديتهم، وهي الجرد الأوسط، يأتيك الجواب «من الحقبة الشهابية»، ومثل ذلك عمّا تبقى من شبكات المياه والكهرباء والطرق. لا ينكر أحد أنّ العشائر لم تتعرّف إلى الدولة كمشاريع إنماء إلّا في تلك الحقبة. ولكنّ كثيراً منهم يشيرون أيضاً إلى أنّ هذه المرحلة شابتها ممارسات نفعية ومساعٍ لتفريخ زعامات جديدة أو شراء ولاء الوجهاء للسّلطة والمكتب الثاني (مخابرات الجيش). وتراوحت المبالغ المالية التي خصّصها اللواء شهاب للفعاليّات والوجهاء والمخاتير من العشائر عندما كان قائداً للجيش ومن ثمّ رئيساً للجمهورية ما بين ٣٠٠ وألف ليرة يومها، تُدفع عبر مستشار العشائر الضابط بطرس عبد الساتر المعيّن من قبل شهاب. وشهدت المنطقة آنذاك «مشاريع كثيرة»، كما يقول وجهاء من العشائر اليوم، بعضها شكلي. وقد تحدّث ركان دندش

(٨) تجوّه وهي كلمة مستعملة في العرف العشائري كنوع من طلب العفو وهو عفو يمنح عند المقدرة.
(٩) بحث أجراة الكاتب سويدان ناصرالدين حول الهرمل وعشائرها في العام ١٩٨٨، الحلقة ٣
(١٠) المصدر نفسه.

لـ«المفكـرة» بشـكل خـاص عـن مـشروع مـدّ الميـاه مـن عيـون أرغـش إلى واديَـيْ بنيـت والنـيرة حيـث مُنـح المـال لمقاولـين مـن وجهـاء عشـيرة دنـدش ونبتـت الخزّانـات البيضاء في الجرد من دون شبكة ميـاه حقيقيـة والأهـم بـلا مـاء أيضـاً.

وبرغـم افتتـاح مـدارس في أوديـة العشـائر، إلّا أنّ هذه الخطوة جاءت منقوصة وتنفيعية غالباً. يقول عـلي مصطفـى علّـوه الـذي درّس في مدرسـتيْ وادي الرطل ومراح عباس في وادي التركمان نحو ٢٠ عاماً إنّ المدرسة يومها «كانت تُعطى كامتياز للمتنفّذ، ولـذا نجـد ثلاثـة مـدارس مبنيّـة بالقـرب مـن بعضها البعـض»، ليسـأل «لمـاذا لم تـبنَ مدرسـة جيّـدة واحـدة تجمـع كلّ التلامـذة؟» ويجيـب نفسـه «لإعطـاء مدرسـة لـكلّ فخـذ ليتـولّى التوظيفـات فيهـا».

وفي روايـة أخـرى عـن تشـجيع الدولـة زراعـة الحشيشـة في جـرود العشـائر، يخـبر أسـتاذ المدرسـة المتقاعـد عـلي شـمس عـن التجربـة الـتي عاشـها في أراضي عشـيرة علّـوه في مرجحـين حيـث كان يعطـي دروسـاً لبعـض أبنـاء وجهـاء العشـيرة. يومهـا وفيمـا كان في خيمـة أحـد أبـرز وجهـاء العشـيرة، وصلـت قـوّة كبـيرة مـن الجيـش اللبنـاني وتمركـزت في نقطـة تـشرف عـلى كامـل سـهل مرجحـين الـذي كان مزروعـاً بالحشيشـة بغالبيتـه، باسـتثناء مسـاحات صغـيرة خصّصـت لمـؤن البطاطـا والبنـدورة واللوبيـا وبعـض سـحّارات الخضـار الصيفيـة. بعـد ذلـك، وصلـت سـيارة جيـب عسـكرية إلى حـي المقطـع، وهـو بدايـة منطقـة سـكن علّـوه في مرجحـين، وترجّـل منهـا ضابـط مـن الجيـش «ضخـم البنيـة» كما يصفه شمس (تبيّن فيما بعد أنّه المقدّم سعيد الخوري، قائد ثكنة أبلح) ومعه عسكري مرافق، وتقدّم باتجاه الجالسين أمام خيمة وجيه عشيرة علّوه الـذي سارع إلى الطلب مـن أحـد أبنائه ذبح خروف إكراماً للضيف جرياً على عـادة العشـائر.

وقبـل أن يتفـوّه المقـدّم بـأيّ كلمـة، بـادره الوجيـه قائـلاً: «الدولـة مـا بتتعـرّف علينـا، لا طرقـات ولا كهربـاء ولا مدرسـة، وكأنّنـا لسـنا مـن لبنـان ولسـنا لبنانيـين. هـي تتعـرّف علينـا فقـط إذا كان لدينـا أي شيء مـن الممنوعـات». وبعدمـا دلّـه إلى حقـول الحشيشـة مـن حولـه، أكمـل: «هيـدا كلّـه حشيشـة، وإذا جايـين تتلفوهـا، كلّ شـتلة رح يمـوت حدهـا زلـمي مـن بيـت علّـوه». ردّ المقـدّم: «لا يـا شـيخ لا لا، نحـن مـش جايـين نتلـف، نحـن جايـين ندفـع للنـاس لُبدّهـا تقـص، أجرتهـا، وسـندفع أيضـاً لتعشـيب شـتلة الدّكـر ولكـن اتركوهـا لنـا عـلى جنـب، سـوف نـأتي بالصحافيـين بعدمـا تنتهـون في أيلـول مـن توضيـب الحشيشـة ونجمـع شـتول الـدكارة ونحرقهـا عـلى أسـاس قمنـا بتلفهـا». بعدهـا أبلـغ المقـدّم الوجيـه أنّـه بـاق عنـده ٣ أشـهر إلى أن ينتهـي المـوسم، وهكـذا كان. وبعدمـا طلـب المقـدّم مـن محدّثنـا الأسـتاذ شـمس الإتيـان بورقـة وقلـم، جـرى تسـجيل جميـع أسـماء الرجـال والنسـاء في جـدول تمهيـداً لدفـع بـدل عـن تعشـيب الحشيشـة وقصّهـا بقيمـة ٣ لـيرات لـكلّ عامـل وعاملـة يوميـاً. «يومهـا اغتـنى بيـت علّـوه وطبعـاً جـرى الأمـر نفسـه عنـد بقيّـة العشـائر، طالمـا أرادت الدولـة الإبقـاء عـلى الحشيشـة وتشـجيعها، إلى أن منعتهـا في التسـعينيّات مـن دون تقـديم بديـل،



منزل في أحد أودية الهرمل | تصوير حسن الساحلي

وبدأت تتعامل مع المزارعين كمطلوبين وطفّار»، يضيف.

على علل التنمية المنقوصة التي لم يتمّ فيها مراقبة كيفية صرف المال العام الذي خُصّص لعشائر الهرمل وجردهم، وإغداق المال لتفريخ زعامات موالية للسلطة والمكتب الثاني، انتهى شهر العسل بين الدولة وهؤلاء مع انتهاء المرحلة الشهابية.

اليوم، تكفي جولة على أوضاع المنطقة للمس إدارة الظهر الرسمية عنها في الإنماء والأمن، ولسماع صرخة الناس، كلّ الناس، مطالبين بالأمن قبل رغيف الخبز. ونجد في نشرات الأخبار اليومية عن تصادم مستمرّ بين العشائر والقوى الأمنية وخصوصاً الجيش المولج بالمنطقة منذ إعلانها منطقة عسكرية قبل ٥٠ عاماً.[11]

وينتقد أحد وجهاء العشائر ما يسمّيه الإعدامات اليومية التي تنفّذها القوى الأمنية خلال محاولاتها القبض على مطلوبين كما حوادث القتل على الحواجز التي استتبعت في أكثر من حالة قيام ذوي القتيل بالأخذ بالثأر من عسكريين يتسرّب إليهم وجودهم على الحاجز أو خلال المواجهات.

(١١) أعلنت أقضية بعلبك والهرمل وعكار مناطق عسكرية وفق المرسوم ٢١٤٠ المنشور في الجريدة الرسمية بتاريخ ١٩٧١/١١/١٥.

العشائر والأحزاب التقدّمية

لم تكن عشائر الهرمل في السبعينيّات بمنأى عن أيام عزّ الحركة الوطنية والأحزاب التقدّمية التي دخلتها بدرجات مختلفة بين عشيرة وأخرى. ففيما تغلغل الحزب السوري القومي الاجتماعي في عشائر دندش وعلّوه وناصر الدين وعوّاد، نجد أنّ حزب البعث بشقه العراقي حطّ رحاله بشكل كبير في صفوف عشيرة علّوه التي كانت تعتبر من أبرز العشائر تسيّساً في تلك المرحلة، حيث عرفت إلى جانب السوري القومي الاجتماعي حزب البعث العراقي والحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي أيضاً. بالمقابل، بقيت عشيرة جعفر ممانعة أمام تمدد الأحزاب ولم يتحزب منها إلاّ قلة قليلة.

ويعيد علي مصطفى علّوه الذي انضمّ إلى المنظمة وهو بالكاد بلغ الـ١٧ من عمره، انتشار الأحزاب بين آل علّوه أكثر من غيرهم إلى تحزّب بعض المؤثّرين في العشيرة الذين تمكّنوا من تجنيد شبّانها وشابّاتها. ويرى أنّ التحزّب لم يكن كلّه داخل العشائر، ومنها عشيرة علّوه، مبنيّاً على أيديولوجيا فكرية وسياسية «بل طُبع بالمنفعة من توزيع مساعدات كالطحين والتمر العراقي والمواد الغذائية وكذلك بسبب رواتب التفريغ التي ساعدت الناس في الأزمة خلال الحرب وانعدام فرص العمل في المنطقة وتوزيع بعض الأسلحة الفردية».
يرى د. عبد السلام شاهين، وهو أحد أبناء الهرمل المحزّبين آنذاك، أنّ انتشار الأحزاب بين العشائر وأبناء المدينة ساهم في إيجاد أجواء تحاورية بين الطرفين وساهم في إذابة الفوارق «كنّا نقضّي أيامنا معاً نتناقش ونحلم بالتغيير ولم نشعر بأيّ تمييز بين ابن عشيرة وابن مدينة داخل الأجواء الحزبية». حتى أنّ التحزّب، وفق شاهين، أوجد فئة من جيل السبعينيّات بعيدة عن الممارسات التي كانت سائدة قبله.

من جهته، يشدد د. أنور علّوه على الأثر الإيجابي للأحزاب في إتاحة فرص التعليم الجامعي لأبناء العشائر والهرمل: «الغالبية السّاحقة من الأطباء والمهندسين والخرّيجين الجامعيين في السبعينيّات درست بفعل منح الأحزاب التقدّمية التي أحدثت تغييراً في المجتمع أكثر ممّا فعلته الشهابية». أثر الأحزاب في تعليم جيل السبعينيّات والثمانينيّات في المنطقة وبين أبناء العشائر يؤيّده علي مصطفى علّوه ولكنّه يرى أنّ «تأثير العشيرة على الشبّان بقي موجوداً حتى مع التحزّب». وهو يردّ ذلك إلى أنّ الأحزاب لم تشتغل بشكل جيّد على التثقيف السياسي والاجتماعي».

ويعطي مفلح رئيس علّوه، وهو أبرز الساعين إلى توسيع حضور حزب البعث العراقي يومها بين صفوف شبّان العشائر، مثالاً عن انتشار الأحزاب التقدّمية داخل العشائر من اجتماع عُقد في الثمانينيّات في المنطقة وتبيّن خلاله وجود «٣٠٠ منتسب إلى حزب البعث العراقي وحده من العشائر».

ومنذ الدخول السوري إلى لبنان في ١٩٧٦، أحكم نظام الوصاية السورية قبضته على منطقة العشائر كما في كلّ البلاد.



لزابة معمرة في جرد الهرمل | تصوير كامل جابر

العشائر والأحزاب الشيعية

علاقة العشائر بالثنائي الشيعي مرّت بمراحل مختلفة، لتشهد تطوّراً مفصلياً بعد اغتيال رئيس الحكومة رفيق الحريري والعدوان الإسرائيلي في ٢٠٠٦، تبعاً لتزايد العصبية والاصطفاف الطائفيين. وقد تسارع تطوّر العلاقة بعد توغّل حزب الله في الحرب السورية وبروز خطر التهديد الداعشي، وكذلك في ظلّ تردّي الأوضاع الاقتصادية وغياب فرص العمل.

وقبل المضي في استعراض هذا التطوّر، نسجّل معطيات عدّة: (١) إنّ المكانة الأساسية في المنطقة تعود لحزب الله بدليل توزّع المقاعد النيابية في بعلبك-الهرمل حيث فاز ٤ نواب شيعة للحزب في انتخابات ٢٠١٨ مقابل نائب واحد للحركة، وذلك انطلاقاً من اعتبار الحركة تحتلّ مواقعها الأساسية في الجنوب. و(٢) شهدت سياسة حزب الله حيال العشائر تحوّلات على ضوء تغيّر مصالحه وظروف المنطقة. فبعدما قدّم نفسه في الثمانينيّات سنداً لأبناء الهرمل في مواجهة استقواء العشائر عليهم[١٢]، مال بعد ذلك تدريجياً إلى تجنّب الاصطدام بها واستمالة رضاها. وهذا ما يفسّر اختيار جميع نوّابه في المنطقة في الانتخابات الأخيرة من بين أبناء العشائر. ويعلّق أحد كوادر الحزب على هذا الكلام بالقول: «نعم هذا صحيح، يبدو أنّ الحزب أعاد حساباته وسار في النمط التاريخي القائم على مسايرة العشائر أوّلاً».. و(٣) أن تمدد الثنائي لا يرضي العديد من

(١٢) سُجّل إقدام شاب من إحدى عائلات الهرمل، وكان عنصراً في حزب الله، على قتل شاب من إحدى عشائر الجرد في إشكال وقع أمام مركز للحزب. وهي حادثة كانت غريبة ولافتة في سياق علاقة عائلات الهرمل بالعشائر، برغم أنّ عشيرة القتيل يومها عادت وأخذت بالثأر من عنصر حزب الله ونفت عائلته من الهرمل.

وجهـاء العشـائر الذيـن يـرون أنـه يترجـم تبديـداً لسلطتهم داخل العشيرة والمساهمة في اضمحلال وحدتها وفي تفريخ «زعامات» جديدة تساهم في هـدم منظومـة السـلطة داخـل العشـيرة نفسـها وبـين العشـائر ككل. ويقـول عـلي عبـده جعفـر، أحـد وجهـاء عشـيرته، إنّـه لدينـا اليـوم عشـيرتين جديدتـين همـا عشـيرة حـزب الله وعشـيرة حركـة أمـل، في إشـارة إلى تأثيرهمـا عـلى ولاءات أبنـاء العشائر المنضوين في صفوفهما. ويعتبر جعفر مـن المصلحـين الذيـن لا تفـرغ ديارهـم مـن القاصديـن لحـلّ المشـاكل بـين أبنـاء العشـائر. «ولكـنّ سـلطة العشـيرة اليـوم وسـلطة زعمائهـا عـلى أبنائهـا لم تعـد كمـا كانـت»، يقـول، ليضيـف «بالـكاد الواحـد عـم يـمون ع أقاربـه اللّـزم (أي أفـراد العائلة المقرّبـون)».

فكيـف تطـوّرت العلاقـة بـين العشـائر والثنـائي الشـيعي؟ هـذا مـا سـنتناوله أدنـاه.

الثمانينيّات

عندمـا رغـب الإمـام مـوسى الصـدر في التأسـيس لموطـئ قـدم لـ«حركـة المحرومـين» في الهرمـل وجرودها في السبعينيّات، اختـار البوّابـة العشـائرية وبالتحديـد عشـيرتي ناصرالديـن وجعفـر بالدرجـة الأولى. وقـد عـزّز لاحقـاً رئيـس المجلـس النيابـي الحـالي نبيـه بـرّي، وعـبر ممثـلي حركـة أمـل الـتي يرأسـها في منطقـة البقـاع هـذا الحضـور، وخصوصـاً بـين آل ناصرالديـن. ويقـول البعـض إنّ الخدمـات الإنمائيـة مـن الآبـار الارتوازيـة إلى اسـتصلاح الأراضي إلى طلبـات الإسـكان والترمـيم طبعـت علاقـة الحركـة بهـذه العشـيرة عـلى أسـاس المنفعـة المبـاشرة وبعـض التوظيفـات المتواضعـة. وهـي إفـادة يقـول أحـد وجهـاء آل ناصرالديـن اليـوم إنّ صيتهـا أكـبر مـن فعلهـا «فهـي لم تحـمِ أبنـاء العشـيرة مـن الفقـر ومحدوديـة فـرص العمـل ولا مـن زراعـة الحشيشـة أو التهريـب، يعـني متلنـا متـل هالنـاس، محرومـين».

ووجـدت عشـائر بعلبـك الهرمـل نفسـها أمـام تحـدّ كبير خلال معـارك حزب الله وحركـة أمـل في أواخـر الثمانينيّـات في إقلـيم التفـاح (١٩٨٨)، خصوصـاً أنّ الحركـة كانـت قـد سـبقت الحـزب إلى التغلغـل في صفـوف العشـائر. ولكـنّ المؤتمـر الـذي عقـده زعمـاء ووجهاء العشائر في ذلك الوقت في فندق بالميرا في بعلبـك حـسم حيادهـا تجـاه الـصراع الدائـر في إقلـيم التفّـاح عـلى قاعـدة أنّ أيّ دم يسـيل بـين العشـائر في المنطقـة ولـو ضمـن صراع الثنـائي سـيترك أبعـاداً ثأريـة بـين العشـائر وسـيجرّ ثـأراً وراء الثـأر. هـذا لم يَحُـلْ دون تجنيـد شـبّان مـن العشـائر قاتلـوا في صفـوف الحركـة والحـزب سـواء في إقلـيم التفـاح أو في بـيروت، ولكـن ليـس في بعلبـك الهرمـل.

ما قبل معركة الشراونة ليس كما بعدها

وفي ١٩٩١-١٩٩٢، سجّلت مجموعة من الأحداث بين عشيرة جعفر ـ بعلبك وحزب الله في حي الشراونة في بعلبك. وقد أسفرت عن مقتل ثمانية عناصر من الحزب و٣ من الجعافرة بينهم رجل مسن وامرأة. وقد كان لها الأثر الكبير في اتخاذ الحزب قراره بتجنّب مواجهة العشائر.

وتتعدّد الروايات حول أسباب المواجهة بين حزب الله والجعافرة. فثمّة من يعزوها إلى تململ العشيرة من توسّع نفوذ الحزب في بعلبك، فيما يعتبرها البعض من ذيول «حرب الأخوة» بين الثنائي الشيعي والمشار إليها أعلاه، وعلى خلفية سيطرة الحزب على عدد من مراكز أمل في بعلبك. ولكن الثابت أنّ فتيل القتال بين الطرفين اشتعل مع قيام أحد أبناء عشيرة جعفر، وكان مسؤولاً في حركة أمل، بمحاولة السيطرة على محطة وقود للحزب في بعلبك مما أدّى إلى مقتله، وفق ما يروي لـ«المفكرة» أحد أبناء عشيرة جعفر. بعد حادثة المحطة، رابط أقارب القتيل من الجعافرة على الطريق الدولية بين بعلبك الهرمل وخطفوا ثمانية أشخاص بينهم شيخ وقاموا بتصفيتهم لاحقاً في ظروف لم نتمكّن من جلائها. كما عمدت العشيرة إلى مضايقات عدّة لكلّ من ينتمي إلى الحزب «يعني حتى إذا سيدة لابسة عباية يمنعوها تمرق من حي الشراونة» وفق ما يؤكد الرجل لـ«المفكرة»، ممّا تسبّب للحزب بإحراج كبير. تبعاً لذلك، هاجم حزب الله بعد سنة من الحادثة حي الشراونة واكتسحه بالكامل مسنوداً بالقصف على الحي مما أدى إلى مقتل امرأة ورجل مسنّ من عشيرة جعفر. وعليه، بدأت المفاوضات بين الطرفين بتدخّل من مسؤول «أمل المؤمنة» يومها زكريا حمزة وبرعاية سورية. وقد وافق الأمين العام لحزب الله في حينه السيد عباس الموسوي الذي اغتالته إسرائيل، على مبدأ التسوية مع الجعافرة، بعدما شاع أنّ هجوم الحزب على الشراونة قد حصل من دون علمه وخلال وجوده خارج لبنان. وإذ اغتالت إسرائيل الموسوي في ١٦ شباط ١٩٩٢، تولى الأمين العام الحالي للحزب السيد حسن نصرالله استكمال التسوية ـ الصلح التي تمثّلت في تقديم حزب الله أكثر من ٢٠٠ قطعة سلاح للجعافرة، وفق محدّثنا.

وتتعدّد الروايات حول أسباب المواجهة بين حزب الله والجعافرة. فثمّة من يعزوها إلى تململ العشيرة من توسّع نفوذ الحزب في بعلبك، فيما يعتبرها البعض من ذيول «حرب الأخوة» بين الثنائي الشيعي والمشار إليها أعلاه، وعلى خلفية سيطرة الحزب على عدد من مراكز أمل في بعلبك. ولكن الثابت أنّ فتيل القتال بين الطرفين اشتعل مع قيام أحد أبناء عشيرة جعفر، وكان مسؤولاً في حركة أمل، بمحاولة السيطرة على محطة وقود للحزب في بعلبك مما أدّى إلى مقتله، وفق ما يروي لـ«المفكرة» أحد أبناء عشيرة جعفر. بعد حادثة المحطة، رابَطَ أقارب القتيل من الجعافرة على الطريق الدولية بين بعلبك الهرمل وخطفوا ثمانية أشخاص بينهم

شيخ وقاموا بتصفيتهم لاحقاً في ظروف لم نتمكّن من جلائها. كما عمدت العشيرة إلى مضايقات عدّة لكلّ من ينتمي إلى الحزب «يعني حتى إذا سيدة لابسة عباية يمنعوها تمرق من حي الشراونة» وفق ما يؤكد الرجل لـ«المفكرة»، ممّا تسبّب للحزب بإحراج كبير. تبعاً لذلك، هاجم حزب الله بعد سنة من الحادثة حي الشراونة واكتسحه بالكامل مسنوداً بالقصف على الحي مما أدى إلى مقتل امرأة ورجل مسنّ من عشيرة جعفر. وعليه، بدأت المفاوضات بين الطرفين بتدخّل من مسؤول «أمل المؤمنة» يومها زكريا حمزة وبرعاية سورية. وقد وافق الأمين العام لحزب الله في حينه السيد عباس الموسوي الذي اغتالته إسرائيل، على مبدأ التسوية مع الجعافرة، بعدما شاع أنّ هجوم الحزب على الشراونة قد حصل من دون علمه وخلال وجوده خارج لبنان. وإذ اغتالت إسرائيل الموسوي في ١٦ شباط ١٩٩٢، تولى الأمين العام الحالي للحزب السيد حسن نصرالله استكمال التسوية ـ الصلح التي تمثّلت في تقديم حزب الله أكثر من ٢٠٠ قطعة سلاح للجعافرة، وفق محدّثنا.

بمعزل عن دقّة أيّ من تفاصيل هذه المعركة التي نقلناها هنا عن الذاكرة الشفوية، يبقى أنّ ثمّة تسليماً في المنطقة أنّها شكّلت المنعطف الذي دفع حزب الله إلى اعتماد سياسة مسايرة العشائر وتجنّب التصادم معها وهي سياسة ستتطوّر في ما بعد كما نبيّن أدناه.

اصطفافات ما بعد ٢٠٠٥-٢٠٠٦

شكّل العام ٢٠٠٥، تاريخ اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري مفصلاً أساسياً في علاقة حزب الله بالعشائر وتطوّرها مع ارتفاع منسوب التمذهب في البلاد والاصطفافات، وبحكم وقوع منطقة انتشار العشائر على الحدود مع جرود عكار والضنية مشكّلين بوّابة المنطقة الأقرب مع الشمال ذي الغالبية السنية الموالية لتيار المستقبل والإسلاميين بشكل عام. وصبّت حدود جرد العشائر مع منطقة بشري عبر القرنة السوداء وجبل المكمل، وكذلك عيون أرغش في قضاء بشري ومن بعدها دير الأحمر وعيناتا في منطقة غرب قضاء بعلبك في خانة تماسك العلاقة وتطوّرها. وعليه، تلاقى حزب الله مع العشائر حول مصلحة الطائفة التي تجمعهما.

وقد تركّز هذا الاتّجاه وتعزّز بعد عدوان ٢٠٠٦ الإسرائيلي والذي أُتبع بمحاولة إعاقة حركة حزب الله ومحاصرة نشاطه في جنوب نهر الليطاني تبعاً للقرار رقم ١٧٠١. ويقال إنّ الحزب اتّخذ قراراً رسمياً يومها بعدم إبقاء عشائر المنطقة، وهي ثالث قوّة عسكرية بعد حزب الله والجيش اللبناني، خارج الولاء للحزب قدر الإمكان.

ما بعد دخول
حزب الله في الحرب السورية

شكّلت الحرب السورية بيضة قبّان وازنة في علاقة العشائر وحزب الله، خصوصاً مع دخول الأخير على خطّها بداية من بوّابة حماية السكان اللبنانيين القاطنين في ٢٣ ضيعة سورية على الحدود مع الهرمل والقصر وحوش السيّد علي، حيث تنقسم عائلات الحدود بين قاطنين في الداخلين السوري واللبناني أيضاً، فنجد نصف هذه العائلة هنا ونصفها هناك. وقد تزايد التلاقي بين العشائر والحزب في ظلّ تنامي تهديد المدّ الداعشي، ووجود المسلحين في جرد عرسال، وإطلاق الصواريخ على القصر والهرمل ومناطقها وكذلك إرسال ثلاث سيارات متفجّرة إلى المدينة في شباط ٢٠١٤ (في ساحة السرايا وأمام حاجز للجيش عند مدخل البلدة وقرب محطة الأيتام للوقود).

ولا يُخفى على أحد أنّ ممرّ حزب الله إلى الداخل السوري يحصل من بوّابة المناطق العشائرية بالدرجة الأولى. كما أنّ توسيع عمليّاته فرض تجنيد المزيد من الشبّان (من العشائر كما من خارجها) في صفوفه في منطقة تعاني تاريخياً من قلّة فرص العمل، عدا عن شدّ العصب الطائفي والمذهبي في البلاد.

نتيجة لذلك، ارتفع عديد عناصر الحزب بين العشائر حيث تراوح بين ٧٠٠ إلى ٨٠٠ عنصر في عشيرة جعفر وحدها، وفق ما يؤكد أحد وجهاء الجعافرة. كما وصل إلى المئات في عشيرة ناصرالدين وأقلّ منها في صفوف عشيرة دندش. لم نشهد المدّ نفسه لدى عشيرة علّوه حيث يبقى عدد المتفرّغين من أبنائها في الحزب قليلاً، رغم أنّ مسؤول القطاع في الهرمل في حزب الله اليوم هو من هذه العشيرة. وهذا ما عبّر عنه لنا أحد مسؤولي الحزب في المنطقة بالقول: «بس بيت علّوه بعد ما زبطت نحن وايّاهم منيح».

ومع تواجد حزب الله في الداخل السوري، تتلاقى مصالح بعض العشائر وخصوصاً الحدودية منها معه، وفي مقدّمتها عشيرتا جعفر وناصرالدين وغيرهم من سكان الحدود الذين عادوا إلى قراهم بعد حسم معركة القصير وريفها بعضهم لزراعة أراضيهم والبعض الآخر للسكن ومتابعة حياتهم، إضافة إلى من يشتغلون بالتهريب.

وبناء على هذه المعطيات وبخاصّة التقارب بين العشائر وحزب الله، ترتفع أصوات كثيرة تتّهم الأخير بالتورّط في التهريب أو على الأقلّ في إهمال مكافحته، بصفته سيّد الأمر الواقع على الأرض. بالمقابل، يعتبر مصدرٌ في حزب الله في حديثه معنا أنّ منع التهريب هو من مهمة الجيش اللبناني وحواجزه المنتشرة على الحدود اللبنانية السورية، مذكّراً بتصريحات نوّاب الحزب الذين يطالبون الجيش اللبناني دائماً بالقيام بواجباته في منع التهريب. ويؤكّد المصدر أنّ حزب الله متضرّر من التهريب لأن بيئته تعاني من فقدان السلع من المازوت إلى البنزين إلى المواد الغذائية المدعومة وخصوصاً في الهرمل والمناطق الحدودية مع سوريا.

ولكـن، ومـن دون التقليـل مـن قـوّة الحـزب أو افـتراض نوايـاه في هـذا الخصـوص، يجـدر التنبيـه إلى ملاحظـات عـدّة لفهـم المعطيـات والحسـابات الـتي تدخـل حكمـاً في حسابات حـزب الله بمـا يتّصـل بهـذا الأمـر. مـن أوّل هـذه المعطيـات، هـو تحسّـبه حيـال أيّ مواجهـة مـع العشـائر الـتي يعدّهـا اليـوم بيئتـه الحاضنـة للأسـباب المبيّنـة أعـلاه. هـذا فضـلاً عـن أيّ مواجهـة مـع العشـائر تبقـى مكلفـة جـداً عليـه. ومنهـا حـادث مقتـل عنصريـن لـه في كمـين نصبـه لهمـا أشـخاص مـن عشـيرة ناصرالديـن في صيـف ٢٠١٦ عـلى خلفيـة تحميـل الحـزب مسـؤولية القبـض عـلى أحـد أبنائهـم في سـوريا ومعهـا مسـؤولية عـدم الإفـراج عنـه. ويُتـداول في المنطقـة أنّ الإشـكال حُـلّ عـلى الطريقـة العشـائرية، حيـث لم يمكـث ابـن ناصرالديـن في السـجن سـوى سـنة ونصـف إلى سـنتين وخـرج بعـد عقـد المصالحـة. كمـا تـروى قصـة مشـابهة بشـأن مواجهـة حصلـت مـع أفـراد مـن عشـيرة جعفـر عـلى خلفيـة القبـض عـلى أحـد أبنائهـا في سـوريا (وكان في صفـوف الحـزب) متورّطـاً بتهريـب أسـلحة وبـشر قبـل انتخابـات ٢٠١٨ بقليـل. وقـد قـام ذووه بإطـلاق النـار عـلى منـزل مسـؤول في الحـزب مبرّريـن ذلـك بـأنّ الأخـير لم يسـع لإخراجـه مـن السـجن في سـوريا. كمـا قامـوا مـن ثمّ بمهاجمـة عـدد مـن مراكـز الحـزب في المنطقـة. كمـا نفّـذت نسـوة مـن العشـيرة اعتصامـات عـدّة أمـام مكاتـب الأمانـة العامّـة لحـزب الله. وعلمـت «المفكـرة» مـن مصـدر متابـع للقضيـة أنّ الأمـين العـام للحـزب السـيد حسـن نـصرالله أوعـز شـخصياً للقيّمـين عـلى المراكـز الـتي اسـتهدفتها الهجمـات بعـدم الـرد وإن عـرّض الهجـوم حياتهـم للخطـر[١٣].

وانتهـت المواجهـة هنـا أيضـاً بتدخّـل حـزب الله لإطـلاق سراح الشـاب المعتقـل في سـوريا بعـد نحـو سـنتين مـن اعتقالـه.

يقـول أحـد أبنـاء عشـيرة جعفـر النقديـين للممارسـات العشـائرية لـ«المفكـرة» إنّ الحـزب وفي منحـى مسـايرة العشـائر عينـه، لم يقـم بجهـد جـدي لوقـف النهـب المنظّـم الـذي مارسـه البعـض في منطقـة القصـير وريفهـا مـن أبنـاء العشـائر والعائـلات الصغـيرة بعـد حـسم المعـارك هنـاك وتهجـير أهلهـا، لقـراره بعـدم مواجهـة هـؤلاء.

ويلاحـظ الرجـل أنّ بعـض مـن ينتمـون إلى «سرايـا المقاومـة» «مطلوبـون، وأشـخاص ذوو سـلوكيات لا يـرضى عنهـا المجتمـع عامّـة»، وأنهـم يسـتغلّون هـذه الصفـة للتمتّـع بهامـش حركـة. وهـو يعلّـق عـلى قبـول الحـزب انتماءهـم لسرايـا المقاومـة مـن دون أن يفتـح لهـم بـاب الانتسـاب للحـزب بأنّـه «يريـد أن يضمـن ولاءهـم مـن دون أن يتـورّط بانتسـابهم إليـه».

في الاتجاه نفسه، أخـذ بعـض محدّثينـا عـلى الحـزب كمـا عـلى حركـة أمـل أنّهمـا يلجـآن لحـلّ المشـاكل في المنطقـة عـلى الطريقـة العشـائرية وضمنـاً المصالحـات وتبويـس اللحـى، وهـم يـروون لـك في هـذه المضمار حـالات اعتمـدوا فيهـا هـذا المنحـى، قصصـاً لا تعـدّ ولا تحـصى.

(١٣) نقل بعض المحسوبين على حزب الله لنا أنّ نصرالله قال بالحرف «لو بتستشهدوا كلّكم ما بتردّوا ع بيت جعفر».



ساقية وجسر صغير ومنازل على الضفتين على الحدود مع سوريا | **تصوير سعدى علوه**



عن الحزبي ابن العشيرة
الذي ينتقد عشيرته وحزبه

سعدى علّوه



رسم رواند عيسى

عندما قرأ أحمد (اسم مستعار) بيان عشيرة جعفر وهي تتبرّأ من ابنها الشيخ جابر سعدالله جعفر المنشور في جريدة «السفير» في مطلع التسعينيّات بعد التحاقه بحزب الله، أدرك حجم التحدّيات التي ستصادفه كشاب في بداية دراسته الجامعية يعتنق فكر الحزب وينتمي إليه. طلب أحمد عدم ذكر اسمه ونحن نجري معه مقابلة حول «الحزبي ابن العشيرة» ومدى التوافق بين أعراف عشيرته وقواعده الحزبية وهل صادف متناقضات وتحدّيات. «حتى كون مرتاح بالحكي سواء ع العشيرة وسواء ع الحزب، ما تحطي إسمي»، قال.

كان الشيخ جابر من أوائل أبناء عشيرة جعفر الذين أعلنوا انضمامهم إلى حزب الله والالتزام به في وقت كانت العشائر ما زالت منيعة حيال الحزب. يومها، عقدت عشيرة جعفر اجتماعاً لمجلسها الذي يضمّ زعماءها ووجهاءها

واستدعت الشيخ جابر وخيّرته بين العشيرة وحزب الله فاختار الحزب. أصدرت العشيرة إذ ذاك بياناً تبرّأت فيه من ابنها الحزبي، ورد جابر بحزم أمتعته ومغادرة منطقة الجعافرة والسّكن بعيداً عنهم والزواج من غير بناتهم. حال الشيخ جابر تغيّرت اليوم طبعاً مع تغيّر علاقة حزب الله وعشيرة جعفر وخصوصاً جعافرة الشمال، أي من يسكنون جرود الهرمل على الحد مع عكار، «ع شوي مقدّسينه»، والذين يراوح عديد شبّانهم في الحزب حالياً ما بين ٨٠٠ إلى ألف عنصر، على خلفية المنحى الذي سلكته علاقة الطرفين بعد ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ ومن ثم ٢٠١١، تاريخ اندلاع الحرب السورية.

في منتصف التسعينيات، كان أحمد يكمل دراسته الجامعية في بيروت، وكان عدد شبّان عشيرته الذين ينتمون إلى حزب الله لا يتجاوز أصابع اليدين: «كان عندي أصدقاء يساريين وسوريين قوميين ومن أحزاب أخرى، لكنّي وجدت نفسي منحازاً لأنشطة حزب الله وهيئة دعم المقاومة». يردّ هذا الانحياز لفطرته الداعمة لأشكال المقاومة كافّة، كما للدّين: «نشأت في عائلة ملتزمة بالخمس والزكاة وفروض الدّين كلّها، في وقت قلّ فيه التزام العشائر، وعليه ارتحت لحزب الله كمقاومة تسقط عندها ليس حدود العشيرة فقط وإنّما حدود الوطن، وكالتزام ديني ينسجم مع نشأتي، وكفكر طبعاً». مع العلم أنّ أحمد ليس متفرّغاً في الحزب ولا متعاقداً «يعني ما بقبض ولا ليرة من الحزب، حتى إنّي لو وضعي المادي بيسمح كنت بتبرّع له».

لم يعانِ أحمد من عشيرته فقط حيث لم يكن انتسابه إلى الحزب محبّذاً ومقبولاً: «كنت إتعرّض لمضايقات على الضفّتين العشائرية والحزبية. ولكنّ العشيرة نفسها هي التي حمتني منها أيضاً للأسف». كيف؟ «لأنّ توازنات القوى ضمن العشيرة تفرض نفسها». فأحمد ينتمي إلى جبّ له كلمته ضمن عشيرته «فكانوا يحسبون حساب أيّ مضايقة قد تستجرّ خلافاً داخلياً». وعليه تمكّن من التعايش مع رفض العشيرة لتحزّبه، مع أنّه كان قد حسم خياره: «لو خيّروني بين العشيرة والحزب لاخترت الحزب من دون تردّد»، يقول من دون أن يخفي شعوره بالفخر بالانتماء إلى العشيرة «من زاوية الكرم والنخوة والانتفاض لكرامة الشخص وإكرام الضيف ونصرة الضعيف». ويرى بالتالي أنّ هناك قيماً إيجابية جداً في العشيرة «لكن بعض أبناء العشائر لم يحافظوا على هذه القيم، بل ساروا في سلوكيات شوّهت العشيرة وجعلت من يرفضها (السلوكيات) يخجل من كونه ابن عشيرة». إذاً هل أنت اليوم ضد الثأر، وهو أحد الأعراف العشائرية التي ما زالت ثابتة؟ نسأله. فيجيب أنّه لا يمكنه أن يقتل بريئاً لأنّه شقيق قاتل أو قريبه. ولكن هل تثأر من القاتل نفسه؟ نعيد السؤال. هنا يلجأ أحمد إلى الشرع: «في الدين، حتى وليّ الدم (أي من قُتل له قريب، ابن أو أخ أو أب) يحتاج إلى إذن ديني شرعي للأخذ بالثأر، ولذا إذا كنت أتمثّل بالإمام الحسين فإنّي أفضّل العار ولا النار، أي عدم الأخذ بالثأر من دون الإذن الديني «حتى لو عابت عليّ العشيرة ذلك»، كون العرف العشائري يُعيب على من لا يأخذ بالثأر.

على الضفة الحزبية، واجهت أحمد تحدّيات أيضاً: «كان البعض ينظر إليّ كابن عشيرة، خصوصاً على خلفية مواجهات بعض العشائر مع حزب الله (معركة الشراونة) من جهة، وعدم ترحيب العشائر بانتشار الحزب وتمدّده ومقاومتها لهذا التمدّد بين أبنائها». نحن نتحدّث عن أواخر الثمانينيّات وبداية التسعينيّات «لم يكن الحال كما اليوم حيث تمدّد حزب الله بين العشائر وإن بنسب مختلفة، أما يومها، في بادية التسعينيّات، فكان أبناء العشائر يشعرون أنّ أبناء العائلات غير العشائرية يستقوون بالحزب في مواجهتهم، كما أنّ العصبية العشائرية وخصوصاً الزعامات التقليدية، شعرت أنّها مهدّدة».

تمسّك أحمد بالقيم الإيجابية للعشائر ومنها، إضافة إلى ما سبق ذكره، «مقاومة المحتلّ ورفض الظلم بأنواعه كافّة، حيث كان أبناء العشائر المقاومين الأوائل للعثماني والفرنسي»، تلتقي مع «النهج المقاوم للحزب» كما يقول، ليرى لو أنّ العشائر تمسّكت بأعرافها الجيّدة والجميلة لتلاقت مع الحزب منذ بداياته».

وكابن عشيرة، يقف أحمد على مسافة نقدية من العشائر (الثأر من بريء والمخدّرات وبعض أعمال السرقات والنهب وقطع الطرقات) ومن الحزب مع فارق واضح: هو يخجل من ممارسات العشائر ولكن تراه في المقابل يبرّر للحزب بعض المحطّات التي لا يستسيغها «أنا أثق في القيادة وفي قراراتها وأعتقد أنّها ترى السلبيّات ولكنّها تعطي الأولوية للأهداف الاستراتيجية الكبرى».

كفرد قد لا ترضي أحمد «مسايرة حزب الله حالياً للعشائر ولا حمايته لبعض ما يحصل في المنطقة»، ولكن كون قيادة الحزب «ترى مصلحته في هذه المسايرة وتدرك أكثر منّي أبعادها، لذا أقبل بها كون نظرتي إلى الأمور كفرد مختلفة عن نظرة القيادة وما تراه مناسباً للحزب ككل، وأنا أقبل بقرارات القيادة من دون أي تردّد». إضافة إلى المصلحة الانتخابية «إذا اتفقوا عشيرتان فيهم ينجّحوا نائب»، هناك وجهاء العشائر الذين ما زالوا «يتمتّعون بالنفوذ والحزب يضطرّ لقبول ذلك ولا يسعى لإقفال بيوتهم، والأفضل أن يستوعبهم على أن يتصادم معهم»، وبعض هؤلاء، أي الوجهاء يتمسّكون بالفائدة الفردية «يعني عطول بدهم عن طريقهم يجي كل شي منيح لمناطقهم».

كما أنّ العشيرة، على ما يقول أحمد، لا تتخلّى عن أبنائها «حتّى لو اعتمدوا سلوكيات خاطئة ومنها الثأر من بريء والمخدرات والتهريب وملحقاته حتى تهريب البشر وغيره». من هنا يضطرّ حزب الله للتدخّل أحياناً لتسوية أوضاع ابن هذه العشيرة أو تلك، كما حلّ الأمور والمشاكل على الطريقة العشائرية «وأوقات بيزايد ع العشائر في هذا الأمر، حيث تكون المصالحة هي الأولويّة سعياً لحقن الدماء».

ومن بوّابة وضع منطقة الهرمل وقضائها، يتطرق أحمد إلى الوضع الداخلي: «صحيح أنّ لا غبار على المقاومة»، ولكنّه ينتقد الناحية الإنمائية والتعاطي في البلديات: «يسلك الحزب



خيمة ما زالت مستعملة للسكن في جرد الهرمل | **تصوير حسن الساحلي**

في البلديات سلوك حركة أمل الذي ننتقده ونعيبه عليها»، وعليه «أقول بكل ضمير مرتاح إنّ حزب الله قد فشل في البلديات». ولكن التحدّيات كبيرة في مجتمع كالمجتمع اللبناني عامّة، يضيف، ومجتمع المنطقة والعشائر بشكل خاص «لازم نعترف إنّه الشعب فاسد كمان»، فعلى سبيل المثال «بس يجي زفت لطريق، الكلّ بدّه يقبض متل كلّ المشاريع، وينصبّ الاهتمام على الإفادة الشخصية للوجهاء والمؤثّرين وليس على المصلحة العامّة، والسهر على حسن تنفيذ المشاريع». وهنا يجري غضّ النظر عن التجاوزات «وتدفع المنطقة الثمن، وتصبح حصّتها من الإنماء هي الضحية».

بعد استعراض الحال، نطلب من أحمد أن يضع خاتمته بنفسه: «كتير يئسان من أيّ تغيير في المنطقة، رح تمرق السنين ويمكن كلّ المناطق تتغير ونحن نضلّ بمكانّا طالما عم نكرّس السلبيات وما نعالجها».

د. فؤاد خليل
أستاذ متقاعد في معهد العلوم الاجتماعيّـة، الجامعـة اللبنانيـة.

العشيرة في ميزان السوسيولوجيا



وادي الشربين شتاء | **تصوير كامل جابر**

١. العشيرة ليست الغريب

مـا أن يقـع حـدث يعـود إلى عصبيّـة محلّيـة أو إلى عشـيرة مـا، حـتى تـرى بعضاً مـن الوسـط الثقـافي، وبخاصّـة بعـض الوسـط الإعلامـي، يجنّـد كلّ طاقاتـه لـكي يتـصرّف، ليـس إلى الحـدث بذاتـه، بـل إلى صانعـه كأنّمـا الإعـلام لا يجـد في هـذا الصانـع إلّا مـادّة جاذبـة، أو غريباً عـن الانتظـام البنيـوي اللبنـاني، حيـث حوّلـه إلى موضـوع للاسـتهجان والدهشـة كما يحـاكي طروحـات الأنتروبولوجيـا حينمـا كانـت تصنّـف الخلق بين غريب طيّب وما قبل منطقي، وبين غربـي «أنـوي» ومنطقـي. والبـيّن في هـذا البـاب أنّ أنتروبولوجيـا «الغرابـة والدهشـة» مـا زالـت تحـضر في وعـي مجموعـة واسـعة مـن مثقّفينـا وإعلاميينـا؛ وأنّ حضورهـا قـد تبـدّى بصـورة أو بأخـرى في مواقفـه، وفيما يقدّمـه مـن آراء وأفـكار حـول العشـيرة.

٢. وليست متخلّفة

وهكذا، ترى هذه المجموعة في صورة أولى تختزل العشيرة بالأخذ بالثأر، ثم تحصره في المعنى القانوني أي في نطاق الجريمة، من دون أن تدرك أن معناه يتجاوز البعد القانوني إلى ما هو أعمق بكثير. فالأخذ بالثأر هو العنف العصبي الشرعي، أو الآلية العنفية العصبية التي تعيد اللحمة إلى نظام العلاقات السلطوية في العشيرة، إذا ما تعرّض للانكسار نتيجة مقتل أحد أفرادها. وهو آلية «تلحيم» الانكسار في النظام السلطوي العشائري. كما قد نلقاها في صورة ثانية ترجع بالعشيرة إلى زمن الدولة الإسلامية، وأحياناً إلى ما قبله. ودَيْدنه في هذا الرجوع هو تظهير الأصل النسبي العشائري، من غير أن يحتسب أنّ العشيرة ليست جوهراً أو ماهية لا تتأثر بسنن التاريخ وأحواله، بل هي ظاهرة مجتمعية تتحوّل وتتبدّل وفق تطوّر شروط التاريخ والمجتمع، ومن غير أن تعلم أنّ النسب العصبي لا يتحدد بالأصول البيولوجية، بل بنظام العلاقات المجتمعية وتحديداً بالنعرة والنصرة والمدافعة. وقد تجد هذه المجموعة في صورة ثالثة تُسقط أحكامها الذاتية المسبقة أو تصنيفاتها الأيديويولوجية على العشيرة. فترشقها بأوصاف «التخلّف» «والتأخّر» من دون أن تعي أن وصفها لا ينزل في موازين العلم والموضوعية، بل يحيل إلى أدلجة تفتئت على العشيرة وتسبغ عليها ما ليس من إنتاجها في الأصل. فالتخلّف ليس خاصّية عشائرية أو عائلية؛ بل هو خاصّية مجتمع ينتج التخلّف في أشكال متجادلة على غير صعيد.

٣. مقترب سوسيولوجي

وعلى هذا، كان لا بدّ من مقترب سوسيولوجي يقدّم صورة موضوعية عن العشيرة لئلّا يطغى الوعي الاختزالي عنها، أو النظر التنميطي والأيديولوجي إليها.

أ. في لبنان عشيرتان

توجد في لبنان عشيرتان بالمعنى العامّ للمُصطلح: مارونية في الشمال الماروني. وشيعية في الشريط الشرقي من السلسلة الغربية وبخاصّة في الجرد الرملي. ولكلّ عشيرة منهما منطق خاص في تشكّلها في ضوء توفّر جملة من الشروط السياسية والاقتصادية والمجتمعية التي عرفت مع انهيار نظام المتصرفية محطّة فاصلة في تكوّنها التاريخي. فأعلنت ولادتها مع مطلع الرّبع الثّاني من القرن العشرين، حركة انبناء الشروط التاريخية الخاصّة في كلّ من الجرد الرملي والشمال الماروني. وبتعبير آخر، إن تاريخ التشكل العشائري الحديث في لبنان، بدأ مع انهيار النظام المتصرفي، وليس مع أي تاريخ سابق عليه سواء كان خزيناً في الذاكرة الشعبية، أو مدوّناً في السرد الخطي لدى المؤرخين.

ب. عشيرة البقاع الشمالي

ومن باب هذا التاريخ وجدت العشيرة في الجرد الرملي حركة انبناء شروطها الخاصّة أو ظروفها المجتمعية الملموسة في تشكّلها الحديث. وتوزّعت العشائر في الجرد الرملي على عمودين عصبيين: عمود شمصي، وآخر زعيتري. والعمود هو تصنيف عصبي كان يجمع بين عناصر عصبية محدّدة ويتشارك في الحلف والولاء على قاعدة توازنات خاصّة في داخله وفي علاقته مع العمود الآخر. وكان العمودان ينتميان بالولاء إلى عصبية عامّة وموسّعة هي الحمادية. والحمادية لا تحيل إلى علاقات القرابة والنسب، بل تعبّر عن صيغة سياسية توحيدية ذات هيئة متراتبة في توازناتها. وقد استطاعتْ أن تنقل اسمها إلى العصبيات الجردية بحيث أصبحت تُعرف بالعشائر الحمادية.

ج. العنصر العصبي، عشيرة

لكنّ الحمادية السياسية أخذت تشهد مع مطلع العشرينيّات تحوّلات نوعية في تركيبتها الداخلية وفي نظام علاقاتها الخارجية. فمع هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى وزوال النظام المتصرّفي، ضعفت سلطة المشيخة الحمادية، وتوفّرت الشروط الملائمة للعنصر العصبي من العمودين المذكورين لكي يبني مسار انفكاكه عن الحمادية، أي لكي يبني سلطته المستقلّة. وقد وجد في ثورة فيسان عام ١٩٢٦ محطّة فاصلة في انبنائها بكيفيات مختلفة بين عنصر عصبي وآخر. ومع استقلال سلطة العنصر العصبي عن الولاء الحمادي، أمكن له سواء انتمى إلى العمود الشمصي أو الزعيتري أن يشكّل عشيرة ذات مقوّمات موصوفة.

د. تعريف العشيرة

وعليه»، فالعشيرة في التعريف التشكّلي هي شكل التنظيم المجتمعي والسياسي المستقلّ الذي اتّخذه العنصر العصبي الشمصي والزعيتري بعد مسار انفكاكه عن الحمادية السياسية. أو بمعنى آخر، هي الشكل التاريخي الحديث الذي بنى العنصر العصبي من خلاله سلطته العصبيّة المستقلّة.

والشكل هنا يحيل وصفه إلى أنّ العشيرة هي مجموعة قرابية تقيم في مكان مشترك، ويجمعها الانتماء إلى النسب الواحد، والعصبية كرباط مجتمعي وظيفته النعرة والمدافعة عنها كوحدة مجتمعية سياسية تتوافر على سلطة مستقلة. وهي ذات نظام تكافلي بين أفخاذها وأجبابها بحيث تقوم أصول المعاملات بين أفرادها من جهة ومع الخارج من جهة أخرى على أساس المرجعية العصبية.

ويكشف الوصف أعلاه، أنّ بنية العشيرة تشتمل على عناصر محدّدة من أبرزها: الزعامة أو السلطة العامّة- العصبية كرابطة عنف كامن هي جامعة

وخاصّة- توازنات فخذية وجبّية. وهذه العناصر وغيرها مثل المعاشي والثقافي تتجادل فيما بينها بأشكال متباينة، إنّما من داخل بنية العشيرة أو من داخل وحدتها المجتمعية والسياسية.

٤. مثلّث مفاهيمي

إذاً، لقد امتلكت العشيرة سلطة عصبيّة تتّصف بالشرعية وتفرض نفسها في الداخل والخارج على السواء. ولعلّ هذا ما ميّز العصبية العشائرية عن العصبية العائلية المحلّية، وما حكم العلاقة بينها وبين الطائفة والدولة أو السلطة العامّة. فالعائلة لا تختلف عن العشيرة من حيث بناؤها القرابي إذ إنّها تؤلّف مجموعة قرابية يجمعها الانتماء إلى النّسب الواحد، وتشتمل على أشكال العصبية العامّة والخاصّة، وعلى التركيب الفخائذي والجبّي. لكن ثمّة فارقاً جوهرياً بينهما يتعدّى المقارنة القرابية، وهو أنّ عصبيّة العائلة افتقدت وظائفها السياسية في النصرة والمدافعة، أي أنّها افتقدت السلطة السياسية، وتوافرت فقط على سلطة وجاهية- معنوية عامّة. وبذلك، تكون العائلة قد تشابهت مع العشيرة في المورفولوجيا القرابية، وافترقتا في دور الزعيم والوجيه، وفي وظائف العصبية الخاصّة والجامعة، وفي دور العشائري والعائلي في حماية اللحمة الداخلية وصون تماسكها، وفي موقع كلّ منهما في التوازنات المحلية والعامّة.
وعلاقة العشيرة بالطائفة والدولة، تنتظم وفق آليات التعايش المحسوب. فالعشيرة تحذّر من العصبية الطائفية وتقف منها على مسافة مصوغة بدقّة. إذ تراها تندرج في عصبيّتها الطائفية وتحرص على التمايز عنها في الوقت نفسه حفاظاً على سلطتها الخاصّة.

ولذلك، ترفض أن تتحوّل إلى جمهور يفقدها تميّزها المجتمعي الذي كابدت طويلاً في صنعه، ولا تتحرّج أن تواجه السلطة في طائفتها إذا ما سعت الأخيرة إلى إضعاف موقعها مثلما أنّها لا تتأخّر في أن تعترف بهذه السلطة وتدعمها إذا ما اعترفت وأقرّت بموقعها المتميّز وحافظت عليه. في حين أنّ العائلة تنخرط من دون حسابات معقّدة، في عصبتها الطائفية سعياً منها لحماية مجتمعية لم تستطِعْ تركيبتها أن توفّر شروط بناء تلك الحماية.

أمّا علاقة العشيرة «بالدولة» وتحديداً بالنظام الطائفي، فإنّها تخضع أيضاً للمنطق التعايشي المحسوب بينهما. فنظام الطائفية السياسية يُرسي آليات التعايش مع كلّ أشكال الولاءات العصبية في المجتمع المحلّي، ومن جهتها تتعايش هذه الأشكال مع النظام لأنّها تجد في طبيعته إحدى آليات إنتاجها من جديد. لكنّ التعايش المتبادل بينهما يبقى منتظماً وفق حسابات مضبوطة. فالنظام لا يمارس سلطته العامّة أو عنفه الشرعي على العشيرة أو العصبية المحلية من دون حساب تسوَوي مسبق معها. وهي لا تندرج في انتظامه السلطوي العام إلّا من باب موقعها المتميّز داخل التوازنات في المجتمع المحلّي. والحال، إنّ المثلث المفاهيمي: العشيرة (العصبيّة



المحلّيـة)، والطائفـة، والدولـة (النظـام، السـلطة)، هـو مفتـاح وعـي ديناميّـة الـولاءات الأوّليـة أو التقليديـة في لبنـان. وهـذه ديناميّـة متأصّلـة في واقعـه. فـلا يصـحّ أن يُنظـر إليهـا مـن زاويـة معياريـة تسـتبدل الكشـف عنهـا بإغراقهـا في نطـاق أحـكام قيميـة وأيديولوجيـة.

٥. تقليد وتحديث



لقد قدّم هذا المقترب على اقتضابه صورة عامّة عـن العشـيرة وهـي صـورة عكسـت مرحلـة مـن تاريخها امتدّت بين ١٩٢٠ و١٩٨٠. وكانت بنيتها في تلك المرحلة تتوافر على آليات انتقال ذات طابع تقليـدي يحيـل إلى نمـوذج معلـوم. لكـنّ العشـيرة شـهدتْ في العقـود الثلاثـة الأخـيرة تغيـيرات عميقة في بنيتها. وقد تبدّت هـذه التغيـيرات في مظاهـر متعـدّدة: في سـكنها التاريخـي المشـترك، وتنامـي التعلـيم والتوظيـف والانخـراط في سـوق العمـل بـين أفرادهـا، وفيمـا أحرزتـه مـن أنصبـة تمدينيـة، وفي تراجـع سـلطتها العامّـة وتقـدّم مواقـع عصبيّتهـا الخاصّـة أو الجبّيـة: الأمـر الـذي اسـتنبت في داخلها عصائـب فرعيـة تتشـكل مـن جـبّ أو أكـثر، ثم جعـل بالتـالي آليـات اشـتغالها تنتظـم انتقاليـاً بـين تقليـد يسـتدعي التحديـث ويوظّفـه في خدمتـه، وتحديـث يسـتدعي التقليـد ويدرجـه بشـكل جديـد في بنيتهـا كمـا في بنيـة الطائفـة والدولـة الطائفيـة.



سهل مرجحين معقل عشيرتي علوه وناصرالدين | **تصوير كامل جابر**



خيمة كانت مسكونة سابقا على كتف سهل مرجحين | **تصوير كامل جابر**

الطفّار

سعدى علّوه

«بس توصلي ع راس الحرف ع الحدّ المشترك بين جرود الضنّية- عكار- الهرمل احكيني ومنتّفق وين منتلاقى»، يقول الطافر «الرقم ١»، كما هو متعارف على تسميته في منطقة قضاء الهرمل. لاحقاً نعرف أنّ الرجل الخمسيني لا يمكن أن يكشف مكانه لأيّ كان «فكيف إذا للصحافة» كما يوضح. ليس بعيداً عن رأس الحرف وتحت لزّابة معمّرة، جلس الطافر (الذي سنشير إليه في هذا التحقيق بـ»رجل اللزّابة») على تلّة تكشف المنطقة من جوانبها الأربعة «لازم تكون المنطقة مكشوفة وتحت نظري لإرتاح»، يبرّر.

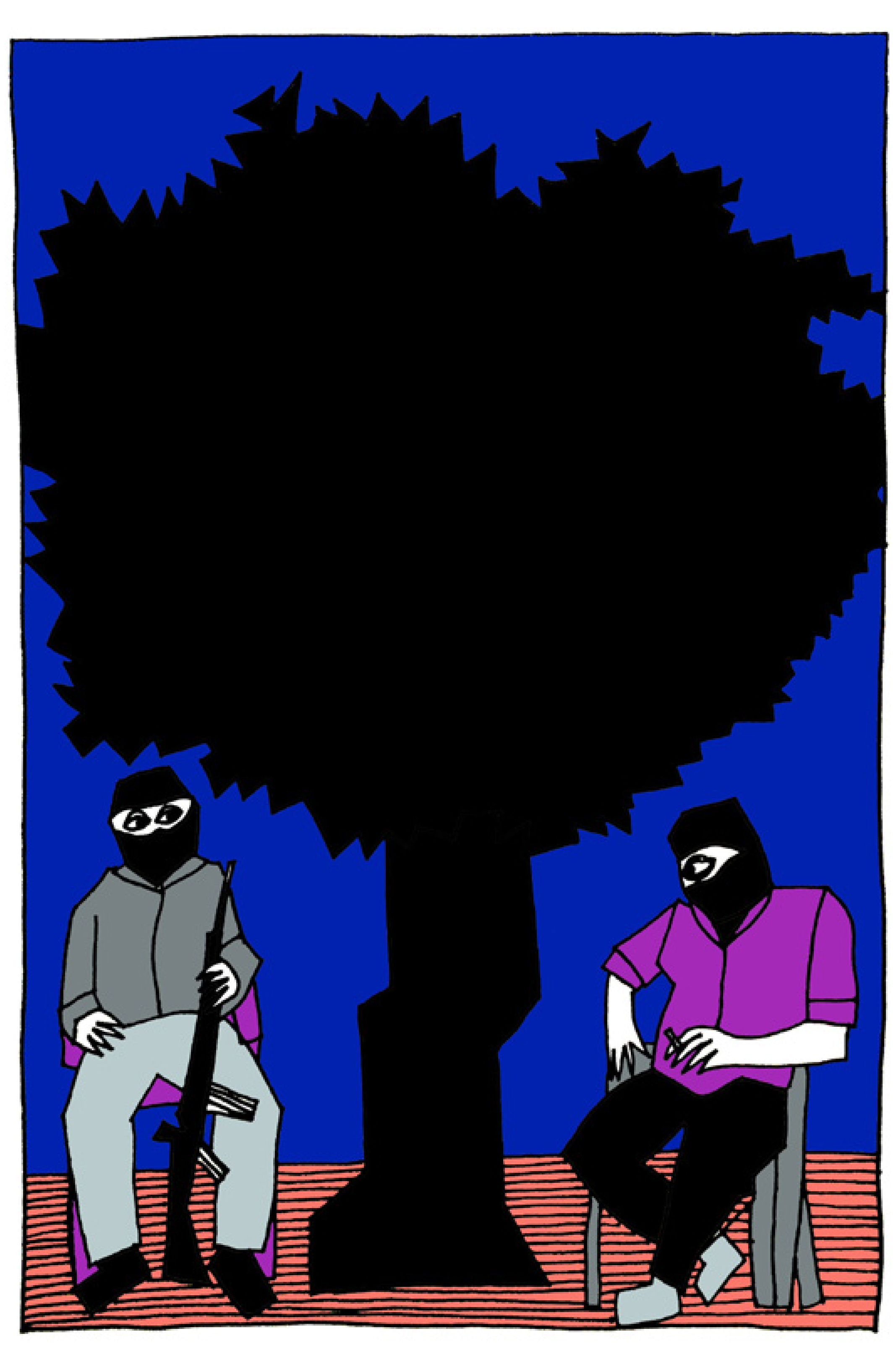
بالقرب منه، يوجد غطاء صوفي ووسادة مع فرشة اسفنج: «مبارح صار في مداهمات بمنطقة قريبة فمت هون تحت الشجرة». هو واحد من آلاف الطفّار والمطلوبين بموجب ٤٨ ألف مذكّرة توقيف وبلاغ بحث وتحرٍّ ووثيقة اتصال يتقاسمها قضاءا بعلبك والهرمل مناصفة تقريباً. هذا ما يؤكّده مصدر أمني لـ»المفكرة»: «ليس لدينا إحصاء مؤكّد، ولكنّ العدد متقارب بين منطقتي بعلبك والهرمل»، وفق ما يقول. لا توزيع دقيق للأرقام في المديرية العامّة لقوى الأمن الداخلي ولا في النيابة العامّة التمييزية، كما أتتنا الأجوبة من الجهتين «ما في داعي تقدّموا كتاب رسمي، ما في جواب»، قالوا لنا. «المفكرة القانونية» قصدت بعض هؤلاء الطفّار في محاولة لفهم مقاربتهم لوضعهم وطرق حياتهم ويوميّاتهم.

ظاهرة «طفّار» الهرمل

نجد في كتب المعلومات (الأمنية) التي كتبها ضبّاط الجيش الفرنسي لصالح «القيادة العسكرية في سلسلة جبال لبنان الشرقية»، ومنها برقية الملازم مامية بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٤ قصصاً كثيرة وأسماء لطفّار من العشائر[1]. كتب الملازم مامية في البرقية ما يأتي: «بالقرب من قرية الهرمل، في أودية لبنان، يعيش عدد من العائلات أكثر استقلالية من قرويي الهرمل الذين يقيمون معهم علاقات جيدة جداً. من بين هذه العائلات عدد من الأفراد المطلوبين من قبل العدالة بتهم سلب ونهب ويُطلق عليهم اسم طفّار الهرمل». وفي البرقية عينها، يتحدّث الملازم مامية عن مطلوبين كثر «من أيام الأتراك».

وعليه، تتناقل أجيال المنطقة وخصوصاً من العشائر قصص الطفّار أباً عن جد منذ الاستعمار التركي مروراً بالفرنسي ومن ثمّ دولة الاستقلال، وصولاً إلى اليوم. فالرّجال ساكنو الجبال قبل أن يبدأوا منذ نحو سبعين عاماً نزوحهم المستمر من جرود الهرمل في السلسلة الشرقية التي استقرّوا

(١) العشيرة: دولة المجتمع المحلي، «عشائر جرد الهرمل»، الدكتور فؤاد خليل، دار الفارابي، ١٩٩٠، فصل «بين بعبدا وقلعة عروبة»، فصل الملاحق الصفحة ١٩٥.



رسم روائد عيسى

فيها منذ أواخر القرن الثامن عشر، نحو الهرمل وسهلها لغاية اليوم، طالما كانوا على خلاف مع السلطات بحكم نمط حياتهم وعدائهم لكلّ غريب ومحتلّ. وقد شكّلت ثورة فيسان (١٩٢٦) التي خاضتها عشيرة جعفر بمساندة أبناء عدد من العشائر وانهزم فيها الفرنسيون، مفصلاً أساسياً في زيادة عدد الطفّار من جهة، وتعميم منظومة حياة متكاملة للخارجين على القانون الذين وصفهم وزير العمل الأسبق والكاتب طراد حمادة بأولئك الذين «منازلهم على ظهور خيولهم»، في إشارة إلى أنّهم كانوا فرسان زمانهم، وتوثيقاً لانعدام الاستقرار الذي طبع نمط عيشهم. وهو نمط ساعدت طبيعة الجرود الوعرة في تثبيته حيث لم تعرف الطرقات قبل الخمسينيات، وبقيت طرقاتها ترابية عسكرية لا تصلح إلّا للسيارات الرباعية الدفع لغاية نهاية التسعينيّات، وبعيدة عن أعين الدولة. ومع الوقت والتطوّر استُبدلت الخيول بالسيارات وآليات البيك آب الرباعية الدفع التي تتحوّل إلى منازل للطفّار خلال الحملات الأمنية والمداهمات.

حتى العام ١٩٩٠، تاريخ قرار الدولة اللبنانية التشدّد في منع زراعة الحشيشة، انحصرت تهم الطفّار بتهم الثأر والقتل المرتبطة به وفق ما يؤكّد د. فؤاد خليل (الاختصاصي في علم الاجتماع والأستاذ المتقاعد من الجامعة اللبنانية) لـ«المفكرة». توسّعت هذه التهم لتشمل تهم زراعة الحشيشة ابتداء من التسعينيّات. وهو ما رفع عدد الطفّار منذ ١٩٩٠ ولغاية اليوم بالآلاف، ليصل رقم مذكّرات التوقيف وبلاغات البحث والتحرّي ووثائق الاتّصال إلى ٤٨ ألفاً. ولم تعد التهمة محصورة بزراعة المخدّرات بل تعدّتها إلى الترويج والإتجار طبعاً، وهي تهم «تحتكرها» المنطقة بشكل عام إلى درجة شكّل معها طفّارها فئة وازنة بين الفئات الثلاث المعنيّة باستصدار قانون عفو عام.

من هم الطفّار؟

في حديثه معنا، يميّز د. فؤاد خليل بين الطافر والمطلوب: «الطافر هو من يهرب من السلطات العامّة بحماية السلطة العشائرية»، وهو ما يميّزه عن «الإنسان العادي الذي يفرّ من وجه القانون وتعود الدولة لتقبض عليه». وفي شرحه لأسباب تمييزه بين الطافر بتهم المخدّرات والثأر وبين المطلوبين بتهم النهب والسلب والسرقة وغيرها، يعتبر خليل أنّ «الأخذ بالثأر عند العشائر هو آليّة تعيد إنتاج اللُحمة داخل العشيرة التي تنكسر وتنخفض لدى مقتل أحد أبنائها، فيأتي الأخذ بالثأر ليعيد إنتاج اللحمة العشائرية، ولحم الكسر». أمّا المخدّرات فهي «اقتصاد عنفي محمي من العشيرة»، ولكنّ السرقة على أنواعها «دخيلة على العرف العشائري، ويبقى المتّهمون فيها مطلوبين خارج توصيف الطفّار»، حسب ما يقول. ويرى أنّ الطفّار في أيّام الأتراك ومن ثمّ الفرنسيين هم أنفسهم الطفّار من الدولة اللبنانية «كانوا يطفرون من الأتراك والفرنسيين ويحتمون في الجرود ومن ثمّ يعتدون عليهم (على العثمانيين والفرنسيين)،

وكذلـك مـع الدولـة اللبنانيـة». ولكـن عندمـا تنجز العشيرة تسوية مع الدولة تسلّم طفّارها ليخضعـوا لمحاكمـة صوريـة، وهـي أمـور كانـت تحصـل مـع الأتـراك والفرنسـيين». فالسـلطة المركزية «بتعمل حساباتها بدقّة لـدى الاصطدام مع السلطة العشائرية، وهي تحاول استيعابها، ولنا في المرحلة الشهابية أكبر مثال» على ذلك.

وتنسـجم نظـرة الطفّـار لأنفسـهم مـع تحليـل د. خليل وتوصيفه. فتهم الثأر والمخدرات وخصوصاً زراعـة الحشيشـة لا تدخـل في مفهـوم العيـب لـدى أبنـاء المنطقـة وتحديـداً العشـائر: «الأخـذ بالثـأر بتعتـبره الأكثريـة واجـب وخصوصـاً عندمـا تتقاعـس السـلطات عـن إحقـاق العدالـة، وهـذا مـا يحصـل غالبـاً، إذ يبقـى القاتـل حـرّاً طليقـاً» يوضح أحد كبار الطفّار (من حيث عدد مذكّرات التوقيف بحقّه وسنوات الطفر) منذ أكثر من ٢٠ عاماً. أمّا المخدّرات فتقع في باب «مرغم أخاك لا بطل، نحن الدولة بتدفعنا دفع ع هيدا الشغل أو منموت من الجوع، أو بدنا نسرق وننهب وهيدا شي ما بيناسب أخلاقياتنا»، وفق الطافر نفسه. ولذا لا تضمّ مجموعات الطفّار بتهم الثأر وزراعة الحشيشة والمخدّرات «حراميي وقطّاع طرق أو خاطفين، هودي منبوذين من قبلنا، ولا ندخلهم ضمن مجموعاتنا كطفّار، وهم غالباً يهربون إلى سوريا وليس إلى الجرود مثلنا».

قصص طفّار والعدالة من منظورهم

عدا عن أنّ الطفّار يعدّون أنفسهم ضحايا ظروف المنطقـة وحرمانهـا المزمـن، فإنّهـم يعـبّرون أيضـاً عـن عـدم ثقتهـم في نظـام العدالـة ككل والـذي يكـثرون الأحاديـث عـن فسـاده.

يحمـل «رجـل اللزّابـة» رتبـة «الرقـم ١» لأنّـه مطلـوب بتهـم ثـلاث: «القتـل والإتجـار بالمخـدّرات والفـرار مـن السـجن». و«لـكلّ تهمـة حيثياتهـا وأسبابها»، يقول وهو ينفث دخان سيجارته مع تنهيـدة عميقـة.

كان في العشريـن مـن عمره عندما حصل اشتباك مسلّح بين عائلته وعائلة أخرى: «قُتل ابن عمي وأصبـتُ أنـا ولكنـي تمكّنـت مـن قتـل المهاجـم». وتحمّلاً لمسؤوليّته في القتل «دفاعاً عن النفس»، كمـا يقـول، سـلّم «رجـل اللزّابـة» نفسـه للقـوى الأمنية «قلت بيجيني حكم مخفّف نظراً لظروف الجريمة وبطلع بكمّل حياتي». بقي في السجن سنة كاملة من دون أن يساق إلى أي جلسة محاكمة: «اكتشـفت أنّ خصومـي يتمتّعـون بنفـوذ كبـير، وأرادوا إبقـائي في السـجن قـدر الإمـكان». وعليـه، اسـتعملت عائلتـه بدورهـا نفوذهـا وأخرجتـه مـن السـجن بكفالـة ماليـة «عملنـا واسـطة كتـير كبـيرة».

بعـد خروجـه مـن السـجن، قـرر أنّـه لـن يعـود إليـه. فلـم يسـتجب لاسـتدعائه إلى جلسـة محاكمـة:

«عرفت رح يوقفوني ويرجعوا يزتّوني لتختخ بالحبس». هذا ما توعّده به أحد الضباط السوريين (وكان الجيش السوري ما يزال متواجداً في لبنان): «كانت واسطة عائلة القتيل قوية مع الضابط السوري (ذكر اسمه ولكن آثرنا عدم نشره)، وكان يقول قدّام كلّ الناس بده يزتّني بالحبس كل عمري». وعليه صار الرجل مطلوباً وبالتالي انضمّ إلى الطفّار.

بعد أشهر من تواريه عن الأنظار، جاءته الأخبار السيّئة: «اتّصل بي رجل أمن صديقي وأخبرني بأنّ اسمي موجود في مكتب مكافحة المخدّرات كتاجر». يقسم الرجل أنّه لم يكن قد عمل في هذا المجال أبداً: «بعدين عرفت إنّه في ناس بتحطّ أسماء مطلوبين، وأوقات محقّقين بيحطّوا أسماء طفّار حتى يغطّوا ع ناس محميين. يعني طالما مطلوب فجلدك بيحمل اتهامات». طبعاً لم يكن وارداً بالنسبة إليه أن يسلّم نفسه لكي يبرّئ ساحته «بيفتحوا لي ملف جريمة القتل، وهيك صرت مطلوب كقاتل وتاجر مخدّرات».

وبعد أن أنفق كلّ ما لديه من مال وانعدام فرص العمل أمامه كونه مطلوب وبما أنّ الدولة أعلنته تاجر مخدّرات وأصدرت بحقّه أكثر من مذكرة توقيف بهذه التهمة، استدان مالاً وبدأ بالإتجار بالمخدرات. «شو بعمل؟ بشحد؟ عندي مصاريف، بدي آكل، وبدي مكان عيش فيه»، يقول، إذ لا يسعه العيش في البراري كلّ الوقت، ولا أن يتنقّل «من بيت لبيت، بعدين أنا بالنسبة لهم تاجر مخدرات أصلاً».

يعترف أنّ الإتجار بالمخدرات خفّف من مأساته كطافر: «صار فيي إحصل ع كتير أشياء بالمصاري، عمّرت بيت بمنطقة قلّما تقصدها القوى الأمنية وصار عندي سقف نام تحته ملكي أنا». وظّف أشخاصاً للحراسة «يتناوبون ليلاً نهاراً ليراقبوا المنطقة» تجنّباً لوقوع مداهمة مفاجئة. لكن بعض الاستقرار الذي نعم به لم يدُم كثيراً، إذ وقع في أيدي القوى الأمنية خلال دورية كانت تلاحق متّهماً بالسرقة، وتمّ سوقه إلى سجن رومية.

في السجن، تعرّف إلى «أبواب الفساد» كما يسمّيها. «معك واسطة ومصاري بيمشي الحال، غير هيك بتموتي بالحبس». دفع ١٠ آلاف دولار ليكون لديه غرفة له وحده «ما فيي سكنت مع ستّين شخص لنام راس وكعب». اقتنى تلفازاً وبرّاداً وثلاجة «وكنت إدفع لأحد الضباط ٣ آلاف دولار بالشهر لكي أتمتّع بهذه الامتيازات».

عندما رأى الضابط أنّه يعيش بمستوى جيّد وتصله كلّ احتياجاته إلى السجن، رفع البدل الشهري من ٣ آلاف دولار إلى ٣٠ ألفاً: «بدي منك ٣٠ ألف دولار بالشهر، إنت معك مصاري كتير» قال له. رفض رجل اللزّابة دفع ٣٠ ألف دولار لأنه غير قادر على ذلك، «ففُتحت عليّ نار جهنّم»، يقول. سلّط الضابط عليه شاويش السجن ليتحكّم به: «يسكّروا عليي باب الغرفة ويحبسوني جوّاتها، يضايقوني بكل شي ويحاولوا يعتدوا عليي». هذا الوضع حوّل حياته إلى جحيم فقرّر الفرار من السجن ووضع خطّته لتنفيذ

قـراره: «صـار معـي سـكّري وتدهـورت صحّـتي كتير، حسّيت رح موت جوا». كلّفه تنفيذ الخطّة المبلغ المرقوم «ما بدّي قول قدّيش، بس المبلغ كتـير كبـير، بـين رشـاوى ولوجسـتيّات»، وفعـلاً نجـح في الفـرار والعـودة إلى حيـاة الطفّـار. لاحقـاً علم أنّ هـذا الضابط (ذكـر اسمه ولكـن آثرنا عـدم نـشره) حوكـم بتهـم الفسـاد «بـس مـا بعـرف إذا حبسـوه أم لا».

لا يعـرف اليـوم عـدد مذكّـرات التوقيـف الصـادرة بحقـه «بيكـن شي ميـة مذكـرة». ولكنّـه يعـرف أنّ قـوّة أمنيـة كبـيرة داهمـت منزلـه قبـل ثـلاث سـنوات «شـفتهن مـن بعيـد وهربـت»، فقامـوا بتكسـير بيتـه وتخريبـه «حـتى الـبرّاد كـسروه ومـا تركـوا بـاب أو زجـاج، أو تخـت أو كنبايـة، حولّـوه إلى خـراب».

يقـول طافـر ثـانٍ قابلتـه «المفكـرة»، وهـو مطلـوب بنحو ثلاثـين مذكـرة توقيـف «أو أكـتر مـا بعـرف»، إنّـه يتمـنّى أن يكـون «حـرّاً» فقـط ليرفـع دعـوى عـلى الدولـة بتهمـة إفسـاد حياتـه «وحيـاة كلّ شـبّان المنطقـة».

كان هـذا الطافـر حزبيـاً قاتـل مـع حزبـه خـلال الحـرب اللبنانيـة وأصيـب في أكـثر مـن معركـة. انتهـت الحـرب وعـاد إلى منطقتـه محـاولاً استئناف حياتـه «مـا في شـغل ومتطلّبـات الحيـاة كثـيرة». زرع أرض عائلتـه حشيشـة «كل النـاس عـم تـزرع لتعيـش، والتاجـر هـو الغـني وواصـل بالوسـايط ومش مطلـوب»، فصار مطلوباً. يقـول إنّ معظـم أبنـاء المنطقـة لا يحظـون بفرصـة للحيـاة الكريـة والسـليمة إلّا إذا غادروهـا «أنـا مـا قـدرت تعلّمـت، كان أبـي مزارعـاً فقـيراً». وعندمـا صـار مطلوبـاً بـدأت تأتيـه الدعـاوى بتهـم الإتجـار بالمخـدرات «المـزارع مـا بـيزرع حشيشـة حـتى ياكلهـا، بيزرعهـا ليبيعهـا»، يـبرّر.

عندمـا بـدأ مسـيرته مـع الحشيشـة، لم يفكّـر إلاّ في تعلـيم أبنائـه «قلـت بـدي إعمـل لهـم مسـتقبل، وعلمـت أخـي كمـان». قـرر أن يكـون «كبـش المحرقـة»، ولـولا مـا عملـت هيـك ولا ولـد مـن أولادي شـاف بـيروت والجامعـة». يعـزّ عليـه أنـه لم يتمكـن مـن حضـور تخـرج أي مـن أولاده في الجامعـة»، وأيضـاً أن يشـعر أبنـاؤه بالحـرج كـون والدهـم طافـراً «بقـلي إبـني أنـه بيحـم وجـه وبيرتبـك بـس يسـألوه رفقاتـه شـو بيشـتغل أبـوك».

طافـر ثالـث يحدّثنـا عـن أوضـاع السـجون «أسـهل مـكان للحصول عـلى المخـدّرات هـو داخـل السـجن. كان أحـد الضبّـاط (ضبـط لاحقـاً بالفسـاد) يفـوّت شـنط مخـدرات وتنبـاع جـوا».



بعض خيم الكبكاب ما زالت مستعملة لغاية اليوم في جرود الهرمل | **تصوير كامل جابر**

أين يعيش الطفّار؟

فرضت ظاهرة الطفّار أماكنها وأساليب حياة ونوعية سيارات وآليات ومعها أنماط للعلاقات الاجتماعية، وحكمت حياة عائلاتهم أيضاً. ونجد في بعض مناطق العشائر أحياء يسمّى بعضها ب»حي الطفّار». وسيارات الطفّار وآليات البيك آب الخاصّة بهم مميّزة: رباعية الدفع لتصلح للسير في الأماكن الوعرة، غالباً ما يتمّ تعديل محرّكاتها لتصبح صالحة لتسير على الثلج وفي أماكن لا يوجد فيها طرقات وتسمح بالفرار من القوى الأمنية عند الضرورة.

وتتركّز الأحياء التي يسكّنها الطفّار على أطراف المدينة وبعيداً عن سكن بقيّة العشيرة وتصلها بالجرود طرقات فرعية من دون أن تمرّ بالطرقات العامّة التي يسلكها عامّة الناس. ويمتلك بعض الطفّار وخصوصاً من ميسوري الحال، وعادة يكون هؤلاء من تجّار المخدرات، أكثر من منزل: واحد في «كانتون» العشيرة في الهرمل تعيش فيه عائلة الطافر حيث يسهل إرسال أطفاله إلى المدارس ويقضون الشتاء فيه هرباً من صقيع الجرود، ومنزل آخر في منطقة وسطى بين الجرد والهرمل يكون بعيداً عن متناول القوى الأمنية التي لا

تقصد الجرود إلّا بقرار رسمي، وثالث في أعالي الجرود من ارتفاع ٢٠٠٠ متر وما فوق. ويكون هذا الأخير للسكن الصيفي. ولكن قد يضطرّ الطفّار لقضاء الشتاء فيه في حال لم يرتاحوا للأوضاع الأمنية أو خشيوا من مداهمات فجائية. وعادة، لا يسكن الطفّار بشكل دائم مع أسرهم بل يزورونها فجأة وفي أوقات غير محدّدة قبلاً، وغالباً ما تكون هذه الزيارات خاطفة وقلقة. ولا يتجمّع الطفار في مكان واحد: «لوجستياً نعيش في أمكنة لا تصلها القوى الأمنية بسهولة، أي في الجرود البعيدة صيفاً وأحياناً خلال الشتاء»، ولا ينزل إلى المدينة إلّا «لبيزبّط وضعه، يعني يدفع مصاري مقابل حمايته وإعلامه بموعد المداهمات»، يؤكد أحد الطفّار ليضيف «في طافر عنده علاقات مهمّة مع الأجهزة الأمنية، بس ينزل ع المدينة منرتاح كلّنا، منعرف إنّه ما في مداهمات فمننزل نقعد مع عيلنا شوي».

ولكلّ عشيرة طفّارها، لذلك لا نجد طفّاراً من هذه العشيرة يسكنون في منطقة سكن طفّار عشيرة أخرى، فهم رغم أنّ صفة الطفّار تجمعهم إلّا أنّهم محكومون بعلاقة عشائرهم ببعضها البعض. ففي حال وجود مشاكل بين عشيرتين، يكون طفّارهما في صلب الخصومة ولا ينتصرون لمشكلتهم على حساب انتمائهم للعشيرة.

ولكن ينسّق الطفّار من العشائر في حال عدم وجود مشاكل بين عشائرهم. ففي حال حصلت مداهمة عسكرية لطفّار عشيرة ما وفي جردها، يتّصل الطفّار من عشائر أخرى بهؤلاء ويستفسرون عن سبب المداهمة: «هل هي نتيجة حادثة أمنية حصلت داخل العشيرة التي استهدفتها المداهمة؟ أم أنّها جرت بنيّة القبض على الطفّار؟». في الحالة الأولى، يعتبر كلّ الطفّار أنّ الأمر خاص بالعشيرة التي تمّت مداهمتها. أمّا في الثانية فيأخذ الجميع حذرهم ويغيّرون أماكن سكنهم ويمعنون الصعود نحو أعالي الجرود تحسّباً لأيّ قرار رسمي بالقبض عليهم، أو لخطّة أمنية تقصد محاصرتهم، وفق ما يؤكد أكثر من طافر لـ«المفكرة». وفي هذا الإطار، روى لنا أحد الطفّار عن مداهمة حصلت في إحدى ليالي الشتاء دفعتهم للهروب إلى الجرود. يومها وصلت سيارته وكان معه صديقه الطافر أيضاً إلى تلّة لم يكن من الممكن تجاوزها بسبب كثافة الثلوج وتحوّلها إلى جليد مع تدنّي درجات الحرارة: «تركنا السيارة وحاولنا نطلع مشي، صاروا إجرينا يلزقوا بالأرض ونوقع ونقوم بأرضنا والتلج يسفق فينا وع وجوهنا». زحفاً على بطونهم، عادا إلى السيارة «شلنا أغصان من الأشجار وغطّيناها حتى ما تكشفها المروحية»، وناموا في السيارة وكانت درجة الحرارة تقارب ١٢ تحت الصفر «فكّرنا إنّه ممكن نجلّد ونموت بس ما كان عنّا خيار».

ويكوّن الطفار عادة مجموعات، بما يسمح لهم خلال وجودهم في الجرود قضاء الليالي في سهرات جماعية أو يتوزّعون مجموعات صغيرة للعب ورق الشدّة والتسامر وتناول العشاء. ويعود كلّ منهم للمبيت في منزله بشكل عام. ويتبادلون العزائم والدعوات إلى الغداء كما الواجبات الاجتماعية، ولكنّهم يتجنّبون التجمّع في حال وصلتهم معلومات عن إمكانية حصول مداهمات «لكي لا يقبضوا علينا مجتمعين». ويحصل أن ينتصر الطفّار لبعضهم البعض في حال حصول اشتباكات مع

القوى الأمنية فيحولون دون القبض على أحدهم عبر مساندته. ولا يختلط الطفّار المطلوبون بتهم المخدرات والثأر بالمطلوبين بتهم السرقة والسلب والنهب والخطف لسببين رئيسيين: يتعلّق الأول بنبذهم لسلوكيات من يسمّونهم «الحرامية»، كما يقول أحد كبار الطفّار، كما لأنّ الدولة لا تتساهل مع السرقات وقطّاع الطرق «المخدّرات هي حق عام واعتداء على المجتمع، أمّا السرقات فهي حق شخصي واعتداء على أفراد معيّنين ضمن المجتمع»، كما يوضح الطافر نفسه. وبالتالي لا يسمحون لهم بالاقتراب منهم والانخراط في مجتمعهم. حتى المجتمع نفسه يميّز بين الطفّار والمطلوبين بتهم السرقة وقطع الطرقات: «نحن مقبولين من المجتمع ومحترمين، وبينما تنبذ العشيرة الحرامية وقطّاع الطرق، نشارك نحن في قرارات مجلس العشيرة ونساهم في دفع المال في الأفراح والأتراح ويؤخذ برأينا في القرارات المصيرية للعشيرة، وبيننا من هم وجهاء في عشائرهم ولهم كلمة الفصل في مسائل كثيرة»، يضيف.

القلق أو سجن الحرية

ماذا يعني أن تكون طافراً؟ نسأل أحد الطفّار. «الطافر ما بينام ليل بالكامل، القلق هو رفيق حياته، التنقّل المستمرّ حتي، ما في خطط للمستقبل، ما في استقرار، ما في حياة». يحصل أن يضطرّ للنوم شهراً كاملاً في البراري «ياما إيام نمت بالتلال وع الصخور وبالكهوف، بينما بيتي بعيد عني ٥٠٠ متر ومش قادر نام فيه».

والأهم بالنسبة له هي الثقة «أنا ما بزور مين ما كان، ما باكل من إيد حدا، ولا بشرب قهوة بكلّ المحلات». وطبعاً لا يمكن أن يعرف كثيرون بمكانه «في ناس ممكن تقبض مصاري للوشاية بي ويسهّلون القبض عليّ»، ولذا يتجنّب قدر الإمكان مخالطة الناس «يعني سجين بمعنى من المعاني، بس طبعاً أرحم بكتير من سجون الدولة لي بيصير فيها العجايب ويمكن يتورّط فيها الإنسان بإشيا كتير».

طافر آخر، يبتسم ابتسامة ساخرة فيها الكثير من المرارة قبل أن يردّ على السؤال: «السجين عنده حقوق أكتر من الطّافر»، بالنسبة له. إذا احتاج السجين إلى عملية جراحية يمكنه أن يجريها وأن يبقى في المستشفى حتى يتعافى ويعود إلى السجن «بينما نحن لا يمكننا حتى زيارة الطبيب وإجراء فحوصات دم، وقد نموت من دون أن نؤمّن علاجنا». يحكي الرجل عن إحدى المرات عندما أصيب بعارض صحّي «عملنا وسايط الدني حتى أمنّا طريق على المستشفى». هناك قرّر الطبيب إجراء تمييل لقلبه (قسطرة) «وطلع لازم ركب راسّورين». بعد ساعة من تركيب الراسّورين، طلب إخراجه من المستشفى ولم يقبل الطبيب بذلك إلّا بعد أن وقّع ورقة تفيد بخروجه على مسؤوليته الخاصّة: «كان ممكن يصير معي أي شي، بس خفت تقبض عليي الدولة ويكلبجوني بالمستشفى، متل ما صار مع صديقي». كان صديقه يشعر بأنّ قلبه ليس على ما يرام، ولكنّه «لم يتدبّر واسطة لكي يجري فحوصات تكشف حالته الصحية، وفجأة أصيب بنوبة قلبية نقلته

عائلتـه عـلى إثرهـا إلى المستشـفى فوصلهـا فاقـداً للوعــي. وأثنـاء وجـوده في الكومـا، قبضـت عليـه القـوى الأمنيـة ووضعـت الأصفـاد في يديـه. سـتّة أشهر قضاها الرجل في الكوما ويداه مكبّلتان فيما يحـرس غرفتـه رجلا أمـن، ولم يخـرج مـن سريـره إلّا إلى القـبر.

والسـجين، بالنسـبة إلى الطّافـر ينـام مـلء جفونـه «ما بينـام قلق وخايـف مـن مداهمة بـأي لحظة». وعائلة السجين تحـزن لسجنه وتتأثر به ولكنّها «لا تعيش مرعوبة كما عائلاتنا». يقول إنّ أمّه وأباه وزوجتـه وأبنـاءه وأخوتـه يعيشـون في حالـة خـوف دائم: «أنـا مـا بسـترجي إجـي ع بيـتي ليـس لأنـنّي أخـاف أن يقبضوا عـليّ فقـط، بـل لأنـني لا أريـد أن يداهمـوا المـنزل وأولادي بداخلـه، يمكـن يقتلوهـن في ظـلّ تنفيـذ الإعدامـات الميدانيـة». نسـأله مـاذا يقصد بالإعدامات الميدانيـة: «كتـير أوقـات بيجوا القـوى الأمنيـة ليقبضـوا ع متّهـم، فيقومـون فـوراً بإطلاق النـار عليـه، أليست هـذه محاكمة ميدانيـة وتنفيذاً لحكـم بالإعدام؟»، يسأل ويجيـب نفسه، ليؤكّـد أنّ الأمثلـة لا تعـدّ ولا تحـصى.

عائلات الطفّار

هـذه «الإعدامـات الميدانيـة» هـي مصـدر قلـق أسـاسي لـدى عائـلات الطفّـار: «دايمـاً بفكّـر إذا قتلـوا زوجـي خـلال القبـض عليـه، كيـف ممكـن ربّـي وعيّـش أولادي الأربعـة، غـير إنّـه بـدّي إخـسره»، تقـول زوجـة أحـد الطفّـار الـتي يتركّـز همها الأسـاسي عـلى بنـاء بيـت يحميهـا وأطفالها مـن التـشرّد في «حـال حصـول مكـروه لزوجـي». لا يعيـش الطفّـار في قلـق فقـط بـل عائلاتهـم أيضـاً «نحـن منقلـق عليهـم ومنقلـق ع أولادنـا وع حالنـا»، تقـول الزوجـة. ومـع ذلـك تحـرص نسـاء الطفّـار عـلى عـدم إشـعار أزواجهـنّ بهـذا القلـق «منقـول لي فيهـم مكفّيهـم ومنخبّـي الرعـب لي عايشـين فيـه». تقـول هـذه المرأة إنّهـا تخـاف لـدى سماعها أيّ صـوت بالقـرب مـن منزلهـا «بفكّـر إجـا الجيـش يداهـم البيـت وبخـاف ع الأولاد إذا كان زوجـي هربـان، بخـاف شي نهـار يفوتـو علينـا ويبلشـو يقوّصـو». لا تعـرف كيـف تـشرح لصغارهـا غيـاب أبيهـم المتكـرّر والطويـل أحيانـاً عـن المـنزل، ولماذا لا يقلّهـم بسيارته إلى المدرسة ولا يحضر الاجتماعات ولا النشاطات الـتي يشاركون فيها، وخصوصاً لماذا لا يصطحبهـم في مشـاوير خـارج الهرمـل كما بقيّـة الأطفـال الذيـن يخرجـون بصحبـة أهلهـم..

زوجـة طافـر آخـر مصاب بمـرض مزمـن تضطرّ لـترك أولادهـا وحدهـم والبقـاء معـه لفـترات طويلـة يكـون وضعه الصحّي فيها دقيقاً: «كنت أتركهـم مـع أختهـم وعمرهـا ١٣ سـنة». حصـل في إحـدى المرّات أن فاجأتهـم مداهمة عسكرية وكان زوجها ينـام بقربهـا وكان يتنقّـل بهويّـة شـقيقه التـوأم غـير الطافـر: «ركعـت قـدّام الضابـط وقلـت لـه أسـتر علـيي الله يسـتر ع عيلتـك ومـا تفضحـني»، فـترك المـنزل مـن دون القبـض عليـه «مـا فلّـوا إلّا كانـت طلعـت روحـي».

تـروي ابنـة أحـد الطفّـار كيـف أثّـرت حيـاة والدهـا عـلى حياتهـا الشـخصية: «تعرّفـت بالجامعـة ع شـاب مـن بـيروت وحبّينـا بعضنـا». لم تتجـرّأ أن تخـبره أنّ والدهـا طافـر وأنّ لديهـا شـقيقاً في السـجن «حلمـت كتـير بحيـاة مختلفـة خاليـة مـن الخـوف والقلـق، تخيّلـت كتـير كيـف ممكـن عيـش معـه ببيـت مـا خـاف فيـه مـن مداهمـة مفاجـأة أو مـن إطـلاق نـار، وكنـت حـسّ بسـعادة حـتى أنـا وعارفـة إنّي عـم إتخيّـل»، تقـول وهـي تـسرح بنظرهـا بعيـداً. لكـن زمـن هـذه الأحـلام كان قصـيراً. إذ وبعـد مماطلتهـا بتعريـف الشـاب إلى عائلتهـا، فوجئـت يومـاً بوصولـه إلى مـنزل أبيهـا في الجـرد: «كان أبي موجـوداً ولديـه ثلاثـة طفّـار بكامـل سـلاحهم». خرجـت إلى مصطبـة الـدار لتجـد حبيبهـا يتحـدّث مـع والدهـا. رآهـا مـن بعيـد قبـل أن تعـود أدراجهـا هاربـة إلى الداخـل، ثم غـادر بعـد دقائـق قليلـة. عندمـا عـادت إلى الهرمـل، اتّصلـت بـه فبادرهـا قبـل أن تنبـس ببنـت شـفة بالقـول: «إنـسي كل شي قلتلّـك إيـاه، أنـا مـا بينسـابني إرتبـط ببنـت طافـر وأخـت سـجين». كان الشـاب قـد تقصّى عـن عائلتهـا وقـام شـاب مـن عشـيرة ثانيـة بمسـاعدته لإيصالـه إلى مـنزل أهلهـا حيـث رأى بـأمّ عينـه كلّ شيء، وبالتـالي قطـع علاقتـه بهـا «ممنـوع حـتى الحلـم بالاسـتقرار، نحـن محكومـين بوضـع أهلنـا وليـس بمـا نحـن عليـه»، تقـول بحـزن شـديد.

شـقيقة أحـد الطفّـار ترغـب في الحديـث عـن الوضـع المـادي لأسرتهـا «تـوفّي أبـي قبـل ٢٠ عامـاً واضطـرّ أخـي لزراعـة الحشيشـة ومـن ثم صـار مطلوبـاً بالمخـدرات ليعيـل أسرة مؤلّفـة مـن سـت بنـات».

خـلال غيابـه المتكـرّر والطويـل عـن البيـت، تسـاعد هـذه الصبيـة زوجـة أخيهـا برعايـة أطفالـه، خصوصـاً أنّ وضعهـم المـادي سـيّئ: «مـرّة غـاب كتـير ومـا كان معنـا مصـاري»، وطلـب أولاده أن يأكلـوا لحمـاً «كان صرلنـا ٤ أشـهر مـا فوّتنـا اللحمـة ع البيـت». قصـدت ملحمـة الحـي وطلبـت مـن صاحبهـا «عنـدك لحمـة للكلـب؟». يبـدو أنّ اللحـام عـرف أنّهـا لا تريـد لحمـاً للكلـب وإنمّـا لهـم: «فأعطـاني شي كيلـو لحمـة». عـادت إلى البيـت وشمّـت قطعـة اللحمـة لتجدهـا غـير فاسـدة «كتـير انبسـطت وطبخـت عليهـا لـلأولاد وأكلنـا كلّنـا».

ولـدى الصبيـة نفسـها مغامـرات كثـيرة مـع المداهمـات الأمنيـة «بضطـرّ خبّـي الفـرد (المسـدس) بعبّـي، وأوقـات بهـرب بالبـارودة إذا مـا كانـت مخبّايـة بمـكان آمـن». وأحيانـاً تواجـه العنـاصر الأمنيـة وهـم يوجّهـون سـلاحهم إلى صـدور مـن هـم داخـل البيـت «بيفكـروا إنّـه أخـي بالبيـت ومتخبّـي عليهـم». كلّ هـذا جعلهـا تعيـش حالـة عصبيـة مسـتمرّة «شـوفي إيديـي كيـف بيرجفـوا كلّ الوقـت وعنـدّي دقـات قلـب سريعـة وبضـلّ مريضـة».



من شتاء جرود الهرمل | **تصوير كامل جابر**



الغروب في جرد الهرمل | **تصوير كامل جابر**

بنت العشيرة في الحيّز الخاصّ

أو "الحرّية المسؤولة"

سعدى علّوه

تعجّ حياة نساء العشائر بالحكايا والتجارب التي تتناقض لتبدو بنت العشيرة وكأنّها تمشي على حدّ السيف. هي عموماً حرّة، لكن ضمن قواعد العشيرة ومفهومها للشرف. فبنت العشيرة تفتح بيت العائلة وتستقبل ضيوف أبيها أو أخيها أو زوجها وتقدّم لهم واجبات الضيافة وحتى يمكنها أن تستقبلهم للمبيت في حال قدِموا من منطقة بعيدة تستدعي بقاءهم لدى مضيفيهم. وقبل الموجة الدينية المستجدّة بفعل تعزيز حضور حزب الله، كانت قلّة من بنات العشائر محجّبات. حتى السيّدات كبيرات السن كنّ يضعن غطاء على الرأس لا يمتّ للحجاب الشرعي الدارج اليوم بصلة. وكانت بنت العشيرة، وما زالت، تذهب إلى المدرسة كما أخوها، وتتعلّم وفق ما تتيحه الظروف الاقتصادية بالدرجة الأولى في منطقة محرومة كقضاء الهرمل. وفي الأفراح، كنّ يمسكن على الدبكة كما الرجال يداً بيد معهم، وهو سلوك لم يكن شائعاً كثيراً لدى بنات الجيل القديم. وحصل أن قصدت طالبات من العشائر قبل ستّين عاماً وإلى اليوم بيروت أو سافرن إلى خارج لبنان للتخصّص العلمي، ودخلن في أحزاب سياسية "تقدّمية" وشاركن في حلقات حزبية، ولكن ودائماً وأبداً ضمن القواعد السلوكية المضبوطة تحت إطار مفهوم شرف العشيرة وما يجوز ولا يجوز، وهو ما يرغب رجال العشائر وحتى نساؤها في بتسميته "الحرّية المسؤولة".

لم يكن لبنت العشيرة تقليدياً رأي في اختيار زوجها. كان على أبناء أعمام بنت العشيرة قبل الجميع، أن يقبلوا بتزويجها إلى رجل غيرهم. كانوا يسألونهم الواحد تلو الآخر إن كان يرغب في الزواج بها أم لا. وفي حال لم يبدِ أيّ منهم رغبته بذلك، يسمح بتزويجها من خارج العشيرة. اليوم عندما نبحث في الكيفية التي تحكم تزويج بنات العشائر وكذلك بنات النساء اللواتي خضعْنَ لعرف التزويج من ابن العم لا نجد مكاناً للإرغام على الزواج من ابن العم، حتى أنّ غالبيتهنّ، وخصوصاً من تزوّجت الأم من ابن عمّها، تزوّجن من خارج العشيرة، وليس من غير أبناء الأعمام فقط، ووفق اختيارهنّ ورغباتهنّ الشخصية. وفي حين نشهد تحوّلات في مسائل الزواج والعرض، فإنّ مسألة حرمان النساء من الإرث تبدو ثابتة.

من أيمتى منسأل البنت رأيها؟

يروي أستاذ المدرسة المتقاعد علي شمس لـ"المفكرة" حادثة حصلت أمامه قبل ستّين سنة تصبّ في سياق كيفية تزويج بنت العشيرة يومها. لن نذكر الأسماء لأنّ "أبطال" القصّة ما زالوا أحياء. كان شمس في منزل أحد وجهاء آل حمادة، وكانت كلمتهم مسموعة بين العشائر

الحماديـة، وإذ بسـيّدة مسـنّة تصـل إلى المـنزل وتركـض باتّجاه أبـو نسـيب حمـادة، صاحـب الـدار، وتقـول لـه، بعـد أن تضع يدها على خصره، "إيـدي بزنّـارك يـا أبـو نسـيب". أبعـد الرجـل السـيّدة عنـه قائـلاً "هـدّي البـال يـا حُرمـة (كمـا كان العشـائر ينـادون المـرأة) وقـولي شـو بـدّك". أخبرتـه السـيّدة أنّ ابنهـا وابـن عمّـه سـيأتيان إليـه مـع وجهـاء الفخذ مـن أبناء العمومة (أحـد تقسـيمات العشيرة) ليحكـم بينهما ويقرر لمـن تسـتحق العـروس الـتي

لفيـف مـن العمومـة وأبنـاء العمومـة. جلـس الرجـال في صـدر الـدار وأبلغـوا مضيفهـم بهـدف الزيـارة. قـال أبـو نسـيب لمحمـد "أخبرني أنـت لماذا تستحق أن تفوز بفوزية (اسم مستعار) ابنة عمّك، وليـس حسـن؟". شرح محمـد مميّزاتـه وأسـبابه وكذلـك فعل حسن. فكّر أبـو نسيب قليلاً وأصدر حكمه "ستكون فوزية عـروس حسـن" (وهـو ابـن السـيّدة الموجـودة في داره مـع النسـاء). اعـترض محمـد عـلى الحكـم وطلـب أن يؤخـذ بـرأي فوزيـة



إحدى نساء آل جعفر | **تصوير حسن الساحلي**

يتباريـان للفـوز بهـا، خصوصـاً وأّنهـا ابنـة عـمّ الاثنـين. بـرَّد أبو نسيب قلب السيدة: "ما تخـافي ما بيصير إلّا لي بدّك ياه"، وأدخلها إلى جناح النساء لتبقـى مـع زوجتـه. وفعـلاً، يقـول عـلي شمـس، مـا هـي إلّا دقائـق حـتى دخـل دار أبـو نسـيب ابـن السيدة ويدعـى حسـن وابـن عمّـه محمـد ومعهمـا

"خلّينـا نسـأل فوزيـة ونقبـل كلّنـا برأيهـا". عندهـا انتفـض أبـو نسـيب وقـال عـلى مسـمع الجميـع "مـن أيـتى منسـأل البنـت يـا محمـد؟". وانتهـى الاجتماع وتزوّجت فوزيـة مـن حسـن بعـد شـهر مـن تاريخـه. والقصـة الـتي توثـق لموقـع بنـت العشـيرة في عملية إتمام الزواج، تحمل في طيّاتها أيضاً أحـد

أعراف التعاطي مع المرأة وإكرام حرمتها، حيث تأثر قرار أبو نسيب بـ"تجوّه" أم حسن عليه حين قصدته في منزله ووضعت يدها على زنّاره وطلبت منه الانحياز لابنها، فكان لها ما أرادت.

الحيلة وسيلة للإفلات من أبناء العمّ

لوجيهة علّوه (٨٠ عاماً) تجربة تصبّ في الإطار نفسه رغم أنّها كانت من أوائل بنات العشائر، وربما الأولى، التي تعلّمت وتركت الهرمل إلى زحلة ومن ثمّ طرابلس حتى أنهت دراسة المرحلة الثانوية قبل ستّين عاماً من اليوم. وكانت والدتها، بعد وفاة أبيها، تخطّط لتسفيرها إلى فرنسا، لكنّها اختارت الزواج ولم تكمل تخصّصها الجامعي.

كانت وجيهة تدرس في مدرسة تديرها راهبات في زحلة عندما تمّ نقل "ريسة" المدرسة إلى طرابلس، فقررت الذهاب معها "ووافق أهلي لأنّهم لم يرفضوا لي طلباً قبلها". في تلك الفترة تقدّم للزواج بها شاب من عشيرة دندش، كان مسيّساً وينتمي للحزب السوري القومي الاجتماعي و"كان عقله حزبياً متطوّراً"، تقول عنه. عندما طلب يدها ووافقت، قامت قيامة رجال العشيرة، فقصدها أحد أبناء عمومتها إلى طرابلس ليبلغها رفض الأقارب لزواجها: "في رجال كتير بالعشيرة، وما بدنا تطلعي لبرّا". قال لها محذّراً من أنّ خطوة كهذه قد تتسبّب بـ"إراقة دماء". أصرّت وجيهة على موقفها بعدما عدّدت له صفات العريس وكلّها "بترفع الراس، مش ناقصه شي" كما قالت. ومع ذلك تشبّث هو بموقفه الرافض أيضاً.

بعدها بأيام، حضر مفلح، أحد أبناء عمومة وجيهة لاصطحابها إلى الهرمل. وكان هذا الأخير مسيّساً ينتمي لأحد الأحزاب التقدّمية وصاحب فكر غير تقليدي وصديق مقرّب من وجيهة. في الطريق إلى الهرمل، طلبت منه وجيهة "خدمة": "أنا بخبّر أهلي إنّه بدّي إتزوّجك وإنت بترفض، وبتقول هيدي متل أختي". وهكذا كان. عندما طُرح موضوع زواجها، أبلغتْهم وجيهة أنّها تقبل بالزواج من مفلح. لكنّ مفلح أبلغ العشيرة أنّ مشاعره تجاه وجيهة هي مشاعر أخ لأخته ولا يمكنه الزواج بها، ولتختَر أحداً غيره. وعليه تزوّجت وجيهة من الرجل الذي أرادته طالما أنّ ابن عمّها لم "يقف لها" أي لم يقل أنا أحقّ بها.

"العرض إلك والدم لنا"

جرتْ عادات العشائر أن يمسك الأب يد ابنته ويسلّمها إلى زوجها عند باب الدار بعد انتهاء مراسم الزفاف. وبينما يأخذ العريس بيدها في إشارة إلى تسلّمها من عائلتها، كان الأب يقول له "العرض إلك والدم إلنا". والكلام يعني: "صحيح أنّها أصبحت زوجتك الآن، ولكنّ دمها لنا". وفي عبارة "دمها لنا" يُقصد "ممنوع قتلها أوّلاً، وفي حال أخطأت خطيئة كبرى، والمقصود

هنا فعلة تتعلّق بـ'الشرف'، "نحن من يحاسبها، أي من يقتلها وليس أنت". يفسّر البعض عبارة "العرض إلك والدم إلنا" بأنّها تنبيه للزوج لعدم ممارسة العنف مع ابنة العشيرة. ويقول أحد وجهاء العشائر إنّه ليس بإمكان العائلة حماية ابنتها المتزوّجة من العنف الزوجي "بس إنّه ما يقتلها يعني"، فيما يقول آخرون إنّ من يتزوج ابنة عشيرة عليه أن يحسب ألف حساب في حال ضربها أو تعنيفها، وخصوصاً إذا لم يكن ابن عشيرة هو أيضاً، لأنّ التعامل معه يختلف في ظلّ اختلال موازين القوى.

والقصص المتعلّقة بمحاسبة من "تخطئ" من بنات العشائر عديدة انتهت بكثير من الجثث، لا من يسأل ولا من يحاسب ولا من يخبر، بل وسط موافقة الأغلبية وربّما مباركتها، وصمت الجميع. ولكلّ عشيرة أسرارها وقصصها في هذا الخصوص بينما ليس للمرأة أحد في محنة مماثلة. وفي آخر جريمة قتل وقعت في الهرمل قبل نحو خمس سنوات ويُحتمل أن تكون على خلفية "شرف" هي مقتل شاب وفتاة من عشيرتين مختلفتين إحداهما صغيرة (عشيرة المرأة) والثانية كبيرة، والعثور على جثّتيهما في أحد أودية العشائر. وقد طُويَت الجريمة ووضعت في إطار الظروف الغامضة من دون أي تحقيقات رسمية أو عشائرية، ما رجّح فرضية وجود قربى ونسب. وهو ما لم نتمكّن من التأكّد منه كون جميع من سألناهم أصرّوا على وضع ما حصل في إطار من الغموض والمغمغة" (عدم الوضوح) وضرورة عدم الحديث بالموضوع. ويُروى عن حالات عدّة قتلت فيها نساء بتهمة الزنا مع الاكتفاء بنفي شريكها الرجل لسنوات ليعود بعدها لاستكمال حياته وكأنّ شيئاً لم يكن. وكأنّ العار بمفهومه العشائري هنا لا تتحمّله غير المرأة، بينما ينجو الشريك في حال كان من نسب يُحسب حسابه داخل العشيرة. هذا ما حصل في إحدى العشائر حين أقام رجل بالغ علاقة مع فتاة قاصر وحملت منه، فأقدم أخوتها على قتلها برغم صغر سنّها بعدما شاع خبر حملها، فيما تمّ نفي الجاني لسنوات. ومن القصص الأقدم التي يتمّ تداولها في المنطقة، هو أنّه تمّ تثبيت امرأة متّهمة بالزنا داخل شجرة لزّاب وحرقها حيّة مع الشجرة بعد وضع صفيحة بنزين في جذع اللزّابة، فيما تمّ نفي شريكها كونه كان ابن أحد وجهاء العشيرة المعنية. وكانت المرأة متزوّجة من رجل ينتمي إلى عائلة صغيرة من غير العشائر، فقام أهلها بتنفيذ العقوبة بها.

كما قُتلت امرأة في ظروف غامضة قبل قرابة ١٥ سنة، ويحكى أنّها غادرت منزل العائلة لتعمل في بيروت وكانت تعود دوريّاً لزيارة عائلتها. وقد ارتأى أقاربها بعد سنوات من رحيلها أنّ سلوكيّاتها مشبوهة. وفي إحدى زياراتها، استدرجوها إلى منطقة نائية ولم يرها أحد بعدها. يقال إنّها دُفنت حيّة، ويقال إنّها رُميت من فوق منحدر صخري مهجور لا يمرّ به عابر، وخفّف البعض من وحشية الفعل وقالوا إنّهم قتلوها رمياً بالرصاص ثمّ دفنوها وعادوا أدراجهم.

وفي حال الخطيفة بالتراضي (للزواج) ولجوء الخاطف مع المخطوفة إلى عشيرة ثانية أو إلى

منزل أحد وجهاء العشيرة نفسها (وغالباً ما يحصل اللجوء إلى وجيه في عشيرة أخرى) يقوم الوجيه فوراً بعزل الثنائي شرط الحفاظ على عذرية الفتاة ومن ثمّ يسعى لعقد مصالحة بين الخاطف وعائلة المخطوفة ويضمن عدم معاقبتها ويمهّد لعقد زواجها على الخاطف بعد تقديم المهر وقد يُفرَض هنا مضاعفاً. أما في حال حصل الخطف وكانت المرأة متزوّجة ويقال هنا: "خطفها من تحت فخذ زوجها"، فيكون لها حكم الزنا، أي القتل، ولكن حالياً غالباً ما يتمّ حلّ الأمور بالتسويات في حال لم تُعرف الحادثة تجنّباً للملاحقات القانونية بعد إقرار قانون حماية النساء من العنف الأسري وقبلها إلغاء جريمة الشرف.

بشكل عام، تراجع عدد الجرائم على خلفية الشرف. "المهم ما تنكشف القصّة" يقول أحد وجهاء العشائر عمّا يسميه "الكبائر"، أي في حال أخطأت أي فتاة اليوم، قلّة من الناس تقوم بقتلها ولكن شرط ألّا يعرف أحد بما فعلته "عم تتّضبضب القصص، ما عادت الأمور متل ما كانت".

الأدوار الجندرية داخل العائلة

من الشّائع أنّ العشائر يدلّلون نساءهم من زوجات وبنات وأمّهات تحت سقف الحرّية المسؤولة نفسها. لا تعمل ابنة العشيرة في أرض أبيها إذا كان ميسوراً، بل يوظّف عمّالاً وعاملات لإنجاز أعمال الأسرة الزراعية وحتى المنزلية أحياناً إذا سمحت ظروفه بذلك. في المقابل، تعمل في الأرض النساء والفتيات من غير الميسورين ويساهمن في الإنتاجية مثلهنّ مثل الشبّان مع توزيع نمطيّ للأدوار، حيث يكون حصاد القمح والحشيشة وأعمال تعشيب المزروعات وحلب القطيع والاهتمام بمنتجات الحليب وطبعاً الأعمال المنزلية كافّة من حصّة المرأة فيما يهتمّ الرجل بالحراثة والرعي والتعاقد مع العمّال في حال الحاجة إليهم، وإدارة الأمور.

تعدّد الزوجات والطلاق وحق الحضانة

تراجعت مؤخّراً حالات تعدّد الزوجات بين العشائر بحيث لم يعد الحديث عنها ممكناً كظاهرة عادية وطبيعية، ولكن هذا لا يعني انتهاءها. ونادراً ما ينتهي زواج الرجل من امرأة ثانية إلى طلاق الأولى بخاصّة إذا لم تكن متعلّمة ولديها وظيفة وبالتالي إذا لم تكن تتمتّع باستقلالية مادّية تمكّنها من العيش من دون أن تحتاج إلى دعم أسرتها. ويمكن أن تعيش المرأة المطلّقة في منزل خاصّ بها في حال كان لديها أطفال، أمّا إذا تطلّقت من دون وجود أطفال لأنّ زوجها احتفظ بحضانتهم، أو لأنّها لم تنجب، فإنّها تعود للعيش في كنف أسرتها الأم، إلّا في حال كانت تعمل خارج منطقة عيشهم في بيروت أو زحلة أو أي منطقة أخرى غير مكان إقامتهم.

وتخضع مسألة الحضانة لحكم الشرع إلّا في حالات نادرة تكون فيها عائلة المرأة بنت العشيرة قويّة

حتى في حال الزواج من رجل من العشيرة، فيمنع الأب أو الأخوة زوجها من حرمانها من حضانة أولادها كما حصل مع يسرى (٤٠ عاماً) قبل سبع سنوات. انفصلتْ يسرى عن زوجها، ابن عشيرتها بسبب سلوكيّاته. وعندما طلبت الطلاق، حاول ابتزازها عبر حرمانها من حضانة ابنها البالغ ثلاث سنوات يومها، علماً أنّ الطائفة الشيعية تمنح الوالد حقّ حضانته (سن الحضانة للصبي عند الشيعة سنتان ونصف السنة). ولكن والدها بعث له ولعائلته رسالة واضحة مفادها "بنتي بدها تربّي إبنها وممنوع تاخدوه منها"، وهكذا حصل، وتحمّلت المرأة وعائلتها كلفة عيش ابنها ولم يدفع الزوج النفقة لا للطفل ولا لأمّه، ولكنّ السلطة العشائرية هنا كانت أعلى من الشرع وقوانين الأحوال الشخصية لطائفتها.

ويسري الأمر نفسه على ابنة العشيرة العازبة حيث تبقى في منزل الأسرة سواء مع الأهل أو بالقرب من أشقّائها الذكور في حال وفاة الأم والأب، وقد تعيش مستقلّة في حال سافرت للعمل في الخارج أو نزحت للعمل في المدن. وفي حال استقلال بنت العشيرة العازبة خارج منطقة العشيرة، تحكم سلوكيّاتها أعراف العشيرة تحت سقف ما يُجمعون على توصيفه بالحرية المسؤولة.

الإرث

وفي قضايا الإرث، وإلى جانب التمييز في قوانين الإرث الإسلامية ضدّ النساء حيث "للذكر حظّ الأنثيين"، تعاني ابنة العشيرة بشكل أكبر من الأعراف العشائرية التي تقضي بعدم تمليك من هم خارج العشيرة في أراضيها التي تكون ملكيّتها في الغالب محصورة بالعشيرة نفسها عامّة، حتى أنّ ثمة حرصاً على انتقال الملكية داخلياً حتى بين أجباب العشيرة وأفخاذها من دون دخلاء من العشيرة نفسها. ويصل الحرص هنا إلى عدم توريث المرأة حتى لو تزوّجت ابن عمها لأنّ الملكية يجب أن تبقى داخل المنزل للذكور الذين تستمر الذرّية عبرهم وهم من صلب المالك الرئيسي نفسه. وقد يعمد البعض إلى إرضاء المرأة بمنحها المال أو بعض الهدايا من الذهب عند زواجها أو المشاركة في تأثيث منزلها. وغالباً لا يتناسب المبلغ الممنوح لها مع حصّتها وفق الشرع . ولا يطالب السواد الأعظم من النساء بإرثهنّ تجنّباً لإثارة المشاكل مع عائلاتهنّ أو وقوع الجفاء أو انقطاع العلاقة حتى مع أخوتها وأبيها وأحيانا أمّها أيضاً. وقد ينسحب الموقف على البيئة والمحيط الذين يستغربون، لا بل يستنكرون، لجوء المرأة إلى القضاء للاستحصال على حقّها وكأنّها تقوم بفعل شائن عبر مقاضاة عائلتها. وقد تُمنح بنت العشيرة مساحة صغيرة من الأرض لبناء منزل سكني في حال كان زوجها فقيراً غير قادر على شراء أرض، ولكن لا تتخطّى سلطته على الملك ضمن العشيرة حدود الأمتار القليلة التي منّت بها العائلة عليه.

وتقطع المرأة في العشيرة الإرث في حال لم ينجب والدها ذكوراً، وأحياناً يحرص الأعمام على شراء إرثها من والدها لكي لا يشاركهم في ملكية العائلة رجل من خارج العشيرة خصوصاً [1].

النساء والقرارات العشائرية

وكما الإرث، لا ينسحب انخراط المرأة في منظومة الإنتاج داخل العشيرة على مشاركتها في القرار على هذا الصعيد. وهناك حالات نادرة لسيّدات عشائر كان لهنّ موقعهنّ الاقتصادي الجيّد فكانت كلمتهنّ مسموعة على صعيد الجبّ أو الفخذ الذي يؤثر بدوره على القرار العام للعشيرة. ولكن لم نسمع عن امرأة كانت عضواً في مجلس أي عشيرة أو عن مشاركة نساء في اجتماعات الوجهاء والزعماء، أو أنّ امرأة فصلت في قضايا أساسية عالقة بين العشائر.

مشاركة المرأة في الثأر

إقصاء المرأة عن المشاركة في القرار على مستوى العشيرة لا ينسحب على موضوع الثأر بالمستوى نفسه، إذ نجد بعض القصص عن توريط نساء في الأخذ بالثأر أحياناً. قصص غالباً ما تبقى قيد الكتمان، حتى أنّ العشيرة المنافسة لا تعمد إلى الأخذ بالثأر من امرأة في حال علمت بتورّطها بقتل أحد رجالها إذ لم يجرِ العرف بالثأر من امرأة، حيث يعمد رجالها إلى الثأر من رجل من عائلتها. وعلى سبيل المثال، حصل اشتباك قبل نحو ٢٠ سنة بين ٣ رجال من العشيرة نفسها شاع على إثره أنّ ابنة أحدهم هي من قامت بتصفية قاتل أبيها أمام شقيقها القاصر. وبعد سنوات أُخذ الثأر من أخيها الذي كان برفقتها. وبقي الكلام عن قيام ابنة إحدى العشائر بالثأر لمقتل أخيها من أكثر من شخص، طيّ الكتمان أيضاً برغم القصص التي حيكت حول ما فعلته والتي بدت أشبه بالأساطير، وخصوصاً لناحية قسوتها. ويخبرنا تاريخ بعض النساء عن مراحل "طفرت" فيها نساء صرن "مطلوبات للدولة" في جرائم ثأر، وآخرهن العام الماضي حيث ساهمت إحدى النساء في "ديدبة" (استدراج) متّهم في المساهمة بقتل أحد أبناء العشائر، وذلك بهدف قتله، وهي اليوم فارّة من وجه العدالة. والصبيّة ليست ابنة عشيرة وإنّما متزوّجة من رجل من العشائر. وتساهم النساء خلال المعارك بين العشائر في الرّصد، واستكشاف مواقع مقاتلي العشائر المنافسة، وأحياناً في نقل الأسلحة، ولكنّها مساهمة تبقى سرّية ولا يتمّ تداول الحديث بشأنها علانية. والأهمّ، أنّ نساء العشائر: أم وزوجة وأخت يعشن في القلق والخوف على رجالهنّ المطلوبين سواء نتيجة عبء ضرورة أخذهم بالثأر أو قيامهم بالأخذ بالثأر لقريب أو المقصودين منهم بالثأر. حياة هؤلاء من النساء معقّدة ومركّبة وقلقة تمضي كمن يمشي على حدّ السيف.

(١) بحسب النصوص الشرعية، البنت الشيعية تقطع الإرث، أي أنّها ترث كلّ أملاك والدها في حال لم يكن لديه ذكور، بينما لا تقطع البنت السنّية الإرث لأنّ أعمامها وأولاد أعمامها يرثون معها في حال عدم وجود شقيق لها.



سيدة تقف عند مدخل منزل مهجور في أحد أودية الهرمل | **تصوير كامل جابر**

أم فوزو التاجرة

دفع والد خبصة فوق مهرها ما يساوي قيمته واشترى لها عقداً ذهبياً "من الكتف إلى الكتف" مشكوكاً بخمس مخمّسيات من الذهب، والمخمّسية هي خمس ليرات ذهبية مجتمعة، وبين كلّ مخمّسية وأختها كان هناك خمس ليرات ذهبية "كل ليرة حد التانية" كما تصف النسوة عقد خبصة الفريد في أيامه، إلى أن وصلت قيمة العقد إلى خمسين ليرة ذهبية. كانت نساء ذلك الزمن وكلّما أرادت الواحدة منهنّ أن تتزيّن بشيء ثمين، يقصدن خبصة لاستعارة عقدها.

عندما تزوّجت خبصة، حسن حيدر، وكان أحد زعماء عائلته ولكنّه مزارع يعتاش من أرضه وماشية يربّيها، قرّرت بعقلها التجاري أن تستثمر من ذهبها لا أن تتزيّن به فقط. وعليه بدأت بقطع ليرة ذهبية وراء الثانية لتشتري فيها ماشية وتضعها مع أحد المزارعين بـ"الشركة" أي أن يأخذ حصّة منها لقاء رعايتها والاهتمام بها. كانت تقصد سوق الخيّاطين في بيروت وتشتري الحرير والجوخ وتخيط فساتين نسائية "كانت تحمّي كبجة (أي مغرفة) النحاس على النار وتكوي بها الثياب، حيث لم يكن يوجد مكواة في حينها، وتضعها في المحلات وتبيعها"، تخبر عنها ابنتها وجيهة. وكانت "تروح مع الجمالة ع جب الجراد" على الحدود مع سوريا تشتري الذرة وتبادله مع المزارعين ريثما يحصدون القمح، وكان القمح أغلى من الذرة، وتستردّها قمحاً وتحقّق أرباحاً. كانت المرأة الوحيدة التي ترافق الجمّالة إلى الحدود السورية. يخبر الأستاذ علي شمس عن أم فوزو، خبصة، كيف كانت تُعدُّ من وجهاء عشيرتها، وكان يراها باستمرار كونه أستاذ بناتها "لمّن تطلّع جزدانها نرى آلاف الليرات بينما كان الغنيّ بالعشيرة معه شي ٥٠٠ ليرة". وعندما تحصل وفاة في العائلة كانت أم فوزو تدفع كما الرجال تماماً، كما كان اسمها يتصدّر لائحة دافعي الدّية عندما تلتزم العشيرة بها في حال جرت مصالحة على ثأر ما أو حادثة قتل ما، كما تجري العادات أن تُجمع الدّية على مبدأ "قرش داير على رجال العشيرة".

فاطمة مدرّسة التربية الوطنية:

بخبركم شو لازم تكون الأمور بس الواقع مختلف

تميّز فاطمة جعفر، ابنة جرد عشيرة جعفر، وتحديداً منطقة الميدان في وادي فيسان، ابنة العشيرة عن ابنة المدينة بظروفها الصعبة التي تجعل العلم ليس بسهولة تعليم الفتاة التي تسكن بالقرب من المدرسة ولاحقاً الجامعة. تقول فاطمة: "في أوقات كتير بنات ما بيتعلّمو لأنّه المدارس بعيدة عن الجرود"، حيث كان معظم العشائر يعيشون، "وليس لأنّ الأهل لا يريدون ذلك". هنا تحكم الظروف، وليس واقع أنّ هذه الفتاة ابنة عشيرة أم لا "إجمالاً كانت مناطق العشائر بعيدة عن المدارس وخصوصاً التكميلي والثانوي وطبعاً الجامعات، عشان هيك ما كان يطلع للكلّ يتعلّمو، صبيان وبنات". وترغب فاطمة أن تقارب بنت العشيرة من موقع ظروفها والبيئة التي تعيش فيها وعلاقتها بالدولة "الغائبة عنا"، كما تقول.

كبرت فاطمة في منزل "معلّق بالدولة" كون والدها كان دركياً: "شربنا الدولة مع الرضاعة، وكنّا نفهم الدولة غير هلّق مع إنّه كانت الحرب الأهلية قائمة". كانت فاطمة ترى الدولة "عسكري محترم ببدلة مرتّبة حلوة، وأغنية بيي راح مع العسكر"، وكانت تفكّر "هيدي دولة لبنان". ومع أنّه دركي وبراتب محدود، حرص والد فاطمة على تعليمها وأخوتها في مدارس الهرمل، وهناك تعرّفت إلى "مفهوم الدولة الوطن والأم الحاضنة اللي ما كنّا نشوفها حتى ع التلفزيون، لأنّه ما كان يجي عنّا إلّا التلفزيون السوري". ولم ترَ فاطمة الدولة على الأرض "كنت فتّش عليها وما لاقيها، وكنا نحترم الدولة من خلال أبي وبدلته وهو عنصر محترم وعصامي ونزيه وما بيعرف الرشوة، وكنّا نفكر إنّه الدولة بتشبهه".

عندما أنهت تعليمها الثانوي في الهرمل، قال لها والدها "بدّك تروحي تتخصّصي بزحلة يا بابا، ما بقدر إبعتك ع بيروت". وهكذا كان وتسجّلت في

كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية. "ياخدني من الوادي الصبح ع الهرمل ومن هونيك روح بالفان ع زحلة". لم تكن فاطمة تعود قبل الثامنة مساء من جامعتها "كان البابا يجي من الميدان وياخدني ع الضيعة كلّ يوم، ما يتعب ولا يكلّ، كان مبسوط إنّه عم يعلّمنا". ومع كلّ سنة جامعية تمرّ، كانت فاطمة تقترب من حلمها "كان حلمي أعمل محامية وفوت ع القضاء وحقق العدالة". ولدى تخرّجها "تعذبت كتير حتى لقيت مكتب محاماة اتدرّج فيه، مع إني كنت الأولى ع دفعتي بالجامعة". عندما وجدت مكتب محاماة في بيروت للتدرّج، سلّمها ملفّات البقاع "وشفت البلاوي"، تقول لـ"المفكرة". وخلال سنة ونصف من التدرج "شفت كلّ الفساد بالقضاء"، ولذا هي متيقّنة اليوم "أنّه ما في عدالة بلا قضاء مستقلّ، وما في حتى سلطة تشريعية أو تنفيذية بلا قضاء مستقلّ". طوال عام ونصف، لم ترَ المحامية فاطمة جعفر سوى "الوسايط والرشاوى"، ولأنّها مبدئية "متل ما ربّاني البابا"، قرّرت ترك المحاماة، وقدّمت على مجلس الخدمة المدنية لتتوظف في التعليم، واحتلّت المركز الأول في المباراة وصارت معلمة تربية وطنية ومدنية. وهنا "إجتني مصيبة كبرى". يصوّر منهج التربية الوطنية الدولة "دولة القانون والسلطات والمؤسّسات ودولة العدالة". وهنا وقعت فاطمة في مأزق أن تعلّم تلامذتها شيئاً بينما الواقع شيء آخر: "كيف دولة العدالة والمؤسسات وما في لا عدالة ولا مؤسسات؟". ولذا وصلت إلى حلّ لتتصالح مع نفسها وصارت تستهلّ صفوفها كلّ عام بعبارة: "مادة التربية بتخبّركم كيف لازم تكون الأمور، بس الواقع مختلف ولازم إنتو تشتغلوا حتى تصير الدولة متل ما هي بالكتاب". تضحك فاطمة وهي تعطي أمثلة عن الواقع المكرّس في رأس تلامذتها بينما هي تحدثهم عن عالم مختلف "حسب الكتاب كلّ واحد بتوصلو حقوقه وبيؤدي واجباته، بمنطقتنا ما في شي واصلهم من حقوقهم". عندما تحدثهم عن الضريبة وموجباتها: "بيعتبروا إنّه شطارة يهربوا من الضريبة". أما حين تقول لهم إنّ تهريب البضائع سيّئ ومخالف للقانون "بيقولولي التهريب أحلى شغلة وبيطلّع مصاري ومنصير أغنيا". حتى أنّ هناك تلامذة "حلمهم يصيروا مهربين". وهنا تبذل فاطمة جهداً مضاعفاً "حتى فهمهم القيم لي بالكتب بس برجع بصطدم بالواقع". فغالباً ما يقول لها تلامذتها: "ما بدّك نشتغل بالتهريب ولا بالحشيشة، وما في حقوق ووظايف عنّا، يعني بدك نسرق؟". عندها تضطر أن تقول لهم: "إذا وللبدّ، التهريب أحلى من المخدّرات والسرقة". أما حين تحدثهم عن الانتظام ضمن الدولة "وإنّه سياراتنا لازم تكون مسجّلة مثلاً، بيضحكوا عليي وبيخبروني إنّه معظم السيارات من حولهم مش شرعية". وأكثر ما يُشعر فاطمة بالعجز عندما تعلّم تلامذتها أنّ الدولة هي دولة القانون والعدالة والمساواة والعدالة الاجتماعية ودولة الفصل بين السلطات وتكافؤ الفرص في تولّي الوظائف العامّة "طيب وين بدّي دلّهم عليهم هودي؟ من وين بجيب أمثلة؟"

محوّل الكهرباء «خربان» منذ ١٩٨٣ لدى الدنادشة

أسطورة «حرز» الوادي

سعدى علّوه

يضحك رئيس مجلس إدارة مصلحة مياه بيروت السابق ركان دندش حين تسأله عن عشيرة دندش ليقول: «بيقولوا إنّو عيونهم كبار وواسعين قد ما بيلاقطوا» (أي نتيجة المشاكل الكثيرة التي يخوضونها). توصيف، وإن كان يحمل وجه غزل بعيون الدنادشة السوداء الواسعة وحدّتها الواضحة، إلاّ أنّه يشير إلى التنميط السائد بشأن هذه العشيرة. يُعرِّف عنها موقع اتّحاد عشائر بعلبك الهرمل أنّها من «العشائر النافذة والمقاتلة، تتركز زعامتها في وادي النيرة في جرود الهرمل»، وتنتشر في وادي بنيت والسَوَح وجباب الحمر في الجرد. مع الوقت، ومنذ نحو نصف قرن بدأ الدنادشة رحلة نزوحهم من الجرود نحو الهرمل وبلدة العين ورأس العاصي في السهل. ولعبوا منذ أيام الاستعمار التركي ومن ثم الفرنسي دوراً بارزاً في مقاومة المحتل، وكانوا داعمين في معركة وادي فيسان الشهيرة في وجه الفرنسيين التي تلاها مؤتمر مرجحين الذي عقدته العشائر على خلفية المعركة ونتائجها. ونتج عن المؤتمر يومها تشكيل جيش العشائر تحت تسمية جيش أمير المؤمنين (لم يتحوّل إلى جيش فعلي) وتوافقت العشائر على تولّي حسن طعّان دندش، زعيم الدنادشة، قيادته في حينها. استتبع ذلك الدور شنّ الفرنسيين، في أيامهم، أكثر من حملة ضد الدنادشة، فعمدوا إثر هزيمتهم في معركة فيسان إلى تدبير مقتل زعيمهم حسن طعّان دندش عام ١٩٢٩ في رأس بعلبك، ومن ثمّ سجن الرجال ونفي النساء والأطفال إلى منطقة الميادين في الجزيرة قرب دير الزور السورية لغاية العام ١٩٣٣، حيث كانوا (أي الفرنسيين) يرسلون كل رجل من آل دندش تنتهي محكوميته وراء أسرته إلى المنفى[1].

حلول الاستقلال لم ينهِ خصومة العشيرة مع الحُكم. فقد شنّت الأجهزة الأمنية حملة في ١٩٤٨ لاعتقال المشتبه بهم في الاشتراك في قتل مخايل روفايل في رأس بعلبك ثأراً لمقتل زعيمهم حسن طعّان دندش. وقد سقط العديد من عناصر الجيش والدرك في معركة ساند فيها عدد من عشائر المنطقة أبناء عمومتهم الدنادشة. ولاحقاً لم يستجِبْ قائد الجيش فؤاد شهاب للأوامر حين طلب منه تعقّب الطفّار من بينهم والقبض عليهم، ودعا إلى تغيير المعادلة في التعامل مع العشائر[2].

وبرغم الإنماء الذي حملته المرحلة الشهابية، وبغضّ النظر عن النفعية التي اعترته لتفريخ زعامات موالية للدولة بين العشائر، إلاّ أنّ تتبّع سياق التعاطي الرسمي مع جرد آل دندش يبيّن وبالدلائل، كيف دفع الإهمال وغياب الإنماء المتوازن بهم إلى ترك أراضيهم وأرزاقهم والتشتّت في أصقاع المناطق السهلية بحثاً عن العلم ولقمة العيش وفرص العمل والمدخول الضروري لإعالة أبنائهم.

(١) في ١٩٣٣ هرب مصطفى طعّان دندش من الميادين وعاد عنوة عنهم إلى لبنان وساندته العشائر فأذعن الفرنسيون لإعادة بقية العشيرة مقابل تعهّد بعدم التمرّد ضد فرنسا»، من مقابلة أجراها الكاتب سويدان ناصر الدين مع الشيخ حسين يوسف دندش في بحث عن المنطقة كتبه لصالح جريدة السفير في ١٩٨٨.

(٢) العشيرة: دولة المجتمع المحلي، «عشائر جرد الهرمل»، الدكتور فؤاد خليل، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٠، ص ١٤٩.



بعض بيوت وادي بنيت المهجورة | **تصوير حسن الساحلي**

الدنادشة يشقّون طريقهم بمعاولهم

يقول محمد حسن دندش ممازحاً إنّ نهر العاصي أدرك مبكراً أنّ لبنان الرسمي سيدير ظهره للهرمل وأوديتها فجمع روافده وعاكس كلّ أنهار البلاد، واتجه نحو سوريا إلى الشمال الشرقي. هناك في المجرّ (رأس العاصي) من حيث تتدفّق مياه العاصي غزيرة صافية كدموع العين تقودك طريق صخرية غير صالحة إلّا لسير الآليات الكبيرة الرباعية الدفع نحو وادي بنيت، بوّابة جرد عشيرة دندش من ناحية رأس العاصي، والمدرج عقارياً ضمن رأس بعلبك الغربي، ولكنّه يتبع لقضاء الهرمل، كون سجلّات قيد أهله الانتخابية تصبّ حيث تقضي التقسيمات الطائفية. سبق لرجال جيل الخمسينيّات من عشيرة آل دندش، ملّاك الوادي، أن أعملوا معاولهم والرفوش في التلال التي تفصل واديهم عن سهل الهرمل من ناحية الشرقي، وهي المنطقة الفاصلة بين رأس بعلبك والهرمل، مروراً بالمجّر، الرأس الأعلى للعاصي، ليصلوا إلى وادي بنيت، وفق ما يؤكد مختار الوادي قاسم دندش لـ«المفكرة». ستّون عاماً مضت على رسمهم معالم الطريق ولكن الدولة لم تعبّدها حتى بالأتربة أو الرمول لغاية اليوم.

يصعب أن تجد في كلّ لبنان اليوم طريقاً بوعورة طريق الوادي المعبّدة بالصخور والحجارة، إلى درجة لم تمرّ سيارة محمد حسن دندش التي قادتنا إليه من دون أن يطالها خراب. بدأت معالم الطريق تختفي تماماً كما اختفت آثار أقدام أولئك الذي شقّوها وتعبوا طويلاً بانتظار دولة لم تأتِ فغادروا بحثاً عنها ربما، تاركين وراءهم أراضيهم الزراعية وكرومهم التي يعتاشون منها مع الأشجار الحرجية من سنديان ولزّاب وملّول وغيرها.

في المرحلة الشهابية وصلتهم أعمدة الكهرباء لتضيء عتمة منازلهم. رفاهية لم يعيشوها سوى لعشرين عاماً فقط. ففي العام ١٩٨٢، احترق محوّل الوادي واستغرق عمّال شركة كهرباء لبنان سنتين ليصلوا إلى بنيت: «فكّوا الترانس وغادروا على أمل إصلاحه، ولم يعودوا حتى اليوم» كما يؤكّد محمّد حسن دندش لـ«لمفكرة». عادت قناديل زيت الكاز لتضيء بيوت الفقراء، فيما كان الميسورون يحتفلون بضيوفهم فيشعلون «اللوكس» الذي يوازي نوره ضوء مصباح كهربائي بقوّة ١٥٠ شمعة. في الستينيّات أيضاً حفرت الدولة لهم بئراً على أمل أن تغنيهم ماؤها عن آبار تجميع مياه الشتاء أمام كل منزل. لم يمدّوا قساطل المياه ليخرجوا الماء من باطن الأرض، وبقي أهالي وادي بنيت عطاشى.

أما من رغب في تعليم أبنائه من بينهم فكان يرسلهم سيراً على أقدامهم الصغيرة ليقطعوا الجبل الفاصل بينهم وبين مزرعة الفقيه التي تبرّع أحد أبنائها، علي مرشد الفقيه، بتحويل غرفته الترابية إلى مدرسة. وكان الفقيه يأتي من المزرعة خلال العطلة الأسبوعية لتقوية من يحتاج من تلامذته بدروس خصوصية «وكانوا يدفعوا له شي صوف، شي لبن، شي قمح، المهم كتير أوقات ما في مصاري ليعطوه»، وفق المختار قاسم دندش.

أمّا المدرسة التي عادت وأتتهم متأخرة، فقد أقفلت بعد موجة النزوح التي تلت احتراق المحوّل الكهربائي، مما أدى إلى موجة رحيل أخرى عن الوادي سعياً وراء تعليم الأبناء علّهم يحظون بفرص حياة أفضل من جدودهم وآبائهم. وهناك في بنيت تركوا نحو ٤ آلاف دونم من الأراضي الزراعية البعلية، في بنيت الفوقا وبنيت التحتا، وفيها كرزهم والتفاح والمشمش حيث طالما تعذّر عليهم نقل ثمارها لبيعها في السهل أو بعلبك، المدينة الأقرب إليهم، وإن على مسافة ٦٠ كيلومتراً، بسبب عدم أهلية الطريق لنقل الإنتاج الزراعي.

حارسة الوادي

وحدها هند الستينية، ابنة وادي بنيت، الملقّبة بـ«حرز» الوادي، أي حارسته، عزّ عليها أن ترحل، فعاشت فيه وحيدة صيفاً شتاء لنحو عشرين عاماً، لا تتركه إلاّ في المناسبات لأيام معدودة، حتى تحوّلت إلى ما يشبه الأسطورة. «قلت ببقى هون، بضوّي قنديلي بعتم الليل، بحرس رزق أهلي وأولاد عمّي وبشتغل»، هكذا تبرّر وهي تستعيد ذكرياتها في مسقط رأسها بنيت التي ما زالت مغرومة بالعيش فيها. «هلأ إذا بيقبلو أخوتي برجع عيش فيها حتى لوحدي»، تؤكّد. كان الوادي بوّابة هند لاستقلاليّتها «بقيت اشتغل برزقنا وطلّع مصروفي وحتى أسند أخوتي». أما السبب الثاني فمبدئي أيضاً «ما كان بدي الوادي يموت، هونيك عشت طفولتي وفيه

ذكرى أهلي وكل حياتنا، وفيه رزقنا». ولم يأتِ لقب «حرز» الوادي، من عدم، إذ أنّ هند كانت تتصدّى لكلّ «غريب»، كما تصف أي شخص يمرّ بالوادي من غير أهله. «كنت إحمل بارودتي وإنزل أوقف له ع الطريق وإسأله مينك إنت؟». إذا كان من أهل الوادي أو ذرّيتهم، تتركه يعبر، وإذا لا، تأمره بالعودة من حيث أتى «كان في حراميّي يجوا بدهن ينهبوا رزق العالم الغايبة وأنا كنت إمنعهم».

ولكن كيف لامرأة أن تعيش وحيدة في منطقة مهجورة ومعزولة عن العالم كوادي بنيت. تجيب: «كانوا أخوتي وأولاد عمّي يتناوبوا ليتطمّنوا عنّي». يصعدون إلى الجبل الذي يعلو وادي بنيت من ناحية وادي الكرم على الطريق نحو جباب الحمر، ومن هناك ينادون على هند، فتردّ: «أنا هون، أنا بخير». وفي حال لم تسمع كانوا يطلقون عياراً نارياً في الجو كإشارة بينها وبينهم، عندها تنتبه هند وتردّ عليهم إمّا بصوتها، أو بطلق ناري إذا كان اتّجاه الريح معاكساً لاتّجاه الصوت. ثمّة سبب آخر لعدم تركها الوادي تلمع عيناها حين تذكره: «ما فيكي تتخيلي قديش كانوا أهل الوادي ينبسطوا لمّن يلاقوني فوق إذا طلعوا يتفقّدوا رزقهم».

كانت تمدّ للقادمين «سفرة» من منتجاتها «لبن ولبنة وبيض بلدي وقورما وما تيّسر من خضار صيفية بعلية، وكنت ع القليلة أسقيهم نقطة مي مصقّعة من بيرنا»، أي بئر تجميع مياه الشتاء.

وبالفعل، تحوّل بيت هند الترابي إلى منزل الوادي، أي بيت المضافة. كرم وطيبة كادت أن تدفع حياتها ثمناً لهما في مساء قصدها فيه شخص بهدف السرقة «مرّة عند المغرب وصل لعندي شاب كان يشتغل مع أخوتي». قال لهند إن أخوتها أرسلوه لمساعدتها في مشحرة الفحم التي كانت تحتاج لجهد كبير «وأنا صدّقته لأنّه عاش معنا فترة قبل، وهو مش من الوادي». بعد أن قدّمت له طعام العشاء، وأعقبته بإبريق شاي، كما درجت عادات أهل الجرود، لم تستفِق هند إلّا في المستشفى. وضع لها الشاب مخدراً في كوب الشاي، وعندما غابت عن الوعي ضربها بآلة حادّة على رأسها «شوفي كيف فجّ لي راسي شقفتين»، ترفع هند غطاءها عن ندبة كبيرة تشي بوجود كسر خطير في الجمجمة. سلب السارق هند كل ما تملك من مقتنيات «نهب لي مصريّاتي، و٢١ إسوارة دهب صب مش نفخ، وعقد وتعليقة مخمسية (من خمس ليرات ذهب) مع سنسنال كبير وحلق وخاتمين». تقول هند إنّها كانت تخلع عقدها الثمين ليلاً «لأنّه تقيل كان يزعجني»، تقول بحسرة على تعب عمرها الذي راح.

بعد يومين من محاولة قتلها وعندما لم تردّ على نداء أخوتها وأبناء عمومتها من على جبل وادي الكرم، نزل ابن عمها يتفقّدها ليجدها غارقة بدمائها «نزل ع الهرمل وجاب إسعاف مع ممرضين ونقلوني ع المستشفى». تنقل هند عن الطبيب الذي أجرى لها العملية أن تخثّر الدم نتيجة الصقيع في الوادي هو ما أوقف نزيفها

«وإلّا كان صفّى دمّي ومتت»، كما أنّ ضربة الفأس لم تصل إلى دماغها «كان مخّي بعده سليم عشان هيك بقيت عايشة كمان». منذ ذلك اليوم حاولت هند العودة للعيش في الوادي ولكن أخوتها لم يقبلوا خوفاً على سلامتها «أنا كتير زعلانة لأنّه تركت الوادي». اليوم يقدّم لها أبناء أخوتها «أحلى هدية» بأن يأخذوها بين فترة وأخرى لتزور الوادي وتطمئنّ عليه.

الإنماء بيردنا ع الوادي

يقول مختار وادي بنيت قاسم دندش لـ«المفكرة» إنّ هناك هند في كلّ بيت من سكّان وادي بنيت ووادي النيرة «يعني كلّ أولاد العشيرة بيحبّوا يعيشوا بالجرد وبرزقهم، بس الدولة هجّرتنا». يشير المختار إلى أنّه قدّم طلباً لتعبيد طريق الوادي في العام ٢٠١٧، ع أيام وزير الأشغال يوسف فينيانوس «وحكينا مع النائب طوني فرنجية وقتها». وعليه أرسلت الوزارة مهندساً كشف على الطريق وكلّ المنازل المتروكة و«ذهب وما زلنا بانتظار الطريق». وحين لا تصل الدولة في الإنماء، فإنّ القوى السياسية تجد طريقها إلى أصوات الناخبين في الوادي «عنّا نحو ٥٥٠ مقترعاً، ينتخبون بالدرجة الأولى لائحة حزب الله».

ففي انتخابات ٢٠١٨ نال نائب الحزب إيهاب حمادة ٥٠ صوتاً تفضيلياً، فيمّا خصّ الناخبون النائب حسين الحاج حسن من كتلة الحزب نفسها بـ٢٥٠ صوتاً تفضيلياً. يقول مندوب من اللائحة التي نافست لائحة الحزب، وكان فيها المرشح يحيى شمص إنّ الجواب كان يأتيه حين يطلب من الناخبين انتخاب شمص «ما فينا نخالف التكليف الشرعي، بدنا ننتخب الحزب»، ليدلّل على ولاء معظم أبناء الوادي لحزب الله «يعني أخدوا ٣٠٠ صوت من أصل ٤٠٠ مقترع يومها». في الانتخابات النيابية الأولى بعد التسعين، وضعت الدولة صندوق وادي بنيت في بيت مختاره آنذاك محمد رشيد دندش على رأس العاصي، ثمّ نقلته إلى المدرسة النموذجية الرسمية في الهرمل في الدورات اللاحقة ولغاية اليوم «يعني ع القليلة يعملولنا طريق لنحطّ صندوق بنيت بالوادي ونصير نطلع ننتخبهم» يقول المختار وهو يؤكّد أنّ الغالبية الساحقة من أبناء الوادي ترغب في العودة إليه. يشير إلى غلاء الأراضي والبيوت في الهرمل «مش كل الناس قادرة تعمّر بالهرمل وتدفع نحو ٤٠ ألف دولار سعر دونم الأرض أو ٨٠ ألف ثمن الشقة المقبولة، بينما يمكن لأي منهم بناء منزل في أراضيه حيث يملك كلّ منهم عشرات الدونمات». يؤكّد المختار أنّ المشوار من بنيت إلى الهرمل لا يستغرق أكثر من ربع ساعة في حال تعبيد الطريق «وكمان يطلّعوا لنا مي ويرجّعوا ترانس الكهربا والمدرسة لنرجع ع أرضنا ونحييها».



بيت هند دندش "حرز الوادي" | **تصوير حسن الساحلي**



جرد عشيرة دندش | **تصوير لمياء الساحلي**



وادي الكرم

عندما يحوّل الإهمال القرى إلى أطلال

سعدى علّوه

لم تدخل الكهرباء إلى وادي الكرم إلّا قبل عام ونصف العام من اليوم. وهي حتى اللحظة وصلت إلى جزء من بيوتها فيما ما زال الجزء الأخر قابعاً في الظلام يتفرّج أهله على مصابيح جيرانهم مندهشين. يومها أحيا أهل الوادي، وتحديداً منطقة الشطاح فيها، حفلة «عرمرميّة»، كما يصفها ابنها علي حسن مرتضى لـ«المفكرة»، وهنّأوا بعضهم البعض فرحين مسرورين بأنّ دولتهم تذكّرتهم بعد ٦٨ عاماً على استقلال البلاد، وعفتهم من إضاءة مصابيح الكاز ليلاً. لكن الأزمة الاقتصادية منعت الفرحة المنقوصة عن جزء آخر من أهالي الشطاح حيث لم يبق «دولارات في مصرف لبنان»، كما يفيد مصدر في شركة كهرباء لبنان، لتلبية طلبات الآخرين بقطع عدادات (ساعات كهربائية) لإنارة منازلهم.

تصل وادي الكرم، وهو أحد أودية جرود الهرمل، من رأس المال، جنوب غرب المدينة على الطريق نحو جرد آل دندش في جباب الحمر واستكمالاً نحو الضنية. ووادي الكرم، وفق مختاره علي رشيد مرتضى، من أكثر الأودية اختلاطاً وتنوّعاً، إذ تعيش فيه عائلات صغيرة إلى جانب عشائر علوه (وهم قلّة فيها) وعوّاد، فيما يمسكها الدنادشة من أعلاها في البويب وجباب الحمر. ويحدّها آل علوه من الشمال الغربي عبر منطقة السَّوَح صعوداً نحو مرجحين. ويتألّف وادي الكرم من مراح السيّاد ومراح بيت غصن والزويتينة ومزرعة فقيه والشطاح ووادي الزراقط.

أمر آخر تجدر الإشارة إليه بشأن وادي الكرم وهو أنّه يتصدّر المناطق التي هجّر الحرمان أهلها عن «بكرة أبيهم». فبعد وصول الكهرباء إلى الشطاح بنحو ٨ أشهر، أي قبل أقل من عام من اليوم، ركّزت شركة كهرباء لبنان محطة كهربائية في مزرعة فقيه، إحدى مناطق وادي الكرم أيضاً، ولكن بعد فوات الأوان. فهي فعلت ذلك بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على تحوّل المزرعة إلى أطلال بعدما هجرها أهلها بسبب عدم وجود طريق ومدرسة ومياه وكهرباء.

وكما مزرعة الفقيه، هجر سكان مراح السيّاد منازلهم. نزح هؤلاء نحو الهرمل ومنهم من تابع نزوحه نحو أحزمة البؤس في المدن، وصارت منازلهم خراباً. وكذلك فعل آل عوّاد تاركين مراحهم كمكان سكن دائم، فيما استمرّوا في زراعة أراضيهم.

وحدها الزويتينة نجت من الاضمحلال بفضل الأوتوستراد الذي ربط قضاءي الهرمل والضنية ومرّ بها كونها تلتصق به. فبقي سكانها فيها «لا حول لهم ولا قوّة إلّا بضع شجر مثمر وأراض مستصلحة جزئياً يزرعون فيها بعض الحبوب،

ويعيشون على «قوت لي ما يموت»، كما يصف حالهم مختار الزويتينة نزيه فخرالدين.

مين الدولة؟

يشعر أهل وادي الكرم بمرارة كبيرة نتيجة الحرمان الذي ما زال مستمرّاً لغاية اليوم ودفعوا ثمنه غالياً من علم أولادهم وتحسين أوضاعهم ونمط عيشهم وإنتاجيّتهم. لماذا على منطقة يلامس عدد ناخبيها (مع الزويتينة) ٤٠٠٠ ناخب، أن يتهجّر ناسها ويتركوا بيوتهم للخراب وهم لا يبعدون عن الهرمل أكثر من كيلومترين (مراح السيّاد) إلى ٣ كيلومترات (مزرعة الفقيه). وفق المختار علي مرتضى «بيقدروا يعيشوا بمنطقتهم لو كان عندهم من الأوّل مدارس ومي وكهرباء وطرقات، مش مضطرين ينزحوا». يتكلّف هؤلاء إيجار بيوت في الهرمل أو شراء أراض لا يقل ثمن الألف متر فيها عن ٣٠ ألف دولار في أطراف المدينة وعلى هوامشها البعيدة، فقط ليتسنّى لهم إرسال أبنائهم إلى المدارس، أو للتوقّف عن نقل المياه على الدواب قديماً وبالصهاريج المكلفة حالياً، ولكي لا يعيشوا حياتهم على ضوء الشموع، ولا يجدون سيارة او حافلة تنقلهم بالأجرة على طرقات ترابية محفّرة ومليئة بالصخور والأرج (الحجارة الكبيرة).

وفق المختار مرتضى، لم تضحلّ الشطاح كما مزرعة الفقيه ومراح السيّاد لسبب وحيد «نمط عيش أهلها الذين يقتاتون من الزراعة البعلية شجراً وحبوباً ومن تربية المواشي، وليس لديهم خيارات أخرى في الهرمل».

إذا وضعنا الزويتينة جانباً كونها استقلّت عن مخترة وادي الكرم قديماً وأنشأت مخترة خاصّة بها لعائلة فخرالدين، فإنّ الشطاح هي الوحيدة التي صمدت في وادي الكرم برغم أنّ الحرمان «ضارب طنابه فيها»، وفق مرتضى «لهلأ ما في بير مي واحد بالشطاح والناس حافرة آبار تجميع». يملأ الأهالي آبار التجميع ممّا يهطل من أمطار وثلوج وعندما يستهلكونها يأتون بالمياه بالسيترن من آبار جباب الحمر في الجرد الأعلى (نحو ٥ كيلومترات) أو من رأس المال، نبع الهرمل الأساسي ويبعد عنهم نحو ١٠ كيلومترات هو الآخر. قدّم المختار علي مرتضى طلباً إلى وزارة الطاقة قبل سنتين لحفر بئر تغذّي الشطاح ووادي الزراقط جاره «ولم يعودوا إلينا بجواب حتى اليوم بسبب عدم توفّر اعتماد مالي». يترك أهل الشطاح منطقتهم شتاء سعياً وراء تعليم أبنائهم ويعودون في الربيع لحراثة أراضيهم «حتى اليوم بعد في جزء من الطريق بحص وتراب»، يقول مرتضى وهو ما تأكدت منه «المفكرة» خلال زيارة المنطقة. هناك تمّ شقّ طريق عامّة للشطاح ولم يصل الإسمنت (حيث لا أسفلت للطريق) إلّا إلى بيوت من استطاع للواسطة سبيلاً.

يرى علي حسن مرتضى، ابن الشطاح، منطقته جميلة «حايدة (أي بعيدة عن المدينة) وحلوة وأرضها خيّرة». يعتاش علي وعائلته من خيرات أشجار الكرز والمشمش «وموسمها مميّز عن كرز ومشمش بقية المناطق». وإلى جانب الزراعة يعمل علي على تراكتور للحراثة «أنا ما بحب أترك

الشطاح، ومش لازم نتركها»، يقول وهو يشير إلى الطريق الرئيسية التي تبعد عن منزله نحو ٧٠٠ متر «تخيلي مثلاً الطريق مش واصلة لعنّا». وبرغم أنّ علي يأتي بالماء من جباب الحمر أو من رأس المال، لكنّه يفضّل العيش في الشطاح «الناس كرمالها عم تعرف قيمة هيدي المناطق وقديش الحياة صحّية وجميلة فيها»، يؤكّد وهو يشير إلى البيوت الجديدة التي بناها أصحابها حديثاً «في ناس نزحت من زمان بس هلأ رجعت لمّن صار في طريق وكهربا، وحتى لو رجعت بس بالعطل».

آل الفقيه
ينوون إحياء مزرعتهم

بعد حي رأس المال الذي يختم الهرمل ليفتح على حدودها مع وادي الكرم، جنوب غرب، وتحديداً عند الحاجز اليتيم للجيش اللبناني في الجرد نحو آل دندش، تنعطف بنا السيارة يساراً نحو مزرعة الفقيه. وبعد نحو ١٥٠٠ متر من حاجز الجيش تنتهي الطريق المعبّدة لنقود السيارة على طريق تبدأ ترابية وتنتهي صخرية غير صالحة إلّا للآليات الرباعية الدفع. ثم يصبح الاستمرار بقيادة السيارة مخاطرة كبرى قد تؤدّي إلى خرابها، فنتركها في وسط طريق لن يعبر به أحد ونقصد مزرعة الفقيه سيراً على الأقدام.

وإذ تدخل المزرعة لا شيء يشي بالحياة الآن، وإن كان كلّ شيء يقول إنّ حياة غنية كانت ها هنا. لم يبقَ من منازلها الترابية والحجرية المبنيّة على نمط أودية جرود الهرمل والمناطق الفقيرة في الأرياف، سوى جدران أو نصف جدران وقد نجت أسقف محدودة من الانهيار. وحدها الأعمدة الصفراء الفاقعة التي مدّتها شركة كهرباء لبنان قبل نحو عام من اليوم، لتركّز محطّة فيها، تلوّن المزرعة ترابية اللون مع حقولها المتروكة وجلولها ومنازلها المتهالكة.

هناك، تقابلنا مع «الأستاذ» علي مرشد الفقيه وهو معلّم المزرعة، وقد عاد بنا إلى ماضيها. «عندما كنت طفلاً، كان سكّان مزرعة الفقيه، كما سكّان كلّ وادي الكرم فقراء ومعتّرين عايشين من الزراعة وتربية المواشي في الجرد». يومها كانت الطرقات في الستينيّات، تقتصر على «طريق للدابّة، لا مدرسة ولا كهربا ولا مي، يعني عايشين من قلّة الموت. بعد أربعة أولاد لم يرسلهم إلى المدرسة، فكّر والدي أنّه آن الأوان لتعليم أحد أبنائه وكان حظّي حلو لأنّي كنت الصغير حينها». وعليه وضّبت والدة علي صرّة فيها بعض ملابس ومؤن، وأمسكه والده من يده، وكان في الثامنة من عمره، وسار به على الطريق الترابية إلى الهرمل «هونيك وَدَعني (من وديعة) عند ناس بيقربونا»، بعدما استسمحهم بأن يعيش ابنه مع أولادهم «حابب علّم هالصبي، قال لهم». وهكذا تناوب والد علي ووالدته وأخوته على زيارته في بيت الأقارب كلّ يوم جمعة حيث يحملون له «زوّادة الأسبوع». مع إنهاء علي صف الرابع ابتدائي، حضر والده وشكر العائلة التي استضافته كلّ هذه المدة

وقـال لـه «لهـون بيكفّـي يـا بيـي، بـدي إيّـاك تساعدني بالطرشات (قطيع المواشي) وبالأرض».

بعد عودته إلى مزرعة الفقيه بأربع سنوات، بنى علي، وكان في ١٧ من عمره، غرفة ترابية ليتزوّج فيها. وبينما هو يحضّر نفسه للزواج، سمع أحاديث عن وجود نحو ١٥ ولداً وفتاة في سنّ الذهاب إلى المدرسة من دون وجود أي سبيل لذلك. جمع الأهالي على الفور واقترح عليهم «بدّكم افتح غرفتي مدرسة؟ وعلّم هالأولاد؟». «قلت يمكن يقدروا يكفّوا علمهم في وقت أنا عجزت عن ذلك». وعليه، حوّل علي غرفته إلى مدرسة. مدّ في أرضها حصيرة، وقصد الهرمل على الدابّة واشترى خشباً وصنع منه لكل تلميذ «طبلية»، أي طاولة خشب، بارتفاع ٤٠ سنتمتراً وبطبقتين إحداهما للكتب والثانية للكتابة عليها جلوساً. طلب من كلّ ولد وفتاة، أن يأتوا بـ»طرّاحة» للجلوس عليها، واستعمل «صوبة حطب» من جهاز بيته، بعدما طلب من كل تلميذ أن يأتي يومياً بحطبة من منزله. واشترى علي لوح خشب «معاكس» وطلاه بالأسود وجعله لوحاً، وجهز حقيبة صغيرة للإسعافات الأوّلية، ولم يبقَ سوى وضع المنهاج والبرنامج: «قلت بعلّمهم لي بعرفهم وبوصّلهم للصف التالت حتى يصيروا قادرين يروحوا ع الهرمل». قصد مدرسة الهرمل وسأل عن كتب التهيدي واشترى لكلّ منهم نسخة منها، واتّفق مع المدرسة (مدرسة الهرمل) على منحه المنهاج ودفاتر علامات للتقييم. لم يترك شيئاً إلّا وفعله لتصير غرفته مدرسة «شرعية» جدّية «حدّدت موعداً ثابتاً لبدء الدروس عند الثامنة صباحاً، وأحضرت جرساً أدقّه بين انتهاء حصّة وبداية أخرى، وخصّصت لهم ساعة رياضة بدنية في الأسبوع، وكنت أعطيهم فروضاً منزلية كلّ يوم». مسألة واحدة لم يستطِع فرضها وهي الزيّ الموحّد «كان في أهالي ما معهم ثمن المريول فسمحت باللباس الحر». لم يحقّق علي حلمه بأن يصبح أستاذ مدرسة فقط، بل صار صاحب مدرسة ومديرها والأستاذ الوحيد، في الآن عينه. كان يلحق بالتلميذ الضعيف إلى منزله: «أعيد له شرح الدرس لكي أتأكّد أنّه استوعب كما رفاقه ورفيقاته». كان الأهالي يدفعون له على الموسم «يبيعوا القمح ويعطوني، ع موسم الحمّص تجيني دفعة، وفي إحدى المرّات دفع له والد أحد التلامذة خروفاً». وبرغم سعادته وشعوره بأهمية ما يفعل، إلّا أن جائزته الكبرى كانت بنجاح كلّ من نزل إلى مدرسة الهرمل في نهاية الصف الثاني ابتدائي وخضع لامتحان الدخول إليها «كل تلاميذي نجحوا»، يقول بفخر وكأنّ النتائج قد أُعلنت للتوّ. يكفي علي اليوم، كما يقول، أنّه عوّض غياب المدرسة الرسمية التي لم تنشئها الدولة، وساهم في إنقاذ مجموعة كبيرة من ذلك الجيل «تخرّج ٤ منهم من الجامعات، وهذا أمر يسعدني وأفتخر به».

خلال زيارتنا للمزرعة، التقينا أستاذ المدرسة حالياً والنقابي التربوي ركان الفقيه، وهو بالمناسبة أحد تلامذة الأستاذ علي.

يقول ركان، ابن المزرعة، لـ»المفكرة» إنّ مجموعة من الجيل الجديد تنوي إحياء مزرعة الفقيه «عم

نسعى حتى نعمّر فيها عن جديد ونسكنها». فالمزرعة لا تبعد عن الهرمل سوى ٣ كيلومترات «يعني ضربة حجر»، وينوي هؤلاء العودة للعيش فيها «أوّلاً هيدي أرضنا وفيها ذكريات طفولتنا وبدنا نعيش فيها، وثانياً بحق أرض أو شقة بالهرمل منعمّر أحلى بيوت ومعظمنا عاجز عن تحمّل كلفة السكن بالهرمل، معظمنا مستأجرين بالمدينة وما عنّا بيوت فيها». ولكن للعودة مقوّماتها «نطالب الدولة بتعبيد كامل الطريق إلى المزرعة بحيّيها السفلي والعلوي، وحفر بئر ومدّ المياه إلى المنازل، وإحياء المدرسة التي أقرّتها بعد نزوح كل أهل المزرعة عنها، أو بالأحرى تهجيرهم لأنّ الإهمال هجّرنا».

الزويتينة
سكن المقطوعين من شجرة

لا يوجد في الزويتينة سوى الطريق التي تربط الهرمل بالضنّية، وتقع الزويتينة إلى جانبها، معبّدة. كانت الطريق «صعبة ووعرة قبل الأوتوستراد» يقول مختارها نزيه فخرالدين لـ«المفكرة». أما الماء فقد أمّنته جمعية أرجنتينية بعدما حفرت بئراً في التسعينيّات وأوصلته إلى البيوت من خزّان بنته في أعلاها. جمع أهالي الزويتينة المال في السبعينيات وبدأوا ببناء مدرسة لتعليم أولادهم «بعدين الدولة كمّلتها». كان الأساتذة يومها، ومنهم أستاذ يتذكّره المختار جيداً «اسمه يحيى العبدالله»، يسكنون في منازل الأهالي «بيعطوه غرفة ويصير كل يوم واحد يعزمه ع الغدا».

قدّم المختار نزيه فخرالدين طلباً لإنشاء بلدية للزويتينة «عنا ٧٠٠ ناخب وبيطلع لنا بلدية، ووافقوا على طلبنا ونحن بانتظار التنفيذ، على أمل نقدر نعمل شوية إنماء».

لا يعيش في الزويتينة اليوم سوى المرضى والمسنّين وهناك أربعة إلى خمسة أشخاص من ذوي الإعاقة «حتى هودي لو قادرين يعيشوا بالهرمل ما بيبقوا هون بفصل الشتاء». يرى المختار أنّ الأهالي لا يمكنهم استصلاح أراضيهم «الناس فقيرة وما معها والأرض مش مفروزة». ويضرب مثلاً عن عدد الذين يقصدونها صيفاً «في كتير من أهلها بيرجعوا بالصيف»، ليقول إن منح الزويتينة حصتها من الإنماء «يحييها ويعيد أهلها إليها».



بيوت مهجورة في الزويتينة - وادي الكرم | **تصوير لميا الساحلي**



بيوت مهجورة في الزويتينة - وادي الكرم | **تصوير لميا الساحلي**

عن جرد عشيرة علّوه القابع في مثلث الحرمان

لا أثر إنمائي أو أمني للدولة[1]

سعدى علّوه

يمكن لقراءة الحدود الجغرافيّة لمنطقة تمركُز عشيرة علّوه أن تساعد في فهم مواردها الاقتصادية، وبالتالي واقع أبنائها الحياتي وعلاقتهم بالدولة ووضعهم القانوني، من دون استثناء السياق السياسي للعشيرة التي اشتهرت تاريخياً بتسيُّسها، وبخاصّة على يد الأحزاب التقدّمية والعلمانية في السبعينيّات. تسيُّس نأى، ربطاً بطبيعة الأحزاب الناشطة آنذاك وعدم انخراطها بالسلطة، عن المحسوبية والمصالحية، وطبعاً النفعية وتحقيق المكاسب.

وفي جغرافيا العشيرة مؤشّر يرتبط بمثلّث الحرمان: عكّار والضنّية والهرمل، الذي تتربّع في قلبه. فأراضي آل علّوه تبدأ من منطقة عميري، قضاء الضنّية، على الحدّ مع مربّين، إلى مغرِّب ووادي جهنّم في قضاء عكّار على حدود مشمش والقمّوعة، وصولاً إلى سهل مرجحين الذي ينقسم في وسطه بين قضاءي عكار والهرمل، حيث يبدأ الأخير من منتصف السهل نحو الشرق. بعد مرجحين يتمدّد أفرادها نحو منطقة السَوَح البعلية التي لا يُستخرج ماؤها الجوفي إلّا على عمق ٤٥٠ إلى ٦٠٠ متر، ومن ثمّ ينحدرون نحو واديَي التركمان والرّطل نزولاً نحو حي المرج الشمالي وشقيقه الجنوبي في رأس الهرمل.

نرى العشيرة تتوسّع عمودياً كما عشائر جعفر وناصر الدين ودندش حيث تبدو حدودها مع العشائر الأخرى واضحة لا لبس فيها، لها طرقاتها وأراضيها الزراعية، فيما تدخل الهرمل من سفح سلسلة جبال لبنان الغربية، ودائماً امتداداً من جردها، لتمسك المدينة من أعلاها في الوسط.

يحدّ العشيرة آل دندش من الجنوب في جباب الحمر شقيقة مرجحين، وفي بديتا في الهرمل مع عشيرتي شمص وعوّاد، فيما تحدّها عشيرة ناصرالدين من الشمال جرداً وسهلاً. وتنفتح أراضي آل علّوه على الهرمل من ناحية ساحة السبيل حارمةً إياها من أيّ تماس مع الحدود السورية، حيث يشكّل التهريب مصدر دخل كبير للعشائر المُتَرَكِّنة هناك على الحدود الواسعة مع ريف القصير.

حكمت الحدود الجغرافية مصادر عيش آل علّوه فوجدوا أنفسهم بمواجهة الأرض فقط بجرديّتها وقساوتها أو النزوح، في ظل إدارة الظهر الرسمية مع ما حجبته من إنماء. وعليه، مارسوا زراعة حشيشة القنّب الهندي مع غيرهم من العشائر عندما كانت المنطقة مرتعاً لها قبل منعها في التسعينيّات. وبينما وجدت بعض عشائر السلسلة الغربية في القضاء، وخصوصاً آل ناصر الدين وجعفر وزعيتر، في القصر والحوش والحدود مع سوريا مصادر دخل عبر التجارة الحدودية، لم

[1] بعد أشهر من جولتنا في وادي التركمان التي جرت في شهري شباط وآذار ٢٠٢١، ركّز الجيش اللبناني حاجزاً عند مدخل الوادي.

يجد بعض أبناء آل علّوه، ممّن لم يوفّقوا بسبيل للرحيل نحو أحزمة البؤس في المدن للعمل والعلم، غير الاستمرار بزراعة الحشيشة، فتصدّروا قائمة المطلوبين والطفّار وكذلك القابعين في السجون، وعلى رأسها سجن رومية المركزي.

لا استثمار للسياسة في الإنماء

وفي مرحلة ما بعد الطائف ومع تمدّد الثنائي الشيعي بين عائلات الهرمل ومن ثمّ بعض العشائر، وخصوصاً في البداية مع حركة أمل، كان انخراط آل علّوه محدوداً وهم المصبوغون بانتشار الأحزاب التقدّمية في شريحة واسعة بين رجالهم ونسائهم الذين بكروا في طلب العلم. ودخل الحزب السوري القومي الاجتماعي صفوفها قبل غيره. تلاه البعث العربي الاشتراكي (بجناحه العراقي) والقومية العربية ثمّ منظمة العمل الشيوعي والحزب الشيوعي. يقول مفلح رئيس علّوه، عضو بلدية الهرمل، وكان في السبعينيّات أوّل من أدخل حزب البعث بشقّه العراقي إلى عشيرته وشجّع شبّانها وشابّاتها على الانضمام إليه، أنّ آل علّوه «كانوا السبّاقين للعب دور بارز في الأحزاب الوطنية وكذلك في مقاومة إسرائيل، كما فعلوا مع الأتراك والفرنسيين من قبل»، ويستشهد بأحد الاجتماعات الحزبية الشهيرة في أواخر السبعينيّات والتي تبيّن أنّ أبناء العشيرة كانوا من أبرز كوادرها في المنطقة.
هذا الواقع حال دون أن تنتج علاقات عشيرة علّوه السياسية الحديثة مشاريع إنمائية كالآبار الارتوازية وطلبات الإسكان والترميم والاستصلاح الزراعي والتي استفادت منها عشائر أخرى، ما حدّ من تعدّد مداخيلهم وترك بعضهم في عنق زجاجة الخروج على القانون والطفر. وانسحب الحال على جردهم فبقيت أوديتهم من الأفقر مع وادي بنيت الدنادشة ومزرعة الفقيه في وادي الكرم.

يقول أحد مسؤولي حزب الله في مجلس خاص، وخلال نقاش حول مدى تزايد نفوذ الحزب وتمدّده بين العشائر، (وهو تمدّد نما وتطوّر بعد عدوان ٢٠٠٦ وقبله مفصل اغتيال الرئيس رفيق الحريري الذي ترافق مع ازدياد حدّة التمذهب)، إنّ علاقة الحزب لم تتطوّر مع عشيرة علّوه بالوتيرة نفسها مع العشائر الأخرى. هذا لا يعني أنّه لا يوجد عناصر للحزب بين آل علّوه ولكنهم ليسوا بالكثرة نفسها التي يتواجدون فيها في بقية العشائر. ويمكن تلمّس هذا المعطى من اقتصار شهداء الحزب من آل علّوه على شهيدين كأقصى حد (أحدهما مع فريق إعلامي). وينعكس هذا الواقع على مداخيل أبناء العشيرة، فلا يدخل التفرّغ الحزبي في مردودها الاقتصادي اليوم، كما كان في السبعينيّات والثمانينيّات. والأمر نفسه ينسحب على حضور حركة أمل ومحدوديته. كما بقيت أبواب التنمية مقفلة أمام آل علّوه خلال الحقبة السورية حيث استهلّ هؤلاء دخولهم لبنان والإمساك بمفاصل السّلطة باعتقال معظم رجال ونساء العشيرة على خلفية انتشار البعث

بشـقّه العـراقي في مـا بينهـم، واقتيادهـم إلى إحـدى مغـاور وادي العـاصي الـتي سُمّيـت عـلى اسم الرائـد في الجيـش السـوري عـلي ديـب الـذي كان يقتـاد المعتقلين إليها آنـذاك. وأدّى هـذا الواقع إلى إقفـال العديـد مـن أبـواب التنميـة والـرزق عنهـم.

محاولات فكّ الطوق

أمـام هـذا الواقـع، حاولـت عشـيرة علّـوه فـكّ الطـوق الاقتصـادي مـن حـول عنـق أبنائهـا وأبنـاء الجـرود وعـلى رأسـها مرجحـين بمبـادرات فرديـة. «وقّعنـا اتفاقـاً مـع وزارة الزراعـة في السـبعينيّات لإنتـاج بـذار البطاطـا المؤصّلـة في سـهل مرجحـين»، يقـول مفلـح رئيـس علّـوه، أحـد وجهـاء العشـيرة، كـون لبنـان كلّـه يسـتورد حبّـة البطاطـا السـوبّر مـن الخـارج بالـدولار «وزرعنـا ١٥ طنّـاً مـن البطاطـا المؤصّلـة فجـاءت النتيجـة الأفضـل في المنطقـة ويمكننـا أن نصدّرهـا إلى الأردن وسـوريا، وتعـود عـلى لبنـان بالعملـة الصعبـة». وبـدل أن تسـتمرّ الدولـة بدعـم تأصيـل بـذار البطاطـا، خضعـت، وفـق علّـوه، لضغوطـات تجّـار البطاطـا وأوقفـت المـشروع في جـرود الهرمـل.

عندمـا أجهِـض مـشروع تأصيـل بـذار البطاطـا، حـاول بعـض المزارعـين زراعـة نبـات دوّار الشـمس الـذي يسـتخرجون منـه الزيـت النبـاتي، وهـو غـالي الثمـن ومـن أفضـل الزيـوت. «نجحـت التجربـة وناسـبت طبيعـة مرجحـين المناخيـة هـذه الزراعـة»، يقـول علّـوه، فوعـدت الدولـة المزارعـين بإنشـاء معمـل لتصنيـع الزيـت «ولم تـفِ بوعدهـا كالعـادة» حسـب مـا يؤكّـد ليضيـف «وكأنهـم لا يريـدون لهـذه المنطقـة أيّ إنمـاء أو رزق خـارج التهريـب وزراعـة المخـدرات».

حسـن محمـد علّـوه، وهـو أحـد وجهـاء العشـيرة أيضـاً، قـام قبـل ١٠ أعـوام بزراعـة ٩٠ دونمـاً مـن التفّـاح في أرضـه في سـهل مرجحـين «قلنـا منعمـل زراعـة بديلـة مـن دون إرشـاد زراعـي لأنّـه الدولـة مـش سـائلة عـن أحوالنـا». تسـلّح علّـوه بجـودة التفّـاح الجـردي عامّـة: «قلـت بجـرّب نموذج يحتـذى بـه في حـال نجاحـه». لكـنّ الصقيـع الـذي يـضرب سـهل مرجحـين المغلـق مـن الجهـات الأربعـة لم يناسـب التفّـاح حيـث يقتـل براعـم الزهـر قبـل انعقادهـا «كل سـنة صرنـا نخـسر شي ١٠ لـ١٥ ألـف دولار، ومـا يبقـى إلّا كـم تفّاحـة بأسـفل كل شـجرة». اليـوم اقتلـع حسـن محمـد علّـوه كامـل كـرم التفّـاح «لازم الدولـة تعمـل إرشـاد زراعـي وتفحـص التربـة وتحلّـل عوامـل المنـاخ وترشـدنا إلى الزراعـات الـتي يمكننـا الاسـتثمار فيهـا، وإلّا سـتبقى مـوارد الـرزق مقفلـة ويـزداد المطلوبـون، فـلا يوجـد إنسـان قـد يقبـل بمـوت أطفالـه جوعـاً».

وينيي الدولة؟

مـن مرجحـين إلى السَـــوَح فواديَـي التركمـان والرّطـل، وصـولاً إلى المرحَيْن الجنوبـي والشمالي، (منطقـة عشـيرة علّـوه) لا وجـود لأي أثـر إنمـائي أو أمنـي للدولـة، بمـا فيهـا حاجـز صغـير للجيـش

اللبناني على غرار ما هو موجود عند بوّابات جرد دندش وناصر الدين وجعفر. حتى الطريق التي انتظرت الدولة لغاية العام ٢٠٠٠ لتعبّدها إلى مرجحين، لم تصمد بسبب سوء التنفيذ حيناً وتقاسم تمويلها حيناً آخر بين متعهّدين ونافذين فتجد فيها بين الحفرة والحفرة حفرة. وحدها بئر الماء التي حُفرت في أعلى وادي التركمان قبل نحو ٢٥ إلى ٣٠ عاماً جُهّزت قبل سنوات بمضخّة بالكاد تكفي بعض منازل حي القريطة الذي تقع البئر في نطاقه. واستُخرج أقلّ من إنش مياه من ١٠ إنشات هي قدرتها على الضخ. ولم يكن من المفترض أن تغذّي هذه البئر كامل وادي التركمان فحسب، وإنّما وادي الرّطل جاره أيضاً لولا الفساد وسوء التنفيذ الذي اعتراها مع مدّ شبكتها وتركيب مضخة لا تكفي حيّاً صغيراً يخلو من معظم سكانه. ويتندّر ناشطو المنطقة برواية حادثة قدوم مندوب عن الجهة المانحة للكشف على التمديدات لضخّ مياه البئر إلى وادي الرّطل من أسفل وادي التركمان، فأتى المتعهّد والمُنفّذ بصهاريج مياه أفرغاها في القساطل لكي يوهما مموّلي المشروع بأنّها مياه البئر.

الوادي شبه المهجور

إذا استثنينا مراح عبّاس من مدخل وادي التركمان، سنجد ثلاثة منازل مسكونة في حي القريطة أعلى الوادي وقبل الصعود نحو السَّوَح. واحد من هذه البيوت يسكنه صاحبه صيفاً فقط، فيما يبقى الأستاذ الثانوي المهندس زياد علّوه، وابن عمّه المزارع ومربّي المواشي نعمان علّوه ساكنين دائمين.

يرى زياد أنّ وضع وادي التركمان كان في الستينيّات أفضل ممّا هو عليه اليوم «كان في هاتف أرضي باسم والدي في الحي، على سبيل المثال، بينما اليوم لا يوجد سوى الهواتف الخلوية»، ليردّ عودته إلى الوادي بعد تخصّصه بالهندسة في موسكو إلى حبّه للعيش في الجرد، «وليس لأنّ مقومات الحياة متوفّرة». والدليل أنّه يعتاش من مدخوله في التعليم وليس من «إنتاج الأرض». ولذا لا يرى زياد أنّ من يعتبرونه نموذجاً لإمكانية تجديد العيش في الأودية المهجورة محقّين «إلا إذا تمتّع العائدون بمصدر دخل يمكّنهم من العيش في مكان محروم من كل شيء كما وادي التركمان».

بدأت علاقة زياد الذي قضى طفولته ومراهقته قبل السفر للدراسة الجامعية، في الهرمل، مع الوادي عندما قصد منزل العائلة مع أحد زملاء الدراسة للتحضير للشهادة الثانوية الرسمية في ١٩٨٧، حيث اكتشف أهمية أن يكون للإنسان «بيئة وطبيعة مختلفتين مع مساحات واسعة يعيش فيها من دون قيود، أو بقيود أقلّ مما هي عليه في المدينة». في الوادي «تتخلّصين من فكرة الملكية الفردية»، وفق ما يقول، «يعني بتروحي بتمشي ما بتنتبهي إنّك فتّي بأرض غيرك، وهو ما يعزز الأفق المفتوح، وكذلك العلاقة مع الأرض ومنتجاتها الزراعية». عندما غادر زياد إلى موسكو لدراسة الهندسة كان قد

رأى بيروت مرّة أو مرّتين «ولم أستطع الدراسة فيها بسبب الحرب». قبل الاستقرار في موسكو، قضى السنة التحضيرية في مينسك، عاصمة روسيا البيضاء، «المدينة اللطيفة الهادئة». حتى العيش في موسكو كان خالياً من الضجيج «يلقبّون موسكو بالقرية الكبيرة وليست صاخبة وهي أقرب إلى الريف أيضاً، وكنا نذهب إلى الجامعة سيراً على الأقدام، تحيط بنا الأشجار ولا نسمع سوى صوت الطبيعة وعصافيرها». هذا التعوّد على نمط حياة خالٍ من الضجيج والازدحام، لم يدرك زياد مدى تأثيره فيه إلّا عندما عاد إلى الهرمل «ليس هناك ملعب لأولاد الحي سوى الطريق، والمنازل كانت قرعة بلا اخضرار، كما أنّ مناخها شبه الصحراوي حار». وعليه، اتّخذ قراره و«نزح» إلى الوادي في ٢٠١١ «في ناس كتير عم تهرب ع الجرود، وهذا جيّد ولكنّه يحتاج إلى تأمين مقوّمات العيش». يعيش اليوم على بعد ١٠ كيلومترات من الهرمل «المسافات هي مسألة نفسية فقط بوجود السيارات». ويربط زياد تفاعل العودة إلى الريف بالوضع الاقتصادي الجيّد للناس «أنا بقدر عيش هون لأني أستاذ بنزل مسافة ربع ساعة ع مدرستي». بالنسبة له تغيّر الوضع اليوم، وصار البعض يشعرون أنّ الجرود قريبة، وكلّما تحرّر الناس من «الأفكار المسبقة للعيش في الجرد والريف، بينتصر الريف»، بمعنى، على سبيل المثال لا الحصر، أن يكفّ الناس عن الاستغراب من العيش في الوادي وعن السؤال: «بركي صار معك شي»، كونه لا يوجد طبيب أو حتى مستوصف في وادي التركمان، وحتى دكان صغير لشراء الحاجيّات.

لا يوجد في وادي التركمان بلدية رغم أنّ عدد ناخبيها يلامس ١٠٠٠ ناخب أو أكثر بقليل، ولكنّ المهتمّين بالمخترة من آل علّوه لم يتّفقوا على انتخاب مختاريها، فسحبوا المرشّحين العشرة في انتخابات ٢٠١٦ وبقي الوادي بلا مختار، وألحِق بمختار وادي الرّطل جاره.





بيوت مهجورة في وادي التركمانً | **تصوير حسن الساحلي**



نعمان الصامد في وادي التركمان منذ ٦٠ عاماً | **تصوير حسن الساحلي**

نعمان الصّامد

توثّق حياة نعمان علّوه، جار زياد، نمط العيش في وادي التركمان وواقعه اللذين لم يتبدّلا. ولد نعمان وما زال يعيش في الوادي منذ ستين عاماً «غبت فترات قصيرة فقط». مقوّمات العيش «ضعيفة قد ما بدّك، يعني فقر ماديّات كتير ع شقى وتعب، كما أنّ فرص العيش محدودة جداً». ربّى والد نعمان عائلته من تربية المواشي والزراعة البعلية، وهما كلّ المتوفّر أمام سكّان وادي التركمان «وعينا أنا وإخوتي وصرنا نساعده». ولم يذهب نعمان إلى المدرسة «قرّر أبي إنّي ساعده». ومع ذلك نزح والد نعمان في أحد فصول الشتاء إلى وادي الرّطل ليعلّم أحد أبنائه في مدرستها، برغم وجود مدرستين في وادي التركمان «كانت مدرسة وادي الرّطل تهتم بالأولاد أكتر، لأنه ما كان حدا متعلّم ليهتمّ بدروس الأولاد بالبيت». في جميع الأحوال، كانت المدرسة عبارة عن غرفة واحدة يجمعون فيها التلامذة من كلّ المستويات ويعلّمهم أستاذ واحد يأتي غالباً وخصوصاً في البدايات من خارج الهرمل. يسكن الأستاذ في منزل أحد أهالي القرية وتتناوب العائلات على دعوته إلى الطعام كفعل تكريم واهتمام بمن يعلّم أبنائهم.



بيت مهجور في أعالي الهرمل | **تصوير حسن الساحلي**

اليوم، وبعد كل هذا التّعب ما زال نعمان يعيش من المصادر عينها «عم ربّي شوية طرش (بضعة رؤوس من الماعز) وبشحّل الحرج وعم أصرف ع حالي». لكنّه لا يعرف ماذا يفعل في حال أصابه مرض ما أو تعرّض لحادث «يمكن إستدين فحصيّة الحكيم متل ما كنت إعمل قبل، وانشالله ما عوز كتير دوا». ومن حوله لم يتغيّر الكثير «بعدنا بالوادي منزقّ المي بالصهريج ومندفع مصاري». وتعزّ على نعمان العزلة: «كانت كلّ الناس عايشة بوادي التركمان، فلّت بسبب الإهمال، لا مدارس ولا مي وحتى الطريق ما كنت منيحة، هلّأ ما في حولي إلّا البيوت الفاضية». لم ينزح نعمان لأنّ «هذا التراب بيعزّ لأنّي عشت عليه، وما برتاح غير هون حتى لو الحياة بالمدينة أريح، بتضلّ تعنّ بقلبي هيدي البلاد». ولن ينزح نعمان عن الوادي «حتى لو بيقولولي خود بيت بالمدنية ومفروش بكل شي ما بقبل، كل نسمة هوا هون بتسوى الدني، ولمن الله بدّه يعطيني شايفني وين».

يرى نعمان أنّ المواطنين بلا دولتهم «ما بيسووا شي»، ولكن هذه الدولة التي يرغب بوجودها «مش شايفتنا ناس، ولا مرّة سألت عنّا، وكأنّنا مش أولادها». يشير إلى البئر الذي حفرته الدولة بتمويل خارجي قبل ٢٠ عاماً أو أكثر بقليل «لو طلّعته للناس يمكن ما فلّوا كلّهم». ولو دعمت الدولة الزراعة كانت الناس صمدت في أراضيها «كانوا زرعوا كرز ولوز وتين وعنب وعاشوا منهم». حتى الطريق المعبدة والمحفّرة لا تتّسع لسيارتين «بس كون راجع مع حدا ويلتقي بسيارة تانية لازم وحدة منهن تطلع برّا الطريق».

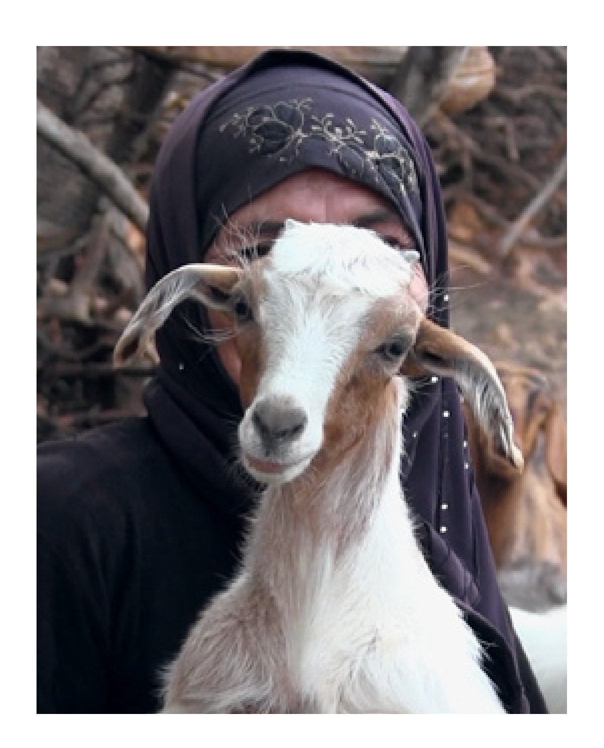


كميلة "المديرة" | **تصوير حسن الساحلي**

كميلة «المديرة»

ما أن تنبلج شمس الصباح حتى تبدأ كميلة يومها. تحضّر فطوراً لصغير أبنائها ثم تحلب الماعز التي ستخرج بها إلى التلال والوديان «هيدي عيشتنا من أكتر من تلاتين سنة». تعيش المرأة التي تُعرّف عن نفسها بهذه الجملة «أني كميلة مرْت عبّاس»، في مراح عبّاس على فم وادي التركمان منذ أن تزوّجت عباس «يعني يمكن من شي أربعين سنة ما بعرف»، تقول وهي تحاول تذكّر تاريخ زواجها. أربعون عاماً ومع ثلاثة شبّان وابنة وعبّاس ولم تتمكّن العائلة من الانتهاء من بناء منزل جديد من غرفتين ومطبخ وحمام عوضاً عن غرفتي التراب المتهالكتين ومن دون مرحاض أو مطبخ اللتين تعيشان فيهما. تغسل كميلة أوانيها خارج البيت بالقرب من خزّان الماء الذي يملأه عباس من الصهاريج المدفوعة الثمن، إذ لا ماء في الوادي: «كل هيدي البيوت لي حولنا ما عندهم مي، كلّنا منشتري مي»، تقول وهي تشير بيدها إلى المنازل الكثيرة في مراح عبّاس والتي تشكّل أكبر تجمّع سكانيّ في وادي التركمان.

نسال كميلة عن الفرق بين عيش المرأة في الوادي وبين عيشها في المدينة «بالمدينة العيشة أريح، وما في شقى قد عنّا، بس أنا مبسوطة لأنّه راسي مرتاح». وماذا يعني أن يكون رأسها مرتاحاً نسألها «كل شي بدي إياه بعمله، هالزلي



(عن زوجها) ما بيناقرني، تاركني دير حياتي متل ما بدي يعني فيكي تقولي عنّي مديرة»، وتضحك من قلبها. اليوم ومع وتيرة العودة إلى البناء في الجرود، تبدو الرغبة في العيش بعيداً عن ازدحام الهرمل عالية. فمنطقة السَوَح التي تقع ما بين وادي التركمان على الطريق من المدينة، ومرجحين تشهد طفرة في بناء البيوت التي يكاد يلامس عددها الخمسين بيتاً على الأقل وكلّها بُنيت في السنوات الستّ أو السبع الأخيرة، ولكنها تستعمل كبيوت صيفية للهروب من حرّ الصيف حيث مناخ الجرد معتدل إلى عليل حتى في عزّ تموز وآب، ولكن غياب مقوّمات العيش المرتبط بحضور الدولة والإنماء ما زال وحده المستعصي.



كميلة "مرة عباس" تحمل إحدى عنزاتها | **تصوير حسن الساحلي**

آل الحدشيتي الذين لم يعودوا بعد

سعدى علّوه

كانت الحرب اللبنانية في عزّ تأجّج نارها الطائفية حين وجّه مجهول شتيمة دينية إلى مختار وادي الرّطل جريس منصور الحدشيتي في ساحة السبيل في الهرمل، ثم أتبعها بطلق ناري مرّ من فوق رأسه. يومها كان آل الحدشيتي، يسكنون وادي الرّطل، أحد أودية جرود الهرمل، وهم شركاء عشيرة علّوه بملكيّته. لم يهنْ على آل علوّه أن يتعرّض المختار، جارهم، لإهانة واعتداء مماثليْن، فتسلّح رجال العشيرة وقصدوا ساحة المدينة بحثاً عن الفاعل. يقضي العرف العشائري الانتصار للجار وصونه، خصوصاً وأنّ شركاءهم في الوادي، عشيرة الحدشيتي، كانوا أقليّة مارونية بين شيعة الهرمل وجردها.

تقول نظيرة الحدشيتي، ابنة المختار، إنّ شبّان علّوه صاروا يحرسون مدخل الوادي وحرج السنديان من الجهات كافّة للتصدّي لأيّ شخص أو جهة تريد بآل الحدشيتي سوءاً. المفارقة أنّ آل علّوه «ما كانوا يخبّرونا إنهم عم يحرسوا الوادي بالليل»، تقول نظيرة التي تروي الحادثة لـ«المفكرة» من منزلها في حدشيت، قضاء بشري، التي رحل إليها أبناء وأحفاد منصور ليشع الحدشيتي، زعيم آل الحدشيتي الذين سكنوا وادي الرّطل لغاية ١٩٧٦. بعد أن تنهي حديثها عن حراسة شبان علّوه، تسترسل في الحديث عن طفّار من آل علّوه أووا إلى بيت أهلها (بيت المختار) لفترات طويلة وصلت إحداها إلى سنتين.

"سلامتنا من سلامتكم ما تتركونا"

بعد أشهر من حادثة إطلاق النار فوق رأس مختار آل الحدشيتي في ساحة الهرمل، اجتمع الأخير مع أخوته يوسف وحنّا ومثلج وليشع والياس، وهم ذرّية منصور ليشع الحدشيتي جدّ العشيرة في فرعها الهرملي، وقرّروا مغادرة الوادي إلى حدشيت في بشري. «خافوا يحمّلوا بيت علوه دم من وراهم»، كما يقول حفيده فايز حنّا الحدشيتي لـ«المفكرة»، وكان عمره ثلاثين عاماً في ١٩٧٦. «ما كان بدّهم يضلّوا بيت علّوه حارسينا، هيك خبّرني بيي»، يضيف ابن عمه بشارة يوسف الحدشيتي الذي حضر للمشاركة في الحديث، ولم يكن قد بلغ الثامنة من عمره يومها.

حاول آل علّوه ثني آل الحدشيتي عن قرارهم بلا جدوى. وفيما كانوا يضعون أثاث منازلهم وأولادهم في آليّات البيك آب وفي السيارات استعداداً لمغادرة وادي الرّطل نهائياً، فوجئوا بتجمهر عدد كبير من عشيرة علّوه في منتصف الطريق «ما منقبل تتركونا وتفلّوا، سلامتكم من سلامتنا ونحن أهل ومنعيش سوا، ولّي بيصير عليكم بيصير علينا» قالوا لهم. تقدّم المختار جريس نحو الجمع وخاطبهم باسم عشيرته «منروح شوي ومنرجع بس تخلص الحرب، اسمحوا لنا نفلّ ونقلّكم بخاطركم»، وبعد أخذ

وردّ، أذعـن آل علّـوه مكرهـين لرغبـة جيرانهـم «ناطرينكـم»، قالـوا لهـم وهـم يلوّحـون بأيديهـم مودّعـين. «بكينـا نحـن وإيّاهـم»، يضيـف فايـز «كانـت أعيادنـا أعيادهـم وأعيادهـم أعيادنـا، نفـرح سـوا ونحـزن سـوا»، يضيـف.

ذكريات الحرمان ما قبل الحرب

قبـل الحـرب، كان الحرمـان قـد بـدأ باسـتنزاف آل الحدشـيتي كمـا سـكان قضـاء الهرمـل كلّـه: «المنطقـة متروكـة ومـا كنّـا نعـرف الدولـة»، يقـول فايـز الحدشـيتي، ليؤكـد أنّ عـدداً كبـيراً مـن شـبّان عائلتـه، وحتى عائـلات بأكملهـا كانـت قـد نزحـت إلى بـيروت وبعـض المناطـق الأخـرى سـعياً وراء العلـم والعمـل: «مـا كان عنّـا مَـي حـتّى للـشرب بـوادي الرّطـل»، كمـا أنّ الكهربـاء لم تصـل إلى الـوادي إلّا في ١٩٧١، «يعـني قبـل مـا نفـلّ بخمـس سـنين».

قبلهـا، كان سـكّان الـوادي يعيشـون عـلى ضـوء القناديـل: «كنّـا نسميـه الـكاز»، وهـو القنديـل الـذي يضـاء بـ»زيـت الـكاز». كانـوا يعيشـون مـع بيـت علّـوه عـلى تربيـة المـواشي والزراعـات البعليـة، يجمعـون ميـاه أمطـار الشـتاء وثلوجـه في آبـار التجميـع «مـا في ينابيـع بالـوادي والدولـة مـا حفـرت لنـا بـير مَـي حـتى لنـشرب». تقـول نظـيرة إنّ ميـاه آبـار التجميـع كانـت «صافيـة متـل دمـوع العـين»، فيضحـك بشـارة الحدشـيتي ويقـول إنّ جمـال أصـوات آل الحدشـيتي سـببها تلـك الميـاه العذبـة والصافيـة «عنّـا كتـير أصواتهـم حلـوة يمكـن مـن ميّـة البيـارة».

الوادي المهجور

يوجـد عـلى سـجلّات وادي الرّطـل ١٢٠٠ ناخـب بينهـم نحـو ٤٢٠ مقترعـاً مـن آل حدشـيتي أدلى ٩٠ ناخبـاً منهـم بأصواتهـم في انتخابـات ٢٠١٨ النيابيـة الأخـيرة. وللأسـف لم يبـقَ في الـوادي سـوى ١٥ منـزلاً لعشـيرة علّـوه مسـكونة اليـوم: «الحرمـان هجّـر آل الحدشـيتي وبيـت علّـوه كمـان»، يؤكـد مختـار وادي الرطـل أكـرم علـوه.

وفعـلاً يبـدو وادي الرّطـل اليـوم شـبه مهجـور برغـم جمالـه هـو الـذي يقـع وسـط حرجَـي سنديان عـلى سـفحين غربـي وشرقي مشـكّلين الـوادي الـذي ينسـاب مـن أعـالي الهرمـل ولغايـة منطقـة البرغـش الجرديـة الـتي ترتفـع نحـو ١٢٠٠ إلى ١٣٠٠ مـتر عـن سـطح البحـر، فيمـا يقـع الـوادي عـلى ارتفـاع ٩٠٠ مـتر. كان أهـالي الـوادي مـن آل الحدشـيتي يقضـون صيفهـم في البرغـش حيـث تـسرح قطعانهـم مـن الماعـز، ويزرعـون أراضيهـا «متلهـم متـل هالنـاس»، وفـق فايـز، في إشـارة إلى زراعـة الحشيشـة في السـبعينيّات ومـا قبلهـا قبـل منعهـا في التسـعينيّات.

نسـأل فايـز حنّـا الحدشـيتي عـن علاقتـه بـوادي الرّطـل بعـد ٤٥ سـنة عـن الـنزوح عنـه نهائيـاً. يبـدأ الرجـل بالحديـث عـن علاقتـه برفـاق الطفولـة والصبا «لمّـن رجعنـا ع حدشـيت سمّونـا هـون ‹البقاعيـة› ونحـن منفتخـر بالتّسـمية كمـا يقـول أولادي». يـروي كيـف مـا زال آل علّـوه يهاتفونهـم عنـد مـوت أحـد سـكان الـوادي «ونحـن منـروح نشـاركهم أحزانهـم

وهنّ بيجوا ع عزواتنا». أمّا في حال قصد الهرمل لاستخراج إخراج قيد، فلا يمكنه العودة إلّا بعد ثلاثة أيام «أوقات إذا مستعجل ما بخلّي حدا من رفقاتي يعرف، ما بيخلّوني فلّ»، يقول الرجل فيما يسبقه دمعه «بحنّ كتير لحياتنا بالوادي» يختم بصوته المتهدّج.





بيوت متروكة في وادي الرطل | **تصوير حسن الساحلي**

جرد عشيرة ناصرالدين

الشجرة تُبقي الناس والحرمان يهجّرهم

سعدى علّوه

يـضرب حسـين محمـد حيـدر ناصرالديـن عصاه في الأرض غاضباً، يلتفّـت يمنـة ويـسرة في أرجاء قريتـه بريصا ليلعـن كلّ مـن تـوالى عـلى تمثيـل منطقتـه منذ الإستقلال ولغايـة اليـوم: «لولاهـم ما وصلنا لهـون، قاتلـني الزهـق قبـل الفقـر، هجّـروا العالم وبقينا بيتـين تلاتـة»، يقـول الرجـل المولـود في ١٩٤٧ ويصـف نفسـه بأنّـه «كبـير الشـباب بالـوادي».

تتوسّـط بريصا وادي عشـيرة ناصرالديـن، المعـروف بـوادي الشربـين بوّابتهـم إلى الهرمـل مـن جردهـم العالي في مرجحين، وتحديداً في عـين الجامع وصولاً إلى تماسـهم الجغـرافي مـع عشـيرة علّـوه في سـفح الحمى، وحدودهـم مع آل علّام في الغوار. ويتركّـز الـوادي في بلـدة الشربين الـتي أخذ اسمها، وتشـكّل ثقلهـم الانتخابـي بنحـو ٣٠٠٠ ناخـب، بينما نقـل نحـو ١٣٠٠ مقـترع مـن بينهـم، نفوسـهم إلى الهرمـل لـدى نزوحهـم إليها، إضافة إلى ٤٥٠ ناخباً في حوش السيّد علي الحدوديـة مع سوريا، كما يؤكّـد رئيس بلديـة الشربين علي زيـن ناصرالديـن لـ»المفكـرة».

لا تـأتي نقمـة حسـين عـلى نـوّاب المنطقـة ومِـن ورائهـم الدولـة مـن فـراغ «حـتى مـي مـا عنّـا ببيوتنـا، نحـن مادّيـن نباريـش مـن النبـع لنـشرب ونغسّـل». وكابـن ناصرالديـن ولـد في بريصـا ولم يتركهـا إلّا لمـرض أو محاولـة تدبـير واسـطة ليجـد عمـلاً «كنـت بالعشريـن مـن عـمري. أخـذني الحـاج أسـعد ناصرالديـن لعنـد رئيـس مجلـس النـوّاب صـبري حمـادة ليوظّفـني». يومهـا قـال الحـاج للرئيـس «بـدي توظّـف لنـا هالشـاب». «صـبري بيـك» ردّ بسـؤال «بيعـرف يقرا ويكتـب». وعندما جـاءه الجـواب بالنفـي «لأنّي أمـي» يقـول حسـين، أجاب حمادة «شو بدّي شغّله؟ حتى حاجب لازم ع القليلة يعرف يكتب إسمه»، فعاد إلى بريصا خائباً «حـتى بالواسـطة مـا طلـع لي وظيفـة».

ومـن ٦٤ عامـاً مـن العيـش في بريصا يحـدّد حسـين علاقـة الدولـة بأولادهـا «الأيتـام» كمـا يسمّيهـم :»نحـن مـا عنّـا لا أم ولا أب، مـا حـدا يقـلّي الدولـة أُمّنا». كان يقطع السنديان ويعمل مشاحر للفحم، ويرعـى المـواشي، ويـزرع بعـض الحمّـص واللـوز الـذي ورثـه عـن أبيـه، ويربّـي بعض الدجاج البلـدي «وبعدنا محلّنا، هيدا الشغل ما في غيره لنعيش». ولـد حسـين مصابـاً بشـلل الأطفـال «عامـل تـلات عمليـات بإجريـي»، واليـوم يجـرّ قدميـه بالقـوّة «هيك قضيت هالحياة حتى ربيّت بناتي، وما في شي تغـيّر»، إلّا إصابتـه بمـرض السـكّري «مـا بقـى بقـدر إسرح ورا الطـرش ولا فيـي حطّـب»، فلـم يبـق لـه سـوى بعـض أشـجار اللـوز وحقـل الحمّـص «بيشـتروا منّا كيلوغرام الحمّص بتلات آلاف وبيبيعوه بـ١٥ ألـف وهلأ عـم يخبروني إنّـه صار بعشريـن ألـف». أمّا اللـوز الفريـك (الأخضر) فيشـتريه التجّار بـ٧٥٠ لـيرة إلى ألـف لـيرة مـن أرضـه ويبـاع بعـشرة آلاف

وبعزّ موسمه بـ٢٠ ألف، يعني تعبنا بيروح للتجّار مش إلنا».

هذا الواقع دفع بأبناء بريصا إلى مغادرتها «صاروا يفلّوا الواحد ورا التاني ع زحلة وع بيروت ليشتغلوا». مع رحيل معظم العائلات سعياً وراء لقمة العيش، تذرّعت الدولة بقلّة السكّان وأقفلت المدرسة: «من الأساس كان فيها أستاذ واحد ويحطّوا هالولاد مع بعضهم، يعني علم ما في»، ولذا هجَر البعض بريصا لتعليم أولاده أيضاً.

مع الأزمة والانهيار الاقتصادي، قدّم حسين طلباً للحصول على مساعدة الـ٤٠٠ ألف ليرة التي أقرّتها الدولة بداية كورونا «مع إنّه معي بطاقة معوّق ما عطوني، قال ما بيطلع لي»، يعتب على نفسه لأنّه لم يتدبّر واسطة «كانوا يمكن حطوني بلائحة الفقرا لو حكي فيي حدا من المسؤولين».

منافع السياسة أم تعب المزارعين

حال حسين ومن يعانون مثله في الجرد يناقض الانطباع السائد عن منافع طالت عشيرة ناصرالدين نتيجة علاقتها التاريخية مع حركة أمل وتطوّر علاقتها حديثاً مع حزب الله. وكان الإمام موسى الصدر قد اختار البوّابة الناصردينية عندما قرّر التوجّه نحو العشائر في جرود الهرمل، واستكمل الرئيس نبيه برّي النهج نفسه.

ويختلف أبناء العشيرة في تقدير الفائدة التي حصلوا عليها من جرّاء علاقتهم بحركة أمل: فمنهم من يقدّر بعض «البحبوحة» التي نعموا بها جرّاء قروض الإسكان والترميم الكثيرة التي حصلوا عليها في عهد وزير الإسكان والتعاونيات المحسوب على حركة أمل محمود أبو حمدان، ومعها بعض المشاريع التي أثّرت في استصلاح أراضيهم وزراعتها بأشجار اللوز والكرز بالدرجة الأولى ومن ثمّ المشمش. في المقابل، يشير البعض الآخر إلى أنّ الوظائف التي جاءتْهم من بوّابة الحركة لم تتجاوز «الحاجب هنا أو هناك أو وظيفة متواضعة، باستثناء تعيين رئيس مجلس إدارة مستشفى الهرمل الحكومي الدكتور سيمون ناصرالدين بتوافق بين الحزب والحركة، وكذلك أحد الضباط في الجيش اللبناني عبر بوّابة اللواء غازي كنعان، وساهم يومها (كنعان) في تعيين ثلاثة ضبّاط من ثلاث عشائر بينها علّوه وناصرالدين.

آخرون، ومنهم محمود ناصرالدين، يرون أنّ هناك «سندين» اعتمد عليهما آل ناصرالدين في صراعهم مع الحياة: «سهل المسطاح بين الهرمل والقصر، وتملّك منه جدودهم لدى نزوحهم من الجرود قبل نحو ٦٠ عاماً ما يقارب ٥٠٪ من مساحته البالغة ١٣٠ جوز، والجوز يوازي ٢٥٠ دونماً من الأراضي، والشغّيلة التعّيبة من أهله وهؤلاء نشطوا في تحويل وديان الشربين إلى جنّات من الأشجار المثمرة». وهناك أيضاً مصدر الدخل الذي يأتي ممّا يسمّونه التجارة الحدودية، أي التهريب، ويشتغل به عدد لا بأس به من أبناء الحدود من العشيرة. ويرى رئيس بلدية الشربين علي زين ناصرالدين أنّ كلّ هذه

العوامل، وطبعاً زراعة الحشيشة التي نشطت في مرجحين ومنها في أراضي العشيرة، أدّت إلى تعليم عدد لا بأس به من أبناء ناصرالدين «ولذا لدينا عدد كبير من الأطبّاء والمهندسين والخريجين». واتّجه معظم هؤلاء في دراستهم الجامعية إلى بلدان الاتّحاد السوفياتي سابقاً «كونها أقلّ كلفة من أوروبا عليهم، بعدما لم يعد هناك منح تعليمية كما أيام الأحزاب التقدّمية».

استُحدثت بلدية الشربين في العام ٢٠١٣ كبلدية «فقيرة خالية من مداخيل الجباية والموارد». «ولذا نتشارك بعمل تنموي مع الأمم المتحدة والجمعيات، وتمكنّا من تشييد بناء بلدي كرمزية لوجود بلدية حتى يبقى الناس بضيعتهم، ولنشجّعهم على العودة». وبرغم أنّ الشربين لا تبعد عن الهرمل سوى ٦ كيلومترات إلّا أنّ معظم أهلها «غادروها بسبب الإهمال، إمّا لتعليم أبنائهم وإما للبحث عن عمل يؤمن العيش الكريم». أقرّت الدولة إنشاء مدرسة رسمية في الشربين في أوائل الستينيّات «وتساعَد الأهالي وبنوا غرفتين وسلّموهما للدولة، واليوم تساعد البلدية في تأمين مستلزمات المدرسة وفيها نحو ٨٠ تلميذاً من الابتدائي إلى المتوسّط - البريفيه». وساهم إقفال مدرستي زغرين الفوقا والتحتا ومزرعة سجد في الإقبال على مدرسة الشربين، كون المسافة بين هذه القرى



صورة من أعلى الجبل لقرية الشربين | **تصوير حسن الساحلي**

وبـين الشربـين أقـصر مـن المسـافة إلى الهرمـل. ويسـأل ناصرالديـن: «لماذا عـلى أهـالي هـذه القرى أن يدفعـوا خمسـين ألـف لـيرة شـهرياً للأوتـوكار حـتى ينقـل أبناءهـم إلى خـارج البلـدة؟ وطبعـاً في نـاس مـا بتبعـت أولادهـا بسـبب الكلفـة». يقـول رئيـس بلديـة الشربـين إنّ الدولـة أعطـتْ الجـرود والعشـائر أيـام الشـهابية «لكنّـه عطـاء مـن دون مراقبـة وحـرص عـلى كيفيـة صرف المـال العـام، فعمّ الفسـاد والزبائنيـة». مـن هـذه المشـاريع، جرّ المياه مـن مرجحين إلى الشربين بعدما كان الأهـالي يسـتخدمون آبـار التجميـع والصهاريـج: «يجـي بعـض المهندسـين ومـا يراقبـوا بشـكل صحيـح ومـن ٢٥ سنة واقفة الشبكة». وبقيت الشربين بلا ماء إلى مـا بعـد اسـتحداث بلديّتهـا «رجعنـا دقّينـا بـير بالشربـين عـبر إحـدى الجمعيـات الفرنسـية، ولغايـة اليـوم لم تسـتلمه الدولـة» كي تثبّـت مضخّـة وتمـدّ شـبكة لنقـل الميـاه إلى المنـازل.

يعيـش سـكان الشربـين مـن بعـض الزراعـات مـن خضـار وأشـجار مثمـرة «العسـكر معدوديـن ع الأصابـع ولّي خالـه عنـتر بيفـوت بالـدرك». يقـول رئيـس البلديـة «وعنّـا عـدد قليـل مـن الأسـاتذة، هنـاك أسـتاذين مثبّتـين بالمدرسـة وعـشرة متعاقديـن».

لا يوجـد في كلّ وادي الشربـين ومعـه وادي زغريـن شـبكة صرف صحـي. ويضـمّ وادي زغريـن كلّاً مـن زغريـن التحتـا ومزرعـة سـجد وزغريـن الفوقـا المعروفـة بالبعـول «السـنة الماضيـة رمّمـت الدولـة شبكة الميـاه ولكـن الشركـة المتعهـدة لم تسـتكملها لأنّ المـال لم يكـف».

ويتابـع رئيـس البلديـة: «في كتـير نـاس رجعـوا بسـبب الظـروف الاقتصاديـة وإقفـال الأشـغال»، ويبلـغ عـدد هـؤلاء، وفـق قولـه، نحـو ١٠٠٠ شـخص «يمكنهـم العيـش مـن أراضيهـم إذا سـاعدتهم الدولـة واسـتصلحوها، بقاؤنـا بأرضنـا وشـغلنا انتصـار، لكـن إذا تركنـا أرضنـا منهـزم ومـا منتـصر».

وادي زغرين

يـرسم قـاسم محمـد الحـاج عـلي ناصرالديـن حـدود وادي زغريـن الـذي ينتـشر فيـه عـدد قليـل مـن عشـيرة ناصرالديـن إلى جانـب آل الحـاج حسـين وعائلـة سـجد «وبيتـين تلاتـة لآل علـوه»، مـن زغريـن التحتـا عـلى بعـد نحـو ٥ كيلومـترات مـن الهرمـل، إلى مزرعـة سـجد والبعـول صعـوداً نحـو المحيلسـة وراس العقبـة والتفاحـة وصـولاً إلى مرجحـين «كان فيهـا نـاس كتـير بـس هـلأ نزلـوا ع المـدن»، يقـول.

تعلّـم قـاسم في مدرسـة زغريـن التحتـا حيـث مـا زال يسـكن لغايـة اليـوم «سـكّرت مدرسـتنا مـن سـنتين لأنّ الدولـة أهملتهـا ولم تدعمهـا». يبلـغ قـاسم مـن العمـر ٥٠ عامـاً «ع أيامـي كانـوا صـاروا الأسـاتذة مـن الهرمـل ، قبـل كانـوا مـن خـارج القضـاء». ومـع ذلـك، كان العلـم في مدرسـة زغريـن يقتـصر عـلى اللغتـين العربيـة والفرنسـية والحسـاب «مـا تعلّمـت قواعـد فرنسـية لغايـة الصـف الخامـس ابتـدائي، قبـل مـا بعـرف شـو هـو

لـ Grammaire». وبما أنّ مدرسة زغرين ابتدائية، فقد أُرسل قاسم لمتابعة الدراسة التكميلية في مدرسة الشربين «وَدَعوني عند ناس أصحاب أهلي وقعدت عندهم بـ١٩٨١-١٩٨٢ سنتين، لأنّه ما في سيارات تاخدني وتجيبني». وفي الصفّين الثامن والبريفيه، صار قاسم يذهب سيراً على قدميه إلى الشربين لمسافة تصل إلى نحو ٣ كيلومترات في الجبل «وتحت الثلج شتاء نروح أنا وأخي مالك». يقول قاسم إنّ تحصيل العلم هنا مسألة تتطلّب جهوداً خارقة «فقد كنّا نطعمي الأبقار والماعز قبل الذهاب إلى المدرسة ونعود بعد الظهر لنخرج بهم إلى المرعى». وللدلالة على تدنّي مستوى مدارس الأودية، وجد قاسم أنّ المنهاج صعب عليه في ثانوية الهرمل عندما انتقل إليها «ما تخرّج تلاميذ كتير من مدرسة زغرين من دفعتي، فقط أنا وأخي وتلميذ من بيت الحاج حسين قصد المهنيّة قبلنا»، وكذلك الأمر في مدرسة الشربين «وقتها من الشربين بالبريفيه راح تلات تلاميذ فقط ع ثانوية الهرمل من أصل ١٤ تلميذ، وهذا يدلّ على نسب تسرّب عالية جداً».

عندما أنهى تعليمه الثانوي وقد صار من «الشطّار»، قصد والده النائب الحالي ألبير منصور «ليساعدني للدخول إلى المدرسة الحربية، كنت بدي إعمل ضابط». قال منصور لوالده يومها «حتى ما إكذب عليك، إذا زمطنا من الرئيس برّي مناخده ع الضباط»، ولم «يزمط» قاسم، فبدأ يعمل كأستاذ متعاقد في مدرسة زغرين، المدرسة التي درس فيها «حطّيت كلّ جهدي لعلّم هالتلاميذ، قد ما كنت شوف استهتار بحقّهم». لم يتمكّن قاسم من إكمال تعليمه «ما قدر أبي يبعتني ع الجامعة ع بيروت»، ولذا حرص على تعليم أبنائه «عندي تنين كانوا عم يتخصّصوا طب بأوكرانيا، هلأ رجعو من ورا الدولار». يعمل قاسم كمدرّس متقاعد من أوائل التسعينيّات «وبعد ما ثبّتوني»، ويشتغل بالأرض في الوادي وفي مرجحين ليتمكّن من إعالة أسرته «عم حاول ما إحرمهم متل ما انحرمت من العلم».

ألفا ليرة بدل قطاف "١٠ كيلو لوز"

مع إقفال مدرسة البعول (زغرين الفوقا)، لم تتمكّن أفراح نصري الحاج حسين، ابنة البلدة، من الوصول إلى صف الخامس ابتدائي. وكي تؤمّن مصروفها وتساعد عائلتها، تعمل أفراح في مواسم القطاف «باللوز والزيتون، وفي متلي بنات كتير». تتقاضى ألفي ليرة لبنانية عن كلّ سطل لوز تقطفه، «وزنه شي عشرة كيلوغرام»، وقد تنجح بقطف ١٠ إلى ١٥ سطلاً في اليوم. ولكنّ قطاف اللوز على تعبه يبقى أسهل من الزيتون «باخذ ٥ آلاف ع كل صندوقة ١٥ كيلو». مع القطاف تعمل أفراح في أراضي والدها «أبي صار كبير ولازم ساعده»، وتخبز على الصاج لأنّ أمها «مريضة»، كما تقوم بأعمال المنزل كافّة «يعني بشتغل من الفجر للنجر». كانت أفراح تحبّ أن تدرس التمريض «كنت كتير إحلم

إلبس الروب الأبيض وكون موظفة وعندي دوام ومعاش»، لكنّ الأحلام على ما تقول «ليست لأبناء المناطق الفقيرة، نحن مكتوب لنا الشقى بس».

والشقاء مكتوب فعلاً للشاب حسين الحاج حسين «بشتغل مياوم بكل شي مقابل ٣٠ ألف ليرة في اليوم». يعمل حسين مع إحدى البلديات يوماً في الأسبوع في لمّ نفايات الطرقات «بلمّ الزبالة وبحطّها بالتراكتور»، ثم ينتظر أن يجد عملاً في الزراعة «بحوّش، بنكش، بزرع، بشتّل، بعمل كل شي». حسين أيضاً لم يتمكّن من متابعة تحصيله العلمي «أبي ما كان معه يبعتني برّات الضيعة». تطوّع عنصراً في الجيش اللبناني و«طار من الفرحة» إذ صار لديه راتب شهري يصل إلى ٩٠٠ ألف ليرة «بس رجعوا طلّعوني من الجيش لأني مرضت».

لدى حسين خطيبة اليوم ويخطط للزواج في الأشهر المقبلة «ما معي عمّر بيت هلأ، رح أسكن بغرفة مع أهلي»، برغم أنّ بيتهم يقتصر على غرفتين ومطبخ ومرحاض. حال محمد، ابن الوادي، كحال حسين «بس أنا أفضل بشوي»، كما يقول. والأفضلية هنا تأتي من بنائه مطبخاً ومرحاضاً مع الغرفة التي منحته إياها عائلته «عطيوني غرفة وأنا أضفت لها مطبخ وحمام، ووسّعت المطبخ حتى إعمله غرفة قعدة». لا يتقن محمد أيضاً أي مهنة «بشتغل مياوم» وهو قرّر ألّا يعمل في التهريب ولا في المخدرات «يعني ما في خيار غير الفاعل»، أي العمل المياوم. وهو يتقاضى كما حسين ٣٠ ألف ليرة يومياً مقابل عمل ثماني ساعات «هلأ بيطلعو شي دولارين ونص، هيدي أسعار المنطقة».

الحرمان وفق محمد لا يقتصر على أوضاع الشبان والشابات «بكل وادي زغرين والشربين ما في مستوصف أو عيادة حكيم، والناس هون لولا اللوزة والكرزة بتموت من الجوع».

على الطريق من بريصا نحو الهرمل، كان المختار السابق حسين ناصرالدين يسير باتجاه المدينة. نتوقف بالقرب منه، وكان الوقت عشية عيد الأضحى ٢٠٢٠، إلى أين تذهب يا مختار؟ نسأله، ليجيب «رايح ع الهرمل لشوف أمتى العيد حتى خبّر أهل الضيعة». ما زال المختار الثمانيني، وبرغم أنّ الأهالي انتخبوا غيره في ٢٠١٦، يقوم بما سبق له أن يفعله «طول عمري بجي ع القائمقامية بالهرمل، بيخبّروني أيمتى العيد وبرجع ع الضيعة بخبّر الناس لتعيّد»، يقول لـ«المفكرة» وهو يتابع طريقه الصعبة والطويلة.


arbin



مختار بريصا السابق في طريقه للسؤال عن موعد العيد | **تصوير حسن الساحلي**

جرد عشيرة جعفر

حين يُبقي التهريب المواطنين في أرضهم

.... **سعدى علّوه**

ينظـر خالـد جعفـر، ابـن وادي فيسـان، وأحـد وجهـاء العشـيرة، إلى المصبـاح الكهربـائي في سـقف داره ويقـول: «علاقتنـا بالدولـة مقتـصرة ع الكهربـا، برغـم التقنـين. بـس تـروح بتنقطـع أي علاقـة لنـا بالدولـة».

يضيـف مديـر مدرسـة جـوار الحشـيش، في جـرد آل جعفـر، عـلي مهـدي جعفـر، بعـداً آخـر لهـذه العلاقـة: «مـا تبقّـى مـن مـدارس رسميـة في جردنـا، هـو استمرار لعلاقتنـا بالدولـة أيضـاً». مـدارس لا تشـبهها أي مـن مـدارس لبنـان «نحـن مميّـزون»، يضيـف سـاخراً، لكـن التميُّـز سـلبي «مـا في مدرسـة بـكل لبنـان بتدمـج صفّـين بصـف واحـد. يعـني تـاني وتالـت ابتـدائي بغرفـة وحـدة، رابـع وخامـس بالصـف ذاتـه، والرّوضـات أولى وتانيـة وأوّل ابتـدائي بغرفـة وحـدة كمـان». هـذه الحـال تحسّـنت عمّـا كانـت عليـه قبـل ١٩٩٤ تاريـخ تشـييد الدولـة مبـنى للمدرسـة «بـالأوّل كان الأهـالي مقدّمـين غـرف وكانـوا كلّ الصفـوف بغرفـة وحـدة». وبرغـم علـل دمـج التلامـذة واقتصـار حصّتهـم التعليميـة عـلى ثلـث سـاعة لـكلّ صـف، فـإنّ تلامـذة جـوار الحشـيش ينجحـون بنسـبة ١٠٠٪ في الشـهادة الرسميـة المتوسـطة «والنـاس باقيـة بالضّيعـة لأنّـه في مدرسـة»، وفـق عـلي مهـدي جعفـر. المديـر نفسـه قلـق عـلى مصـير المدرسـة كونـه الأسـتاذ الوحيـد المتفـرّغ فيهـا «والبـاقي تعاقـد»، وهـو سـيحال إلى التقاعـد في ٢٠٢١-٢٠٢٢ «مـا بعـرف يمكـن يسـكّروا المدرسـة لأنّهـم بدهـم أسـتاذ متفـرّغ ليعينّـوه مديـر».

يمتـدّ جـرد عشـيرة جعفـر المعـروف بـوادي فيسـان، مـن مـراح العـين في الجـرد الأعـلى، فـوق فيسـان، مـن حـدود قلعـة عروبـة غربـاً عـلى الحـد مـع فنيـدق في عـكار، ومـن كـرم شـباط عـلى حـدود عـكار العتيقـة، مـروراً بالنعناعـة وجـورة النجاصـة ومصاطـب الجـوز والسويسـة ومـراح الزعـرور، ثمّ نـزولاً نحـو الأوديـة الوسـطى في الحريقـة والميـدان والزكبـة والهوشريـة وقلـد السـبع وحدودهـا وادي العرايـس ثم جرمـاش في سـوريا، وصـولاً إلى سـهلات المـي. مـع تمدّدهـم إلى السـهل عـلى الحـدود الشرقيـة الشماليـة مـع سـوريا، صـار الجعافـرة يدرجـون بلـدة القصـر مـن ضمـن مناطـق انتشـارهم. يحدّهـم في الأعـلى الشمـالي جبـل أكـروم مـن ناحيـة فيسـان ورأس الحـرف، فيمـا يصلـون القبيـات مـن البسـتان والمخـزن.

يتقـاسم آل جعفـر هـذا الجـرد، وهـو مـن أوسـع جـروده العشـائر في السلسـلة الغربيـة في البقـاع الشمـالي، مـع آل الرشـعيني الذيـن أتـوا إلى المنطقـة في ١٧٠٠، أي قبلهـم بنحـو ٢٠ عامـاً، كمـا يؤكـد أسـتاذ التعليـم الثانـوي سـهيل الرشـعيني لـ«المفكـرة». وكونهـم، أي الرشـعيني، أقـلّ عـدداً



فيسان | **تصوير حسن الساحلي**

ولا يُحسبون على العشائر، نجد انتشارهم محصوراً في الحريقة وراس الحرف. وكان للجعافرة شركاء آخرون هم آل خير الدين وآل عبيد ممّن هجّرتهم المشاكل. فقد رحل آل خير الدين بعد وقوع إشكال ذي طابع اجتماعي مع الجعافرة، فيما تهجّر آل عبيد بعد معركة مع عشيرة ناصر الدين وسقوط قتلى في صفوف الأخيرة. وبرغم عقد مصالحة بينهما، إلّا أنّ العبيديين فضّلوا الرحيل نهائيا تجنّباً لأي ثأر، فباعوا أراضيهم وكان تمركزهم الأساسي في قنافذ وأعاليها.

مثلّث الاسترزاق

هذا المثلّث الحدودي مع عكّار من أربع جهات (قلعة عروبة والقبيات وعكار العتيقة وجبل أكروم)، ومع سوريا من قلد السبع والقصر وإبش على حد بلوزة وحاوييك السوريتين، ومن القصر نحو الهرمل ثمّ القاع، منح الجعافرة الذين يتجاورون مع عشيرة ناصر الدين في حدود الأودية، آفاقاً متنوّعة للاسترزاق الاقتصادي، تفتقده عشائر أخرى وخصوصاً علوه ودندش (حيث تنفتح أراضي آل ناصر الدين على الحدود السورية في الحوش والقصر). فقد حماهم هذا المثلث من النزوح نحو أحزمة البؤس والمدن البعيدة، ورماهم في حضن التجارة على أنواعها، وأبعدهم بنسبة محدودة عن مشاكل العشائر الشائعة والمستمرة. التجارة بشقّيها الشرعي - بين الشمال والبقاع حيث لعبت عشيرة جعفر بحكم موقعها بين المحافظتين صلة الوصل لتبادل السلع - وغير الشرعي أي التهريب من سوريا وإليها منذ الثمانينيات لغاية اليوم. وفرضت هذه التجارة على جعافرة الشمال (لتمييزهم عن أولاد عمومتهم في دار الواسعة والشروانة في قضاء بعلبك) سلوكيّات الأمر الواقع ومرونته. فالأعمال هنا ليست بالنيّات، بقدر ما هي تفاعل و»أخذ وعطا»، كما يقول ناصر جعفر، أحد وجهاء العشيرة. «لذا لم يُعرف عن جعافرة الحدود السوريّة ومع عكار انخراط كبير في مشاكل عشائر المنطقة». يقول الرجل إن «مشكل إبن جعفر مش براس منخاره»، كما بعض أبناء العشائر «وهذا طبعٌ عوّدته عليه مصلحته المرتبطة بالتجارة، فصار طويل البال أكثر من غيره، ومشكله بعيد».

وللجعافرة وجردهم ميزة جميلة تتمثّل باستمرار عيشهم في الجرود الوسطى صيفاً شتاء. ووسطى هنا لا تقلّ أحياناً عن ارتفاع ١٤٠٠ متر عن سطح البحر، كجوار الحشيش مثلاً التي تستقطب مدرستها العديد من أبناء القرى من حولها وصولاً إلى سهلات المي التي تبعد عنها ١٧ كيلومتراً، والحميري التي تقع على الارتفاع نفسه، كما يؤكّد مختارها حسن جعفر لـ»المفكرة». ولا يترك الجعافرة جردهم العالي شتاء إلّا بسبب الصقيع والثلوج التي تعيق حركتهم وكي يتزوّدوا بالحاجيّات.

الأخوة الخمسة

أتى آل جعفر جرود الهرمل، كما «أولاد عمومتهم من العشائر من جبيل في جبل لبنان»، كما يسمّي نافذ جعفر، عشائر علوه وناصر الدين ودندش وزعيتر. ووصل خمسة أخوة مع عائلاتهم من الجعافرة من جبيل إلى دار الواسعة في بعلبك بداية. «بقي واحد من بينهم واسمه جعفر في دار الواسعة، فيما قصد بقية أخوته قاسم وعلي موسى وأحمد وحمّود الحاج جرود الهرمل»، وفق الأستاذ الثانوي علي كاظم جعفر. وتوزّع هؤلاء على «جباب» (وهي فروع من العشيرة وتقسيماتها) وصاروا «جبّ قاسم وجبّ علي موسى وجبّ الحاج وجبّ أحمد». ونظراً لطبيعة

عيشهم من المواشي والزراعة والفحم «فتّشوا عن الغابات والأحراج وعاشوا فيها».

يصل عدد ناخبيهم اليوم، وفق نافذ جعفر إلى نحو ٥٦٠٠ ناخب، و«يُعَدّ آل جعفر مع آل زعيتر أكبر العشائر عدداً». والأهم، بالنسبة لآل جعفر تمركزهم في منطقة واحدة تنساب عامودية من قلعة عروبة على ارتفاع ١٨٠٠ متر وصولاً إلى القصر في السهل، وعدم تشتّتهم على مناطق لبنانية عدّة، «إذ لا تتجاوز نسبة نزوح جعافرة جرد الهرمل إلى خارج المنطقة ١٠٪».

فقر ونزوح متأخّر

من ساحة القصر صعوداً نحو سهلات المي التي قصدها الجعافرة طلباً للعلم كونها أقرب إلى الهرمل التي يرسلون أبناءهم إلى مدارسها، تبدأ طريق آل جعفر عبر الانعطاف نحو الطريق الدولية التي تربط البقاع بالقبيّات في عكار. يزدان الجرد بالاخضرار، إذ يعجّ بأنواع الأشجار الحرجية كافة وبعضها معمّر، خصوصاً في كرم شباط التي جرت مساعٍ كبيرة ولم تزل لإعلانها محميّة طبيعية نظراً لغناها الكبير باللّزاب والأرز والشوح والملّول وكذلك السنديان في الجزء المنخفض منها.

هذا الاخضرار في الوادي الجميل يكشف عن جرد وعر تتخلّله بعض الأودية، ومنها الوادي الفارغ، وإن كان في مجمله يسمّى بوادي فيسان. وعورة لم تمنح الجعافرة مساحات واسعة من الأراضي الزراعية كون كلفة الاستصلاح كبيرة من جهة، ولأنّ طبيعة الأرض صخرية تصلح للرعي أكثر منها للزراعة. وباستثناء زراعة الحشيشة التي درجت في المنطقة منذ الثلاثينيات، كان المزارع النشيط بين آل جعفر من يستطيع تأمين احتياجات منزله من الخضار، وعليه، لم نجد إنتاجاً زراعياً تجارياً عندهم إلّا لمن تملّكوا أراضٍ فسيحة في السهل، أو من يمتلكون حقولاً في الداخل السوري حيث يعيش جزء من العشيرة في وادي العرايس وجرماش السورية على الحدّ مع قلد السبع اللبنانية.

في ظلّ هذه المعطيات، شكّل الرعي وتربية المواشي أحد المداخيل الرئيسية، وخصوصاً تربية قطعان الماعز الذي يتعايش بطبيعته مع المراعي الوعرة على عكس الأغنام والأبقار، إضافة إلى صناعة الفحم من أحراج السنديان. وعليه، ما زالت مظاهر الحياة البدائية والحرمان فجّة تبيّن حجم إهمال المنطقة الجردية إلى درجة تستغرب معها قدرة الناس على تحمّل ظروفها، وخصوصاً في منطقة راس الحرف والنعناعة والحميرة وغيرها في الجرد العالي من ١٤٠٠ متر وما فوق.

آل الرشعيني جيران الرضا

يتحدّث مهدي الرشعيني الذي يقضي الشتاء في الحريقة والصيف في مقلب (خلف) راس الحرف، عن الحياة الصعبة وتدنّي المدخول من زراعة القمح والكرسنة (نوع من علف المواشي) والعدس «ما بيطلّعوا كلفة زراعتهم وحصادهم ودراستهم» (أي فصل الحبوب عن التبن والقش). يصف الرشعيني الحياة في مناطق الرعيان بتلك التي كانت سائدة في العصر الحجري «حتّى طرقات ما في، وما عنّا إلّا نبع مي بعيد، منسقي منّه الطرش» (المواشي). ويؤكّد أنّه نظراً إلى القرب من سوريا، كان سكان الجرد يستعينون بها لتأمين احتياجاتهم بسعر مقبول «كنّا نشتري ربطة الخبز بـ٥٠٠ ليرة لبناني، ووزنها كيلوغرامين، يعني قد الربطة اللبنانية ع مرتين وزيادة ٢٠٠ غرام». وبينما يتحدّث مهدي، تصل شقيقته نوال ومعها ابنتها المراهقة وقد أتتا بـ«حمل» ماء على ظهر الدابّة. تبدأ نوال بالشكوى «صوّروا للعالم حياتنا ليعرفوا إنّه في ناس بلبنان بعدها بتزقّ (تنقل) المي ع ضهر الدبّة بالقرن ٢١». يبعد نبع الماء عن خيمة نوال نحو كيلومترين «وبدنا ٤ نقلات مي باليوم، للشرب والجلي والغسيل والطبخ». أحياناً تحمل نوال صرّة الملابس المتّسخة على رأسها وتقصد النبع لغسلها هناك «أحسن ما زقّ مي لحدّ الخيمة، بغسّلهم وبعصرهم وبيجيبهم إنشرهم هون وبجيب معي نقلة مَي للبيت».

تقول ابنة نوال، ماجدة (١٤ عاماً) «بساعد أمي، بفلش النكّوب (براز الماعز أو الغنم يستعمل سماداً في الزراعة) بأرض صيرة الماعز وبخضّ الحليب لشيل سمنة بلدية وبروح ع العين بجيب مي ع الدبّة». صارت ماجدة في صف الثاني متوسط في مدرسة الحريقة الرسمية «ببقى بالجرد لتشرين وبعدين بروح ع المدرسة». تحلم ماجدة أن يتمكّن أهلها من إرسالها إلى الهرمل «بحبّ إتعلّم كوافيرة، وما في صفوف بالحريقة إلّا للبريفيه بس أنا مش حابّة ضلّ هون، بدي فلّ، بدي إتعلّم، بدّي حياة أحسن».

كان أبو سهيل الرشعيني من الميسورين في بيئته حيث كان يملك نحو ٥٠٠ رأس ماعز، «من ستّين سنة كان أبي من أوائل الذين بنوا بيوتاً من الباطون» يقول الأستاذ سهيل الرشعيني «ما كان متعلّم، بس رجع تعلّم الكتابة». كان أبو سهيل يحبّ العلم. ولذا استضاف في منزله القديم مدرسة الحريقة واستقبل أستاذ المدرسة في بيته. لاحقاً أرسل ابنه سهيل إلى الهرمل وأسكنه لدى صديقه أبو عبدالله الجوهري «وبعتو معي دجاج بلدي ومونة من برغل وحمص وأجبان وقمح للخبز». بعدها بعام، نزل أخواله إلى الهرمل للدراسة فأرسل والده شقيقته لتهتمّ به، و«انتقلت للعيش معهم في المنزل نفسه». يتذكّر الأستاذ سهيل بدايات النزوح الرشعيني نحو بيروت «بالسبعينات صاروا يروحوا شاب ورا التاني يشتغلوا ببيروت بالفاعل وياخدوا ٧ ليرات باليوم، ويشتغلوا ساعات إضافية فيطلّعوا ١٠ ليرات يعني ما بين ٢٥ إلى ٣٠ ليرة بالشهر». كان هذا المبلغ كبيراً بالنسبة لأولاد الجرد «كان معاش الأستاذ ١٥٠ ليرة».

وكان العمال ممن نزحوا إلى بيروت «يجوا من بيروت لابسين طقومة وصبابيط وصارت الناس تتشجّع وتلاقي الشغل بالعاصمة أسهل من التعب بالجرود». فارتفعت وتيرة الهجرة إلى بيروت بين آل الرشعيني «ما اشتغلوا شباب العيلة بالتهريب أو الحشيشة».

إنماء الشهابية

نموذج الحياة هذا كان يعمّ كل جرد الجعافرة «كان عنّا بئر عربي لتجميع مياه الشتاء ونبعة صغيرة، وكانت كلّ المنطقة تجي تعبّي منها ع الدواب»، يقول المختار حسن جعفر. شهد الجرد المشروع الأوّل «أيام الشهابية» حيث تمّ بناء خزّان لتجميع مياه النبع و»صارت الناس تجي تعبّي من الخزان، ويومها انتشرت المدارس في جردنا».

أما الطريق فلم يعرفها الجعافرة لغاية ١٩٧٥: «قبل ذلك، ما كان في طريق إلّا قادومية» (على الأقدام). يومها توافق الأهالي باعتماد إطلاق النار في الهواء ليعلِموا بعضهم البعض بوقوع حادث «إذا في مشكل كانت الناس تقوّص خمس رصاصات، فيقطع الجعافرة الطريق في الأعلى لتوقيف المعني بالإشكال»، وفق ناصر جعفر. مع شقّ الطريق وتعبيدها، بدأت الحركة التجارية بين الشمال والبقاع، ونزل الجعافرة ليكونوا أقرب إلى المدارس والمستشفيات حيث يخلو كلّ جردهم الذي يعيش فيه نحو ١٢ ألف نسمة من مستوصف أو عيادة طبيب، يؤكّد خالد جعفر الذي رزق بابنة تعاني من الصفيرة (اليرقان) وبما أنّه لا يوجد غرفة عناية بالأطفال وحاضنة خاصّة بالأطفال، أصيبت الفتاة بتأخّر ذهني.

«أخي مات ع الطريق بعدما أصيب بنوبة قلبية وما لحّقناه ع زحلة»، يقول البائع المتجوّل عارف محمود جعفر لـ»المفكرة» «ومتله كتار» يضيف. مرّت سنوات صعبة طويلة على الستّيني عارف جعفر «ربّيت أربع بنات لخلّصوا جامعات». عمل سائق حافلة في بيروت «قلت ما بدّي إشتغل بالتهريب أو بالحشيشة»، ولكنّه لم يتمكّن من إرسال بناته إلى مدارس العاصمة «كانت مكلفة عليي». ولذا عاد إلى الجرد بعد ٣ سنوات «وحطّيتهن بالمدرسة الرسمية»، وبدأ العمل كبائع متجوّل يبيع السلع لمحلات المواد الغذائية، «وفتحت محل بتقعد فيه مرتي». من مشتريات الدكاكين الجردية يقيس وضع الناس «المهربين والتجار وضعهم منيح، بس في كتير ناس فقيرة». حتى أصحاب الدكاكين لا يشترون منه الكثير «لأنّه ما عندهم بيع إلّا للأساسيات من رز وسكر وشاي وحبوب «حتى علبة الحمص في ناس مش قادرة تشتريها»، يقول.

أثناء التجوّل في جرد آل جعفر نجد في كلّ بلدة تقريباً مسجداً، فقد وصلت المساجد قبل الإنماء والمستوصفات والماء: «لو بيفتحو مستوصف مع كلّ جامع، كانوا بيخدموا الناس أكتر»، يقول أحد شبان العائلة الذي يرى أن علاقة الجعافرة بالدين كانت بـ»الفطرة، ولم تكن التزاماً بالمعنى الذي يحاول مشيّدو المساجد تكريسها اليوم».

الرزق ع التهريب

لم يكن في العام ١٩٧٥ بين القصر ووادي فيسان سوى بيت يتيم على الطريق التي نبتت عليها قبل ٢٠ سهلات المي، كبرى بلدات الجعافرة، على الحد مع بلدة القصر «العالم بتروح ع محلّات الشغل وطبعاً ع المدارس والطبابة»، يقول مدير مدرسة جوار الحشيش علي مهدي جعفر «كان العلم سلطان ويعطي قيمة للإنسان»، يؤكّد. ولذا «ركّز كلّ حياته لكي يعلّم أبناءه الخمسة «كلّهم تخرّجوا من الجامعات».

بعد سهلات المي التي نمت في الثمانينيّات واشتهرت بمنازلها الحديثة وبالعديد من الفيلّات وخصوصاً بعد نشاط تهريب المازوت الذي نشط في تلك الحقبة «بيت جعفر مدينون ببعض اليُسر للتهريب بالدرجة الأولى، ولتجارتهم بين الشمال والبقاع ثانياً»، يقول أحد الجعافرة، ليرى أنّ التهريب غيّر في سلّم القيم: «صار الشباب يستسهلوا مصاري التهريب، ويلاقوا طريق الربح والرزق أسهل وأقصر من العلم».

اليوم ما زال جزء من الجعافرة يعمل في التجارة الحدودية الناشطة بين لبنان وسوريا «باتّجاه واحد حيث أنّ سوريا تحتاج لكي شيء في ظل عقوبات قيصر». وضع شكّل فرصة أخرى للجعافرة لممارسة المهنة التي يتقنون «التجارة حدودية كانت أم داخلية». مهنة لم يكن لهم غيرها في زمن بخلت به دولتهم عليهم بكل شيء، ممّا قسّم مجتمعهم إلى فقراء يعتاشون من الأرض وعدد محدود من الوظائف خصوصاً في التعليم، وميسوري حال يستفيدون من فرص تصنّفها الدولة في خانة مخالفة القانون، وهي تدري أنّ أكبر مخالفة للقانون تكمن في إدارة الظهر لحقوق ناسها.





رعاة مواشي بالقرب من صيرة الماعز في الحريقة في وادي فيسان | **تصوير حسن الساحلي**

حرق إطارات ونفايات طبية في الأودية .... **سعدى علّوه**

كسّارات محميّة ومجهلة تقتل آل جعفر وتهجّرهم

«أنا أحمد مهدي جعفر من سكّان جوار الحشيش في جرد عشيرة جعفر. أنا راح صوتي من ورا الكسّارات. أطلب من رئيس الجمهورية ومجلس النواب والحكومة يساعدوني ع الكسارات. نحن قاومنا الأتراك والفرنساويي والإسرائيلي والإرهاب وما قدرنا نقاوم مافيا الكسارات وحرق النفايات الطبّية والدواليب[1] لأنّه في بعض القوى الأمنية بترتشي وبعض القوى السياسية والأحزاب بتسايرهم بسبب الانتخابات بدون الالتفات للبيئة وصحّة الناس». خطّ أحمد جعفر هذه الكلمات على ورقة سحبها من رزمة أوراق يحملها مع قلم حبر معلّق بطرف جيب قميصه منذ أن فقد صوته إثر إصابته بسرطان في البلعوم «بسبب الكسارات ومحارق الدواليب والنفايات الطبية»، كما يقول (كتابةً) من بيته في جوار الحشيش لـ«المفكرة».

عندما قصدنا بيت أحمد جعفر لم نكن نعلم أنّه غير قادر على الكلام، قيل لنا عندما سألنا سكّان الجرد الجعفري الذي تتوزّع جغرافيته بين قضاء الهرمل ومحافظة عكّار لناحية القبيّات، عمّن يتابع ملف الكسّارات التي تنهش جبال جرد يعتبر من أجمل جرود لبنان، «ما إلكم إلّا أحمد مهدي جعفر، هيدا انتحاري عم يواجه الكلّ»، كما وصفه شاب في رأس الحرف في الجرد نفسه.

لم يكن أحمد يعرف القراءة والكتابة عندما أصيب بسرطان في الحلق. بعد استئصال السرطان العالق على أوتاره الصوتية، فقد الرجل صوته، وبالتالي قدرته على الكلام. يسمع محدّثه صوتاً ضعيفاً أشبه بالأنين يخرج من الفتحة التي استحدثها الأطباء في أسفل عنقه. ولأنّ أحمد قرّر خوض معركته النضالية ضدّ الكسارات، انكبّ على تعلّم الكتابة والقراءة ليتمكّن من التواصل مع الآخرين والتعبير عن رأيه وليشرح حججه وبراهينه التي تثبت أنّ الكسارات والأنشطة المرتبطة بها قد «مرّضت الجعافرة وهجّرتهم». وعليه، يكمل أحمد كلامه الذي خطّه على ورقة، من جملة أوراق يحرص على حملها معه أينما ذهب، كمن يحمل معه صوته، مانحاً الورقة لابنته لتقرأها على مسامعنا: «هجّرت الكسارات ومعها حرق الدواليب ٨٥٪ من الجعافرة بعدما تشقّقت منازلهم وتركوا بيوتهم بسبب التفجيرات والغبار الكثيف الذي أمرضهم وقتل مزروعاتهم». ويعرب أحمد عن استعداده «لتنظيم جولة للمسؤولين للتأكّد من صحّة كلامي، فقد سبق وزوّدنا وزارة البيئة بفيديوهات وصور توثّق ما يحدث من دون الحصول على أيّة نتيجة».

ويكمل أحمد على ورقته - التصريح «لم يكفِنا ضرر ١٧ كسارة حتى بدأوا بحرق الدواليب والنفايات

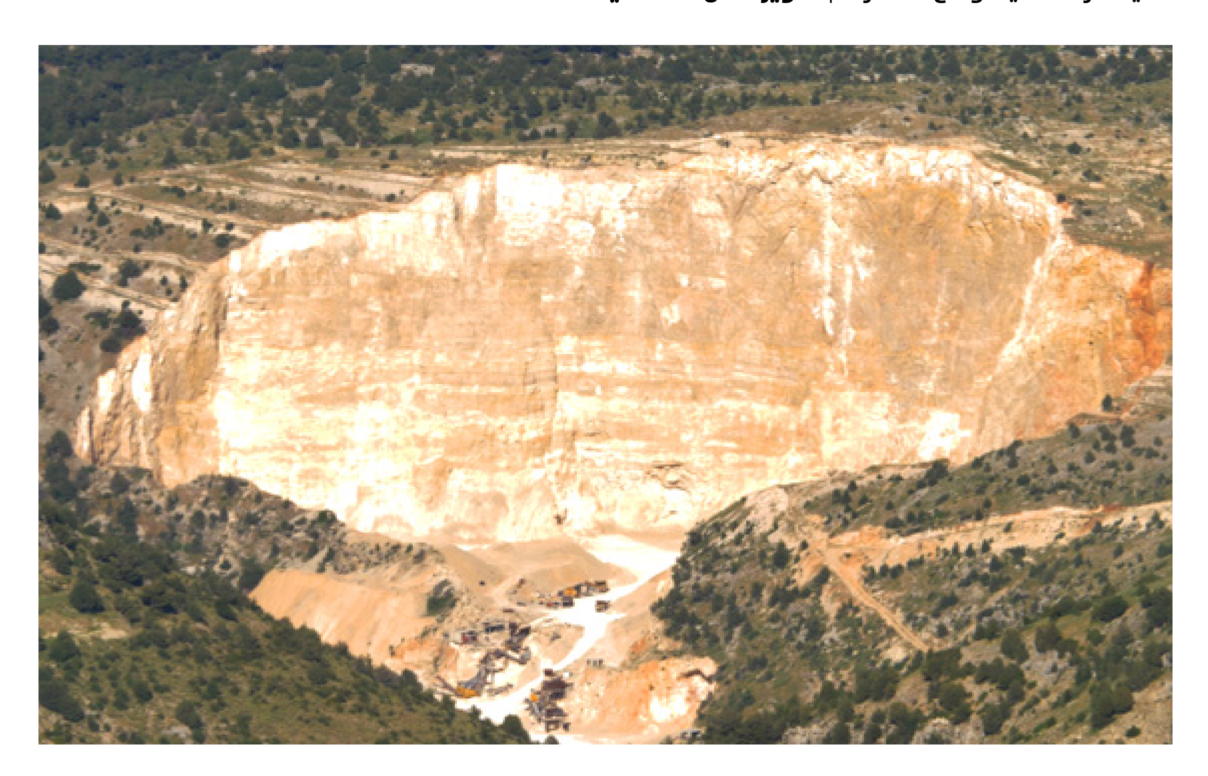
عشائر الجرد الغربي

(١) يتمّ استقدام شاحنات محمّلة بالإطارات المستعملة وحرقها في مناطق الكسارات لاستخراج المعادن منها من أسلاك النحاس والحديد وبيعها كخردة.

الطبّية ويأتون بها من البعيد مقابل الأموال». ورداً على ما يقوله البعض إنّ هناك عشرات المستفيدين من الجعافرة من الكسارات، يؤكّد أنّ عدد هؤلاء «لا يتعدّى ٢٠ عائلة، ونحن نطالب ببديل اقتصادي لهذه العائلات والمستفيدون الأساسيون من الكسارات هم من الغرباء». لذا، يطالب الدولة «أن تحمي أرضنا وصحّتنا من جهة، وأن تؤمّن بديلاً اقتصادياً للعائلات المستفيدة من آل جعفر وليذهب الغرباء إلى مناطقهم».



نفايات ترمى في مواقع الكسارات | **تصوير حسن الساحلي**



الكسارات غيرت معالم الجبال في جرد عشيرة جعفر | **تصوير حسن الساحلي**

مخفر الدرك:
«بدّك يلفّقوا قضية مخدرات لأبوكِ؟»

من منزل عائلتها المشرف على إحدى الكسارات الناشطة تتحدّث إحدى نساء عشيرة جعفر لـ«المفكرة» عن معركتها مع الكسارات «جمعت أوراق وتقارير طبية ورحت ع مخفر المنطقة لقدّم دعوى فيهن». هناك «نصحها» رئيس المخفر بعدم المضي قدماً في دعواها القضائية «بدّك يلفّقوا لأبوك شي دعوى مخدّرات، إنت ما فيكي ليهم»، قال لها بالحرف. وعندما تردّدت، أضاف «ما رح تجيبي غير وجع الراس لعيلتك، وما فيكي ع أصحاب الكسّارات هنّ أقوى منك بكتير». استرجعت السيدة أوراقها، وهي تفضّل عدم ذكر اسمها للأسباب عينها التي هدّدها فيها رئيس المخفر قبل سنوات: «ما تحطّي إسمي ما بدي إعمل مشاكل لأخوتي خصوصاً إنّه أبي متوفّي»، تضيف. تقول السيدة إنّ أختها الصغيرة تعاني من مرض الربو منذ كان عمرها ٣ أشهر «بسبب غبار الكسّارات ودخّان حرق الدواليب المطاطية والنفايات، وبيقولوا في نفايات طبّية كمان». حملت والدتها أختها الصغيرة وهاجرت من المنطقة «كانت تضلّ بالمستشفيات، فما عادت تجيبها ع المنطقة بنصيحة من الأطبّاء». تتحدّث السيدة عن ارتفاع نسب السرطان أيضاً بين الجعافرة: «أختي بيّن معها سرطان بالحنجرة من ٣ أشهر، وزوجة عمّي أيضاً مرضت بالسرطان قبلها بشهرين، وجارتنا توفّت قبل سنة بالسرطان»، وتضيف «حاسّة رح نموت كلّنا من وراهم». بسيارتها ذات الزجاج الداكن (مفيّم)، تصطحبنا السيدة في جولة داخل الوادي الفارغ «بدي تشوفو بعيونكم شو عم يعملوا». تقول إنّ الكسّارات غيّرت جغرافيا الوادي، وإنّ كسّارة الوادي الفارغ هي أكبر الكسّارات وتعود ملكيّتها لشخص من عائلة الحلبي من طرابلس: «معظمهم غرباء وفي معهم شركاء من بيت جعفر». تؤكّد السيدة أنّ



شريك كسّارة الحلبي هو من آل جعفر «ومعه مصاري كتير»، فإذا كان الحلبي لا يسكن في المنطقة وبالتالي لا يتضرّر من الكسّارة «ألا يفكّر شريكه من آل جعفر بصحّة ناسه وأقاربه وأهل منطقته؟»، تسأل.

تقود السيدة سيارتها وتشرح: «كان الوادي الفارغ مليئاً بالأشجار الحرجية ويوجد فيه نهر وتلال وجبال». ننظر حولنا لنرى ما تصفه فلا نجد سوى الجبال المتآكلة بعمق لا يقل عن ٢٠٠ متر «غار النهر وانتهى، وأكلوا الجبال وحوّلوها إلى خنادق وطمروا الوادي ولم يعد الوادي الفارغ كما كان من أجمل أودية المنطقة». تقول إنّها تغمض عينيها حين تمرّ بالوادي «ما بقدر شوف شو عملوا كتير بتوجّع وبتوتّر خصوصاً إنّي ما قدرت إعمل شي».

في الجولة على الكسّارات أجلستنا السيدة في



"هون كان فيه جبل" | **تصوير حسن الساحلي**

المقعد الخلفي وقمنا بالتصوير من خلف زجاج سيارتها، وكانت كلّما التقينا بسيارة، تطلب منّا أن نخفض رؤوسنا لكي لا يشتبهوا بوجود غرباء في منطقة الكسّارات «بيهجموا علينا، بلا ما نعمل معهم مشاكل»، تبرّر لنا.

خلال الجولة، نصل إلى الحفر الكبيرة التي تسبّبت بها الكسارات في المنطقة وفيها أكوام من الإطارات المطاطية التي تحترق، وأكوام أخرى من الشُحّار الأسود المتبقّي بعد سحب الحديد منها. يعمد شبان من آل جعفر إلى استقدام شاحنات وآليات بيك آب يومياً مليئة بالإطارات المطاطية لحرقها واستخراج الحديد منها وبيعه كمصدر رزق يعتاشون منه.

تشقّق البيوت والتربة وانسداد مسام الشجر

من على مصطبة بيته في أعلى منطقة الطاروع في سفح محميّة كرم شباط، يتحدّث ياسين علي جعفر (وهو غير وجيه العشيرة ياسين علي حمد جعفر) عن منزله ومنازل جيرانه في الجرد: «شوفو بيتي كيف متشقّق من التفجيرات، شوفو غسيلنا ع الحبال كيف كلّه شحتار أسود من حرق الدواليب، شوفو كرزاتي كيف عم يموتوا لأنّه الغبرة سكّرت مسام الشجر وما عم يقدر يتنفّس». بهذه العبارات يختصر ياسين حياته في الطاروع «والأطفال عطول مرضى ومعظمهم عندهم ربو».

تقع منطقة الطاروع في أسفل محميّة كرم شباط [٢] ، وهي من أهمّ المحميّات في لبنان تبلغ مساحتها ٣ ملايين متر مربع، وتتضمّن أعداداً كبيرة من أشجار الشوح والأرز واللزّاب، وفق رئيس مجلس البيئة في القبيّات د. أنطوان ضاهر. تبعد المحميّة نحو ٦٠٠ متر خط نار عن موقع تمركز الكسّارات «وهي تتأثّر فيها نتيجة التفجيرات التي تشقّق التربة، كما الغبار الذي يأكل الأشجار ويتسبّب بيبَاسها»، كما يؤكد ضاهر لـ«المفكرة». يمتلك ياسين جعفر أراضٍ في محميّة كرم شباط. «خرّبتها الكسّارات» يقول لـ«المفكرة» «ما بتوصل المي إلّا موحلة، وييبست نصوب الجوز والحور والأشجار المثمرة»، يؤكّد أنّ الأمور «فالتة، والرشى للقوى الأمنية ماشية، فكيف بدنا نمنع الكسارات؟» يصف ياسين منطقته بالمكان لـ«كنت بتستحلي تمرق فيه لتكزدري وتشمي الهوا النقي». اليوم «تحفّرت الطريق، وعواميد بيتي تفسخت، ولمّن بيفجّروا بالكسّارات والله البيت بيهزّ كلّه سوا، والشاحنات لا تعدّ ولا تُحصى، بتجي من طرابلس ومن المنية ومن زغرتا أكتر من ٢٠٠ شاحنة بتمرق ع الطريق من حد بيتنا يومياً، عدا عن لي بيمرقوا ع طرقات تانية ليروحوا ع كسّارات تانية».

(٢) أصدر وزير البيئة بيار فرعون الأسبق قراراً وزاريا في ١٩٩٥/١٠/٧ يحمل الرقم ١٤/١ يرمي إلى إنشاء محمية طبيعية «كرم شباط»

No Man’s Land

يقول د. أنطوان ضاهر إنّ هناك ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ شاحنة تعبر يومياً من الجرد المشترك بين الهرمل وعكّار نحو شمال لبنان عبر القبيّات، محمّلة بالبحص والرمل «وغير التلوّث الذي تنشره في الهواء، تسبّبت هذه الشاحنات بثلاثة حوادث في قلب القبيّات حيث اجتاح بعضها سيارات ومحلات ومنازل»، ولكن لحسن الحظ لم يسقط ضحايا. يقود هذه الشاحنات شبّان صغار السن أحياناً «١٦-١٧ سنة، ومعظمها تسير بلوحات مزوّرة، أو بلوحة واحدة منسوخة لأكثر من مرة وتستعمل أكثر من شاحنة»، كما يؤكّد أحد رجال آل جعفر.

يصف ضاهر المعترضين على الكسّارات في الجرد الجعفري وجرد عكّار والقبيّات بالأبطال: «عليهم ضغوطات كبيرة ومع هيك قرّروا يخوضوا معركة بوجه المستثمرين المدعومين».

يقلّل ضاهر من نسبة الجعافرة المستفيدين من الكسّارات: «يمكن في شي ٣ كسارات من ١٧ كسّارة لبيت جعفر والباقي موزّع على سياسيين بأسماء أقاربهم وعلى مستثمرين مدعومين ومحميّين، وهم غرباء عن المنطقة، لا يعيشون فيها لكي لا يطالهم ضررها».

تتواجد الكسّارات في منطقة No Man’s Land أي معظمها في أرض جمهورية تعود للدولة «والرزق السايب بيعلّم الحرام» كما يقول رئيس مجلس البيئة في القبيّات الذي يعيد تاريخ بدء الكسّارات إلى نحو ٢٠ عاماً من اليوم «قبل ما كانت المدنية والتقدّم متل ما بيفهموهم واصلين لعنّا». وبدأ عمل الكسّارات الأولى على «الحدّ بين عكّار والهرمل وصارت تتوسّع بالاتجاهين». ويرى ضاهر أنّ تمركز الكسّارات في هذه المنطقة مقصود، ونحن نفاجأ بأنّ قوى سياسية كبيرة تغطّي هذه الكسارات وتستفيد من تجهيلها، أي التعامل معها وكأنّها غير موجودة لا بالترخيص ولا بالوجود على الأرض، إذ يتنصّل منها الرسميّون في الشمال ومعهم محافظ عكّار بالقول «هيدي مش عنّا، بل بالهرمل». وكذلك يفعل محافظ بعلبك الهرمل والرسميّون فيها «هيدي بعكّار، ما خصّنا». ويساعد في جعل كسّارات المنطقة مجهولة أنّها غير مدرجة على اللوائح الرسمية للكسّارات في لبنان وطبعاً ليست ضمن المخطّط التوجيهي للمقالع والكسارات، «يعني هي رسمياً غير موجودة ولكنّها فعّالة، ومعظمها غير مرخّص، وتمّ ترخيص ثلاثة من بينها [٣]، ولا نعلم وفق أيّة معايير، وهي على الأرجح تتوسّع أكثر من المنطقة المرخّصة». وتنتشر الكسّارات في الجرد الغني بـ»اللزّاب والأرز والشوح»، وهي وفق ضاهر «من الأشجار النادرة والمعمّرة في لبنان ويجب أن تكون محميّة وفق قانون الغابات في لبنان الذي ينصّ على أنّ كل غابة تحتوي على أشجار أرز وشوح ولزّاب تصبح محميّة حتّى لو كانت ملكاً خاصّاً، فكيف إذا كانت ملكاً عامّاً بالأساس وملك الجمهورية اللبنانية».

ويؤكد ضاهر أنّ آل جعفر هم الأكثر تضرّراً من هذه الكسارات والأكثر تأثرّاً بتلوّثها وبالأضرار

(٣) يرى د. ضاهر أنّ التراخيص غير قانونية وتقع الكسّارات خارج المناطق المحدّدة في مرسوم المقالع والكسّارات، وهي تتوسّع أيضاً خارج المساحات المحدّدة لها.

التي تلحق بمنازلهم «حيث نزح وتهجّر قسم كبير منهم من المنطقة بسبب الغبار وتشقّق منازلهم من التفجيرات ومن ضجّة الكسّارات وأعمالها والتفجيرات ومن تراجع الزراعة التي قتلها الغبار». ويتحدّث ضاهر عن ضخامة حجم الغطاء النباتي الذي قضمته الكسّارات بآلاف الدونمات، وكذلك تشويه الجبال والوديان، إضافة إلى التلوّث السمعي وتهديد الأمن الحياتي للقاطنين في منطقة الكسّارات نفسها وفي مناطق بيت جعفر وفي الشنبوق (في أعلى القبيّات) والقبيّات والبيرة والسنديانة وصولاً إلى تخوم حلبا، وكلّها مناطق سكنية تجتاحها الشاحنات يومياً «حتى الغسيل المنشور خارجاً نرى لونه أسود ومليئاً بالغبار، وصار معظم الناس مرضى بالحساسية، فيما تنتشر الأمراض السرطانية بين آل جعفر».

تطييف الصراع

وفيما يناضل أحمد مهدي جعفر وياسين علي جعفر وغيرهما من آل جعفر مع أعضاء مجلس البيئة في القبيّات ومعهم د. ضاهر ضدّ أصحاب الكسّارات ومن يدافعون عنهم أو يحمونهم من آل جعفر ومن القبيّات، وضدّ المسؤولين الداعمين للكسّارات من مختلف الطوائف، يسعى أصحاب الكسّارات إلى تحويل المشكلة من بيئية - اجتماعية إلى مناطقية وطائفية، كأنّ القبيّات ضدّ آل جعفر أو العكس. ويلفت ضاهر إلى أنّ أصحاب الكسّارات هم من المسيحيين والشيعة والسنّة، وكذلك يتوزّع المتضرّرون على المناطق والطوائف، وأنّ المعركة هي بيئية اجتماعية بحتة، وأنّ هناك علاقة جيرة حسنة وودّ بين القبيّات والجعافرة الذين يسكن بعضهم في القبيّات بينما تعلّم العديد من أبنائهم فيها أيضاً. ويشير ضاهر إلى أنّ مجلس البيئة حاول اللجوء إلى القضاء ولكنّ الأجوبة جاءت بضرورة تجنّب إثارة القضية «وإنّه لازم نروق حتى ما يتحوّل الموضوع طائفي وأمني نحن بغنى عنه»، كما قال لهم بعض الرسميين أيضاً. ويؤكّد ضاهر أنّ محطّات الودّ والحياة المشتركة السلمية بين القبيّات وجرد عشيرة جعفر أكبر بكثير من محطّات التوتر التي حصلت سابقاً بسعي من بعض الأجهزة وليس بسبب الناس هنا وهناك، لافتاً إلى أنّ النضال مشترك لحماية الجرد وناسه وسكانه الذين ينتمون بغالبيّتهم لآل جعفر، وكذلك حماية البيئة التي يتشاركها الطرفان مع ثرواتها.

نيران الإطارات وتلوّثها

يحذّر ضاهر من قيام بعض الشبّان بحرق الإطارات لاستخراج الحديد منها وبيعه كخردة للدولة التي أمعنت في حرمان الجعافرة وجردهم لسنوات طويلة «لم تقدّم لهم الإنماء وفرص العمل وموارد الرزق»، مشيراً إلى أنّ إحراق الإطارات يتسبّب بإمراض سكّان المنطقة، ملاحظاً كطبيب كثرة أمراض السرطان بينهم

«غبـار الكسّـارات ودخـان الإطـارات يعشـعش في منازلهـم، ويتضاعـف الأثـر البيـئي والصحّـي عليهـم، في حـين أنّهـم يعيشـون في أكـثر منطقـة مواءمـةً للعيـش الصحّـي في لبنـان». ويلفـت إلى أنّـه يمكـن رؤيـة دخّـان الإطـارات مـن الهرمـل ومـن أقـصى الشمـال حـتى طرابلـس.

كرم شباط

يـرى ضاهـر أنّـه يجـب حمايـة كـرم شـباط الـتي تمتـد عـلى مسـاحة ٣ ملايـين مـتر مربـع، وهـي «من أولى المناطق التي أعلنت وزارة البيئة وجوب حمايتهـا ولكـن مـن دون اتّخـاذ أي تدابـير عـلى الأرض، وهـي مـن أكـثر الغابـات كثافـة حيـث تجـد فيهـا أشـجار الشـوح والأرز واللـزّاب، وهـي الوحيـدة في لبنـان الـتي يتواجـد فيهـا الأرز عـلى سـفوحها الشرقيـة كمـا الغربيـة، حيـث لا يتواجـد الأرز عـادةً سـوى في السـفوح الغربيـة لسلسـلة جبـال لبنـان الغربيـة، وتحديـداً تلـك المقابلـة للبحـر، ولا ينبـت عـلى الشرقيـة لجفـاف مناخهـا. أمـا في كـرم شـباط، فنجـد الأرز عـلى سـفوحها الشرقيـة الـتي تقـع مقابـل بحـيرة حمـص، ولـذا يـأتي الهـواء مـن جهـة الـشرق مشـبعاً بالمـاء، فتتشـكل بيئـة مناسـبة لنمـو الأرز. والمحميـة غنيـة بالآثـار مـن لوحـات حملـة نبوخـذ نـصّر سـنة ٥٥٠ قبـل المسـيح، ومـع ذلـك فهـي مهـدّدة بأعمـال الكسّـارات والرعـي الجائـر، وبنـاء الغـرف وطبعـاً قطـع الأشـجار. ويـرى أنّ الغابـة «تجـدّد نفسـها دائمـاً، ولكـن يجـب حمايتهـا». وتتسـبّب الكسّـارات بتكثيـف الغبـار عـلى أشـجارها، فيمـا تـؤدي التفجـيرات إلى انزلاقـات في التربـة وفي مجـاري الميـاه. وتتـوزّع أشـجارها بـين: ثلـث أرز وثلـث لـزّاب وثلـث مـن الشـوح، وهـو شـجر نـادر جـداً ومتواجـد فقـط في عـكّار والضنيـة، وعـدد قليـل في محميّـة حـرج إهـدن، و«مـن هنـاك إلى جنـوب الكـرة الأرضيـة لا نجـد الشـوح».

رغـم كلّ هـذه الأضرار عـلى سـكان المنطقـة الذيـن تهجّرهـم الكسّـارات وعـلى البيئـة حيـث دُمّـرت آلاف دونمـات الأحـراج، وعـلى السـلامة العامّـة مـن وراء حركـة شـاحنات الرمـل والبحـص، وتهديـد الكسّـارات لواحـدة مـن أهـم محميّـات لبنـان، يشـير مصـدر رسـمي طلـب عـدم ذكـر اسـمه إلى معلومـات مؤكّـدة حصـل عليهـا تفيـد بـأنّ أحـد وزراء الزراعـة السـابقين منـع مأمـوري الأحـراج مـن تسـطير تقاريـر بالكسّـارات كمـا طلـب مـن القـوى الأمنيـة في المنطقـة عـدم مداهمتهـا وعـدم توقيـف الشـاحنات: «يعـني عـم نقاتـل باللحـم الحيّ ضـد الكسـاّرات والقـوى السياسـية الـتي تحميهـا»، يختـم متأسّـفاً.





حرق الإطارات المطاطية في موقع الكسارات في جرد عشيرة جعفر | **تصوير حسن الساحلي**

قانون تشريع زراعة القنّب ما زال «في الجارور»

«شرَّعوها» بالنسبة للمزارعين فماذا عن الدولة؟ .... سعدى علّوه

قبل عام، تبارى مناصرو رئيس المجلس النيابي وحركة أمل نبيه برّي في نشر فيديو له تحت عنوان «إلى البقاع درّ» يعد فيه أهل البقاع الشمالي بالفرز والضمّ والعفو العام وتشريع زراعة الحشيشة لأغراض طبية وصناعية، بما يفيد بأنّ «دورهم في الإغماء» قد بدأ، كما قال الرئيس بري، رداً على اتّهام البقاعيين له ضمناً أنّه يولي اهتمامه للجنوبيين دونهم. أُعيد نشر الفيديو بكثافة على مواقع التواصل الاجتماعي إثر إقرار مجلس النوّاب القانون ٢٠٢٠/١٧٨ الرامي إلى الترخيص لزراعة نبتة القنّب (الحشيشة) للاستخدام الطبّي والصناعي بتاريخ ٢٠٢٠/٠٤/٢١، في إشارة إلى تنفيذ رئيس المجلس النيابي وحركة أمل وعدهما، وكأنّ سماء بعلبك الهرمل ستمطر الذهب الأخضر.

بعد عام بالتمام على إقرار القانون، لا يشبه المشهد في بعلبك الهرمل، المحافظة المعنيّة تاريخياً بزراعة حشيشة الكيف، وبالتالي بالقانون (رغم أنّه لم يخصّها بالتراخيص دون غيرها)، تلك الصورة التي بشّر بها نوّاب الكتل البرلمانية التي صوّتت على القانون وفي طليعتها التحرير والتنمية (أمل) والجمهورية القويّة (القوات اللبنانية) والإصلاح والتغيير (التيار الوطني الحر) ومعهما نوّاب تيار المستقبل، (حزب الله لم يصوّت عليه)، الذين خرجوا من الجلسة التشريعية في إثر إقرار القانون فخورين بهذا «الإنجاز الإغمائي». لا بل بدأ بعضهم أيضاً الحديث عن اتصالات دولية للاستثمار في قنّب لبنان، وعن مساطر وصلت لصناعات الألياف والأنسجة والمناشف والأدوية والمستحضرات الطبية، وعن فرص عمل عديدة سيفتحها تشريع زراعة القنّب غير الإفادة التي ستعود على المزارعين أنفسهم. يومها، بدت الصورة وكأنّ لبنان أمام نفطين: أسود في البحر وأخضر في البقاع.

لم يحظَ أهالي البقاع الشمالي بالضمّ والفرز، وهو مطلب قديم من عمر الاستقلال، ولا سمحت المساومات بين أحزاب السلطة وقواها في مجلس النواب بإقرار قانون عفو عامّ يسمح بمعالجة ٤٨ ألف مذكّرة توقيف وبلاغ بحث وتحرّي ووثيقة اتّصال أمنية في المنطقة أيضاً. أمّا تشريع الحشيشة فـ«في الجارور»، كما يؤكّد النائب ياسين جابر لـ«المفكرة القانونية».

يعتبر جابر أنّ المجلس النيابي قام بواجبه التشريعي عبر إقرار القانون، ووقّعه رئيس الجمهورية (بتاريخ ٢٠٢٠/٠٥/٢٨) ونُشر في الجريدة الرسمية (٢٠٢٠/٠٦/٠٤، العدد رقم ٢٣)، «وصارت الكرة في ملعب الحكومة التي يجب أن تُعيّن الهيئة الناظمة لتضع النظام الداخلي والمالي ليوافق عليهما مجلس الوزراء ويبدأ التنفيذ».



نبتة حشيشة | **تصوير لميا الساحلي**

وكلّ هذا لم يُنجز، وفق جابر، بينما «أقرّ العدو الإسرائيلي قانون تشريع زراعة القنّب بعد إقراره في لبنان، وبدأوا بالتراخيص والزراعة، ومثلهم دول أخرى، ونحن ولا ضربة عملنا».

«شرّعوها»

لا تنافس طوابير محطّات الوقود والملاحم والسوبرماركات سوى حركة التراكتورات الزراعية في أنحاء البقاع الشمالي: إنّه موسم الزراعات الصيفية وعلى رأسها حشيشة الكيف التي «شرّعتها الدولة» كما يعتبر الجميع. فالسلطة التي لم تسأل المزارعين رأيهم في تشريع زراعة القنّب، ولم تكلّف نفسها عناء إطلاعهم على القانون وحيثيّاته، لم تُصدر بياناً واحداً يوضح مصير القانون ومعه موسم العام الحالي ولم تضع خطوطاً حمراء أو خضراء تحدّد وضع المزارعين الذين يجهلون بالأساس أنّ هناك هيئة ناظمة ونظاماً داخلياً ومالياً وتراخيص. إنّ مجمل ما أوحى به إقرار القانون بالنسبة إليهم هو «تشريع الحشيشة»، وبالتالي لم تعد زراعتها فعلاً خارج القانون. «شرّعوها» وفق ما يؤكّد أحد المزارعين الذي كان يرش حبوب القنبز[1]، في سهله في إحدى مناطق البقاع الشمالي.

مزارع آخر يبدو أكثر متابعة لما يجري، يعتبر أن من حقّه زراعة الحشيشة بعد التعديل

(١) بذار حشيشة الكيف

الـذي أدخلـه رئيـس الجمهوريـة عـلى القانـون قبـل توقيعـه «بعـد تعديـل رئيـس الجمهوريـة، لم يعـد شرط عـدم تجـاوز THC، أي المخـدر في النبتـة، نسـبة ١٪ ملزمـاً[٢] يعـني فينـا نـزرع كـمان حشيشـتنا الـتي تبلـغ نسـبة المخـدر فيهـا ٢٣٪»، كـما يقـول.

مـزارع ثالـث يبـدأ مـن سـعر كيلوغـرام البنـدورة الـذي انخفـض بعـد «صفقـة رمّـان الكبتاغـون المهـرّب إلى السـعودية، وتوقُـف الأخـيرة عـن اسـتيراد الخضـار والفاكهـة اللبنانيـة، مـن ٥ آلاف إلى ١٥٠٠ لـيرة، يعـني أقـلّ مـن دولار، والخيـار مـن ٨٠٠٠ إلى ١٠٠٠ لـيرة، يعـني أقـل مـن ٥٠ سـنتاً، شـو بدهـن نـزرع بنـدورة وخيـار؟ أكيـد لا، منفضّـل تبقى أرضنـا بـور عـلى تكبّـد الخسـائر».

مـزارع رابـع يمسـك بالآلـة الحاسـبة ويحسـب: «يبلـغ سـعر ٢٥ كيلوغـرام مـن بـذار البطاطـا الأجنبيـة ١٥ دولاراً، ونحتـاج لزراعـة حقـل بمسـاحة ألـف مـتر إلى ١٠٠ كيلوغـرام بـذار بطاطـا، يعـني ٦٠ دولاراً، مـا يسـاوي ٧٥٠ ألـف لـيرة لبنانيـة، مـن ويـن منجيـب الـدولار والمصـاري؟» أمـا الشـتلة الواحـدة مـن البنـدورة العنقوديـة فتبـاع اليـوم بـ ٣٥٠٠ لـيرة لبنانيـة، بعدمـا كانـت بأقـلّ مـن ٥٠٠ لـيرة، «معقـول نقـدر نشـتري الشـتلة بهالمبلـغ ونبيـع الكيلوغـرام بـ ١٥٠٠ لـيرة؟»، يسـأل كمـن يحـدّث نفسـه، في إشـارة إلى الارتفـاع الكبـير الـذي دخـل عـلى زراعـة الخضـار وبالتـالي الجـدوى منهـا.

عـدا عـن ثمـن شـتول الخضـار وبذارهـا، يحسـب مـزارع آخـر كلفـة الأسـمدة والأدويـة الزراعيـة «وكلّهـا بالـدولار لأنّهـا مسـتوردة». إذ يبلـغ ثمـن ليـتر دواء الفطريّـات الـتي تصيـب كلّ أنـواع المزروعـات ١٥ دولاراً، عـلى سـبيل المثـال وليـس الحـصر، «ومـش ممكـن مـا نكافـح الفطريّـات والأمـراض لأنـه مـا منقـدر نبيـع الإنتـاج».

الحشيشة
«شغلة لي ما عنده شغلة»

غـلاء البـذور والشـتول والأدويـة والأسـمدة والمبيـدات المسـتوردة جميعهـا بالـدولار، يضيفهـا المزارعـون إلى طبيعـة الأراضي في جـرود البقـاع الشـمالي «معظـم أراضينـا تحتـاج إلى اسـتصلاح، ليـس لدينـا قنـوات للـري، ولا بـرك زراعيـة لتجميـع ميـاه الشـتاء، كـما أنّ الأوديـة الـتي تشـكّل نصـف مسـاحة الجـرود كلّهـا بعليّـة، وهنـاك مناطـق لا تصلهـا الطرقـات ولا الكهربـاء، فكيـف سـنعيش؟» سـؤال مماثـل «لا يعـني الدولـة» كـما يـرى أحـد المزارعـين «المهـمّ يعملـوا مذكّـرات توقيـف، هـذا مفهومهـم لوجـود الدولـة الأمـني في منطقتنـا، أمـا أمننـا المعيـشي فـلا يعنيهـم، ولا كيـف نواجـه كل هـذه الظـروف ومعهـا فقرنـا وعوزنـا، لا يعتبرونهـا مشـكلتهم». ويشـير المـزارع وهـو صاحـب أراضٍ تمتـدّ عـلى مئـات الدونمـات إلى أنّ أهـل البقـاع الشـمالي وخصوصـاً القابعـين في الجـرود يعانـون الأمريّـن منـذ مـا قبـل انهيـار سـعر صرف الـليرة والغـلاء الفاحـش مـع انهيـار البـلاد «فهـل فكّـروا فينـا اليـوم؟ كيـف نطعـم أبناءنـا؟ كيـف سنعلّمهم؟ كيـف نـردّ الجـوع عنـا؟» ويختم بالقـول

(٢) منحـت التعديـلات الـتي أدخلهـا رئيـس الجمهوريـة عـلى القانـون ١٧٨ (نـشر في الجريـدة الرسميـة في ٤-٦-٢٠٢٠) قبـل توقيعـه، صلاحيـات تحديـد نسبة المخـدّر للهيئـة الناظمـة الـتي تشـكلها الحكومـة لزراعـة القنـب وذلـك في البـاب الثـاني المـادة ٤ مـن القانـون، ولم تعـد نسـبة المخـدر «تي أتـش سي» محصورة بعـدم تجاوزهـا بـ ١٪ كـما كانـت في النسـخة الصـادرة عـن مجلـس النـواب، ولكـن لم تعـين الهيئـة طبعـا ولم يطبـق القانـون، وليـس معروفـا أي شيء عـن نسـبة المخـدر الـذي سيسـمح بـه لزراعـة القنـب المرخـص.

«لا أعتقد أنّ الدولة ستفكّر في معاقبة المزارعين في حال بذروا حقولهم بالحشيشة، وإلّا فإنّنا سنكون أمام مظلومية كبيرة، ومش ناقصنا مزيد من الطفّار والمطلوبين».

يقول أحد المزارعين إنّه يريد أن يوجّه سؤالاً إلى السلطات عبر «المفكرة»: «فليقولوا لنا متى قصدوا المنطقة آخر مرة؟ ماذا قدّموا لنا؟ هل درسوا تربة أراضينا وماذا يناسبها؟ متى منحنا المشروع الأخضر مساعدات لاستصلاح أراضينا؟ ومتى جاءنا دعم زراعي؟ وماذا عن طرقاتنا التي تتكسّر عليها سياراتنا، ولا نجد آلية بيك آب تنقل منتوجاتنا إلّا بأسعار تقارب سعر المبيع؟ ويخلص المزارع إلى القول وهو يمسك بكمشة بذور القنبز ويرشّها وراء التراكتور الزراعي «هنّي شرّعوها وأنا بدّي إزرع، متلي متل غيري».

مزارع آخر يصف زراعة الحشيشة سواء شرعية أم مخالفة للقانون بـ»شغلة لي ما عنده شغلة»، ليؤكّد أنّ سعر «هُقّة الحشيشة» اليوم (١٢٦٠ غراماً) لا يتجاوز مئة دولار في أفضل الأحوال «بيستاهل هيدا المبلغ نصير مطلوبين وطفّار؟»

والسؤال الذي يشغل بال المزارعين اليوم هو أنْ يشكّل الوضع الحالي سبباً إضافياً لجعلهم أكثر هشاشة وعرضة للمساءلة والملاحقة القانونية في وقت قصّرت فيه الدولة في وضع الآليات التي تمهّد لتطبيق القانون.



تجفيف الحشيشة استعداداً لبدء تصنيعها | **تصوير سعدى علوه**



ابنة العشيرة التي كُنت

سعدى علّوه

هذا النص هو عبارة عن مشاهد استحضرتها من طفولتي تعبرّ عمّا قد تعيشه أو تتعرّض له ابنة عشيرة

المشهد الأوّل:
حين رفعت مسدّساً بوجه راعي الماعز

كنـت في الرابعـة عـشرة مـن عـمري عندمـا ظهـر أحـد رعـاة الماعـز وهـو يسـوق قطيعـه داخـل أراضي ابـن خالـتي قبالـة أراضينـا في جـرد مرجحـين. اسـتاء أبـي مـن فعلتـه وقـال لي: "خـدي الفـرد (المسـدس) وانـزلي قلّعيـه (اطرديـه) مـن أرضنـا". أدخلـت المسـدس تحـت بنطلـون الجيـنز عـلى طـرف خـصري، ركبـت الفـرس واتّجهـت مسرعـةً نحـو الرّاعـي الصغـير، وكان يقاربـني في العـمر، وأمرتـه بلهجـة الواثقـة مـن سـلطتها أن يُخـرِج قطيعـه مـن أرضنـا، خصوصـاً أنّـه كان مـن عائلـة طالمـا اسـتضعفتها العشـائر. جاوبـني، وكان محقّـاً، أنّ هـذه ليسـت أرضنـا إنّمـا أرض "فـلان الفـلاني". عـلى الفـور، ووفقـاً لتعليمـات أبـي، سـحبت المسـدس وهدّدتـه بإطـلاق النـار عليـه، فأذعـن وذهـب بقطيعـه بعيـداً. خـلال عـودتي إلى البيـت كنـت مزهـوّة بنفسي، هـا أنـا نفّـذت المهمّـة الـتي أوكلهـا لي أبـي، وهـي مهمّـة عـادة مـا تقـع عـلى عاتـق الشـبّان. شـعرت أني كنـت بحـق كـما يجـب لابنـة العشـيرة أن تكـون. في صيـف ٢٠٢٠، اندلعـت نـيران الحرائـق في جـرد الهرمـل فقصـدت المزارعـين هنـاك للاطّـلاع عـلى خسـائرهم. مـا أن رآني أحـد هـؤلاء حـتى بـادرني ممازحـاً "جايبـة معـك الفـرد؟". كان هـو الراعـي الصغـير الـذي شـهرت المسـدس في وجهـه. لم أعرفـه لكنّـه عرفـني فـوراً، ربمـا لأنّـه غـير قـادر عـلى نسـيان فعلـتي.

لا زلـت لغايـة اليـوم أشـعر بـأسى ممـزوج بالخـوف كلّـما تذكّـرت هـذه الحادثـة: مـاذا لـو تشـبّث الراعـي بموقفـه ورفـض الخـروج مـن أرض ابـن خالـتي، هـل كنـت سـأطلق عليـه النـار؟ ومـاذا لـو فعلـت؟ هـل كنـت سـأكون اليـوم قاتلـة سـابقة؟ مـن منـح أبـي الحـق في أن يرسـلني في مهمّـة مماثلـة؟ كيـف لـه أن يفعـل ذلـك وأنـا طفلـة لم أكـن أفقـه معـنى المطلـوب منّي، وتأثـيره عـلى مجمـل حيـاتي مـن بعدهـا؟

المشهد الثاني:
إكرام الضيف

كنـت مـع أبـي وحدنـا في بيتنـا الجـردي حيـث لا دكاكـين ولا أسـواق، فيمـا يبعـد أقـرب بيـت إلينـا، وهـو بيـت عمّـي نحـو كيلومتريـن اثنـين. جـاء رجـل مـن عشـيرة ناصرالديـن لزيارتنـا وكنـت وحـدي في المـنزل بعدمـا غـادر أبـي إلى منطقـة مغـرّب، عـلى حـدود مشمـش العكاريـة، ولـن يعـود منهـا قبـل العـصر. كعادتنـا في التعامـل مـع الضيـوف رحّبـت بـه وأدخلتـه إلى "صـدر" الـدار، وهـي غرفـة الضيافـة، وقلـت لـه سـيعود أبـي بعـد قليـل، وللحقيقـة كنـت أكـذب. إذ كانـت السـاعة تقـارب

١١ صباحاً وكان يلزم أبي نحو ٥ إلى ٦ ساعات للرجوع. وفوراً ناديت على الراعي، ابن شركائنا في الموسم الزراعي الصيفي، وطلبت منه سرّاً أن يذبح لي خروفاً إكراماً للضيف. وعندما أتمّ مهمّته قلت لضيفنا "هذه ذبيحتك، أرجو أن تسلخها، أي يسلخ جلدها عن لحمها ويُخرج أحشاءها، لأتمكّن من إعداد الطعام له. عندما عاد أبي، كان زائرنا قد تناول طعامه وما زال معظم الذبيحة معلّقاً تحت شجرة اللزّاب التي تورّف فوق مصطبة بيتنا. أذكر أنّ عينا أبي، لمعتا فرحاً بما قمت به، وخصوصاً بعدما قال له صديقه "عندك بنت بميّة صبي". يومها فرحت لأنّي نجحت في أن أكون "ابنة العشيرة" كما يُتوقع منها أن تكون.

المشهد الثالث:
هاجس الثأر ومتطلّباته

بعد الثانية عشرة من العمر كان معظم رجال العشائر يدرّبون بناتهم على الرماية. كان أبي يضع لنا ملقط الغسيل على بعد ٢٠ متراً ويعطي جائزة لمن تتمكن من بيننا من قطعه إلى فلقتين. بعد الملقط يأتي دور السيجارة، علينا أن نقصّها نصفين. كيف لا، ونحن كنساء عشيرة معرضات لمواقف قد نضطر فيها لاستعمال السلاح، هكذا كانوا يعدّوننا لمواقف مماثلة، أو ربما هي رغبتهم الدفينة في أن نكون كالرجال، ألا تحتسب العشائر بالبنادق؟ كأن يقولون "عشيرة علوه بتعدّ ٣٠٠٠ بارودة" على سبيل المثال، يعني ٣٠٠٠ رجل.

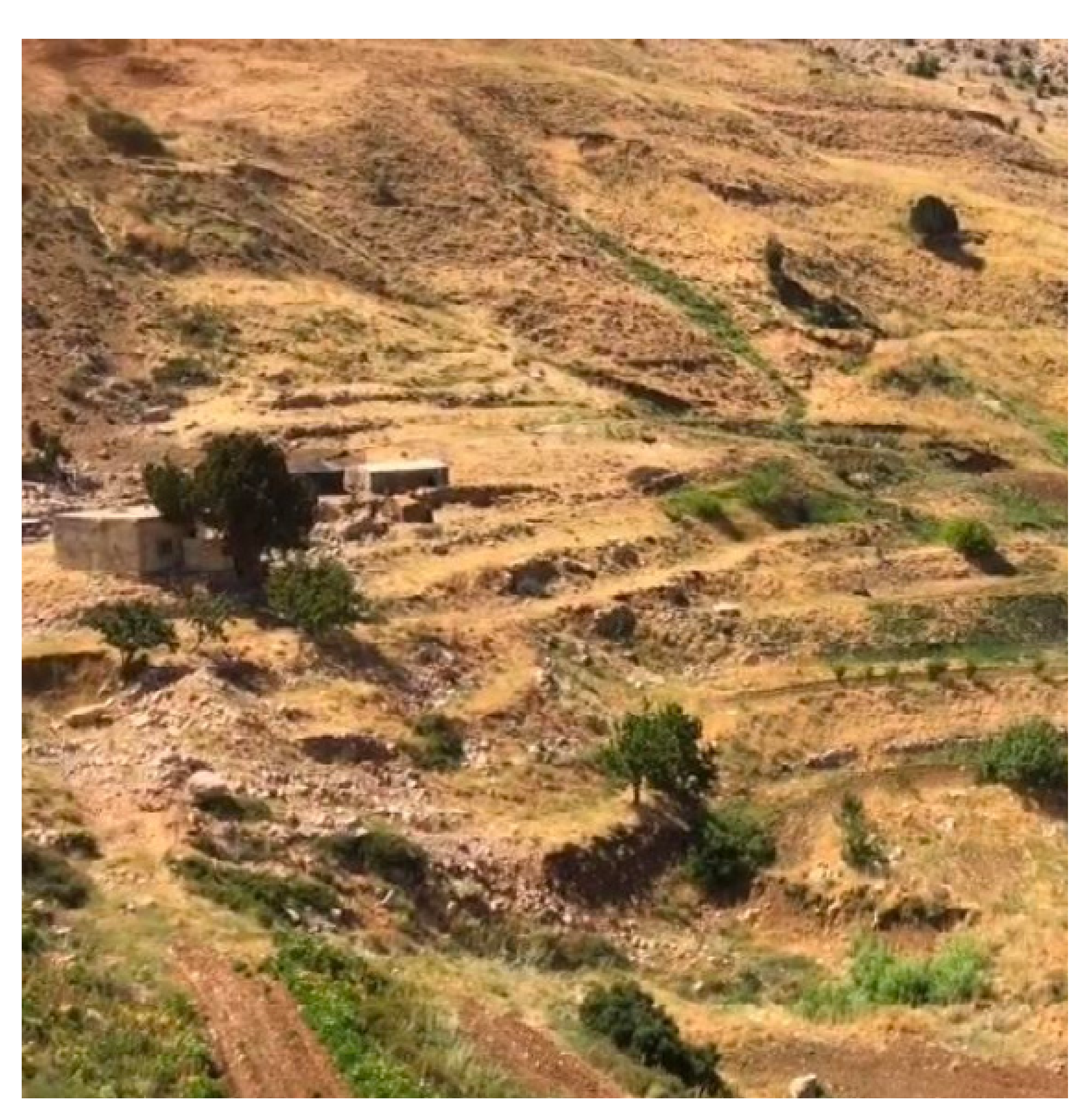
فعلاً كنّا نضطرّ لاستعمال السلاح. في صغري كان هناك ثأر بيننا وبين آل علّوش من منطقة سير الضنية بسبب قتلهم عمّي ممّا استتبع الأخذ بثأره. ولأنّ الثأر يجر ثأراً، وكون منزلنا في جرد مرجحين يقع على حدود الضنّية، كنّا نتوقع "غزوة" للأخذ بالثأر في أيّ لحظة. يقع بيتنا الجردي في سفح جبل مليء بالحجارة والبحص الأبيض، نطلق عليه اسم البحصاص. كنّا كلّما نسمع وقع أقدام في البحصاص بسبب حركة البحص نظنّ أنّ هناك من يقصدنا للثأر، كونه لا يوجد بعد بيتنا بيوت لعشيرتنا وحيث تمتدّ أرضنا هناك لتلامس أراضي قضاء الضنّية. حصل مرّات عدّة أن نكون كبنات لوحدنا في البيت، ويكون أبي وأخوتي في الهرمل، ونسمع حركة في البحصاص، فنخرج ليلاً بالسلاح ونطلق رشقاً نارياً باتجاه الجبل ليظنّ العابر، في حال وجوده، أنّ في البيت رجال وقد انتبهوا لهم. غالباً ما تكون الحركة ناتجة عن عبور حيوان في منطقة نعيش فيها مع الذئاب والضباع والثعالب وابن آوى وطبعاً الكلاب الشاردة، ولكنّ الحذر واجب دائماً وأبداً. سأذيع سرّاً وأقول إنّي كطفلة نشأت في ظلّ مشاكل الثأر والثأر المضاد، أحياناً كنت أتبوّل في فراشي لأنني أخاف الخروج إلى البرّية ليلاً حيث نقضي حاجتنا لأنّ منازلنا الجردية كانت بلا مراحيض. ومع أنّني كنت أؤنَّب على فعلتي في كلّ مرة، ويعيّرني أخوتي بـ"الشخاخة"، لكنّني كنت أخاف ولا أجرؤ على البوح بذلك، كون ابنة العشيرة لا يجب أن تخاف.

المشهد الرابع:
الرتل العسكري

قلّما يخلو بيت عشائري جردي من وجود الطفّار[١] . وعليه، كان ظهور أيّ جندي أو آليّة عسكرية يثير لدينا مشاعر قلق وخوف، تبلغ مداها في حال كان الآتي إلى حِمانا، وبيوتنا، رتل عسكري. وإذ ينجح الطفّار بفعل بُعد هذه الحمى والمسارات المكشوفة في معظم الأحيان في مغادرة منازلهم قبل وصول المداهمات العسكرية فينجون بأنفسهم من القبض عليهم، لكنّنا نحن الصغار لا ننجو. يقتحم الجنود بيوتنا برشّاشاتهم المصليّة (أي برصاصات في بيت النار)، يوجّهونها إلى صدورنا فيما ينتشرون من حولنا وفي داخل منازلنا الصغيرة الفقيرة المتواضعة الخالية من مخابئ أو خزائن، غالباً ما تكون مكشوفة يقتصر أثاثها على فرشات صوفية كمدّات (طراريح)، نجلس عليها نهاراً وننام عليها ليلاً، وببعض اللحف المصفوفة في "الليوك"[٢] . كان الجنود يبقرون حتّى فرشاتنا الصوفية بحثاً عن أسلحة أو حشيشة، وكنّا بعد مغادرتهم ننتظر أمي حتى ساعة متأخّرة من الليل لتتمكّن من إعادة رتي وتقطيب الفرش لنتمكّن من النوم عليها مجدداً. في إحدى المرّات، اقتربت من العسكري خائفة وقلت له بصوت مرتجف: "ما تخزق فرشتي فيك تطويها بيّن إذا فيها سلاح". لم يعرني انتباهه وشقّها بسنغة[٣] بندقيته وأخرج أحشاءها- صوفها أمامي. كنا نقضي ساعات طويلة بعد رحيل الجنود ونحن نلملم الأواني المنزلية التي كانوا يرشقونها خارج الخيم التي نستعملها كمطابخ. سبق ورأيتهم بأمّ عيني يضرمون النيران في منازل يقتحمونها، وكنت أعتبر نفسي محظوظة كونهم لم يحرقوا بيتي ونحن بداخله. لم تكن تجمعنا بالجيش مشاعر ودّية. لم نشعر يوماً أنّه حامينا وجيش دولتنا التي لم نتعرّف إليها إلّا عبره. لاحقاً استلزمني الكثير من الوقت في رحلتي نحو تنمية حسّ المواطنة والانتماء إلى الدولة، للتصالح مع الدولة نفسها من جهة، ومع الجندي الذي نتشارك وإياه الفقر والحرمان والتهميش من جهة أخرى.

سألتني مرة إحدى الزميلات في ورشة عمل "ماذا يعني أن تكوني ابنة عشيرة؟، هل هذا شيء إيجابي وجميل؟". للحقيقة فكّرت قبل أن أجيب، ولا أخفي أنّي عبرت سريعاً على شريط هذه الحياة، حياتنا نحن نساء العشائر المعقّدة والمتشعّبة والمليئة بالمتناقضات، قبل أن أقول لها "إنّها تجربة غنيّة جداً، ولكن ليس كل شيء فيها جميلاً، ولا هي سهلة بالطبع".

(١) أنظر مقالة "الطفّار" في هذا الملف.
(٢) خزائن طينية في جدران المنازل الترابية يضع فيها سكان الأرياف لحفهم والأغطية وفرشاتهم.
(٣) سنغة البارودة هي نصل معدني مروّس بطول ٤٠ سنتمتراً يستعمل للشق وكسلاح أبيض.



الحمى في أعالي مرجحين

القوى الأمنية تصل متأخّرة وتبويس اللّحى هو الحلّ

أمن الهرمل في فوّهة بندقية العشائر

سعدى علّوه



رسم رواند عيسى

يسرح رجل الأمن، الذي خدم في مخفر الهرمل، بنظره بعيداً ليتذكّر «خدمت سنتين بالمنطقة، صدّقي ولا نهار قبضنا على متهم أو مطلوب». هل الحوادث الأمنية نادرة في الهرمل؟ نسأله بخبث العالِم بالجواب. يضحك ويضيف «ما بكون عم بالغ إذا قلتلك إنّه نادراً ما مرّ يوم من دون قواص». يطلق بعض أهل المنطقة النار في «الأفراح، وأحياناً لولادة طفل في حال تأخّر قدومه، يشيّعون موتاهم بالرصاص، ويتقاتلون بالسلاح الناري، وحتى على أتفه الأسباب في كثير من الأحيان... طبعاً أتحدّث عن بعض أبناء العشائر الذين يشكلون الغالبية في القضاء، وليس في المدينة نفسها، لكن الهرمل ساحتهم». ويصرّ رجل الأمن أن يميّز للمرة الثانية «في كتير أولاد عشاير بيرفضوا هالممارسات من أساسها، يعني مش كل أصابع إيديك متل بعض».

لدى أهل الهرمل جواب شبه موحّد عندما تسألهم عمّا ينقصهم في مدينتهم: «الأمن، بدنا

الأمـن قبـل رغيـف الخـبز، لأنّـه الرغيـف بيجـي مـع الأمـن كمـان»، يقولـون. يعـود أحـد سـكان الهرمـل ضحايـا السـلاح المتفلّـت ليحـصي نحـو عـشرة مـن شـبّان وشـابات المنطقـة سـقطوا خـلال السـنوات الخمـس الأخـيرة ضحايـا لهـذا السـلاح أو خـلال معـارك العشـائر بـين بعضهـا البعـض. أمّـا عـدد المنازل الـتي يصيبها الرصاص خلال معاركهـم فـلا تعـدّ ولا تحـصى. وعندمـا نسـتعمل كلمـة عشـيرة فنحـن لا نعـني أنّ العشيرة كلّها تدخل في المواجهة، لكـن وبحكـم المفاهـيم العشـائرية والعـادات، يصبـح كلّ أبنـاء العشـيرة معنيـين بالمشـكلة ومسـتهدفين مـن خصـوم عشـيرتهم.

وحـين تـدور المعـارك بـين أي عشـيرتين، لا يُحسـب حسـاب للهرمـل وأهلهـا (خصوصـاً منـذ انتهـاء الحـرب الأهليـة)، ويصبـح قلـب المدينـة وسـاحتها مرتعـاً لأبنـاء العشـائر يتحرّكـون فيـه عـلى هواهـم. فعـلى سـبيل المثـال وليـس الحـصر، تسـببت معركـة شرسـة دارت بـين عشـيرتَي علّـوه ودنـدش في ١٩٨٩ بإقفـال مدينـة الهرمـل لأربعـة أيـام مـع مدارسـها حيـث تبـادل المسـلّحون مـن العشـيرتين نـار الأسـلحة الرشاشـة والصاروخيـة مـن المـرج إلى الحـارة والمعـالي وبديتـا بالاتجاهـين. كمـا حصلـت مواجهـات بالرصـاص بـين رجـال العشـيرتين عـلى طـرفي سـاحة السـبيل الـتي يتّصـل طرفهـا الغربـي بحـي المـرج، مـكان تمركـز آل علّـوه، فيمـا يُحتسـب طرفهـا الـشرقي ضمـن سـيطرة آل دنـدش الذيـن يسـكن بعضهـم في حـي الحـارة الملاصـق مـن الـشرق لسـاحة السـبيل. وشـهدت الهرمـل خـلال تلـك المعركـة نـزوح بعـض أهلهـا إمـا إلى بـيروت أو إلى بيـوت أصدقـاء لهـم عـلى أطرافهـا أو خارجهـا في المنطقـة الوسـطى مـن القـاع إلى رأس بعلبـك والفاكهـة.

ومؤخـراً شـهد العـام ٢٠٢٠ أكـثر مـن اشـتباك بـين عشـيرتَي دنـدش وحمـادة أصيبـت خلالـه معظـم منـازل سـكان أحيـاء الضيعـة والمعـالي وبديتـا.

وحـين يتواجـه أبنـاء عشـيرتين متخاصمتـين في ساحات الهرمـل أو في شـوارعها، تتحـوّل المدينـة إلى سـاحة حـرب ريثمـا تصـل قـوّة مؤللـة مـن الجيـش اللبنـاني مـن ثكنتـه في حـي الـدورة. وغالبـاً مـا يصـل الجيـش بعـد عـودة المسـلّحين إلى قواعدهـم سـالمين. أمـا عنـاصر مخفـر الهرمـل الموجـود في السرايـا الحكوميـة بالقـرب مـن سـاحة السـبيل، فـلا يخرجـون إلّا بعـد أن تهـدأ الأحـوال ويتوقّـف الرصـاص. وهنـاك «طرفـة» يتبادلهـا أهـل الهرمـل بحرقـة ومـرارة عنـد كل اشـتباك مسـلّح تفيـد أنّ عنـاصر المخفـر يختبئـون تحـت الطـاولات بانتظـار أن ينهـي المتقاتلـون تبـادل النـيران.

الأسلحة: أنواعها وانتشارها

يقـول أحـد زعمـاء العشـائر إنّ الأخـيرة هـي ثالـث قـوّة مسـلّحة في لبنـان بعـد حـزب الله والجيـش اللبنـاني «نحـن بـس مـا عنّـا صواريـخ حـزب الله ولا مدافـع الجيـش اللبنـاني وملّالاتـه والدبابـات، والبـاقي انشـالله كلّـه متوفّـر».

تتدرج الأسلحة من المسدّس وهو سلاح روتيني يمتلكه معظم شبّان ورجال العشائر حتى أنّ بعضهم لا يخرجون إلّا والمسدس «يزيّن» خصورهم، فيما يُترك الكلاشنكوف في السيارة. والكلاشنكوف الروسي، أو الأخمس (في حال كانت قبضته من الحديد وليس الخشب) هو ثاني سلاح شائع للأفراد من العشائر، وغالباً ما يكون رفيق بعض رجالها.

بعد السلاح الفردي، يحرص معظم أصحاب بيوت العشائر على وجود السلاح داخل الأسر وهو الدرجة الثانية من التسلّح في العشيرة. وقد يصل الأمر ببعض الأسر أن تقتني M16 وقنّاصة وحتى RPG. من سلاح البيت إلى سلاح الفخذ، إذ يحرص المتمون للفخذ أو الجب على وجود سلاح مشترك لعصبيّتهم الصغيرة يحتاجونه في حال نشب صراع بينهم وبين فخذ آخر في العشيرة نفسها.

أما تسلّح العشيرة، فيحصل على صعيد العصبية الجامعة للأفخاذ والأجباب. وهنا يفرض مجلس العشيرة على كلّ فخذ وجبّ مبلغاً معيّناً لجمعه مع الأفخاذ والأجباب الأخرى لشراء سلاح العشيرة الذي يُخبّأ في مخزن العشيرة. وتتولّى لجنة من زعماء العشيرة ووجهائها الإشراف عليه، وتكون وصية على مصيره وطرق استخدامه وتوقيته. ولا يُستخدم هذا السلاح في صراعات داخلية ضمن العشيرة الواحدة، بل يُخرج من المستودع فقط عند نشوب معركة بين عشيرتين. وعند نشوب الحرب الأهلية اللبنانية وتوفّر السلاح بكثرة بين الناس، بدأت العشائر تعمل على التسلّح الجماعي وشراء الأسلحة لحساب العشيرة كعصبية، وفق ما يقول أحد زعماء العشائر لـ«المفكرة». يتنوّع سلاح كلّ عشيرة، وفق الزعيم العشائري نفسه، من المسدس إلى الكلاشنكوف، إلى M16، فالقنّاصات، والقاذفات كـ BV، وB١٠ المعروفة بـ RPG، وهي قاذفات بخطّ مباشر ومستقيم، إلى الرشاشات المتوسّطة المدى كـ١٢,٧ ومعروف أيضاً بالدوشكا، أو رشاش ٥٠٠ وهو سلاح سوفييتي ثقيل مضاد للطائرات ويمكن استخدامه ضد المشاة، ويركّزه الجيش اللبناني عادة على دباباته، أما العشائر فتركّزه على آليات «بيك آب».

ولأنّ العشائر تتقاتل من منطقة إلى أخرى أو من حي إلى آخر، فكان لا بدّ من شراء مدافع ٦٠ و٨٠ و٨٢ وهي مدافع تعمل بشكل منحنٍ يمكن إطلاقها من وراء مبنى لتصيب حي العشيرة المنافسة، وهي مدافع تقع تحت تصنيف الهاون. ويقول زعيم العشيرة نفسه إنّ بعض العشائر اقتنوا صواريخ «غراد» خلال الحرب اللبنانية «وما بعرف مين بعد عنده غراد حتى اليوم»، وصاروخ غراد هو من الصواريخ المستخدمة في النزاعات والحروب الإقليمية نظراً لمداه القصير وفعاليته التدميرية وانخفاض سعره مقارنة بالأسلحة التي تواجهه.

وتخزن كل عشيرة الذخيرة لكلّ نوع من أسلحتها. «وعندما تدور المعارك بين عشيرتين ينشط تجّار السلاح في تغذية مستودع كلّ عشيرة»،

وفـق المصـدر نفسـه «يعـني مـا بتنقطـع العشـيرة وممكـن تشـتري أسـلحة جديـدة إذا اسـتلزم الأمـر». ولكـنّ العشـائر، وفـق المصـدر، لا يمكنهـا شراء مدافـع ١٢٠ و١٣٠ و١٥٥ طويلـة المـدى نسـبياً كـون حجـم المدفـع الواحـد منهـا يصـل إلى ٦ أو ٧ أمتار ويكون من الصعب إخفاؤه بعيداً عن أعين الجيـش. ويسـتخدم الأسـلحة المتوسـطة والثقيلـة رجـال العشـائر الذيـن كانـوا مـع الأحـزاب خـلال الحـرب اللبنانيـة أو مـن المتقاعديـن في الجيـش، ويـؤتى بخـبراء أسـلحة ومدرّبـين لتدريـب رجـال كل عشـيرة عـلى اسـتخدام الأسـلحة.

ساحات المعارك

قبـل حـرب ١٩٧٥-١٩٩٠، كانـت العشـائر تتجنّـب خـوض معاركهـا الكبـيرة، مـن عشـيرة ضـد عشـيرة أخـرى في الهرمـل وسـاحتها وبـين أحيائهـا، إلّا عنـد حصـول مشـاكل يسـتتبعها إطـلاق نـار فـوري في مـكان حصولها. وكانـت العشـيرتان، في حـال تطـوّر خلافهمـا إلى معركـة عشـائرية ثنائيـة، يحيّـدون الهرمـل كسـاحة صراع و«يطلبـون بعضهمـا البعـض إلى الجـرود للتقاتـل، حيـث تتجـاور جرودهمـا»، كمـا يقـول زعـيم إحـدى العشـائر. وحصـل هـذا الأمـر، عـلى سـبيل المثـال لا الحـصر، في السـبعينيّات بـين عشـيرتي ناصرالديـن وعلّـوه اللتـين تقاتلتـا لنحـو ١٧ يومـاً في جـرد مرجحـين الـذي تتقاسـمان ملكيّتـه. يومهـا لم تكـن العشـائر قـد اسـتكملت نزوحهـا الكبـير نحـو مدينـة الهرمـل، وبالتـالي لم يكـن وجودهـا طاغيـاً فيهـا، وتحديـداً عـلى أطرافهـا، كمـا اليـوم. ويقـول أحـد أبنـاء العشـائر لـ«المفكـرة» إنّ هذه العـادة لم تنتـفِ تمامـاً اليـوم فـ«إحدى العشائر طلبـت مؤخـراً عشـيرة أخـرى عـلى خـلاف معهـا للتقاتـل في الجـرود، إثـر تعـثّر مبـادرات الصلـح بينهمـا»، ولكـن تعـذّر علينـا التأكّـد مـن هـذه المعلومـة مـن مصـدر آخـر.

وحاليـاً صـارت معـارك العشـائر تتطـوّر في مـكان حصولهـا «يعـني بيصـير إشـكال ويتبعـه إطـلاق النـار سـواء كان في أحـد أحيـاء الهرمـل أو في سـاحتها». ولأنّ السـاحة غـير تابعـة لأيّـة عشـيرة، بـل يسـكنها أهـل الهرمـل أنفسـهم، فهـي تتحـوّل غالبـاً إلى مـكان للتقاتـل العشـائري ومواجهاتـه، خصوصـاً وأنّ الجميـع يضطـر للعبـور بهـا في ذهابـه وإيابـه داخـل المدينـة، ويتركّـز السـوق الأسـاسي عـلى ناحيـتي طريقهـا العـام.

وفي حـال تطـوّر الخـلاف بـين أشـخاص مـن عشـيرتين إلى معركـة بـين العشـيرتين، يـتمّ تبـادل إطـلاق النـيران مـن الأسـلحة الخفيفـة والمتوسـطة وصـولاً إلى القذائـف والمدافـع، مـن منطقـة تمركُـز هـذه العشـيرة في الهرمـل إلى منطقة تمركُز العشيرة الخصـم، مـن دون إيـلاء أي اعتبـار لأمـن الهرمـل وأهلهـا. وهـذا الأمـر ينسـحب عـلى المواجهـات والإشـكالات الـتي تقـع بـين أبنـاء العشـائر وأماكـن تبادلهـم إطـلاق النـار حيـث يحشـد مـع كلّ طـرف شـباباً مـن أقاربـه ويقصـدون مـكان الإشـكال أو «يربطـون في الطريـق» أي يرابطـون ويتربّصـون بخصومهـم ليطلقـوا النـار عليهـم لـدى مرورهـم. وغالبـاً مـا يكـون الأشـخاص المرصـودون مسـلّحين

فيتحوّل الأمر إلى اشتباك مسلّح في قلب المدينة. وفي هذا الإطار، يروي لنا الشاب وجدي علّوه تجربته المريرة في مقهى Passion الذي افتتحه بين ساحة السرايا في الهرمل في العام ٢٠٠٦، كأوّل مقهى - كافيه في الهرمل. يقول وجدي لـ«المفكرة» إنّ الخطوة كانت غريبة عن المدينة ولكن ما أن اعتادها الناس حتى صار المقهى يعجّ بالرواد «صار الشغل متل النار، وصار يجي صبايا وشباب وطلّاب مدارس وجامعات يلتقوا عنا ويتناقشوا». شيئاً فشيئاً بدأت أحداث الهرمل الأمنية تؤثّر على المقهى «مرّة فات واحد من بيت محفوظ حاطط مسدس على جنبه وحامل آلة حادة وهجم وضرب زبون عندي من بيت قانصوه براسه وكان قتله»، وفق وجدي. في يوم آخر هجم شاب من آل علّوه على شاب من عشيرة ثانية وتحوّلت الكافيه إلى ساحة عراك «والله ستر ما وقع قتلى». وفي الثالثة هاجم شبّان أحد روّاد المقهى من آل ناصرالدين وأدى تدخّل آخرين إلى منع إطلاق النار. وأدّت الاشتباكات التي كانت تدور «بين العشائر إلى إصابة المقهى بطلقات نارية عدّة. صرت عم لمّ رصاص بعد كل اشتباك شي ع واجهة المقهى شي من جوّاته». وكان وجدي يضطر عند أيّ خلافات بين عشيرته (علّوه) وأي عشيرة أخرى أن يقفل محلّه تجنّباً لمهاجمته فقط لأنّه من آل علّوه «أوقات كتير ما بعرف صاحب المشكل بس غصباً عني أُصّنف ضدّ الطرف الآخر وقد أدفع الثمن». كما أنّه بعد كلّ إشكال أو مواجهة عشائرية يتجنّب روّاد المقهى التواجد في الساحة تخوّفاً من تجدّد إطلاق النار وبالتالي «بيوقف الشغل».

باع وجدي استثمار الكافيه لشباب من آل علّوه كانوا يشتغلون معه ووضّب حقيبته وغادر إلى بيروت بحثاً عن عمل «قلت ممكن إقتل شي نهار وروح فرق عملة». في الأسبوع الثاني من نيسان ٢٠٢١، تعرّض المقهى عينه لإطلاق نار أصاب قارورة الغاز في مطبخه فانفجرت واحترق بالكامل، ولم يُعرف الجاني لغاية اليوم.

ضحايا لا ناقة لهم في المشاكل ولا جمل

هذا الواقع لا يمرّ من دون سقوط ضحايا أبرياء لا دخل لهم بل صودف تواجدهم في المكان الخطأ عند اندلاع الاشتباكات. ويتحدّث سكان المدينة عن سقوط ١٠ ضحايا خلال السنوات الخمس الأخيرة في اشتباكات أو مواجهات عشائرية، من بينهم فتاة مراهقة من عائلة الحسيني كانت تبتاع دواء من صيدلية حي الضيعة وما إن خرجت إلى الشارع حتى باشر شابان من عشيرتي علّوه وحمادة بإطلاق النار على بعضهما البعض فأصابا منها مقتلاً في العام ٢٠١٩. بعدها بنحو شهرين، حصل اشتباك بين أبناء عشيرتين أخريين أمام مبنى السرايا ما أدّى إلى إصابة الشابة حسنة علّام التي كانت تمر في المكان، في رأسها وقد نجت من الموت بأعجوبة. وفي شباط ٢٠٢١، قُتل بشار علّام وهو شاب عشريني عسكري في الجيش اللبناني صودف وجوده برفقة شبّان من آل علّوه عندما تعرّضت سيارتهم في حي المعالي لهجوم من قبل شبان من آل عوّاد

على خلاف سابق معهم ممّا أدى إلى مقتله على الفور وجرح الآخرين.

وسقوط الضحايا الذين لا علاقة لهم بالمعارك أمر قديم جداً ففي أواخر الثمانينيّات، هاجم شبّان من آل علّوه سيارة مرسيدس ظنّاً منهم أنّ سائقها هو غريمهم من آل دندش. وأمطر الشبّان السيارة بالرصاص ثم أطلقوا عليها قذيفة يدوية فقتل صاحبها وجيه جعفر الذي لم يكن له أي علاقة بالمشكلة بين دندش وعلّوه. وفي الفترة ذاتها، وقع إشكال في ساحة السبيل بين آل شعيب - النمر وبين آل ناصرالدين، قتل فيه فيّاض علّوه أثناء محاولته تهدئة المتعاركين.

رصاص للموت ورصاص للابتهاج

ولكنّ الرصاص في الهرمل ليس للاشتباك فقط. فقد درجت العادات العشائرية على إطلاق النار في الأفراح والأتراح، وكثيرة هي الأعراس التي انقلبت أحزاناً نتيجة إصابة بعض الحاضرين بالرصاص. ودخلت القذائف في السنوات الأخيرة ضيف شرف ثقيلاً خلال وداع الموتى حتى صار الأمر أشبه بمباريات بين العشائر بين من يطلق نيراناً أكثر من الآخر تكريماً للراحلين، حيث أصبحت القذائف بمرتبة «شرفية» أعلى. قبل نحو خمسة أشهر، أي في الربع الأخير من العام ٢٠٢٠، اصطفّ رجال ملثّمون من مدخل الهرمل إلى ساحتها بحدود كيلومترين اثنين، يفصل بين كل نقطة تجمعهم وبين الثانية نحو ٥٠٠ متر، يحملون الأسلحة الرشاشة وقاذفات الـ BV (آر بي جي)، ليطلقوا النار في الهواء والقذائف الصاروخية. كلّ ما في الأمر أنّهم كانوا يؤدّون تحية الوداع لأحد وجهاء العشائر الذي توفّي إثر عملية جراحية في بيروت. لم يكن كلّ الرجال الملثّمون من عشيرة الرجل نفسها، كان هناك رجال من عشائر «صديقة»، تردّ الواجب لعشيرة الفقيد التي سبق وأدّت التحية خلال موت وجيه من وجهائها. يومها عجّت صفحات أبناء الهرمل وصفحات مواطنين آخرين بفيديوهات تبيّن الرّعب الذي عاشه سكان الهرمل وكمّية الرّصاص التي انطلقت ومعها قذائف «آر بي جي» التي يصل متوسّط سعرها إلى ٥٠ دولاراً، فيما تلامس كلفة أكبرها (التاندوم الروسية) ٢٠٠ دولاراً. مع العلم أنّ سعر الرصاصة اليوم لا يقلّ عن ٢٨٠٠ إلى ٣ آلاف ليرة لبنانية، أي أنّ «الباغة»، التي تحتوي على الرصاص، سعة ٣٠ رصاصة، ويتمّ تلقيم بيت النار منها، لا يقلّ سعرها عن مئة ألف ليرة، كرصاص فقط. لا أحد يسأل رأي أهل الهرمل وهل يقبلون مرور مواكب السيارات بالزجاج القاتم (المفيّمة) وآليات «بيك آب» التاكوما الدارجة حالياً، بين منازلهم بينما يخرج المسلحون من نوافذها أو يقفون في صندوق الـ»بيك آب» ويطلقون النيران في الهواء وكأنّهم في فيلم حركة وليس في بلد فيه قوى أمن وجيش.

قبل نحو شهرين أيضاً، توفّي وجيه من عشيرة أخرى. فنظم شبّان من عشيرة الفقيد الأوّل أنفسهم في وفد وازن وقصدوا مأتم الفقيد الجديد. وهناك حين حمل آل الفقيد جثمانه

باتجاه المقبرة، افتتح أبناء العشيرة الأولى النار، كما يقول أحد أعضاء الوفد لـ«المفكرة» «وبلّشنا القواص وإطلاق القذائف، الجماعة ما قصّروا معنا، ونحن لازم نرد الجميل»، بنبرة تشي بالافتخار. قبل هذين المأتمين، كانت العشيرتان على خلاف دموي لسنوات. وبالتالي شكّلت وفاة الوجيهين مناسبة لتعزيز الصلح والوئام بين «أولاد العم»، كما يسمّي أبناء العشائر بعضهم البعض، وبالرصاص.

ولكنّ ظاهرة إطلاق النار في الأفراح والمآتم مرفوضة من كثيرين من أبناء العشائر ويستنكر هؤلاء هذه العادة «أحياناً يناشد أهل الفقيد الناس عدم إطلاق النار، بس ما حدا بيرد». فالبعض، وخصوصاً من يطلقون النار، يعتبرون أنّهم يؤكّدون بفعلهم هذا على قيمة الفقيد ومكانته، وكلّما صُرف الكثير من الرصاص والقذائف، كلما علا شأن الراحل.

يخبر سليمان، أحد أبناء الهرمل، كيف نجا وصديقه وابنه من الموت بالصدفة. كانوا في باحة منزلهم بالقرب من ساحة السبيل عندما عبر موكب تشييع وجيه إحدى العشائر وبدأ إطلاق النار: «كنّا بالقرب من سيارتي، فقال صديقي خلّينا ننقل لتحت البلكون في رصاص كتير»، وهكذا كان. عندما عبر الموكب ومعه مطلقو الرصاص، أراد سليمان أن يخرج بسيارته ليبتاع خبزاً «لقيت رصاصة فايتة بزجاج السيارة من ناحية السائق، ورصاصة ثانية بالقرب من السيارة وتحديداً مطرح ما كنّا واقفين».

لأسامة، ابن إحدى العشائر، قصّة مماثلة ولكن مع قذيفة «آر بي جي». عندما توفّي أحد الوجهاء الذين لم يرغب في ذكر اسمه، أطلقت ٣٥ قذيفة «آر بي جي» في الهواء. وحين عودته مساء إلى منزله وجد أطفاله يحملون قنبلة غير منفجرة سقطت بالقرب من بيته: «طار عقلي، أخدت القنبلة وكبّيتها بعيد عن البيت، بمنطقة غير مأهولة». اعتاد أسامة إطلاق النار في المآتم: «بس بعد هيدي الحادثة أقسمت إنّي ما عيدا»، يقول وهو يحضن طفليه.

يتذكّر حسّان الذي ينتمي إلى إحدى عائلات الهرمل وليس إلى عشيرة، كلّ هذه الحوادث من مواجهات العشائر إلى إطلاق النار في الأفراح والأتراح ليترحّم على أبيه الذي قال له ولأخوته، وهو يعيدهم إلى الهرمل بسبب الحرب في بيروت: «ما تنسوا شي مهم كتير يا بيّي، الهرمل مش إلنا». يقول حسّان اليوم إنّ أباه «كان على حق، وبرغم حبّي الكبير للهرمل إلّا أنّني أتمنّى أن يعيش أبنائي خارجها». فالهرمل «للقوي» كما يقول «ولا خبز فيها للمعتّر الفقير إلاّ إذا وطّى راسه وعاش الحيط الحيط»(أي من دون أن يتدخّل في أي شيء). ويضع حسّان كامل المسؤولية على الدولة وغياب الأمن «ليش ما بتضرب بإيد من حديد؟» فالهرمل تعجّ بالمطلوبين «وإطلاق الرصاص ما رح يؤثر بملف مطلوب». والقوى الأمنية هي «آخر من يصل، وكأنّ المطلوب أن تبقى الهرمل على ما هي عليه، منطقة خارجة عن القانون ليبرّروا غيابهم عنها».

سيارة الدرك المعطّلة دائماً

تروي فتون ما حصل مع صديقة لها تعرّض منزلها للسرقة: «اتّصلت بمخفر الدرك وأبلغتهم أنّ هناك من يحاول دخول منزلها «فقالوا لها سيارّتنا خربانة». وتبيّن أنّ السيارة «معطّلة» هو الجواب الجاهز لدى عناصر المخفر لدى استدعائهم.

يقول أحد عناصر الدرك الذين خدموا في الهرمل لسنوات إنّ الهرمل تحتاج إلى سرّية قوامها مئة عنصر مع عتاد وآليات، بينما لا يوجد اليوم سوى مخفر بـ٥ عناصر فقط لا غير. يتوزّع عناصر المخفر على رئيس المخفر، وعنصر لدوريّات مراقبة البناء، وآخر كاتب ورابع لوجستي، ورقيب تحقيق: «فمن سيخرج لملاحقة المطلوبين أو لفضّ الاشتباكات بين العشائر؟». مع بناء السرايا، صار في الهرمل فصيلة لقوى الأمن الداخلي «دور الفصيلة إداري بحت وليس تنفيذ مهمّات أو مداهمات، ويتبع لها ثلاثة عناصر لتنظيم السير (وهو أمر مستجدّ في الهرمل) ومعهم حرّاس السرايا فقط، إضافة إلى إداريين لا غير»، وفق ما يقول رجل الأمن. ويرى أنّه ليس بوسع المخفر بأيّ شكل ضبط أمن الهرمل ليخلص إلى القول «ما في قرار سياسي بضبط أمن المنطقة وإلّا بيركّزوا سرّية بالهرمل وبيعطوها أوامر بضبط المنطقة، كلّ قضاء فيه سرّية ليش بالهرمل لا؟». حصل مرة أن طلب المخفر تنفيذ مداهمة في إحدى مناطق العشائر، وعندما اتصلوا بالسطات العليا قيل لهم «هيدي بدها فيلق للمداهمة»، وعادة ما يقود الفيلق قائد الدرك وعليه طويت المداهمة وملفها. يختم رجل الأمن كلامه بمعاناته «عشت سنين شوف المطلوبين قدّامي وما إقدر إعمل شي».

حلّ المشاكل عبر «تبويس اللحى»

يرغب المحامي فراس علام وضع الأمور في نصابها: «نعاني من غياب كامل للدولة بأجهزتها الأمنية الممثّلة في الهرمل ولكن غير الفعّالة». الأهم بالنسبة إليه هو القرار: «مثلاً أمن الدولة نشطوا جيداً بالنسبة للاجئين السوريين وعملوا داتا كاملة عنهم، وإذا واحد بينقل من بيت لبيت بيعرفوا». وكذلك الأمن العام «عندهم دوريّات استقصاء وعندهم معلومات عن كل شيء». والجيش «موجود ومخابرات الجيش موجودة ولّن بدهم يعملوا شي بيقدروا يعملوه». يعطي فراس مثلاً عن عملية نوعية قامت بها مخابرات الجيش للقبض على مطلوبين بقتل عسكري: «وصل برّاد خضار مسكّر ع بيت المطلوبين، وفجأة نزلت منه قوى كبيرة وفوراً دعمتها قوّة مؤللة ضخمة، وتمكّنوا من القبض على المطلوبين الأربعة دفعة واحدة». قصد علّام أن يبرهن أنّهم قادرون على تنفيذ مهمّات عندما يريدون ذلك.

يُختصر النشاط الأمني بالنسبة للمطلوبين بقيام القوى الأمنية بطلب النشرة الأمنية لأيّ شخص يدخل المخفر «وبتقبض عليه إذا عليه شي». أمّا

كل المشاكل وإطلاق النار ومعظم المواجهات التي تحدث في ساحة السبيل وأمام السرايا تنتهي بعدم القبض على أحد، «حتى أوقات بينقال للناس جاية دورية للجيش فبيهرب المتقاتلين».

ويلحظ المحامي علّام أثر طرق حلّ المشاكل في تفاقم الوضع الأمني: «القصص عم تنحلّ ع الطريقة العشائرية، وتبويس اللحى، وكلّها بالمصالحات، في غياب القضاء». فطالما «الدولة غير موجودة حتى قضايا القتل والدم والقواص تُحلّ بالمصالحة»، وأكثر من ذلك يتعهّد المتدخّلون بـ«تزبيط الملف الأمني للمتورّطين بالمشاكل، وبيجي الموضوع رزمة واحدة مع الصلح، وهكذا يحصل». وهناك إخلاء السبيل الدائم لمعظم من يقبض عليهم «ما حدا عم يتحاسب يعني محلولة بالنسبة لكلّ العالم وفي مين يزبّط الملف القانوني». أمّا عندما يتمّ تسليم مطلوب للدولة «بيقعد شهر بالحبس وبيرجع طبعاً بيطلع». ولذا عندما يكون عقد الصلح في قضايا «ضربة الكفّ إلى القتل» هو سيّد الموقف لن يكون هناك رادع في «منطقة تعجّ بالعاطلين عن العمل والمطلوبين والأفق المسدود ببناء حياة طبيعية».

هذا الواقع انسحب على المجتمع برمّته. وفق علّام، «كلّ العالم اليوم مستعدّة تحمل سلاح وتقوّص». وبدل أن تنجح العائلات الهرملية بسحب العشائر نحوها «يعني بلا قواص وثأر»، يرى علام أنّ أهل الهرمل «عم يروحوا ع العشائرية». ويعطي مثلاً عن عشيرتي شمص وحمادة في الهرمل «تاريخياً ما كانوا من عشائر المشاكل، إذ تفكّكوا وانتشروا وما عندهم جرد وصاروا تجّار وموظفين، وأيضاً آل علام نسيوا العشاير، وحتى عوّاد نادراً ما كانوا يتصرّفون كعشائر». أما اليوم «رجعت كلّ الناس على الأمن الذاتي وفي عائلات عم تروح تستعين بناس من العشاير، ويستقووا فيهم أو يشرّعوا عندهم (أي يتقاضون أمامهم)، وما بيروحوا ع القضاء». وقد يلجأ شخص من الهرمل إلى تسجيل حصته في شركة ما باسم رجل من العشائر لكي يستقوي على شريكه.

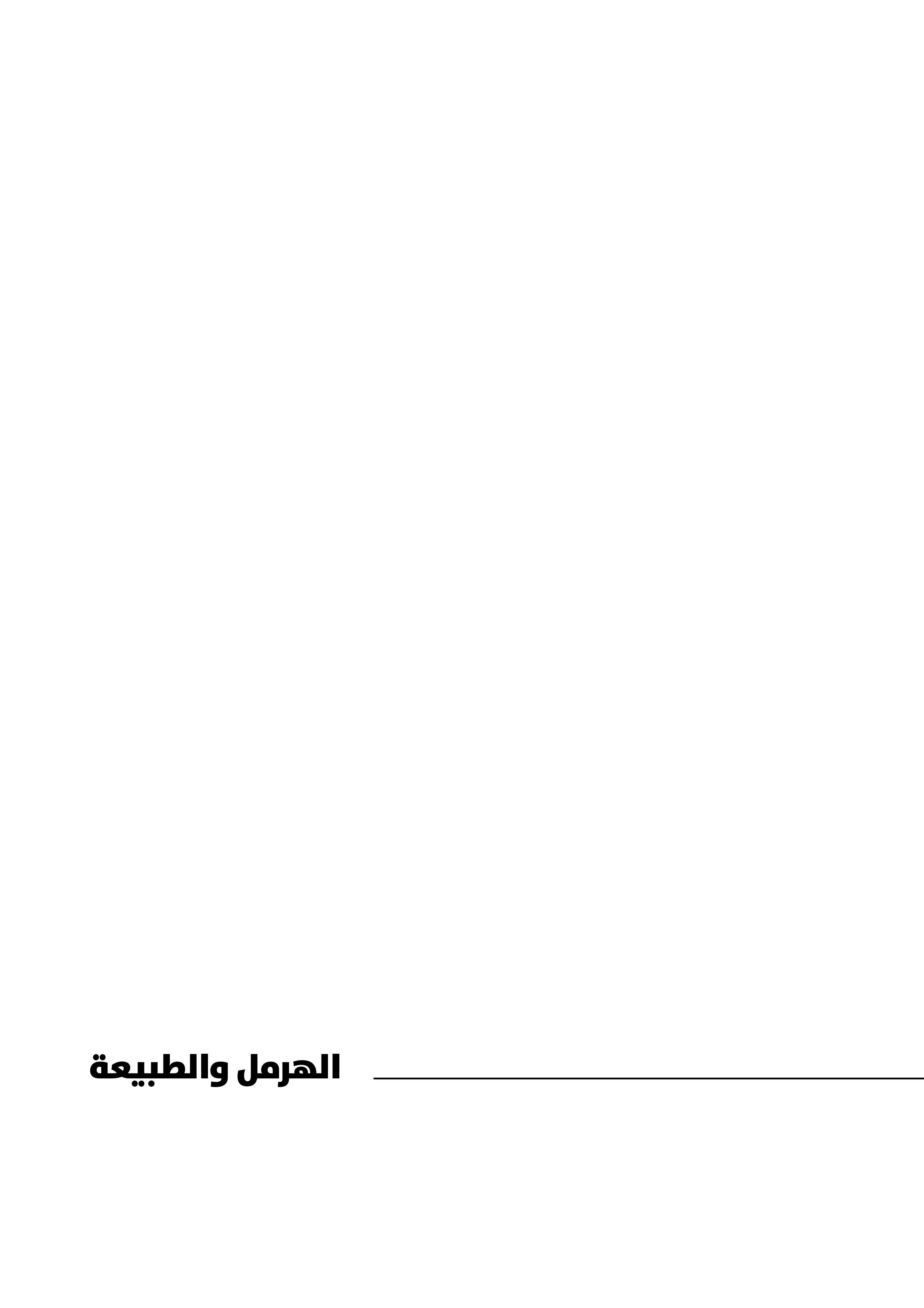
يروي علّام كيف أقنع ابن عمه بعدم إطلاق النار خلال إشكال وقع بينه وبين رجال من عشيرة حمادة «روح قدم شكوى بالمخفر إذا بتريد» قال له على الهاتف من بيروت. كان ابن عمه في المخفر عندما نظّم عدد من شبان آل علام أنفسهم وبدأوا بإطلاق النيران والقذائف على عشيرة حمادة «وجاءت قذيفة في بيت عائلة من آل بليبل». عندما تناقش معهم كانت حجّتهم جاهزة «ما فينا ما نردّ عليهم بعدما أطلقوا علينا النار، بيصير الصغير والكبير يستوطي حيطنا وما منعود فينا نرد حدا عنّا».

هذا غيض من فيض من ما يحصل في الهرمل، هناك قصص لا تعدّ ولا تحصى عن المشاكل التي تقع يومياً لأتفه الأسباب «بسبب ركن سيارة، أو تزاحم خلال زحمة السير، أو لأن أحداً نظر إلى الآخر بطريقة لم تعجبه»، وتتحوّل هذه الأمور إلى إشكالات قد تنتهي بإطلاق النار.

هذا الواقع أوجد حساسية ليست خفية بين ابن المدينة وابن العشيرة. بعض أبناء الهرمل يقولون إنّ العشائر استباحوا المدينة وأخلّوا بأمنها عندما نزلوا من الجرود إليها، وهم محقّين في جزء كبير من كلامهم. في المقابل، يأخذ بعض أبناء العشائر على أبناء الهرمل استمرارهم في اعتبارهم غرباء برغم مرور أكثر من خمسين عاماً على سكنهم في المدينة «الهرمل لكلّ الناس، وعيب التصنيف بين إبن جرد وإبن مدينة»، وهم أيضاً محقّون وبخاصّة الذين ينفرون من المشاكل ويبتعدون عنها، لا بل يعانون بسببها مثلهم مثل أهل المدينة.

وحدها الدولة تتفرّج على الطرفين من بعيد تاركة نسبة البطالة في أعلى مستوياتها، والإنماء في أسفل سلّم البلاد، والأمن، أمن الناس في مهبّ فوهّة بندقية فالتة.

03



من يحمي نهر العاصي؟

سعدى علّوه

«ممنوع تغذية أسماك الترويت في مسامك رأس العاصي بأحشاء الدواجن (مصارين الدجاج)»، أمر أصدرته عشيرة دندش التي بنى بعض أبنائها نحو ٣٠ منزلاً في منطقة رأس العاصي صعوداً من المنبع الأساسي للنهر، عين الزرقا، ومن حولها. هنا لا يسري المثل القائل «إن أردت أن تطاع فاطلب المستطاع» الذي تتبنّاه بلديّتا الهرمل والشواغير ومعهما اتّحاد بلديات الهرمل والقوى السياسية في المنطقة مع مُربّي الأسماك وأصحاب المنتزهات على نهر العاصي خارج منطقة سيطرة الدنادشة. أَمرَ هؤلاء بمنع إطعام ترويت المسامك في أعلى العاصي أحشاء الدواجن، ونقطة على السطر، وهكذا كان. للدنادشة أسبابهم حيث تشرب عائلاتهم التي تسكن في رأس العاصي من مياه النهر وتستعملها للاستخدام المنزلي وهي أمور ستصبح متعذّرة لأنّ أحشاء الدجاج تُلوّث المياه. وتمتد منطقة سكن عشيرة دندش من النبع إلى المخاضة بمسافة تصل إلى ٣ كيلومترات من طول العاصي.

يضحك أحد ناشطي الهرمل، ومعه كثيرون من أهلها، وهو يعلّق على هذا الأمر بالقول: «خلّيهم يسلّموا بقية النهر لشي عشيرة تانية لتحميه، طالما المسؤولين عن حمايته رافعين العشرة ومتخليين عنه».

تعتبر تربية سمك الترويت من أهم موارد الدخل في منطقة الهرمل مع المنتزهات المنتشرة على ضفّتيه من منبعه في عين الزرقا إلى مزرعة العميرية عند الحدود السورية بطول ٤٦ كيلومتراً، هي مجمل حصّة لبنان منه، فيما يقطع ٥٢٥ كيلومتراً في سوريا وصولاً إلى مصبّه في البحر المتوسط في لواء إسكندرون. والعاصي الذي عصى الطبيعة ومجرى الأنهار في لبنان من الشمال إلى الجنوب، إذ اختار معاكسة التيّار والجريان شمالاً نحو سوريا، يعجز عن ردّ المعتدين عليه حيث تُستنزف خيراته التي يغدقها على منطقة تكاد تنعدم فيها مصادر الدخل «الشرعي» لولا قطاع تربية أسماك الترويت من دون أي اعتبار لاستدامته سواء من أصحاب المنتزهات أو المسامك.

الثروة السمكية في خطر

يتصدّر العاصي المركز الأوّل لإنتاج سمك الترويت في لبنان بكميّات تراوح ما بين ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ طنّاً في السنة. مع المسامك هناك نحو ١٥٠ منتزهاً تختلف أحجامها وبالتالي تأثيرها على النهر. عطاء لا يقابله منّة حيث يفعل مربو الأسماك وأصحاب المنتزهات والمطاعم والمقاهي ما بوسعهم لتحصيل الربح السريع دونما أي مقاربة تأخذ بعين الاعتبار استدامة هذه الثروة اليتيمة في لبنان بعد تلوّث كلّ أنهاره وموتها.

كلام تؤكّـده خلاصـات فريـق إيطـالي جـاء إلى العـاصي قبـل سـنوات وأجـرى دراسـات حـول نوعيـة المياه ونسـبة الأوكسـيجين فيهـا وحرارتهـا وجريـان النهـر ونظافتـه، وخلـص إلى أنّـه مـن أنسـب الأنهـار في العـالم لتربيـة سـمك الترويـت حيـث تبقـى مياهـه بـاردة حـتى في عـزّ الصيـف. لكـنّ الخـبراء الإيطاليـين حـذّروا الجميـع ومـن بينهـم بلديّـتي الهرمـل والشـواغير المعنيّتـين بالعـاصي مـن أنّـه «إذا اسـتمرّ الوضـع عـلى مـا هـو عليـه، ولم يُحـم النهـر، لـن تصمـد هـذه الـثروة طويـلاً»، كمـا تؤكّـد اختصاصيـة التصنيـع الغـذائيّ، ابنـة الهرمـل الـتي عملـت مـع الفريـق الأوروبـي حينهـا، أمـاني ناصرالديـن لـ«المفكـرة».

يقـول محمـد عـلي العمـيري، أحـد مربّـي الأسـماك عـلى النهـر، إنّـه ليـس هنـاك عـاصٍ واحـد، بـل ثلاثـة. يمتـدّ الأول مـن المنبـع إلى جـسر العـاصي، وهـو الأنظـف برغـم التعدّيـات لكـنّ انحـداره مـن أعـلى الـوادي يـسرّع جريانـه، والثـاني مـن الجـسر لغايـة منتزه الـدردارة، وفيـه التعدّيـات الأساسـية، حيـث تقـع معظـم المسـامك والمنتزهـات. أمـا العـاصي الثالـث فيجـري بـين الـدردارة إلى مزرعـة العميريـة عـلى الحـدود السـورية. في الجـزء الثالـث تغيـب المنتزهات (آخرها في الـدردارة)، يخـف جريـان الميـاه وتكـثر النباتـات المائيـة عـلى ضفـتي النهـر، لتسـاهم في تنقيتـه نسـبياً، ولكنـه يفقـد لونـه الأخـضر إلى الأزرق ويصبـح عكـراً موحـلاً.

يـسرح العمـيري بنظـره في العـاصي ثم يضيـف «ع هالحالـة بعتقـد بعـد عـشر سـنين مـا منعـود قادريـن نربّـي ترويـت بالعـاصي». والعمـيري نفسـه بـدأ، إضافـة إلى الترويـت، بتربيـة أسمـاك الـكارب في العميريـة، وهـي أسمـاك يصـل وزنهـا إلى ٥ و٦ كيلوغرامـات و«قويـة» لا تحتـاج إلى ميـاه بنظافـة الميـاه الـتي تعيـش بهـا سمكـة الترويـت المدللـة، إذ لا تعيـش الأخـيرة (الترويـت) إلا في الميـاه العذبـة النظيفـة. وتجـدر الإشـارة هنـا إلى أنّ سمكـة الـكارب هـي الوحيـدة الـتي تحمّلـت تلـوّث بحـيرة القرعـون القاتـل ممّـا يـدلّ عـلى قـدرة تأقلـم هـذه السمكـة مـع الملوّثـات في الميـاه الحلـوة (حـتى أيـار المـاضي حـين نفـق عـشرات الأطنـان مـن هـذه السمكـة في غضـون أقـلّ مـن أسـبوع بعـد انتشـار مـرض وبـائي خطـير، بحسـب تقريـر لمصلحـة الليطـاني.



ما زال نهر العاصي أجمل وأنظف نهر في لبنان | تصوير مايا مزبودي



العاصي المستباح

صحيح أنّ عشيرة دندش اتخذت قراراً بحماية رأس العاصي من أحشاء الدواجن حفاظاً على سلامة مياه الشفة التي يتزوّدون بها في منازلهم، لكنّ بعض أفراد العشيرة ينضمّون إلى لائحة طويلة من المعتدين على النهر، وبخاصّة من خلال صبّ حرمه بالإسمنت لاستحداث مساحات لوضع طاولات لتقديم الطعام واستقبال الروّاد.

تكفي نظرة واحدة إلى الصور الجوية لنهر العاصي قبل ٣٠ سنة لمعرفة حجم التعدّيات عليه. تقول جنان مطر، إحدى بنات الهرمل التي هاجرت إلى أوروبا قبل ١٠ سنوات، إنّها لم تعرف النهر عندما عادت لزيارته: «حسّيت حالي بمنطقة تانية تماماً». فالنهر الذي كان ينساب حرّاً من أسفل منطقة الشرقي في رأس العاصي مشكّلاً وادياً غضّاً وغنيّاً بالتنوّع البيولوجي ومن أجمل أودية الأنهار في لبنان لم يجد من يردّ عنه الاستثمار المتوحّش الذي غيّر مجراه وطوّعه. هنا حوّل صاحب مقهى جزءاً من النهر ليستحدث بقعة يابسة أو شبه جزيرة يضع عليها طاولاته، وهناك حفر صاحب مسمكة مجرى جديداً يجرّ عبره جزءاً من العاصي ليصبّ في أحواض مسمكته ويخرج منها إلى المجرى الأساسي، وهكذا دواليك تعدٍّ يستتبعه تعدٍّ آخر. وعليه صار النهر لمسافات كبيرة من مجراه مجموعة من السواقي التي تنقسم وتتباعد لتعود وتتلاقى وفق ما تقضي مصلحة مربّي الأسماك وأصحاب المرافق السياحية في غياب أيّ سلطة رقابية تسهر عليه.

لا تقتصر التعدّيات على الإنشاءات وهي هائلة لدرجة لا يمكن لأي سلطة مهما بلغ إهمالها أن تقبل بها، حيث تمّ تغيير شكل العاصي وواديه بطريقة تشعر معها أنّه لا يوجد وزارة طاقة وموارد مائية ولا وزارة سياحة تدرج العاصي على لائحة المناطق السياحية وتسهر عليه في لبنان أو أنّهما، مع الوزارات المعنيّة الأخرى بحمايته كالزراعة والداخلية والصحّة والقضاء، لا يعرفون بوجود نهر اسمه العاصي على الخارطة اللبنانية. فلا يذكر أهل الهرمل أنّه حدث وتمّ تعزيل نهر العاصي، أو أوفدت أيّ وزارة مندوبيها للاطّلاع على وضعه والتعدّيات عليه، عدا عن قمعها. ومع الإنشاءات يعتدي معظم مربّي الأسماك على النهر عبر تغذية أسماكهم بأحشاء الدواجن وبكمّيات كبيرة تُلوّث مياه العاصي وتنشر البكتيريا والسالمونيّلا في حال كانت الدواجن مريضة فيها. وتحوّل النهر الذي كان أهل الهرمل والمقاهي وروّادها يشربون منه قبل ٢٠ إلى ٣٠ سنة إلى مياه تفوح منها روائح كريهة ويستشعر لامسها بزنخة مصارين الدجاج، إلى درجة امتنع معها أصحاب المقاهي والمتنزهات عن غسل خضارهم والمواد التي يستخدمونها في إعداد وجباتهم من مياهه، علماً أنّ النشاط الاقتصادي للمسامك لا يقتصر على موسم معيّن، إذ تستمرّ الأخيرة في تسويق الأسماك في كلّ لبنان وإلى سوريا حتى حين ينخفض نشاط مطاعم العاصي شتاء. ومع وجود نحو ١٥٠ مرفقاً سياحياً بين مقهى صغير ومطعم كبير وبعض الفنادق، يصبح السؤال عن مياه الصرف الصحي مشروعاً، برغم إصرار البعض أنّه يحفر

حفـراً صحّيـة لا نعـرف مواصفاتهـا العازلـة، فيمـا يسـلّط البعـض الآخـر مجاريـره إلى النهـر مبـاشرة مـع ميـاه غسـل الأواني وتنظيـف المنشـآت ومـا تحمله مـن مـواد تنظيـف كيميائيـة. كل مـا فعلتـه بلديـة الهرمـل و»تفخـر بـه» هـو بنـاء نحـو ٢٠ حفـرة لتجميـع ميـاه الـصرف الصحّـي في عشريـن منتزهـاً فـوق جـسر العـاصي يـتمّ تفريغهـا لـدى امتلائهـا في مكـبّ النفايـات الـذي اسـتحدثته بلديـة الهرمـل في منطقـة قريبـة مـن العـاصي وتحديـداً قـرب مستشـفى الهرمـل الحكومـي (يشـكو مـرضى المستشـفى وموظفوهـا مـن روائحـه). ويشـكّل المكـب تعديّاً عـلى العـاصي وخطـراً عليـه إذ أنّ الميـاه الآسـنة سـواء الناتجـة عـن عصـارة النفايـات أو الـتي يـتم تفريغهـا مـن بعـض صهاريـج ميـاه الـصرف الصحـي، غالبـاً مـا تصـل العـاصي بعـد تسرّبهـا في باطـن الأرض، كمـا أنّ السـيول الـتي تشـهدها المنطقـة مـن وقـت إلى آخـر تحمـل إليـه النفايـات. وعندمـا نواجـه بلديـة الهرمـل بهـذه الحقائـق، يـردّ نائـب رئيـس البلديـة عصـام بليبـل بالقـول «لاقـوا لي قطعـة أرض لننقـل عليهـا المكـب»، وكأنّمـا ضاقـت الهرمـل ولم يعـد هنـاك أمكنـة إلّا قـرب العـاصي والمستشـفى الحكومـي فيهـا.

ومـع مكـبّ نفايـات الهرمـل، مـا زال مكـبّ بلـدات رأس بعلبـك والجديـدة والفاكهـة ومعهـا بلـدات أخـرى مـن البقـاع الشـمالي يتركّـز في مجـرى السـيل نحـو نهـر العـاصي برغـم صـدور قـرار بإقفالـه. «ولكـن مـع بـدء الأزمـة الاقتصاديـة وكورونـا، صـارت الأولويـات مختلفـة ولم تقـم القـوى الأمنيـة بتنفيـذ قـرار محافـظ بعلبـك الهرمـل بإقفالـه»، وفـق رئيـس لجنـة حمايـة العـاصي في اتحـاد بلديـات الهرمـل عبـاس الجوهـري. ولا يسـتقبل مكـب رأس بعلبـك والفاكهـة النفايـات العضويـة والصلبـة فقـط بـل يـتمّ فيـه تفريـغ الصهاريـج الـتي تنقـل الـصرف الصحّـي مـن الحفـر الصحيـة لمنـازل هـذه البلـدات حيـث لا شـبكات صرف صحّـي فيهـا. تبعـاً لذلـك، ليـس مفاجئـاً أن تكشـف عيّنـات الميـاه الـتي فحصتهـا ابنـة الهرمـل، الدكتـورة المحـاضرة في الجامعـة اللبنانيـة والباحثـة في الهيئـة الوطنيـة للطاقـة الذرّيـة سـامية مـخ حـول السـبب وراء وجـود جرثومـتي الإيكـولي والكوليفـورم في النبـع الرئيـسي لنهـر العـاصي وليـس في المجـرى فقـط، وجـود صرف صحّـي في العـاصي، وهـو مـا أعلنتـه في مؤتمـر صحـافي خـاص بالعـاصي بحضـور بلديـات ونـواب المنطقـة بتاريـخ ١٩ تشريـن الثـاني ٢٠١٨. ويمكـن ذكـر فـارق بسـيط حـول تلـوّث العـاصي حيـث يخـفّ شـتاء بسـبب تقلّـص نشـاط المرافـق السـياحية وإقبـال الـروّاد عـلى قصـد منتزهاتـه مـع أطعمتـه، بينمـا يبقـى نشـاط المسـامك قائمـاً صيفـاً شـتاءً.

البلدية: إن أردت أن تطاع فاطلب المستطاع

تراكمت كلّ تلك التعدّيات في الثلاثين عاماً الماضية. إلّا أنّ بلدية الهرمل المحسوبة على الثنائي الشيعي منذ الانتخابات البلدية في ١٩٩٨ تطلب محاسبة أصحابها منذ ٢٠١٦ وهو تاريخ إنشاء لجنة حماية العاصي بالتعاون بينها وبين اتّحاد بلديات قضاء الهرمل وبلدية الشواغير المعنيّة أيضاً بجزء كبير من النهر.

يبدو رئيس لجنة حماية العاصي في اتّحاد بلديات الهرمل وبلديتها عباس الجوهري «متفهّماً» و«عطوفاً» على أصحاب المسامك: «الله يساعد الناس، الدولار طاير والليرة بالأرض وفي مسامك كتير سكّرت لعدم قدرة مربي الأسماك على شراء العلف».

لا ينفي الجوهري حقيقة أنّ معظم مربي الأسماك اليوم يغذونها من أحشاء الدواجن «هناك فرق كبير بين سعر طنّ العلف البالغ ١٦٠٠ إلى ١٧٠٠ دولار وبين سعر طنّ الأحشاء». ويستدرك الجوهري قائلاً «بس ممنوع التغذية بالمصارين، وهذا قرارنا».

ويفيد أحد مربي الأسماك ممن يطعمون أحشاء الدواجن «المفكرة» أنّ سعر طنّ مصارين الدجاج اليوم يراوح بين مليون و٢٠٠ ألف ليرة إلى مليون و٥٠٠ ألف ليرة «حسب سعر صرف الدولار في السوق السوداء» ولذا يشترون ب«البرميل» ويبلغ الطنّ نحو ١٠ براميل». ويبرّر هذا المربّي اعتماده على مصارين الدجاج بالوضع الاقتصادي الكارثي في لبنان «عنّا أطفال وعيل بدنا نعيشهم، عم ننذلّ ع محطة البنزين لنلاقي تنكة وندفع سعرها مرة ونصف أغلى من بقية المناطق اللبنانية بسبب التهريب». ويدعونا إلى زيارة ملاحم الهرمل التي تبيع لحوماً مدعومة «روحو شوفو كيف حاطين درك ع بوّابة الملحمة لأنّه الناس رح تقتل بعضها». ولكن ألا يخشى من تلويث العاصي وبالتالي انعدام رزقه منه؟ يقول الرجل إنّ المرحلة اليوم صعبة «والذي ينفد بريشه ولا ينهار هو الناجي»، ولذا ليست أولويّته وغيره من معظم مربي الأسماك حماية نهر العاصي «الناس وأولادها أهم من النهر»، كما يرى.

ويعود الجوهري إلى العام ٢٠١٦ تاريخ تشكيل لجنة حماية العاصي: «عملنا شغل مهم وتغيّر وضع النهر وعدت أنا للسباحة فيه بعدما امتنعت عن ذلك في السابق». ولكن عندما نسأله عمّن كان في البلدية قبل ٢٠١٦ ومنذ ١٩٩٨، يرد بالقول «أنا بحكي عن ولايتنا الجديدة في البلدية». ولكن ماذا عن التعديات على النهر والتي غيّرت مجراه «شو منعمل؟ منهبّط مسامك العالم ومطاعمها ومقاهيها؟ إن أردت أن تطاع فاطلب المستطاع».

ويرى أنّ لجنة حماية العاصي تقوم بواجباتها «نحن منطلب من الجهات المسؤولة تحمّل مسؤوليّاتها في حماية العاصي ومنها مكتب

حمايـة الـثروة السمكيـة والحرجيـة التابـع لـوزارة الزراعـة في الهرمـل، ووزارات السـياحة والطاقـة والصحة والداخلية، والقضاء بشكل خاص، لماذا لا يقـوم كل هـؤلاء بواجبهـم تجـاه العـاصي؟ نحـن لسـنا ضابطـة عدليـة». ويدعونـا الجوهـري إلى مساءلة القـوى الأمنيـة مـن مخفـر وجيـش لبنـاني ومخابـرات الجيـش: «هـم يتمتّعـون بالسـلطة والقـدرة، وبإمـكان الجيـش منـع وصـول الآليـات المحمّلـة بالمصاريـن إلى الهرمـل، وكذلـك مخفـر الهرمل يمكنه مراقبة المسامك». ويعود الجوهري للقول إنّ هؤلاء يقومون بواجبهم ولكن «لديهم أمـور أهـم اليـوم، تبـدأ مـن مشـاكل العشـائر حيـث يقـع قتـلى بشـكل دائم، إلى التظاهـرات وقطـع الطرقـات إلى ارتفـاع نسـب السرقـات والحوادث الأمنيـة»، وعليـه صار العـاصي وحمايتـه في «آخـر سـلم الأولويـات».

وعندمـا نؤكّـد لـه أنّ البلديـة يمكنهـا تسـطير مخالفـات ضبـط وفـرض التراخيـص عـلى المسـامك والمتنزهـات في نطاقهـا، يجيـب أنّ الأولويـات منـذ خريـف ٢٠١٩ ولغايـة اليـوم صـارت في مـكان آخـر، «النـاس عـم تجـوع بـس تحكيهـا بحمايـة النهـر بتعتـبر إنّـك عـم تتعـدّى عـلى لقمـة عيـش أولادهـا».

يعـترف رئيـس بلديـة الشـواغير الـتي تقـع عـلى كتـف العـاصي حسـين الحـاج حسـن أنّ العـاصي في «أسـوأ حالاتـه مـن حيـث الاهتمـام اليـوم، هنـاك تعدّيـات عـلى حـرم النهـر ونحـن نحـاول إقنـاع أصحـاب المسـامك والمتنزهـات بوضـع آليـة للتنظيـم والترخيـص ولكنهـم يتلـكأون ويتذرّعـون بالأوضـاع الاقتصاديـة لـكي لا ينظّمـوا القطـاع». ويقـع العـدد الأكـبر مـن المسـامك والمتنزهـات في نطـاق بلديـة الشـواغير وتحديـداً في المنطقـة الواقعـة بـين جـسر العـاصي عنـد مدخـل الهرمـل إلى منطقـة الـدردارة «عنّـا شي ٣٥ منـتزه في نطـاق بلديتنـا ونحـو ٤٧ مسمكـة يـراوح حجمهـا بين ٥٠٠ إلى ألفي متر». ويـرى الحـاج حسـن أنّ تحويـر مجـرى النهـر نحـو المسـامك «ضرورة لمربّـي الأسـماك حيـث لا يمكـن أن تعيـش الترويـت في الميـاه الراكـدة وغـير المتجـدّدة». ويقـول إنّ البلديـة غـير قـادرة عـلى اسـتيفاء الرسـوم مـن المسـامك والمرافـق السـياحية «النـاس محتاجـة وتمـرّ بأزمـة والمنطقـة كلّهـا تعـاني مـن قلّـة الدخـل». وكابـن الشـواغير وقضى طفولتـه وشـبابه ويعيـش اليـوم فيهـا وعـلى النهـر، يعـترف رئيـس بلديـة الشـواغير أنّ العـاصي «الـذي كنّـا نعرفـه ليـس هـو ذاتـه اليـوم، كنّـا نـشرب منـه حـتى الحـدود مـع سـوريا، وهـذا كلّـه انتهـى حيـث أنّ غالبيـة مربّـي الأسـماك يغذّونهـا مـن مصاريـن الدجـاج، وطبعـاً في نـاس محافظـة ع نوعيـة أسماكهـا ولديهـا زبائنهـا». ويرفـض الحـاج حسـن وصـف العـاصي بالملـوَّث «هيـدا نهـر بطبيعتـه الجارية بغزارة بينظّف نفسـه، يكفـي أن نمنـع عنـه التلـوث ليفعـل ذلـك تلقائيـاً». وكيـف ترفـع عنـه التلـوث يـا ريّـس؟ نسـأله. «نحـن ننسّـق مـع أمـن الدولـة ووزارة الزراعـة ونحـاول منـع اسـتخدام مصاريـن الدجـاج وهنـاك محـاضر ضبـط بحـق المسـامك المخالفـة، وسـبق أن صـدرت قـرارات قضائيـة بإقفـال مسمكتـين (تمّ فتحهمـا بعـد ١٨ سـاعة والإفـراج عـن صاحـب إحداهمـا بعدمـا تم توقيفـه، وقـد تابعـت «المفكـرة» هـذه القضيـة في

عدد من المقالات). ويعود الحاج حسن إلى التفاخر بأنّه يفعل كل ما في وسعه لحماية العاصي كبلدية، وعندما نسأله كيف، يقول: «هناك لجنة حماية العاصي في اتّحاد بلديات الهرمل وفيها نوّاب ووزراء ومحافظ بعلبك الهرمل وما قدروا يوصلوا لما نطمح له، فكيف سأتمكّن أنا كرئيس بلدية مع العلم أنّه يوجد في البلدية شرطي واحد فقط، بس كلّنا منساعده». وبعدما يشير إلى أنّه يفعل ما بوسعه من موقعه، يلفت إلى الكلام المتداول بأنّ بعض كبار مربّي الأسماك ممّن يغذونها من مصارين الدجاج «محميّون من قوى سياسية وهناك رشى تُدفع للجهات الأخرى المعنيّة بالنهر». ويضيف بحسرة: «التعدّيات ليست وليدة سنة وتنيتين وعشرة بل عمر من إدارة الظهر عن العاصي، ولهذا النهر حقّ علينا ونحن لا نوفيه حقه ولا نبادله العطاء بالمثل». يوافق رئيس لجنة حماية العاصي عباس الجوهري الحاج حسن بأنّ البعض دفع رشى لبعض الجهات المسؤولة ولكنه ينفي حماية المتعدّين على النهر من قبل الجهات السياسية «يعني حزب الله وحركة أمل؟ أكيد لا». وعندما نسأله عمّن تدخّل لإطلاق سراح من تمّ توقيفه من مربّي الأسماك وإعادة فتح مسامكهم بسرعة كبيرة، يردّ «شوفو شو اندفع مصاري»، ولمن ذهب المال المدفوع؟، يقول «مش مسؤوليتي أنا حدّد بس الفساد ضارب كلّ المؤسّسات من دون استثناء».

فساد بلا محاسبة

يقول أحد الناشطين في الهرمل (لم يرد ذكر اسمه كونه موظّف دولة) أنّ وضع العاصي يزداد سوءاً فيما تتفرّج كلّ الجهات المسؤولة بحجّة «الأوضاع الاقتصادية والأمنية». يؤكّد أنّه رأى بأمّ عينه شاحنة محمّلة بأحشاء الدواجن تتّجه نحو نهر العاصي عابرة أحد الحواجز الأمنية ولم يتمّ إيقافها. وعندما سأل العسكري عن سبب السماح لها بالمرور قال له «هيدي عشان مزرعة الخنازير»، مع العلم أنّه لا يوجد مزرعة خنازير في المنطقة، يضيف ساخراً، ليستنتج «يعني ما معهم أمر يمنعوا المصارين بكل بساطة». ويعود الناشط إلى التجربة التي خاضها رئيس مخفر الهرمل السابق علاّم رعد في ٢٠١٨: «الرجل حاول يحمي العاصي وهو من خارج منطقته، فكان كلّ ما أوقف مربي أسماك مخالفاً، تتدخّل القوى السياسية للإفراج عنه، كما أنّ القضاء لم يساعده حيث يتمّ إعادة فتح أيّ مسمكة كانت تقفل بالشمع الأحمر بعد ساعات على إقفالها». ويشير إلى أنّ رعد كان يضبط المخالفات بالجرم المشهود ويصوّرها بالفيديو مع تاريخ مخالفتها لتوثيقها ويرسل الفيديو إلى القضاء من دون جدوى. ووفق الناشط الشاهد حدث أن قال له أحد القضاة الذين كانوا يتابعون ملف مخالفة تربية الأسماك: «ما بقى تروح تداهم المسامك إذا ما أنا طلبت منك، مين عم يبعتك؟»

ويسخر الناشط من قول القيّمين على لجنة حماية العاصي إنّ المسؤولية تقع على مكتب

حماية الثروة الحرجية والسمكية في وزارة الزراعة في الهرمل ليقول: «رأينا سيارة المكتب معطّلة منذ أكثر من عام وقيل إنّهم شحنوها إلى بعلبك لإصلاحها ولم تعد لغاية اليوم، فكيف سيُداهم هؤلاء، المسامك؟ طبعاً إذا سلّمنا جدلاً أنّهم يقومون بواجبهم كما يلزم، وهم ليسوا كذلك». ويتوقّف عند قيمة ضبط المخالفة البالغ ١٠٠ إلى ٥٠٠ ألف ليرة لبنانية «شو بدّو يأثر هيدا المبلغ بصاحب مسمكة، رح يضلّ ربحان من المصارين حتى لو أكل ٥ مخالفات بالشهر».

ويُشير الناشط نفسه إلى أنّه كان هناك مشروعٌ لتنظيف العاصي بقيمة ٢٠٠ ألف دولار: «ما شفنا منهم إلّا بعض اللافتات التي تشير إلى ضرورة الحفاظ على النهر». كما يعود محدّثنا ليشير إلى الفساد الذي اعترى مشروع مد خط مياه نظيفة من رأس العاصي، عند المنبع، إلى المرافق السياحية لاستعمالها في الطهي وغسيل الخضار، «واقتصر الأمر على نربيش (أنبوب) أسود ضخم يطفو على سطح الماء، وكلّ الهرمل تعرف قصة النبريش الذي أسموه الحنش (والحنش هو نوع من الأفاعي السوداء الضخمة)». والأسوأ أنّ البلدية، وفق الناشط، عادت ودفعت مبلغاً يوازي مدّ النربيش لسحبه بعدما ضجّت الهرمل بكلفته البالغة نحو ٨٠ ألف دولار «ما حدا عم يحاسب وحده العاصي يدفع ثمن كل شيء».

التروبت
نعمة لا نعرف قيمتها

يشير مستثمر مزرعة العميرية وأحد مربي الأسماك في وادي العاصي محمد علي العميري إلى أنّ معظم مربّي الأسماك اليوم يغذّون أسماك الترويت بأحشاء الدواجن (مصارين الدجاج). وعندما نسأله عن كلفة كيلوغرام السمك، حيث أنّ مربي الأسماك رفعوا سعر الكيلوغرام من ٧ آلاف قبل انهيار الليرة إلى ٢٤ و٣٠ وحتى ٣٥ ألف ليرة لسمكة الترويت السالمون الكبيرة، يقول «معك حق بيقدروا بهيدا السعر يطعموا علف». وبعملية حسابية بسيطة يجريها العميري لكلفة التغذية بالعلف، نجد أنّه يمكن بيع الكيلوغرام بـ٣ دولارات «وبيكون المزارع ربحان». وهذا ما يحصل فعلياً على العاصي ولكن من دون أن تنسحب هذه الربحية تحسّناً في تغذية السمك بالعلف غير المضرّ وكذلك حماية العاصي.

هذه الحقيقة يعترف بها أحد كبار مربي الأسماك على العاصي وشاح محفوظ: «طبعاً بهيدي الأسعار بيقدر مربّو الأسماك يوقّفوا استعمال مصارين الدواجن». ولكن هل يفعلون؟ نسأله: «طبعاً مش كلّهم عم يطعموا مصارين، في البعض منهم بس»، يقول. ورداً على قول البعض إنّ مسامك كثيرة أقفلت على العاصي، يؤكّد محفوظ أنّ سوق السمك اليوم في عزّه بسبب غلاء أسعار اللحوم الحمراء والدجاج وارتباطها بالدولار مع الأسماك البحرية المحلية والمستوردة «فصارت الناس عم تاكل سمك

ترويت وهو أرخص من كل اللحوم». ويشير إلى أنّ ٩٠٪ من إنتاج السمك اليوم يُباع في لبنان و١٠٪ يذهب إلى سوريا، فيما كانت سوريا قبلاً تستهلك ٦٠٪ من إنتاج سمك العاصي «لأنّه كانت الأزمة بعدها ما وقعت بلبنان وكان الناس بعد معها مصاري لتشتري لحوم خواريف وعجول ودجاج وسمك بحري». ويقول محفوظ للدلالة على أهمية الثروة السمكية في الهرمل إنّ «كلّ مطاعم السوشي بتاخد الترويت السلمون من عنّا، ويؤمّن القطاع آلاف الوظائف وهناك كثيرون يشتغلون بالاتّجار بالسّمك إلى بقية المناطق اللبنانية».

الترويت وجحود المربين

يتوقّف محمد علي العميري عند أهمية سمكة الترويت «الثروة التي يجهل كثيرون أهميتها وميزتها»، مستنداً إلى الدراسات التي أجراها كونه ينتج ترويت سالمون مدخّن. فـ«دهون الترويت، وهي سمكة Mi-gras et Maigre بالفرنسية أي نصف دهنية وكلّ المستشفيات بفرنسا بتطعمي فيليه ترويت، وتبلغ نسبة الأوميغا ٣ فيها ١,٢٨ غرام بكل ١٠٠ غرام، يعني زيت السمك عالي بس ما فيها يود». والترويت هو صنف من ٤٣ صنفاً معروفاً لسمكة السلمون، وتعيش في العاصي الترويت السالمونيه Salmonier من عائلة سمك السلمون المؤلفة من ٤٥ صنفاً من أصناف الترويت «وهم من نفس العيلة». ويقول العميري إنّ الترويت في كندا وفرنسا «أغلى من السلمون البحري لأنّهم يربّونه بكمّيات أقلّ من السلمون وفي المياه المكرّرة، ولذا لا يكبر فرخ الترويت كما يفعل في العاصي الطبيعي». ويأسف العميري لأنّ هذه النعمة والثروة مهدّدة في استدامتها «عنّا كنز مش عارفين قيمته، وعم نقتله بإيدينا».





منتجع سياحي على ضفاف العاصي | **تصوير كامل جابر**



العاصي، عاصي الطبيعة وجريانه من الجنوب إلى الشمال | تصوير مايا مزبودي



الجرد والعاصي

والأمل الدائم بموسم سياحي جيّد

سعدى علّوه

في أواخر نيسان ٢٠٢١، وصلت مديرة إقليمية في إحدى المؤسّسات الدولية المعروفة إلى منطقة الهرمل كسائحة. شاركت في رياضة الرافتينغ (Rafting)[1] ونشاط التخييم على ضفاف نهر العاصي والمشي في الطبيعة في جرود القضاء (Hiking) في سفح القرنة السوداء وصولاً إلى غابة القلّة الغنيّة بأشجار الأرز واللزّاب والشوح والتنوب المعمّرة على الحدّ مع عكار. دُهشت بجمال المنطقة ومقوّماتها السياحية المتكاملة «السياحة هون ساحرة» قالت قبل أن تختم إقامتها بالبكاء. خاف نورالدين المقهور صاحب أحد نوادي الرافتينغ على العاصي (حيث أقامت) أن يكون قد حصل أمر ما أزعج السيّدة، وحين سألها عن سبب بكائها أجابت: «حرام يصير هيك بمنطقة بهيدا الجمال». أبكتها نفايات يرميها البعض في نهر هو «الأجمل في لبنان»، كما وصفت العاصي، ومعها (مع النفايات) المرامل والكسارات التي تنهش الأودية والجرود وكذلك المشاحر التي تقضي على أحراج السنديان في الوديان والتي صادفتها في طريقها إلى أعالي الجرود. «بكت السيّدة علينا أيضاً»، يقول نورالدين «المنطقة كتير فقيرة وإنتو عندكم أهم ثروة بعدها خام بلبنان، لازم تحافظوا عليها»، ختمت حديثها بما يشبه الوصيّة، وهي تضع أغراضها في سيارتها استعداداً للرحيل.

ربّما المقوّمات نفسها التي سردتها المديرة السائحة، هي ما يبثّ الأمل بموسم سياحي جيّد هذا العام تجده وتستغربه لدى أصحاب المرافق السياحية في جرود الهرمل وسهلها تحديداً على نهر العاصي، برغم الأزمة الاقتصادية التي تعصف بلبنان وسكانه، معطوفة على تحدّيات كورونا وانهيار الليرة. نحن نتحدث السياحة في قضاء الهرمل الذي منحته الجغرافيا والتاريخ ميزات سياحية ما بين سفح القرنة السوداء على ارتفاع ٣٠٨٠ متراً نزولاً نحو سلسلة جبال لبنان الغربية حيث تقع جروده، وصولاً إلى نهر العاصي على ارتفاع ٦٥٠ متراً عن سطح البحر، وما بينهما من تنوّع مناخي ونباتي وجيولوجي، وكذلك أودية تكتنز مزيجاً غنياً من أحراج السنديان وغابات الأرز واللزّاب والشوح والتنوب، وغيرها من الأشجار الحرجية، إضافة إلى معالم أثرية تاريخية أبرزها قاموع الهرمل ودير مار مارون في منطقة رأس العاصي ومعهما لوحة نبوخذ نصّر في بريصا وأطلال كنيسة تاريخية تعود إلى القرن الخامس الميلادي. كلّ هذا معطوفٌ على نمط حياة سكان الجرود المتوسطة والعليا التي قلّما يجدها السيّاح في مناطق لبنانية أخرى: «بعدها المنطقة عايشة ع الطبيعة والفطرة»، كما يقول حسين دندش أحد أصحاب مشروع «لزّاب إيكولودج» في جرود الهرمل.

التفاؤل نجده أيضاً في افتتاح مشاريع سياحية حديثة حالياً على نهر العاصي في وقت أعلن

(١) هي رياضة تجديف مائية جماعية على متن طوف (raft) غالباً ما تمارس في الأنهار.

فيه نقيب أصحاب المطاعم والمقاهي والملاهي والباتيسري في لبنان طوني الرامي في أواخر نيسان ٢٠١٢ عن إقفال ٨٩٢ مؤسسة سياحية منذ بداية العام ٢٠٢١.

يعزو أصحاب المرافق السياحية التفاؤل بموسم جيّد إلى ثلاثة أسباب: أنّ المنطقة مفتوحة «بالبرّية، يعني ما في كورونا» وأنّ السياحة البيئية تتقدّم على سياحة المطاعم والمسارح والمقاهي والنوادي الليلية المقفلة في زمن كوفيد ١٩ «وكمان انخفاض قدرة اللبنانيين على السفر، كما أنّ أسعارنا لا تقارن بأسعار المناطق اللبنانية كافّة كوننا الأرخص»، تقول فداء الساحلي، صاحبة نادي رافتينغ ومطعم على العاصي: «بالهرمل بتسوحي: نهر ورافتينغ وجبل ونومة وهايكينغ بسعر قضاء ليلة في أي فندق في لبنان، وفوق هيدا كلّه بتتعرفي ع منطقة من أجمل مناطق لبنان».

من جهته، يبرّر علي علّوه، وهو أحد الشركاء في مشروع سياحي جديد، البدء بمشروع جديد في هذا الوقت الصعب بوجود مقوّمات ما زالت خام بالنسبة لكثير من اللبنانيين وتنوّع السياحة بين النهر والجرد والآثار «المنطقة نموذج ممتاز للسياحة البيئية»، إضافة إلى تراجع إصابات كورونا في لبنان عامّة وفي الهرمل خاصّة وتطوّر السياحة الداخلية. وبناء على هذه المعطيات، جهّز علي وشريكه أحمد المسمار بيوتاً خشبية صغيرة تتّسع لشخصين إضافة إلى خيم عديدة «لأنّه في ناس بتحبّ التخييم ع ضفاف العاصي، وتركنا نحو ألفي متر بين أمكنة التخييم والاسترخاء، ومساحة أرض طينية كثيفة بالأشجار النهرية من كينا وصفصاف».

إلى جانب «مغامرة» علي وأحمد، تجد هبّة استعداد كبيرة على طول العاصي وفي مشروعي السياحة البيئية في جرود الهرمل «آلجورد» (Aljourd Natural Reserve) و«لزّاب إيكولودج» حيث التحضير لاستقبال روّاد الصيف مع برامج غنيّة بالأنشطة البيئية السياحية قائم على قدم وساق.

الرافتينغ والعاصي

عرف نهر العاصي رياضة الرافتينغ، وفق ما يقول نورالدين المقهور مع «أستاذنا علي عواضة بـ١٩٩٦ عندما وصل مع أوّل رافت وكاياك ع الهرمل برفقة فريق فرنسي استكشف نهر العاصي». لم يكن أبناء العاصي والمدينة يعرفون شيئاً عن الرياضتين ولا عن مقوّمات العاصي التي تجعله مناسباً جداً لـ«الرافتينغ ورياضة الكاياك[٢]، ويعتبر من أهم الأنهار العالمية في هذا المجال». يومها قال علي عواضة للشبّان الذين عملوا معه «ما بدّي طعميكم سمك بدّي علمكم الصيد، وأنا كنت واحد منهم»، يضيف المقهور. وفعلاً درّب عواضة مجموعة من شبّان الهرمل على الرياضتين اللتين انتشرتا لاسيّما الرافتينغ لكونه رياضة جماعية سهلة حتى أصبح هناك «نحو ٢٠ نادي رافتينغ على العاصي بمستويات مختلفة»، كما تؤكّد فداء الساحلي التي يقدم ناديها هذه الخدمة الرياضية.

(٢) الكاياكينغ هي رياضة تجديف مائي فردية أو ثنائية على متن قارب صغير مغلق يسمّى كاياك (Kayak)، وهي على خلاف الرافتينغ تحتاج تدريباً أكبر.

افتتح نورالدين ناديه الخاص في ٢٠٠٨ «عنّا مستوى رافتيغ ١ و٢ للمبتدئين و٣ لأصحاب الخبرة ومستوى ٤ للي بيعملوا كاياك. ونقدّم خدمات رافتينغ وكاياك للمحترفين». يمكن للروّاد من عمر ٥ سنوات وما فوق ممارسة الرافتيغ «بدّه تدريب ربع ساعة لينزل الشخص بالمي مع جاكيت إنقاذ وكاسكيت للرأس، إلّا من لديهم مشاكل بالضهر والقلب والحوامل، وعنّا رافتيغ على ضوء القمر وهي نزلة الليل». ويرى أنّ لبنان يمتاز برياضتين: «التزلّج ع التلج بكفرذبيان وفاريا والزعرور والتزّلج على الماء في العاصي - الرافتينغ، وحدة شتاءً ووحدة صيفاً». وتتحدّث فداء الساحلي باندفاع عن نهر العاصي، «الوحيد الذي ما زال يحافظ على حدّ مقبول من النظافة والغزارة المستمرّة شتاء صيف بقوّة في كل لبنان»، لترى أنّ هذا الامتياز نفسه يفرض مسؤولية كبيرة على الجميع للحفاظ عليه. ولكنّ الاستثمار الصديق للبيئة وللنهر هو المطلوب، كما تقول فداء «يعني بدنا ناخد من النهر ولازم نعطيه بالمقابل، مش ندمّره، لذا فإن الاستغلال الوحشي مرفوض». وتستشهد بدراسة تقييمية أجراها فريق فرنسي عن «مداخيل العاصي في ٢٠٠٩ أثبتت أنّ حركة الاستثمار أنتجت نحو ٨ ملايين دولاراً في ذلك العام».

وفداء التي درست «إدارة الأعمال» قرّرت الاستفادة من الأرض التي تملكها عائلتها بمساحة ٦ دونمات على ضفاف العاصي «الناس بتفلّ



مشروع الجرد البيئي | **من صفحة المشروع على فيسبوك**



شبّان وشابّات يمارسون رياضة الرافتينغ | **تصوير نور المقهور**

من الهرمل لأنّه ما في مقوّمات عمل فعلية وهيدي ضيعتنا وفينا نعمل فيها شغل ونشغّل أولادنا وشبان وشابات المنطقة»، وهكذا كان.

وتثير فداء مسألة تصنيف وادي العاصي كمنطقة زراعية والحديث عن التعدّيات على النهر: «طالبنا بتحديث تصنيف الوادي كموقع سياحي ووضع قواعد للاستثمار تحترم البيئة والقانون الخاص بالأملاك النهرية في لقاء مع نوّاب المنطقة والتنظيم المدني ووزارة الصحة، وبعدنا ناطرين تنفيذ وعودهم».

ويشكو عدد من أصحاب المشاريع على العاصي من المجارير التي تسلّط على النهر وتغذية مسامك الترويت من أحشاء الدواجن، وهو أمر تناولناه في مكان آخر من هذا العدد[٣]، وإن سارع بعضهم للتذكير بأن طبيعة العاصي تعزّز صموده: «هو نهر غزير ويمتاز بالجريان الهادر، يعني بينضف حاله بحاله، خاصّة أنه يتعرض للفيضان كل عام تقريباً»، فيجرف الفيضان كل الملوثات «ولازم كمان وضع حل لما بقي من مجارير في بعض المقاهي»، يقول مشيراً إلى وجود حفر صحية عند الأغلبية «بس بدنا حل جذري لمسألة مياه المجارير».

(٣) من يحمي نهر العاصي؟ سعدى علّوه، منشور في هذا العدد.

آثار الهرمل

يستقبل القاموع، أشهر معلم أثري في الهرمل، زوّارها. يراه الآتون إليها من رأس بعلبك منتصباً على تلّة تشرف على مناطق رأس بعلبك والقاع والهرمل في الوقت عينه. وهو عبارة عن برج يوناني وروماني بطول ٢٧ متراً مقام فوق قبر أميري من القرن الأوّل أو الثاني قبل الميلاد، كما يرد على موقع وزارة السياحة، وإن يبقى الجدل حول أصله قائماً.

تعرّض القاموع مع مرور الزمن لمحاولات تنقيب عن آثار كما يبدو من ترميم جزء منه بحجارة حديثة تختلف كثيراً عن عن العصور القديمة التي بني فيها. وهو معلم أثري لا يخضع لإدارة وزارة السياحة ولا بلدية الهرمل فيمكن زيارته من دون بدل مادي، وتحيط به منطقة مفتوحة جميلة تمكّن الزائر من رؤية المنطقة دورة كاملة ١٨٠ درجة وبأفق مفتوح إلى سوريا من الشرق والشمال الشرقي ونحو جرود الهرمل من الشمال والشمال الغربي وصولاً إلى جبل المكمل في الجنوب الغربي.

قبل المنعطف نحو القاموع بمئتي متر يجد زائر المنطقة طريقاً فرعية تؤدّي إلى نبع عين الزرقا الذي شُيد دير مار مارون بالقرب منها، وتحديداً على التلّة التي ينبع النهر من أسفلها. والدير عبارة عن كهوف منحوتة في الصخر من القرن الخامس ميلادي يقال إنّ مار مارون سكن فيها عند قدومه من سوريا. قبل نحو سبع سنوات تولّت المطرانية المارونية في المنطقة إدارة الدير الذي كان مفتوحاً للزوّار من دون إشراف أي جهة بما فيها وزارة السياحة الغائبة عن كلّ معالم قضاء الهرمل السياحية. وتسمح المطرانية بزيارة الدير من دون أي مقابل مادي أيضاً.

أما المعلم السياحي البارز الثالث في قضاء الهرمل فهو آثار قرية بريصا في وادي الشربين التي هجّر الحرمان غالبية أهلها فيما نجد فيها منحوتات صخرية هي عبارة عن لوحات سطّر عليها نبوخذ نصّر بطولاته لدى وصوله إلى المنطقة بكتابات بابلية قديمة وأخرى حديثة وذات نقوش مسمارية. ومع اللوحات الصخرية المنحوتة نجد بقايا كنيسة تاريخية في بريصا تعود إلى القرن الخامس ميلادي مهملة من دون أي ترميم أو اهتمام. وتعرّضت منطقة المنحوتات الصخرية للتخريب كما الآثار الأخرى بحثاً عن كنوز ظنّها السكان مدفونة تحتها. وكانت بريصا تشهد رحلات سياحية أجنبية قبل سنوات طويلة، لكنّها غير مدرجة على أي برامج رحلات حالياً.



قاموع الهرمل احد أبرز معالمها الأثرية | **تصوير مايا مزبودي**



لزّاب إيكو لودج | **تصوير لمياء الساحلي**

الجرد

مع السياحة على نهر العاصي، عرفت جرود الهرمل المشروع السياحي الأوّل «آلجورد» في ٢٠٠١ وتحديداً في مثلث جرود الهرمل-عكّار الضنّية، كما يقول حسين علّوه الذي يدير المشروع حالياً، وهو مشروع أنشأه شبّان من آل علّوه يومها بالشراكة مع جمعية «مدى».

في نهاية ٢٠٠٣ وعلى الجهة الأخرى من جرد الهرمل، وتحديداً في سفح قرنة رجال العشرة، افتتح حسين دندش وبومدين الساحلي مشروع السياحة البيئية «لزّاب إيكولودج» في منطقة التنوب قبل سهل جباب الحمر بنحو ٣ كيلومترات «بدأنا الفكرة كبيت ضيافة ثم تطوّرت إلى مشروع سياحة بيئية»، وفق حسين دندش «وكان الإقبال ملفتاً منذ بداية المشروع حيث كان على الراغبين بزيارتنا أن يحجزوا أماكنهم قبل ٣ أشهر».

ويرى علّوه أنّ مقوّمات منطقة مشروع «آلجورد» أساسية كونه يقع في منطقة غنية باللزّاب وقريباً من منطقة وادي جهنم بغابته من الأرز واللزّاب والأشجار الحرجية الأخرى، كما في المشروع ومن حوله «ونحن لم نسعَ لتعبيد الطريق المحيطة بالمشروع لتبقى المنطقة محمية وفريدة، خيمها من القطن والحجر، وتركنا المراحيض مفتوحة من دون سقوف، وكلّها تجهيزات تُشعر الإنسان أنّه

في الطبيعة وليس في منتجع سياحي».
ويحيط بمشروع «لزّاب» مئات أشجار اللزّاب المعمّرة: «حدّد فريق من الجامعة الأميركية أعمار أشجار اللزّاب في المشروع من ١٠٠ إلى ٧٠٠٠ سنة».

ويعتمد مشروعا «آلجورد» و«لزّاب» على شراء حاجيّاتهما من المجتمع المحلّي ومن المزارعين ومربي المواشي من حليب وخضار وفاكهة عضوية بلا مبيدات أو أدوية وأسمدة وكذلك يقدمّون البروتين الأساسي من سمك الترويت مباشرة من العاصي.

ومن الأنشطة التي يقدّمها المشروعان مسيرات للمشاة (Hiking) في الجبال المحيطة بهما وهي مناطق غنية باللزّاب والصخور والأودية والأراضي الزراعية الشاسعة حيث يعبر المشاة في منطقة يعيش أهلها على الزراعة وتربية المواشي وتربية النحل، وكذلك نحو جبل المكمل والقرنة السوداء وقمة رجال العشرة في الجبل نفسه وإلى وادي جهنم، وفي التلال المحيطة بالمشروعين. وكذلك يعقد مشروع «آلجورد» شراكة مع نواد بيئية في منطقة القمّوعة في عكار فوق فنيدق.

وهنا أيضاً، يشير كثيرون إلى التحدّيات البيئية لجهة وجود خمس كسارات وخمس مرامل ناشطة، والقطع الجائر للأشجار بسبب بيع الحطب أو صناعة مشاحر فحم السنديان المنتشرة بكثافة. ويرى حسين علّوه أنّ الكارثة الكبرى حلّت بغابة القلّة على فم وادي جهنّم في جرد عكار بمشاركة سكان من قضاء الهرمل أيضاً «حتّى من جهة الهرمل القطع أكبر وأقسى». أمّا الكسارات والمرامل فقد غيّرت طبيعة المنطقة الجغرافية ومنها مرامل في منطقة الحرف على الحد بين الهرمل وعكار حيث نجد أنّ إحدى المرامل قد قضت على جبل كامل بلزّاباته من دون حسيب أو رقيب.

ويقول أحد سكّان الأودية (لا يرغب بذكر اسمه تجنّباً للمشاكل مع عشيرته) إنّ هناك قطعاً ممنهجاً لأحراج السنديان «عم يحلقو جبال الوديان وهضابها ع الصفر»، مشيراً إلى غياب القوى الأمنية وحرّاس الأحراج «كأنّه الثروة الحرجية ملك خاص وأنا متأكّد أنّ ملكية معظمها تعود للدولة». ويرى أنّ ذلك سيعود بالويلات على المنطقة «مبسوطين بطبيعتنا كعامل جذب سياحي، بس ندمرها ع شو بدها تجي الناس؟ ع صيت منطقتنا الحلو؟».

المواسم على وقع طبول الحرب

قبل انتهاء تجهيز فداء الساحلي لناديها بأشهر وقع عدوان ٢٠٠٦ «وكان مأساة على كلّ لبنان والمنطقة فأجّلنا الافتتاح لغاية ٢٠١٠». وموسم ٢٠١٠-٢٠١١ كان ممتازاً خصوصاً أنّ وزير البيئة حينها زار الهرمل وواكبته وسائل إعلام عدّة ومارس رياضة الرافتينغ على العاصي وتناول الغداء في جرود الهرمل، وتحدّث عن المقومات المميزة للسياحة فيها، فشهدت المنطقة إقبالاً غير مسبوق بعد زيارته «يعني الاهتمام الرسمي والإعلام بيأثروا» تقول. ووصل عدد روّاد النادي وحده في ٢٠١٠ إلى ١٦٠٠ زائر فيما ارتفع في ٢٠١١ إلى ٢٠٠٠ زائر «وهذا موسم ممتاز حتى مقارنة مع مرافق لبنانية في مناطق أخرى».

في ٢٠١٢ مع معركة القصير على الحدود مع الهرمل «اختفى السيّاح الأجانب والخليجيون وكانوا يأتون في رحلات تشمل سوريا والأردن ولبنان، وقلّ الروّاد اللبنانيون ولكنّنا حافظنا على ١٨٠٠ زائر عندنا». ووقعت الطامة الكبرى في ٢٠١٣ التي كانت سنة الصواريخ في الهرمل حيث وقع ١٥٠ صاروخاً على المنطقة من اللبوة إلى الهرمل مصدرها جرود عرسال التي تمترس فيها عناصر «داعش» والنصرة. فـ«هبط عدد الروّاد بقوّة إلى ٨٠ زائر في السنة عندنا». ومع توقّف الصواريخ، بدأ العام ٢٠١٤ «جيّداً» إلى أن وقعت معركة عرسال في شهر آب وحصل خطف العسكريين «فوقف الشغل» ثم تلاها تفجير السيارات في ٢٠١٥ وكانت حصّة الهرمل ٣ سيارات متفجّرة. «كان الوضع مأساوياً مع سقوط ضحايا، وطبعاً كلّ الناس مهووسة بالأمن، فمش رح تطلع تسوح».

في ٢٠١٦ تحسّنت الحركة، وعاد الزوّار في ٢٠١٧-٢٠١٨ إلى عتبة ٢٠٠٠ زائر «بس خسرنا الأجانب». مع ٢٠١٩ بدأ الروّاد يقلّلون من الدفع بالدولار «حسّينا في شي مش مزبوط إلى أن حلّ ربعها الأخير مع الانهيار وحجز أموالنا».

تقييم المواسم نفسه تجده لدى أصحاب المشاريع الأخرى على العاصي كما في الجرد.

الصيت الأمني

«برغم أنّ حادثاً أمنياً واحداً لم يقع مع السيّاح في قضاء الهرمل جرداً وسهلاً، إلّا أنّ الصّيت الأمني لقضاء الهرمل يفعل فعله في كثير من الأحيان» وفق ما يؤكّد حسين علّوه وحسين دندش عن مشاريع السياحة البيئية في الجرد. حصل مرّتين أن طلب بعض الأشخاص المال من سائحين اثنين (كل واحد على حدة) وبالتحديد خمسين ألف ليرة ومئة ألف ليرة على التوالي. قام كلّ منهما (أي حسين علّوه وحسين دندش) باسترداد المال وإرجاعه للروّاد «وغير هيك ما حدا انزعج من كلمة برغم أنّ الإعلام لا يرك (يركّز) سوى على الحوادث الأمنية في المنطقة». ويرى حسين علّوه ضرورة تواجد الجيش اللبناني في الجرود بشكل أكبر «في حاجز على رأس الضنّية من ناحية جرد الهرمل يبعد عن مشروع «آلجورد ١٥ كلم، وحاجز في وادي الكرم في أعلى الهرمل

يبعد عنا ٢٥ كلم، وغير هيك ما في أي حضور أمني للدولة، وحضور الدولة وحده يشعر الناس بالأمان».

من جهتها، تخبر فداء الساحلي عن الأسئلة المعتادة للروّاد «بيتّصلوا بيسألوا أوّل شي عن الأمن»، مشيرة إلى «توقّف البعض عن القدوم إلى المنطقة مرّة ثانية في حال حصل اشتباك خلال وجودهم عندنا أو تم إطلاق النار والقذائف خلال أي عزاء»، مطالبة أهل المنطقة أن يساهموا في تحسين صورة منطقتهم «لازم نحن كمان نشتغل على صورتنا وعاداتنا للأفضل». وهو ما يراه علّوه ضرورة كبيرة «تصرّفاتنا هي ما نحن عليه، ولذا يجب أن يفكّر كلّ منّا أنّ كلّ ما يفعله هو مسؤولية كبيرة لأنّه يُحتسب على المنطقة ككلّ، ولا يتمّ التعامل معه كحادث فردي».

الحوادث المسيئة للمنطقة «يرتكبها بعض الزعران وليس كل الناس»، وفق نورالدين المقهور «حتى بالحمرا إذا صار في شي أمني الناس ما بتنزل ع النوادي الليلية وقت الحادث، بس ما بيطلع صيت أمني ع الحمرا»، فيما يعدّد حسين دندش حوادث كثيرة حصلت في مناطق مختلفة في لبنان «وطابعها أمني أيضاً ولكن الصيت يبقى للهرمل وجردها، وكأنّ المقصود أن تبقى صورة المنطقة خارجة على القانون».

تحسين الطرقات المؤدّية إلى الهرمل؟

في إطار عرضها للتحدّيات، تتساءل فداء الساحلي عن السبب الذي يدفع الدولة إلى إهمال طريق بعلبك-الهرمل الذي يسلكه نحو ٢٠ ألف زائر سنوياً إلى العاصي، عدا عن أهل المنطقة طبعاً. «ما بيدعموا القطاع السياحي فهمنا، بس حتى طريق متل بقية المناطق ما عنّا». وإضافة إلى الطريق عبر بعلبك، يمكن الوصول إلى مشاريع السياحة في الجرد عبر الضنّية، ولكن للأسف لم تستكمل الدولة أوتوستراد الضنية من ناحية الشمال وتحديداً في قراها العليا، وهي طريق ضيّقة جداً وتعبر بين المنازل المتركنة عليها بطريقة لا تتّسع معها إلّا لمرور سيارة واحدة.

بلاد الأرز و... اللزّاب

سعدى علّوه

عندما تستمع إلى الطبيبين يوسف طوق وأنطوان ضاهر يتحدثان عن شجرة اللزّاب، تشعر أنّ هذه الشجرة الحرجيّة المعمّرة والقديمة في لبنان، التي تستوطن جرود الهرمل، خاضت مع مناصريها وما تزال حرباً شرسة لإثبات هويّتها ونفسها في بلد اتّخذ من الأرز شعاراً له، وعُرف بالأرز دون غيره حتى صارت تسمية بلاد الأرز مرادفة لاسم لبنان.

الدكتوران طوق، ابن بشرّي، وضاهر ابن القبيات، من أبرز الناشطين البيئيين في لبنان. فالأوّل، (طوق) هو الذي سعى قبل نحو ٤٠ عاماً لإنقاذ أشجار الأرز ونجح قبل سنوات في استكمال حلمه بالتعاون مع أفراد آخرين وجمعيات من تشجير مئة ألف أرزة في منطقة بشري والأرز وجبل المكمل الذي يعلوهما. وباشر منذ ٣٠ سنة بتشجير المنطقة نفسها باللزّاب. أما ضاهر فهو من مؤسّسي مجلس البيئة في القبيات ويُعنى أيضاً بحماية الأرز واللزّاب بخاصّة في محافظة عكار وجبل لبنان وصولاً إلى مثلث الهرمل الضنيّة عكّار.

يقول الرجلان، طوق وضاهر، إنّ المقولة الشهيرة بأنّ الأرز كان يغطّي جبال لبنان تاريخياً قبل أن يتعرّض لمجازر القطع في مراحل عدّة من بناء هيكل سليمان وتوابيت الفراعنة، مروراً بمراكب الفينيقيين التي جابت البحار، وصولاً إلى زمن سكّة القطار أيام العثمانيين، ليست سوى أسطورة بالنسبة إلى هوية الشجرة التي تعرّضت للقطع. ويؤكد طوق أنّ شجر اللزّاب هو الذي كان يغطّي جبال لبنان وخصوصاً القمم العالية جداً بدءاً من ١٩٥٠ متراً، ولغاية ٢٩٣٠ متراً، وهو الارتفاع الذي لا تعيش عليه أيّ شجرة أُبرية حرجية سوى شجرة اللزّاب، مؤكّداً أنّ هناك لزّابة معمّرة رصدها قبل القرنة السوداء بقليل، (على ارتفاع ٢٩٣٠ متراً، بينما تقع القرنة السوداء على ارتفاع ٣٠٨٠ متراً عن سطح البحر)، حيث لا يمكن لأي شجرة أبرية أن تعيش غيرها.

ويؤكّد طوق أنّ «الأرز لا يعيش فوق ٢٠٠٠ متر، ويتّخذ من السفح الغربي لسلسلة جبال لبنان الغربية موطناً له كونه يحتاج إلى رطوبة عالية يستمدّها من البحر المقابل للسلسلة». وهناك غابة أرز وحيدة تعيش في السفح الشرقي للسلسلة الغربية، وتحديداً في غابة محمية كرم شباط. ويعيد ضاهر قدرة الأرز على العيش في المحمية من جهة الشرق إلى «موقع المحمية التي يطلّ سفحها الشرقي على بحيرة حمص، وبالتالي يستمد الرطوبة التي يحتاجها نمو الأرز منها»، مؤكّداً أن اللزّاب لا يبالي بالجفاف والمناخ الجافّ والقاسي صيفاً وشتاءً ولذا نجده على أعلى مرتفعات جبال لبنان. و«هذا ما يمنحه فرادته».

ويدعم ضاهر هذا الكلام (بأنّ اللزّاب هو ما كان يغطي جبال لبنان) بالحديث عن عطر اللزّاب: «هناك مقولة أخرى تفيد أنّ بحّارة المراكب



شجرة لزّاب متوسّطة العمر في الجرود | **تصوير كامل جابر**

الآتيـة إلى لبنـان كانـوا يشمّـون رائحـة عطـر الأرز عنـد اقترابهـم مـن شواطئه». ليؤكّـد أنّ «لا رائحـة لـلأرز، بينمـا اللـزّاب هـو الشـجرة العطريـة، وتفـوح روائحـه إلى البعيـد، ويصنعـون مـن صمغـه البخّـور، وعندمـا نفركـه بـين كفينـا نجـد رائحتـه عليهـا».

تبـدأ الأغصـان السـفلية بالتكسّر مـع الريـاح والثلـوج «مثـلاً لزرعتهـم مـن ٣٠ سـنة بعدهـم جـمّ لـزّاب». ويخلـص إلى القـول إنّ مـن يـزرع اللـزّاب «مـا بـده ينطـر ليقعـد تحتـه ويتفيّـا، الأجيـال القادمـة هـي الـتي سـتفعل».

٤ أنواع من اللزّاب في لبنان

يوجـد في لبنـان أربعـة أنـواع مـن اللـزّاب، مـن بـين نحـو ٤٠ إلى ٦٠ نوعـاً موجـودة في العـالم مـن فئـة «اللزّابيـات» وفـق الدكتـور طـوق، وهـي «Juniperus Excelsa وjuniperus foetidissima و Juniperus oxycedrus و Juniperus drupacea». ويسمّـى الأوكسيسـيدروس بالعرعـر السـوري أو الكـوكلان (في جـرود البـترون وتنوريـن) ولا تكـبر شـجرته أكـثر مـن ٥ إلى ٦ أمتـار. بالمقابـل، قـد يصـل ارتفـاع الإكزلسـا أو فوتيديسـيما إلى ٢٠ مـتراً، ويصعـب التمييـز بـين هذيـن النوعـين إلاّ مـن قبـل خبير في اللزّاب، ويعتبر جرد الهرمل موطنهما كما عـكار والضنيـة في لبنـان. ويُعـرف النـوع الرابـع مـن اللـزّاب، أي دريباسـيا باللـزّاب الطفـران ويعيـش في مناطـق أقـلّ ارتفاعـاً مـن الجـرود العاليـة، وهـو منتـشر في سـفح اللقلـوق أيضـاً.

ويلفـت طـوق إلى أنّ نمـوّ اللـزّاب أبطـأ بنسـبة ٥٠٪ مـن نمـوّ الأرز و«لكنّـه يعمّـر أكـثر بكثـير منـه». وتحتـاج اللزّابـة إلى «٥٠٠ سـنة لتأخـذ شـكل الشـجرة، إذ تكـون عـلى شـكل جـمّ أبـري أخـضر ينمـو مـع الوقـت ويتشـذّب بفعـل عوامـل الطبيعـة حيـث

خشب اللزّاب هو الأمتن

ويعتـبر الدكتـور ضاهـر أنّ النمـو البطـيء للـزّاب يمنحـه خاصّيـة الصلابـة أكـثر مـن أيّ شـجر آخـر: «بيطلـع خشـبه كتـير صلـب وكتـير كثيـف»، مشـيراً إلى أنّ جدودنـا كانـوا يسـتعملون خشـب اللـزّاب وليـس الأرز لبنـاء بيوتهـم لأنّـه الأمـتن «ومـا بيسـوّس أبـداً، وهـو أقـوى مـن الفـولاذ». ويبـني ضاهـر خلاصتـه عـلى مشـاهداته في البيـوت الحجريـة والطينيـة القديمـة المهدّمـة: «نجـد جـسر الحديـد مصـدأ ومكسـوراً بينمـا جـسر خشـب اللـزّاب مـا زال متينـاً وسـليماً ومتماسـكاً ولم يطلْـه حـتى السّـوس». ولـذا كان خشـب اللـزّاب الأسـاس في بنـاء البيـوت والقصـور، و«لكـن لأنّ الأرز مذكـور في التـوراة والكتـب القديمـة، كانـوا يسمّـون كلّ أشـجار لبنـان الحرجيـة أرز».

وإلى جانـب البيـوت، اسـتعمل جدودنـا خشـب اللـزّاب لاسـتخراج القطـران، وفـق ضاهـر: «كانـوا يحمّـوا خشـب اللـزّاب ع النـار ليطلـع منـه زوم أسـود هـو القطـران ويسـتعملونه لعـلاج مـرض الجـرب الجلـدي، وليبعـدوا الحـشرات والأفاعـي عـن المنـازل». ويتحـدّث عـن «قطّـارات» مـا زالـت

آثارها موجودة في عكار، و»أفضل قطران هو قطران اللزّاب». ويردّ صلابة خشب اللزّاب أيضاً إلى احتوائه على القطران «كتير قوي خشبه لأنّه القطران الموجود فيه هو ضد التسوس والحشرات ويقتلهم».

توليد اللزّاب من دون مروره بأمعاء الكيخن

قبل ٣٠ عاماً، اعتقد الجميع أنّ شجر اللزّاب لا يتكاثر إلّا من خلال مرور ثماره (البذور) في الجهاز الهضمي لطيور الكيخن أو بعض القوارض، وهي نظرية دحضها د. طوق بعد دراسته لكيفية استنبات شتول للزّاب لاستعمالها في التشجير. بدأ طوق أبحاثه في ١٩٩٠ «كنت عم بسأل كيف بدنا نولّد لزّاب وصرت إتعلّم شوي شوي، وصرت إسأل عن اللزّاب، ولمّن عرفت قديش هو مهم أدركت أنّ اللزّابة هي مستقبل جبالنا في لبنان». يومها أكّد له الجميع «بما فيهم المهندسين الزراعيين إنّه بدّه ياكلوا الكيخن حتى ينبت لوحده». بعد سنتين من الاختبارات، تمكّن طوق من توليد اللزّاب خلال شهر عبر ٣ أو ٤ طرق، بينما هي «بذرة بدها ٣ إلى ٤ سنين لتفرّخ». ومن هذه الطرق «أول شي ننقع البذر بالمي المغليّة لمدة ١٥ ثانية، بعدها نضعها في مياه بحرارة ٥٠ درجة لمدة ٢٤ ساعة ونتركها لتبرد، ونجدها قد فرّخت بعد شهر بالتمام». وفي طريقته الثانية، نقع طوق بذر اللزّاب بمزيج من نصفين: رمل وتورب (وهو نوع من السماد العضوي الممزوج بالتراب). وكون التورب يحتوي على مادة الأسيد فهو يسرّع نمو بذرة اللزّاب «وهيك من ٣٠ سنة بدأت بتوليد اللزّاب وتشجيره». بدأ طوق أيضاً منذ ٨ سنوات بزراعة اللزّاب ع ٢٨٥٠ متراً «ونجح وكبر وعندي لزّاب زرعناه بالقرنة السودا صار طول الشجرة ٥٠ سنتيمتراً». ويقوم بحماية هذه الشجيرات عبر تسييج كل شجرة بالحجارة لوحدها ومن ثمّ تسييج المجموعة كلّها بطريقة تحميها من الرعاة الكثر صيفاً في القرنة السوداء وسفح جبل المكمل.

مشروب جين اللزّاب

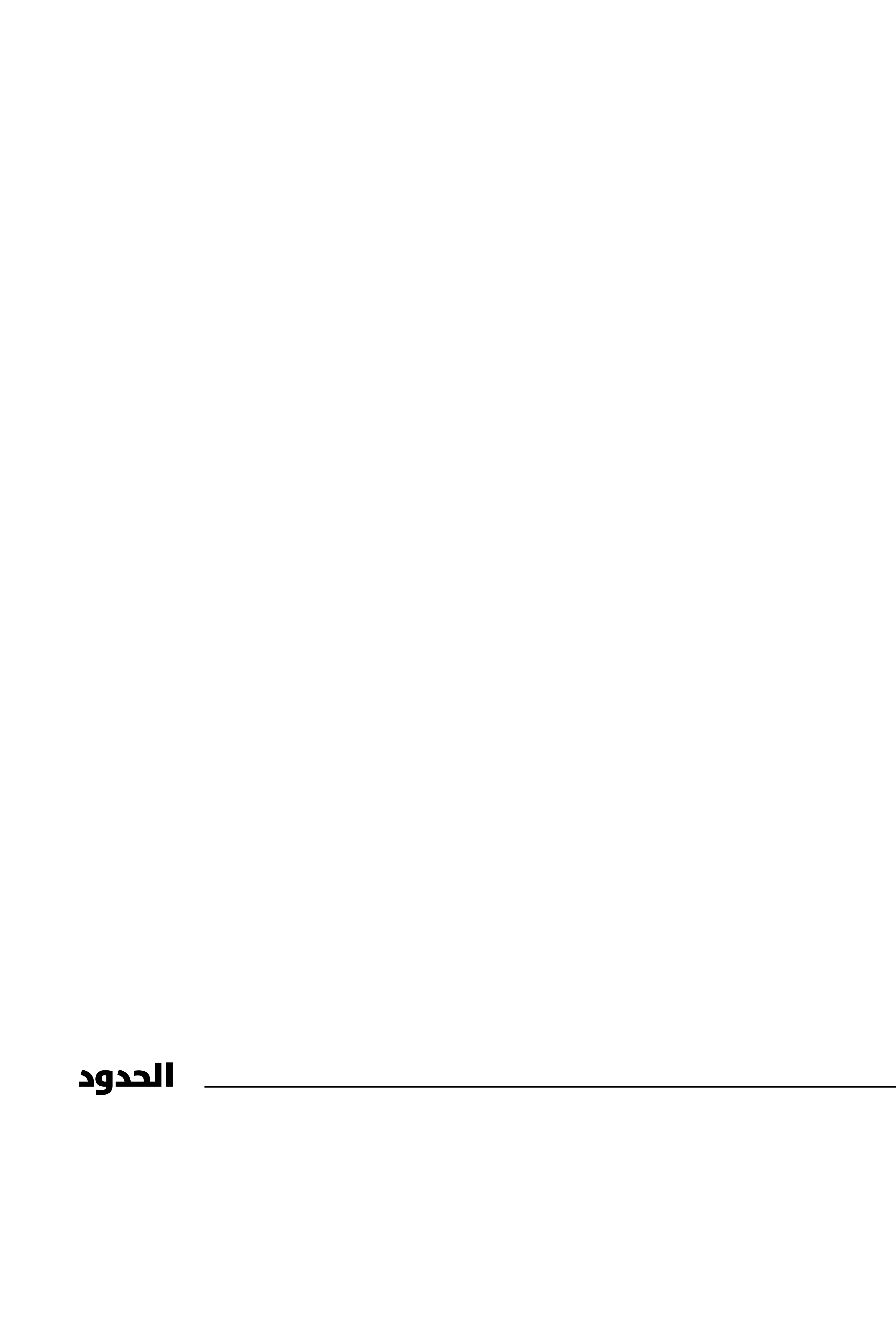
تعرّف طوق خلال وجوده في أوروبا على مشروب اسمه «جنيفر» (Jennifer) هو عبارة عن مزج كحول مع ثمرة (حبوب) أحد أنواع شجر اللزّاب «وهي كثيرة هناك». وبما أنّ «كلّ بلد في العالم يستعمل نباتاته وأشجاره ليصنع منها منتجات خاصّة به، قلت بدّي جرب إعمل ليكور من أهمّ شجرة بالشرق الأوسط وهي اللزّاب». وبما أنّ الليكور عبارة عن كحول مضافة إلى نكهات، «عملت ليكور من اللزّاب فقط، وآخر من اللزّاب ومن نباتات برّية عطرية ولديها نكهات ومنها الأرز والسنديان والبربريس وعنب الديب (السويّد) وهو نوع من الخوخيات، والشوح وغيرها، وأكيد إله فوائد كونه من الطبيعة».



شجرة لزّاب معمّرة في الجرود | **تصوير حسن الساحلي**



04



الحدود

حوش السيّد علي اللبنانية

«الله يفرجها ع سوريا لننفرج»

سعدى علّوه

يركّـز دعّـاس، ابـن قريـة الحـوش الحدوديـة، قـارورتي غـاز مقلوبتـين عـلى طاولـة رفيعـة، فيما يصلهما بـ«نبريـش» غـاز إلى قارورتـين وضعهمـا عـلى الأرض. مـاذا تفعـل؟ نسـأله. يقـول بعـد أن يطلـب منّـا بحـزم عـدم التصويـر «عـم فـضّي الغاز اللبناني بقنّينتين غاز سورية». يضع دعّاس طاولته على حافّة ساقية زيتا التي تقسم بلدته إلى قمسين: يعيش هو إلى غرب الساقية في بلدة الحوش اللبنانية، فيما تمتدّ الحوش السورية من شرقها نحـو ريـف القصير. عندمـا ينتهـي دعّـاس مـن مهمّتـه سـيضع قـارورتي الغـاز السـورية عـلى دراجتـه الناريـة ويقطـع الجـسر الخشـبي الـذي مـدّه أمـام منزلـه، ليذهـب ويبيعهمـا في سـوريا. مـا يفعلـه دعّـاس هـو أحـد أوجـه الحركـة التجاريـة الناشـطة عـلى الحـدود اللبنانيـة السـورية «متـل النـار» هـذه الأيـام. عندما قابلنـا دعّـاس في نهايـة شهر شباط ٢٠٢١، كان سعر قـارورة الغاز في لبنان ٢٣ ألـف لـيرة بينما يصل سـعرها في سـوريا إلى ٥٠ ألـف لـيرة سورية، مـا يعـادل ١٢٥ ألـف لـيرة لبنانيـة في حينها، أي أنّه سيحقق ربحاً يصل إلى مئة ألـف لـيرة في كلّ قـارورة. يبـوس دعّـاس يـده ويضعهـا عـلى رأسـه ليقـول: «ألـف نعمـة الحمـدالله، بدنـا نعيّـش أولادنـا».

عندمـا تكتـب بلـدة الحـوش عـلى محـرّك غوغـل للبحـث، يأتيـك الجـواب بخياريـن: الحـوش اللبنانيـة قضاء الهرمـل، والحـوش السورية منطقـة القصير-محافظـة حمـص. في الحقيقـة هـي حـوش السـيّد عـلي، البلـدة الـتي قسّمتها «سـايكس بيكـو»، كما معظـم البلـدات الحدوديـة بـين سـوريا ولبنـان، فتركـت نحـو ٤ آلاف دونم في لبنان، ومنحـت سـوريا نحـو ألـف دونم، هـي امتـداد الحـوش في الداخـل السـوري.

تقـع حـوش السـيّد عـلي في شمال قضـاء الهرمـل، وتنعطـف الطريـق نحوهـا إلى يمـين السـائق بـين عاصمـة القضـاء وبلـدة القـصر، وتحديـداً عنـد حـي الناصريـة بعـد المنصـورة والبويضـة، قبـل القـصر بنحـو ٤ كيلومـترات. وتفصـل الحـوش عـن هـذا المنعطـف نحـو ٣ كيلومـترات باتّجـاه الـشرق حيـث تتمركـز خاتمـة الحـدود في النقطـة الـتي يـودّع فيهـا نهـر العـاصي لبنـان، ويصبـح هـو الآخـر سـوريّاً. تحدّ الحوش بلدتـا مطربـا والقصير السوريّتين مـن الشمـال الغربـي، والحـوش السـورية مـن الـشرق والشمـال الـشرقي، وبلـدة الشـواغير اللبنانيـة مـن الجنـوب، ويمكـن القـدوم إليهـا سـواء مـن الهرمـل عـبر المنصورة والبويضة، أو مـن جسر العـاصي قبل ولـوج الهرمـل، عـبر الشـواغير الـتي تركـن عـلى كتـف وادي العـاصي.

سكان لا ناخبين

يقول مختار الحوش محمد نمر ناصرالدين إنّ عدد سكّان البلدة لا يتناغم مع عدد ناخبيها (نحو ٤٥٠ ناخباً ما بين الحوشَين اللبنانية والسورية)، إذ يسكنها نحو ٥ آلاف نسمة، عدد كبير من بينهم مقيّدون إلى سجلّات بلدات أخرى تبدأ من القصر على حدودها وتنتهي في برج البراجنة في الضاحية الجنوبية. وكما يسكنها أناس لا ينتخبون فيها، ومنهم عائلة خيرالدين التي أتتها من سهلات المي، في أسفل جرد عشيرة جعفر، وعددهم نحو ٢٥٠ ناخباً استقرّوا فيها مع مختارهم، وهناك ناخبون في الحوش يسكنون في بلدات سورية عدّة.

يسعى آل خيرالدين لتأسيس حيّ خاص بهم في الحوش مع مخترة مستقلّة، وفق ما يؤكد المختار ناصرالدين «طلبوا مني توقيع ورقة تفيد بإنشاء مخترة خاصّة بهم في حي يسمى حوش اسماعيل، وهكذا كان، ولكنّهم ما زالوا بانتظار موافقة وزارة الداخلية».

يتوزّع ناخبو الحوش من اللبنانيين الذين يسكنون قرى سورية حسب طوائفهم، إذ يعيش بيت الأحمر في ربلة المسيحية، فيما يعيش ناخبوها الشيعة من بوبكر وقبيرص والبزّال في الحوش السورية كامتداد للحوش اللبنانية التي تطغى على سكانها عشيرة ناصرالدين، وكان السُنّة من ناخبيها من عائلات عامر ومطر في كلّ من النزارية والعاطفية وجوسيه السورية. وتهجّر هؤلاء بعد حرب ٢٠١١ إلى عرسال ومشاريع القاع والدورة قرب المشاريع، ولم يعودوا بعد انتهاء معركة القصير وريفها. أمّا الذين تهجّروا إلى الحوش من سكّان الحوش السورية وربلة بعد ٢٠١١ وبنوا نحو ٥٠٠ منزل فيها، فقد عاد معظمهم إلى سوريا بعد هدوء الجبهة على الحدود مع قضاء الهرمل، إثر حسم المعركة لصالح النظام السوري وحليفه حزب الله.

الحوش أو البور (Port) التجاري

كُتب للحوش نشاطان اقتصاديان منذ وجودها، أحدهما يرتبط بطبيعتها الجغرافية الزراعية، حيث ينشط أهلها على الجانبين: اللبناني في سهل المسطاح، وفي سوريا، في الزراعة من حبوب كالقمح والفول والبازيلاء، والأشجار المثمرة التي تطغى على بساتينها على الضفتين. وللحوش مصدر دخل آخر وإن كان مضطرباً، لكنّه شكّل عبر الزمن موضع جذب للغرباء عنها، وقد يفسّر كثرة ساكنيها من غير الناخبين فيها، ويتعلّق بموقعها الحدودي، ألا وهو التجارة الحدودية كما يرغبون في تسمية التهريب بين البلدين.

تتغيّر طبيعة التهريب وفق تغيّر حاجات البلدين الجارين وظروفهما. ففي الثمانينيّات وقبل الانفتاح الاقتصادي الذي عادت سوريا واعتمدته، عرفت الحوش ذروة نشاطها ومردودها الاقتصادي إلى درجة تحوّل معها ليل البلدة إلى نهار. يومها، كاد أن يتغيّر اسمها من الحوش إلى

البور (Port)، حيث كانت طريق الحوش الضيقة التي بالكاد تتّسع لسيارة واحدة، تكاد أن تكون أوتوستراداً دولياً بحركتها، إذ تنتقل الشاحنات والكميونات وكافة الآليّات حاملة كلّ شيء، من المواد الغذائية في حينها إلى الألبسة والأحذية والإلكترونيات والقطع الكهربائية. وكان يوم الحوش لا يقفل إلّا على مئات آلاف الدولارات، حيث حوّل كثر من سكانها وأهلها منازلهم إلى دكاكين. وكان إيجار الدكّان في الحوش يبلغ أضعاف ما هو عليه في الهرمل. ويومها امتدّ خير الحوش ليشمل أناساً من الهرمل، وكان معلوماً لدى الجميع أنّ الخيرات التي شهدت طفرة في بعض البيوتات الهرملية آنذاك، وحتى الجردية، كان مصدرها الحدود.

في مقابل الخط الغذائي والسلع الكهربائية والإلكترونية والألبسة والأحذية نحو سوريا، نشط خطّ معاكس لم يكن أقلّ إنتاجاً وهو تهريب الغاز ووقود المازوت من سوريا إلى لبنان. ومن القصص النادرة عن الالتفاف على محاولة الدولة الشكلية منع تهريبه عبر تركيز حواجز للجيش اللبناني على الحدود، قيام المهرّبين، وكان بعضهم «أقوى من الدولة» كما يصفونهم، بمدّ شبكة أنابيب من الأراضي السورية إلى الأراضي اللبنانية تمرّ من تحت حواجز الجيش في بعض المناطق. وكانت صهاريج المازوت تأتي من سوريا إلى ما قبل حواجز الجيش اللبناني بمسافة قصيرة لتفرّغ المازوت في الأنابيب نحو الأراضي اللبنانية حيث تأتي صهاريج أخرى وتملأ خزّاناتها من الأنابيب في الجهة اللبنانية، وتذهب بها إلى الداخل. اليوم تعطّلت وظيفة هذه الشبكة وينحصر التهريب بالصهاريج للكميات الكبيرة، فيما يستخدم صغار المهربين الغالونات سواء في سيارات أو على الدراجات النارية.

اليوم تغيّرت الوجهة والحاجات وخصوصاً بعد قانون قيصر الذي حرم السوريين من معظم الاحتياجات بما فيها وقود المازوت والبنزين، فصار الخط باتّجاه واحد من لبنان إلى سوريا وطال كلّ السلع الغذائية بما فيها الدواجن والأبقار الحلوب المدعومة. ما زالت سوريا تعتمد في حاجات أهلها من اللحوم، على قطعان المواشي التي طالما اشتهرت بها، برغم تضرّر أعداد كبيرة منها بسبب الحرب. ويعرف اللبنانيون أنّ لحم الضأن السوري، أي الخاروف البلدي الصغير، لا يعلو عليه، خصوصاً وأنّ لبنان لا يربّي قطعان مواش تكفي حاجته من اللحوم، بل يعتمد على الاستيراد من الخارج، ولا غنم أو ماعز بلدي في بلاد الأجانب.

لكنّ أهل الحوش اليوم يخفّفون من الصيت الكبير لدور بلدتهم في التهريب لصالح مناطق حدودية أخرى ومنها القصر تحديداً «صار البور هونيك بالقصر»، يقول أبناؤها، داعمين أقوالهم بتركيز الدولة حاجزاً للجيش اللبناني على «تمّ» (فم) الحوش، وليس بعيداً أكثر من مئة متر عن الحدود السورية. هذا الكلام صحيح، حتى أنّ الحاجز يدقّق في هويّات القادمين إلى الحوش ويمنع أحياناً عبورهم في حال كانوا من غير سكان البلدة، ولديه حساسية عالية على

الصحافة والإعلام، كون كلّ التقارير الإعلامية حول المنطقة تركّز على التهريب فقط. في المقابل، هناك حقيقة لا يمكن لأهل الحوش ولا الجيش اللبناني إنكارها، وهي وجود طرقات كثيرة تؤدّي إلى الحدود غير الطريق الرسمية المعبّدة، ولكلّ معبر بوّابته و«ديك» على كلّ بوابة يقرّر العبور وكلفته، وهناك تكمن كلّ القصة.

سوريا المدرسة والمستشفى والحياة

ولأهل الحوش نظرة خاصّة إلى سوريا فلا تحتاج إلى الكثير لتلمّس موقع جارتهم في حياتهم وقلوبهم. فبرغم وجود مدرسة رسمية في البلدة منذ الثمانينيات، إلاّ أنّ المدارس السورية شكّلت وجهة لتلاميذها حيث كلّ شيء مجاني من القسط إلى الزيّ المدرسي إلى الكتب. وكان يكفي أبناء الحوش أن يقطعوا ساقية زيتا حتى يجدوا شمال شرق البلدة الحافلة السورية (الميكرو) لتنقلهم إلى المدارس السورية في الجنطلية والنهرية وصولاً إلى القصير، ومنها إلى حمص لطلاّب الجامعات. وطبعاً، ستكون جامعة حمص هي الخيار الأنسب لطلاب الحوش والحدود طالما أنّها تبعد نحو ٤٠ كيلومتراً عنهم في حين أنّ عليهم قطع ١٢٠ كيلومتراً ليصلوا زحلة و١٧٠ كيلومتراً إلى بيروت، عدا عن الكلفة المرتفعة والمختلفة لكلّ شيء.

اليوم يدرس في مدرسة الحوش «أونلاين» جزء من تلامذة الحوش ومعهم من نزحوا من الداخل السوري بسبب الحرب، فيما لا يزال نحو ٢٠ تلميذاً لبنانياً يقصدون المدارس السورية، وفق المختار ناصرالدين «كون المدارس السورية مفتوحة حضورياً، وفي ناس كتير ما عندها قدرة تؤمّن أجهزة إلكترونية وتلفونات وإنترنت لأولادها، وفي ناس بترتاح للحضور وبتعتبره أفعل»، وفق ما يرى.

وفي الحوش تدرك مدى تأثير تعاطي الدولة مع المزارعين على إنتاجهم وعيشهم من الزراعة، فبرغم تقسيم أراضي الحوش ما بين لبنانية وسورية إلّا أنّ مزارعي الجزء السوري يرتاحون إلى علاقتهم مع الأرض وإنتاجيّتهم منها أكثر من أشقّائهم اللبنانيين. ويعود الاختلاف إلى الدعم الرسمي الذي يتلقّاه المزارعون في سوريا من وقود المازوت إلى المبيدات والأسمدة والآليات الزراعية، ومن ثمّ شراء محاصيلهم وخصوصاً من القمح بأسعار تشجيعية من الدولة السورية. وتشتهر الحوش على الضفتين بزراعة القمح والشعير والبطاطا والذرة، فيما تركّز أشجارها المثمرة على الزيتون بالدرجة الأولى ثمّ التفاح والجنارك والخوخ والدراق.



«الله يفرجها على سوريا لننفرج»

يقول مهدي علي الطفيلي إنّ علاقة سكّان الحوش (كون سجلّ قيده في القصر) بسوريا «عضوية وما فينا نستغني عن سوريا ولا عن العيش على الحدود». ليس بسبب التهريب كما يقول، بل «بسبب التعليم والطبابة والأدوية ومستلزمات العيش». ولد مهدي في الحوش السورية «بيوت أهلي هونيك»، بينما يقع بيته اليوم في الحوش اللبنانية. كان قبل ٢٠١١، يثبّت عدّاد الكهرباء (الساعة) على الضفة الثانية من الساقية من ناحية سوريا، ويتزوّد بالكهرباء ٢٤/٢٤ ساعة. عندما يبقى ضمن ساعات الاشتراك « يعني استهلاك ٦٠٠ كيلووات، كنّا ندفع ٢٠٠ ليرة سوري يعني ٥ آلاف ليرة لبنانية اليوم»، بينما كانت تعاني كهرباء لبنان ومنذ الحرب اللبنانية من التقنين وأحياناً الانقطاع التام «والفاتورة أغلى». يحزن الطفيلي اليوم بسبب قانون قيصر الذي حرم سكان الحوش اللبنانية كما السورية من نعمة الكهرباء «بعد قيصر صار في تقنين بسوريا كمان». الكهرباء مهمّة ولكنها تفصيل بالنسبة إلى التعليم، وفق الطفيلي «أنا درست بجامعة حلب، بكلفة لم تتخطّ ٢٢ دولاراً في العام الدراسي، كلفة لا تقارن بلبنان».

ويصل الطفيلي في مقارنته لما يسمّيه «أفضال سوريا» على سكّان الحدود إلى الهاتف «فيكي تعتبري إنّه مجّاني من سوريا، ما في إشتراك شهري مسبق، مندفع ١٣ ليرة سوري عن كلّ دقيقة منحكيها، حتى أنّ المكالمة الخارجية،



إحدى البوابات على الحدود بين الحوش اللبنانية والحوش السورية | **تصوير سعدى علّوه**

يعني من خط سوري ع خط لبناني أرخص من مكالمة بين خطّي خليوي لبنانيين». أمّا الخط الأرضي في سوريا فتبلغ كلفته ٥٠٠ ليرة سورية «دولة بتحسّ مع الفقير مش متل عنّا حراميي وسرّاقين»، وفق ما يرى.

وبالنسبة للطفيلي، تبقى سوريا أم الفقير حتى في عزّ أزمتها. يجول بنظره في دكّانه من حوله ليقول «هلأ عنّا بضاعة سوريّة من مواد تنظيف للجلي وعنّا متّة وبعض أنواع الحبوب وهالإشيا بعدها أرخص بسوريا، وكان كل شي أرخص لولا قيصر اللعين».

قهوة ع الحدود

على بعد ١٥٠ متراً من الطفيلي، تسكن فاطمة في الحوش السورية، وتحديداً على الحدود حيث يرتفع جدار شرفتها بقياس متر واحد. تقترح أن نلتزم بالقانون «يعني إنت بالحوش اللبنانية وحيط بيتي هو الحدود، ولازم تبقي بلبنان ما تقطعي لعندي». وعليه، تضع صينية صغيرة وعليها ركوة قهوة مع فنجانين على جدار مصطبتها: «خدي هيدي كرسي حطيها عندك واقعدي نشرب قهوة، إنت بلبنان وأنا بسوريا». خلال شربنا القهوة يخرج أولاد فاطمة الثلاثة إلى مصطبة دارهم «أين يدرس أبناؤك؟ نسألها. «ولا بمحل، أولادي السنة بقيوا بلا مدرسة»، تقول. درست فاطمة هي وأخوتها في سوريا «بس هلأ في شوية فوضى ع الحدود بسبب التهريب، وبخاف إبعت أولادي». لم ترسلهم فاطمة إلى مدرسة الحوش اللبنانية «عم يعلّموا أونلاين وما عنّا تلفون إلّا مع زوجي». وزوجها يخرج منذ «الفجر» ولا يعود إلّا في المساء «كيف بدّهم يتعلّموا؟» تسأل ثم تكمل «وأصلاً بالكاد عم نقدر نطعميهم». خلال تبريرها لإبقاء أبنائها بلا مدرسة، تقول فاطمة إنّها سجّلتهم العام الماضي في مدرسة خاصّة في الهرمل «وقف الشغل وإجت كورونا والأزمة الاقتصادية وصرنا بالكاد نشبع اللقمة». لم تكمل أقساطهم المدرسية فامتنعت مدرستهم عن منحها إفادات لنقلهم إلى مدرسة رسمية.

بعدما تؤكّد أنّها لن تتركهم بلا مدرسة في العام المقبل، تتحدّث فاطمة عن علاقتها بسوريا «أنا متعوّدة ع كلّ شي بسوريا، برتاح وأوفر لي». مرض ولدان من أولادها بالأمس، فركبت وراء شقيقها على دراجته النارية وقصدت القصير «حكّمتهم واشتريتلّهم أدوية بما يساوي ١٥ ألف ليرة لبنانية، إيه هودي ما بيشترولهن بنادول بلبنان من عدا فحصيّة الحكيم، ووينك يا هرمل»، حيث لا يوجد مستوصف في الحوش.

إلى بيتها على الحدود يأتي بائع الخبز السوري ومثله «الخضرجي» «بشتري منهم أوفر من الهرمل»، تقول فاطمة ثم تسرح بنظرها نحو الداخل السوري لتختم «الله يفرجها ع سوريا لننفرج».



رسم رواند عيسى

القصر الحدوديّة

رأسها في لبنان وجسدها وحياتها في سوريا

سعدى علّوه

تسأل محمد قطايا، الشهير بـ«الزعيم» بين معارفه في بلدته القصر، وفي الهرمل، عن تاريخ وصول الكهرباء إلى منزله، فترد زوجته بسؤال: «عم تسألوا عن الكهربا السورية أو اللبنانية؟». يقع بيت قطايا في حي «المنقطع» الواقع على مسافة نحو ٥٠ متراً من جسر الساقية الصغيرة التي تشكّل الحدود اللبنانية-السورية في بلدة القصر الحدودية. قبل سنة ونصف بالتّمام، وصلت أعمدة الكهرباء اللبنانية إلى حافّة الساقية من ناحية لبنان، فركّبت شركة الكهرباء عدّادات (ساعات) بيته مع جيرانه على الأعمدة. «ما منقدر نحطّلكم ساعات ببيوتكم لأنّكم جوّا الأراضي السورية» قال لهم الموظف، وسحب لهم خطوط الكهرباء من العدّاد على العمود إلى منازلهم.

تحت منزل محمد قطايا بمئة متر يتمركز حاجز حدودي للجيش السوري، تحديداً على ضفّة الساقية التي تجرّ مياه العاصي إلى سدّ معيان السوري على حدود بلدتَي مطربة والقصر. قالت لهم الدولة السورية: «أنتم فوق الحاجز، ما منقدر نمدّلكم كهربا سورية». هذه الازدواجية في الصلاحيات بين الدولتين اللبنانية والسورية استفاد منها «الزعيم»، فلم يضطرّ لاستصدار ترخيص لبناء منزله، ولا لحفر بئر ارتوازية «ما حدا سألني سؤال». يعيش هناك في الأراضي التي تسمّى «شائكة»، خارج أيّ سلطة للدولتين.

ليس «الزعيم» لوحده الذي يستفيد من هذا الوضع. فهناك نحو ٢٠٠ منزل لسكّان القصر على طول حدودها مع سوريا تخضع للمعايير عينها، كونها بنيت في أرض حدودية بين الدولتين. والقصر نفسها تكاد لا تعرف هويّتها لولا أنّ «سايكس بيكو» رسمتها على الخارطة اللبنانية. رسم لم يغيّر في الواقع كثيراً إذا ما استثنينا مخفر الدرك الذي يرفع العلم اللبناني كفعل إثبات وجود في منطقة تدير وجهها شرقاً نحو سوريا في غياب الدولة، الأم الحاضنة. والازدواجية تنسحب على خريطة القصر العقارية نفسها «بلدتنا رأسها في لبنان وجسدها في سوريا»، يقول رئيس بلدية القصر السابق الدكتور علي زعيتر. «بيوت القصر مبنيّة على الأرج، أي الأرض الصخرية، بينما تنساب غالبية أراضيها الزراعية في الداخل السوري».

الانتماء للوطن ببطاقة الهوية فقط

تتألّف القصر من ثلاثة أحياء رئيسية: راس القصر، وهي القصر القديمة، وحي رأس النبع، النبع المنقطع وتعود ملكيّته لسوريا، وفيه ساحة القصر، وحي دالك، المحاذي للحدود السورية. ومع تمدّد القصر، استُحدث الحي الشمالي المبني على «مسطاح» بيت عبيد، أي أرض مسطّحة

كانت سابقاً مملوكة من آل عبيد، وهي إحدى عائلات المنطقة وجردها والتي غادرتها «عن بكرة أبيها» بعد مشاكل حصلت بينهم وبين آل ناصرالدين.

يقول المدرّس محمد زعيتر إنّ القصر احتضنت سكّان الجبال من العشائر، كما الآتين من البلدات السورية من اللبنانيين. وسمّيت بالقصر نسبة إلى مبنى «من أيّام الرومان أسماه الناس القصر، بعدها بنت عائلة سرور بيتاً وأسمته القصر». وفيما ينقل زعيتر عن كبار السن أنّ العثمانيين هم من طوّبوا أراضي القصر ومعظم الأراضي في الداخل السوري للباشوات والباكاوات قبل نحو ١٥٠ عاماً وأكثر، يقول آل حمادة إنّ أجدادهم اشتروا بأموالهم هذه الملكيّات. وإذا «نظرنا إلى الطابو الفرنسي في ١٩٣٠ نجد أنّ أهالي القصر قلائل وملكيّاتهم قد لا تتعدّى أحياناً الغرفة التي يسكنها مع أمتار قليلة من حولها، سجّلتها لهم الدولة العثمانية، بينما كانت كلّ الأرض باسم آل حمادة»، وفق زعيتر. ومع تقسيم سوريا ولبنان إلى بلدين وجد جدّه أنّ أراضيه صارت في سوريا حيث عاش وأورث ذرّيته من بعده.

لا يوجد في القصر شبكة للصّرف الصحّي، وهناك مساعٍ لإنشاء واحدة ووصلها بمحطّة التكرير المُزمع إنشاؤها لمدينة الهرمل في الأراضي الواقعة بين المنطقتين. ويرى محمد جعفر، وهو من سكّان القصر-سهلات المي، أنّ القصر تنتمي للدولة اللبنانية بـ«الهوية فقط»، حيث «يلفّ الحرمان كل شيء». يقتصر «القطاع الطبي» في القصر التي تبعد عن الهرمل ١٢ كيلومتراً وعن بيروت ١٦٠ كيلومتراً على «مستوصف متواضع لوزارة الشؤون الاجتماعية، بتقدري تقولي شكلي يعني»، وآخر للهيئة الصحية التابعة لحزب الله «بس إذا حدا احتاج غرزات لتقطيب جرح صغير»، عليه أن يقصد الهرمل، كما يقول جعفر، «عيادة طبيب مناوب لا يوجد في القصر».

بالنسبة لفرص العمل في القصر، يحصرها جعفر بالزراعة «وكلّها خسارة بخسارة، بدّه المزارع ع شوي يبيع بيته ليركّب شبكة مي ويجيب مازوت ليسقي، أو بتربية المواشي، أو بيشتري بيك آب وبياخد نكّوب (سماد الماعز) يبيعه بالجنوب أو بيهرّب مواد غذائية أو غيرها ع سوريا».

صحيح أنّ القصر توسّعت عمّا كانت عليه نهاية السبعينيّات بفعل عودة معظم أهاليها خلال الحرب اللبنانية إليها، كونها لم تعرف ويلات تلك المرحلة. وصحيح أنّها تضخّمت مع نزول عشيرتي ناصرالدين (كان لهم عدد قليل من المنازل قبلاً) وجعفر من جرودهما ليسكنا فيها. ولكنّ القصر تمتاز عن الهرمل بموقعها المباشر على الحدود السورية، وهو ما يجعل التجارة الحدودية باب الرزق الأبرز الذي عاشت عليه، إضافة إلى أراضيها المترامية في الداخل السوري. طالما عومل أبناؤها، سواء من يسكنون القرى السورية من اللبنانيين، أو أولئك الذين يقصدون أراضيهم للزراعة، كما المزارعين السوريين، حيث

يتلقّون الدعم بالأسمدة ووقود المازوت وحتى زيوت التركتورات، والأسمدة والمبيدات الزراعية، ومن ثم تتسلّم منهم الدولة السورية محصول القمح والتبن بأسعار تشجيعية، وتترك لهم خيار التصرّف بمحاصيل الحبوب والبطاطا.

بين التهريب والحرمان

ربما لم يكن أيّ من اللبنانيين خارج البقاع الشمالي قد سمع ببلدة القصر الحدودية قبل الأحداث في سوريا في ٢٠١١، وتبعتها معركة القصير وريفها. يومها، اشتهرت البلدة مع كل الحديث عن القرى اللبنانية في الجزء السوري والتي ترتبط بها ديموغرافيا، كون سجلات جزء كبير من سكانها اللبنانيين مقيدة فيها، وكذلك لدورها اللوجستي في المعارك التي دارت هناك.

يميل أهل القصر إلى تسمية منطقتهم مدينة. يحتسبونها سكانياً حيث قفزت من نحو مئة بيت في أوائل الثمانينات إلى ٤ آلاف وحدة سكنية اليوم، يقطنها نحو ٣٠ ألف نسمة، بينهم نحو ٨ آلاف ناخب، كما يقول أستاذ المدرسة محمد زعيتر. يستشهدون بأحيائها التي تمددت لتتصل بالحدود السورية شرقاً وشمالاً وبسهلات المي نحو جرد آل جعفر غرباً، وبالهرمل جنوباً، ليجدوا توصيف بلدة صغيراً عليها.

مؤخّراً تعرّف اللبنانيون على القصر مجدّداً مع الحديث عن التهريب إلى سوريا، وكأنّه يحدث للمرة الأولى اليوم، بينما هو في الحقيقة أحد أهم مصادر الدخل في المنطقة منذ انفصال البلدين. هي واحدة من المناطق المرابضة على خطّ الحدود الممتد من الدبّوسية والعريضة في شمال لبنان إلى دير العشاير في البقاع الغربي، مروراً بحوش السيّد علي والمشرفة وعرسال وحام ومعربون والمصنع وغيرها، حيث كانت التجارة الحدودية، كما يفضّل ناس هذه المناطق أن يسمّوا التهريب، ناشطة منذ أن رسّمت «سايكس بيكو» الحدود الحالية بين البلدين.

وفي القصر هناك كثر يعملون في التهريب طبعاً، ولكن في القصر مزارعون أيضاً يكدحون من شروق الشمس إلى مغربها ليعتاشوا من عرق جبينهم، وفيها بضعة أساتذة ومثلهم عناصر في الجيش أو الدرك، وفيها متفرّغون مع حزب الله، وهناك من لا حول لهم ولا قوّة يصعب على الغرباء تخيُّل كيفية تدبير معيشتهم في منطقة لا تجد فيها مؤسّسة حتى صغيرة تؤمّن فرصة عمل لشخصين. هؤلاء ليسوا قلّة، يتفرّجون على كميونات وصهاريج وفانات التهريب، وحتّى على الدرّاجات النارية التي تنقل «تهريبة صغيرة» قد تكون قارورة غاز أو صفيحة بنزين أو مازوت. فهم إمّا اختاروا عدم الانخراط في أنشطة «غير قانونية»، أو عجزوا عن اختراق «كارتيل» التهريب المُحتكر فعلياً. وهؤلاء مثلهم مثل أهل الهرمل يصعب عليهم إيجاد سلعة غذائية مدعومة أو حتّى صفيحة بنزين أو مازوت بالسعر المدعوم، فكانوا يدفعون في نهاية شباط ٢٠٢١ ثمن كيلو السكّر ١١ ألف ليرة، وسعر ٢٠ ليتراً

مـن البنزيـن ٧٠ ألفـاً (كان ثمنهـا في لبنـان ٢٤ ألفـاً)، و٤٠ ألفاً للمـازوت (بـدل ١٩ ألفاً)، بينما تهـرّب هـذه السـلع نحـو الداخـل السـوري بالأطنـان.

٧٠٪ من خرّيجي القصر تعلّمـوا في سـوريا

هنـا لا يلـزم الزائـر الكثـير ليـدرك أنّ أهـل القـصر لا يـرون الحـدود كعائـق ملمـوس يمنـع الانتقـال بـين البلديـن، خصوصـاً في كل الفـترة الـتي سـبقت انـدلاع الثـورة السـورية عـام ٢٠١١. لذلـك تجـد ٧٠٪ مـن خرّيجـي القـصر قـد درسـوا في جامعـات سـوريا، فيمـا كانـت النسـبة عينهـا مـن أبنائهـم ترتـاد مـدارس قـرى ريـف القصير: «كنّا نحمـل كتبنـا ونقطـع الحـدود، نركـب بالباصـات السـورية ونـروح ع مدارسـهم». كمـا يقـول د. عـلي زعيـتر: «أنـا تخصّصـت في جامعـة دمشـق بالطـب العـام»، ثم سـافر إلى فرنسـا حيـث أكمـل تخصّصـه بأمـراض القلـب. تلـزم سـوريا الحافلات، صغيرة كانـت أم كبيرة بنقل تلامـذة المـدارس مجانـاً، ولا فـرق بـين تلميـذ لبنـاني أو سـوري. أنشـأت الدولـة اللبنانيـة مدرسـة رسميـة ابتدائيـة في القصر في ١٩٦٣، ولكـن نسبة لا بـأس بهـا مـن الأهـالي اسـتمرّوا في إرسـال أبنائهـم إلى سـوريا في المرحلـة المتوسـطة والثانويـة «هونيـك التعليـم مجّاني، والكتـب والنقـل كمان ومسـتوى التعلـيم جيـد»، كمـا يقـول زعيـتر. إضافـة إلى تأخّـر إنشـاء ثانويـة القـصر- سـهلات المـي في الأخـيرة قـرب القـصر لغايـة ٢٠٠٤.

عندمـا تـزور القـصر، بعـد أن تتجـاوز الهرمـل، آخـر المناطـق اللبنانيـة كمـا يقولـون، بـ١٢ كيلومـتراً، تعـرف معـنى أن يقـول د. عـلي زعيـتر، ابنهـا، إنّهـا كانـت ميتـة لـولا سـوريا. فعـلى يسـار الطريـق الرئيسـية الـتي تقطـع القـصر إلى جزئـين حيـث تركـن منـازل البلـدة عـلى الضفتـين، لا يلزمـك أكـثر مـن مئـة مـتر مـن جهـة اليسـار حـتى تصبـح في الأرض السورية، وأنـت مـا زلـت في قلـب القـصر جغرافيـاً. علمـاً أنّ المعـبر الشرعـي، أي الأمانـة السورية، عـلى الحـدود مـع القـاع تبعـد عـن القـصر نحـو ٣٠ كيلومـتراً.

يضحـك د. عـلي عندمـا تسـأله عـن علاقـة أبنـاء القـصر بالدولـة اللبنانيـة، لـيروي قصّـة حصلـت معه: «في ١٩٨١ أنهيت المرحلة الثانوية وكان عمري ١٩ عامـاً. كنـت أرى نفـسي شـاباً قبضـاي وصحّـتي ممتـازة وكنـت أحـبّ الجيـش مـن صغـري. ولـذا قررت أن أتقـدّم إلى الكليـة الحربيـة لأصبح ضابطـاً بالجيـش». لمجـرّد أن سـأل عـن الأوراق المطلوبـة للتقـدّم إلى المدرسـة الحربيـة، قيـل لـه «بـدّك ٤٥ ألـف لـيرة لبنانيـة لتصـير ضابـط»، كمـا يقـول لـ«المفكـرة». عـاد زعيـتر إلى القـصر خائبـاً «درت عـلى ٦٥ بيتـاً كانـت تشـكّل القـصر، وسـألتهم: «نحـن مـش لبنانيـين؟ قالـوا طبعـاً، وأبـاً عـن جـد». عـاد وسـألهم: «هـل أنـا مريـض أو طالـب غير كفـؤ؟» قالـوا: «أبـداً أنـت مـن خـيرة شـبابنا». وعندمـا أخبرهـم أنّ عليـه أن يدفـع ٤٥ ألـف لـيرة لبنانيـة ليدخـل المدرسـة الحربيـة، بـدأت الشـتائم تنهـال عـلى المسـؤولين وعـلى هـذه السـلطة الـتي لا تعتـبر الهرمـل وقضاءهـا بمـا فيـه القـصر جـزءاً

منها. «يومها كان الغني بالكاد معه ألف ليرة». طوى زعيتر حلمه وحبّه لخدمة الوطن، ومعهما كلّ الثياب المرقّطة التي اشتراها له والده عندما كان صغيراً، وقصد الشام السورية حيث تسجّل في كلية الطب «من يوم يومنا الدولة مش معتبرتنا منها»، يضيف.

ملكية الأراضي في سوريا: الأرض لمن يزرعها

علاقة القصر مع سوريا ليست علاقة جيرة وحدود فقط. يقول أستاذ المدرسة محمد علي حسن زعيتر إنّ جزءاً كبيراً من سكّان القصر الأصليين يتمدّدون داخل أكثر من ١٥ قرية في الأراضي السورية: «مثلاً أهلي في الأساس من حاويك ضمن الأراضي السورية، وأنا ولدت هناك وجئت إلى القصر قبل ٤٥ سنة بعد تعييني مدرّساً في المدرسة الرسمية». إضافة إلى حاويك، ينتشر المدرجون في سجلّات قيد القصر على بلدات الصفصافة، زيتا، العقربية، الفاضلية، بلوزة، وادي حنا، معيان، نبع أولاس، مطربة، سقرجا، عرجون، تلّ النبي مندو، الجبّانية والنهرية والديابية، السماقيات الغربية والشرقية.

قبل الأحداث السورية في ٢٠١١، كانت علاقة هؤلاء بلبنان تقتصر على الاقتراع في مواسم الانتخابات، وبعضهم قد يقصد لبنان للدراسة في الجامعة، والأهم في ما لو حصل أحدهم على وظيفة في إحدى دوائر الدولة، وتحديداً التعليم. بعد ٢٠١١، وتحديداً قبل حسم معركة القصير وريفها، نزح اللبنانيون من سكان القرى السورية إلى القصر والحوش والهرمل وجوارها. بنى بعضهم بيوتاً واستأجر البعض الآخر، ولكن بمجرّد أن عادت الحياة إلى قراهم حتى عاد معظمهم إلى أراضيهم وأرزاقهم وأعمالهم، بينما لا تزال فئة منهم تعيش بين البلدين، بعدما فتحوا أشغالاً لهم في بلدهم الأم، لبنان.

وضع «الزعيم» مختلف، إذ أنّه ولد ويعيش في القصر لكنّ عائلته دأبت ومنذ جدّه لأبيه، كما كثر غيره، على زراعة الأراضي الممتدة في الداخل السوري والتي كانت بمجملها مملوكة من آل حمادة منذ أيام العثمانيين، قبل أن يبدأ المزارعون بشراء أجزاء من الأراضي التي يعملون فيها من أصحابها (حمادة) والزعيم واحد منهم «حتى أرض بيتي هون اشتريتها من بيت حمادة، كذلك فعل العديد من المزارعين من عائلات أخرى». ويشير قطايا إلى أنّ تحوّل الملكية بدأ منذ خمسينيّات القرن الماضي، وتعزّزت بفعل الرؤية التي أرساها الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد حيث قال إنّ الأرض هي لمن يزرعها، وبعدها عمل «الإصلاح الزراعي» الذي طبّقته سوريا على نزع أجزاء ونسب من ملكية الباكاوات والباشوات وكبار المالكين ومصادرتها وتوزيعها على الفلاحين. بعدها تكرّست معادلة الـ٤٠٪ من نصيب الفلّاح الذي يزرع الأرض في حال رغب في ذلك فيدفع ٦٠٪ من ثمنها فقط «بس أنا بيت حمادة قبضوا منّي ٥٠٪ من ثمن الأرض اللي اشتريتها، واعتبروا أنّ لي حق بالـ٥٠٪ الباقية، فلم يقبضوا ثمنها». هذا

المنحى في التعاطي مع ملكية الأرض الزراعية مهّد لتحوّل معظم المزارعين إلى ملّاك أو شركاء في الأراضي التي يزرعونها.

وكما عائلة قطايا، سكنت عائلات القصر الأساسية البلدة، وكان عددها «نحو ٧٢ عائلة»، وفق د. علي زعيتر، بناء على شراكات عقدت معظمها مع عشيرة حمادة التي كانت تملك أراضيها في الداخل وكذلك أراضي واسعة في سوريا متّصلة بتلك اللبنانية. شراكة على قاعدة العمل مقابل ملكية الأرض «أنا بتحمّل كلفة الزراعة وأنا بشتغل بالأرض، بعطيهم ٢٥٪ من الإنتاج»، يقول الزعيم قبل أن يضيف «بعدنا لليوم منفلح أراضي لبيت حمادة، مثلاً انا اشتريت نص الأرض لي منفلحها منهم». ومن هذه العائلات، السيي وفهدة، والحلو وحرفوش ومطر وسرور وعبيد وعلام وصفوان والصيلمي، وشمص، وذلك قبل أن تنزل العشائر، وتحديداً عشيرتا ناصرالدين وجعفر من الجرود ويشاركونهم السكن في البلدة. وحدها عشيرة زعيتر وتعدادها نحو ١٢٠٠ ناخب وفق الدكتور علي زعيتر، جاءت من أفقا، عندما قدمت العشائر من جبل لبنان، مباشرة إلى القصر والقرى التي ضُمّت إلى سوريا لاحقاً «يعني نحن من أساس عائلات القصر، وكنّا العشيرة الوحيدة فيها، مع بيوت قليلة يومها لعشيرتي شمص وناصرالدين».

عن سوريا «أم الفقير»
في ذاكرة الهرمل ووجدانها

سعدى علّوه



رسم رواند عيسى

كنت أعاني في صغري من رمد الربيع، وهي حساسية تصيب العينين في فصل الربيع وتتسبّب باحمرارهما فتدمعان طيلة الوقت. يومها، لم يكن في كلّ بعلبك الهرمل طبيب عيون معروف، وكانت كلفة معاينة الطبيب الاختصاصي في منطقة زحلة تفوق قدرة أبي، عدا عن مصاريف الطرقات ولم يكن لدينا سيارة. قرر أبي أن يطبّبني في المدينة التي نعرف: حمص.

كنت ما زلت مكتومة القيد بلا هوية عندما وصلنا إلى نقطة الأمانة على الحدود مع بلدة القاع، وهي المعبر الشرعي للدخول إلى سوريا. علّمني والدي أن ألتفّ من خلف المركز الحدودي،

وأقابله بعده ريثما ينتهي من ختم هويّته ويدخل شرعياً. كنت خائفة وأنا أتبع الخط الذي رسمه لي حين فاجأني رجل من الهجّانة (حرّاس الحدود) وسألني وكأنّه يوبّخني: «لوين رايحة يا بنت؟» «ع حكيم العيون بحمص»، قلت له وأنا أنظر في عينيه ليرى أثر الرمد الربيعي وتورّم عينيّ واحمرارهما إلى درجة لا يمكنني فتحهما جيداً. هدأت نبرته وسألني: «ومع مين رايحة؟» «مع أهلي» قلت له. فأمسك بيدي وقادني إلى الجهة الثانية من المركز وأمرني أن أنتظر عائلتي في فيء شجرة قريبة.

كان عسكرياً عطوفاً لا يشبه صورة الجنود التي اختبرتها في جرود الهرمل عندما يأتوننا في مداهمات ترعبنا. كان يشبه الوجه الحنون لسوريا «أم الفقير» في توصيف أهلنا نحن أبناء المناطق الحدودية التي كانت تتّسع بحدود الحرمان المترامي لتشمل كلّ قضاء الهرمل.

يتّصل القضاء بلبنان عبر طريقين كُبريين: تمتدّ الأولى بمسافة ستين كيلومتراً عن بعلبك، فيما تربطه المسافة نفسها بالقبيّات، المدينة الأقرب إليه على حدوده مع محافظة عكار. وإذ نظرنا إلى الطريقين نجدهما خاليتين من القرى لمسافات طويلة فيشعر السائر أنّه خرج من لبنان وهو في طريقه إلى بلاد أخرى، إلى أن تلوح الهرمل مترامية ما بين كتف وادي العاصي وسفح السلسلة الغربية، مشكّلة عاصمة القضاء الذي يتمدّد بالدرجة الأولى نحو حدوده الشمالية الشرقية باتجاه سوريا.

لكلّ ذاكرته

يصعب على زائر القرى الحدودية في البقاع الشمالي، ومعها كلّ بلدات قضاء الهرمل، أن يجد مواطناً ليس لديه ذاكرته الخاصّة مع سوريا. ذاكرة حبكتها الطبيعة الجغرافية للقضاء الأبعد في لبنان بمسافة لا تقلّ عن ١٥٠ كيلومتراً عن بيروت، بينما يلزم أهل الهرمل عشر دقائق بالسيارة ليطأوا بقدمهم في الداخل السوري. وذاكرة حبكت تفاصيلها الحاجة ومتطلّبات الحياة وطبيعة العلاقات بين المنطقة والجارة الحدودية، والأهم مدى غياب الدولة اللبنانية. كانت سوريا مشفى المنطقة وسوقها، ومطعمها ومتنفّس أهلها لـ«شمّ الهوا»، والأهم مصدر عيش جزء كبير من سكانها، وبخاصّة أولئك المرابطين على الحدود مباشرة.

المطعم الأوّل

تضحك ليال اليوم حين تروي عن الجلوس للمرّة الأولى إلى طاولة في مطعم لتناول اللحم المشوي والحمص وسلطة الخسّ مع البندورة: «كان ذلك في مطعم الشوّا في قلب حمص القديمة»، تقول وهي لا تكفّ عن الابتسام. يومها اصطحبتْها أمها، وكانت في الـ١٧ من عمرها، في رحلتها لشراء مصاغ ذهبي لأختها (العلامة باللهجة المحليّة) تحضيراً لخطوبتها «لمّن خلصنا أغراضنا أخدتنا أمي نتغدّى بالمطعم». في الحقيقة، لم يكن «الشوّا» مطعماً بل ملحمة للخروف البلدي. ولكن صاحبه، و«أذكره جيداً، خمسيني مربوع بشاربين

كثيفين»، وضع نحو بعض الطاولات في الطابق العلوي من الملحمة حيث يستقبل الراغبين بتناول الغداء المحدّد بثلاثة أصناف لا غير: لحم مشويّ وحمص بطحينة وسلطة تقتصر على الخس والبندورة. ومع ذلك عادت ليال من حمص لتفتخر أمام زملائها في المدرسة في الهرمل بأنّها ارتادت مطعماً للمرّة الأولى في حياتها. والد ليال الذي ارتأى المشاركة في الحديث لا يأخذ الأمر بفكاهة كما تناولته ليال «نحن ما كنّا منعرف المطاعم اللبنانية، بل مطاعم حمص من ‹الدوّار› إلى ‹ديك الجن›، و›التنّور› وبيت الياسمين› إلى ‹جنّة حمص›»، وغيرها من المطاعم الشهيرة في المدينة. وحرصاً على الموضوعية، يضيف: «للحقيقة كان في مطعم ببعلبك إسمه العجمي، بس كانت أسعاره أعلى من قدرتنا، فبحياتي مش قاعد ع طاولة عنده، بعدين ليش بدّي روح مسافة ستين كيلومتر لإتغدّى والحدود ضربة حجر عنّي».

ليس تفصيلاً أن تكون مطاعم سوريا متنفّس سكان الهرمل، إذ يصعب أن يقود أيّ إنسان سيارته ٦٠ كيلومتراً إلى بعلبك ليتناول طعام الغداء ويروّح عن نفسه، عدا عن أنّ المطاعم فيها كانت محدودة قبل التسعينيّات إضافة إلى أنّ أسعارها أعلى من الأسعار في سوريا. مع الإشارة إلى أنّ قطاع المطاعم على العاصي لم يكن قد شهد بعد طفرته التي بدأت بعد التسعينيّات.

يشير علي السّيمي من على مصطبة داره في حي دالك في القصر نحو الحدود التي لا تبعد عنه أكثر من مئتي متر «كنّا نتنادى بين بعضنا: عبالكم نروح نتغدّى أو نتعشّى بحمص؟». فنتجمع خمسة أشخاص أو أكثر، وأحياناً قد يذهب اثنان فقط، ونقصد حمص فقط لتناول الطعام وتغيير جو». لم تكن الفاتورة تتخطّى ألف ليرة سورية، (٣٠ ألف ليرة لبنانية قبل ٢٠١١) وهي «قليلة مقارنة بأسعار لبنان، وكنّا نطلب سُفرة عرمرمية». وكان السّيمي ورفاقه يقصدون حمص لتناول «العواس» أي «الخروف ابن الشهر الذي يصعب أن تجدي أطيب من نكهته وطراوته خارج سوريا».

وكان تناول الغداء في سوريا بنداً رئيسياً وعامل جذب لأي مشوار إليها مهما كان هدفه، سواء لزيارة الطبيب أو التسوّق وطبعاً لتجهيز العرائس.

جهاز العرائس

كانت مناشر الغسيل في كلّ بيت في قضاء الهرمل تحكي قصّته مع سوريا. من الشراشف القطنية البسيطة والمتواضعة إلى النوعية المميّزة التي تأتي على شكل أطقم كاملة من الوسادة إلى الشراشف إلى اللحاف. وكانت تكفي نظرة خاطفة على غسيل السكّان الذين اعتادوا تنشيفه في «عين الشمس» على مصاطبهم أو بالقرب من الدور لملاحظة طغيان البضاعة السورية على لدرجة تشابُه الألوان كما النوعيّات أحياناً. فسوريا مشهورة بتطوّر صناعاتها

القطنية والأهم رخص أسعارها والمروحة الواسعة للنوعيّات تجعلها في متناول الفقراء كما الميسورين. وكان تقسيم الأسواق في حمص يتناسب مع دخل قاصدها فـ«السوق المقبي» أو «السوق المسقوف» هو السوق الشعبي الأرخص في سوريا، وكان مقصد الطبقة المحدودة الدخل حيث يعجّ بالعربات التي تحتوي على كل شيء، من «جْواز الكلسات إلى أغطية الأسرّة»، على حد تعبير فاطمة. وتكنّ الأخيرة ودّاً كبيراً لهذا السوق الذي «بفضله ولا مرّة مرق عيد ما قدرت إكسي فيه أولادي الخمسة». وهذا ليس بتفصيل بالنسبة إليها «كنت بسعر طقم لولد واحد من لبنان، جيب تياب جديدة للخمسة، وينبسطوا أولادي، ويلبسوا تياب جديدة متلهن متل غيرهن بالعيد».

ولـ«السوق المقبي» في حمص حكايته مع معظم عرائس الهرمل. ففيه سوق الذهب الرئيسي في حمص. ومن عادات الهرمل، كما معظم المناطق، تقديم العريس «علامة» الخطوبة لخطيبته، وكان المصاغ يُشترى من حمص. «كان مشوار العلامة أساسي في علاقة كل ثنائي ينوي الارتباط»، وفق سهيل الذي حرص في مشواره لشراء محابس خطوبته وطقم ذهب عروسه، على تخصيص مبلغ لدعوتها وأمّها وأمّه أحياناً لتناول الغداء في مطعم «الدوّار» المصنّف «مرتّب وطيّب»، وإلّا «بيعتبروك بخيل»، يقول سهيل مع ضحكة «كان المشوار ع حمص مع العروس امتحان لمدى كرم أو بخل العريس».

وكان الذهب السوري يرتبط في ذهن كثر بالنوعية الجيدة «يعني عيار ٢١ صافي، مش متل الذهب اللبناني وأغلبه عيار ١٨» برغم أنّ أسواق بيروت، وحتى بعلبك، اشتهرتْ لاحقاً بوجود تصاميم أكثر تنوّعاً وأحياناً أجمل «بس كانت محلّات الصّاغة بحمص تتناسب مع مدخولنا أكثر ومعها كلفة المشوار»، يضيف. يكفي أن يقود ابن قضاء الهرمل سيارته لمسافة ربع ساعة أو أقلّ حسب مكان سكنه، ليصل إلى «الأمانة» السورية حيث لديه خياران: إمّا ركن سيارته في موقف خاص بالقرب منها وختم هويّته أو إخراج قيده، وقطع الطريق سيراً إلى الجهة الثانية من الحدود (نحو ٢٠٠ متر) ليستقلّ حافلة سورية ببدل لا يتخطّى ليرات معدودة، أو أن يحجز مكاناً في سيارة أجرة أو يستحصل على دفتر دخول لسيارته مع تأمين بكلفة لا تتخطّى ألف ليرة سورية (كانت تساوي ٣٠ ألف ليرة لبنانية) يخوّله التنقّل في سوريا لأيام أو دفتر «خط عسكري».

سوريا الماركات Brands

تتذكر ليا اليوم الذي ارتدتْ فيه ثياباً بعلامة تجارية شهيرة للمرة الأولى في حياتها: «بدأنا نحن الجيل الجديد يومها في التسعينيّات نعرف عن العلامات التجارية مثل بينيتون وكيكرز وأديداس ونايكي وغيرها، ولم تكن تأتي إلى الهرمل (وما زالت غائبة لغاية اليوم)، ولم نكن طبعاً نقصد بيروت لشرائها بسبب كلفتها

العاليـة». مـن حمـص اشـترت قميصهـا الأول مـن «بينيتـون»: «كان مكتـوب عليـه بينيتـون صنـع في سـوريا، بـس بالنسـبة لي كنـت لابسـة بينيتـون». ويومهـا اشـترت أيضـاً صنـدلاً مـن كيكـرز بـ٥٠٠ لـيرة سـورية، أي ١٥ ألـف لبنانيـة «وكانـت فرحـتي مـش سـايعتني أنـا وعـم اتغنـدر فيـه بـين رفقـاتي». كان ارتـداء المـاركات «هجنـة (دهشـة) منحتنـا إياهـا أسواق حمص بكلفة في متناول أهلنا كموظفين». طبعـاً لم يكـن بمقـدور مـن يقـلّ دخلهـم عـن دخـل الطبقـة الوسـطى في قضـاء الهرمـل شراء سـلع مماثلـة لأبنائهـم. فـكان مـن يشـتري جهـاز طفلـه مـن Absorba وهـي ماركـة تجاريـة فرنسـية لثيـاب الأطفـال يعـدّ مـن ميسـوري الحـال، أمـا «أبسـوربا» السـورية فكانـت تقـدّم جهـاز طفـل كامـلاً بقيمـة تسـاوي شراء قطعتـين مـن الماركـة نفسـها في بـيروت. في الواقـع دأبـت المصانـع السـورية عـلى شراء اسم الـوكالات الأجنبيـة وتصنيعهـا، وهـو مـا لم يتوفّـر في لبنـان. وكانـت تتركّـز هـذه المحـلّات في سـوق «الدبـلان» في حمـص الـذي شـكل مقصـد الطبقـة الوسـطى مـن دون أن يغـني عـن زيـارة «السـوق المقبـي» الـذي يحتـوي عـلى أنـواع السـلع كافـة، وعـلى رأسـها المـؤن وسـوق البهـارات والنحاسـيات والخـردوات.

وانسـحب «الارتقـاء» بلبـاس المـاركات عـلى الثيـاب والأحذيـة الرياضيـة وعـلى رأسـها «أديـداس» الـتي بـدأت سـوريا بتصنيعهـا، ومعهـا عـرف سـكان قضـاء الهرمل وخصوصاً الشبّان والشابات والأولاد البدلات الرياضيـة والأحذيـة المطبـوع عليهـا اسم Adidas وإن كُتـب في عليهـا مـن الداخـل «صُنـع في سـوريا».

وصنّعـت سـوريا قطنيّـات Cannon وهـي النوعيـة المميّـزة مـن الشراشـف والأغطيـة والوسـادات الأميركيـة الأصل والصعبة المنال في لبنان، ومعها عرفـت بيـوت الهرمـل وجوارهـا النوعيّـات المختلفـة عـن تلـك الشراشـف المخطّطـة المتواضعـة الـتي كادت أن توحّد حبال الغسيل. «صرت لمّن ضبضب البيـت إنبسـط أكـتر بنوعيـة الشراشـف وألوانهـا»، تقـول أديبـة الـتي جهـزت منزلهـا الزوجـي مـن حمـص قبل ٢٠ عاماً «ما كان عندهم أهلي شراشف كانون، أنا زوجي اشترى لي كل جهازي من عندهن»، تقول مـن دون أن تخفـي شـعورها بالتميّز.

سوق الخضار واللحوم

بالنسبة إلى علي، كانت سوريا كلّ شيء «أنا كنت روح عبّـي صنـدوق سـيارتي خضـار ولحـوم ودجـاج وحلويـات وأدوات تنضيـف وكل مـا يحتاجـه بيـتي وعيلـتي». يستحصل علي على دفتر دخول «ع سنة» مع تأمين بسوريا، وبفوت وبطلع بسيارتي عادي». قبل ٢٠١١، كانت «جارتنا» كما يسمّيها «الرحمة وأم الفقـير فعليـاً»، والقضيـة ليسـت فقـط في التوفـير بالنسـبة إلى عـلي: «طبعـاً التوفـير أسـاسي، بـس كيـف بـدّي قلـك (يـسرح قليـلاً ليكمـل) بحـسّ حـالي ببلـدي بـكلّ بساطة». يرتـاح وفـق مـا يقـول «لـكلّ شيء»، الباعـة في سـوريا يكتفـون بالربـح «القليـل، مش متل عنّا بيطمعوا وبيغلّوا». تسبقهم «كلمة أهلا وسهلا»، ويرحّبون «بالزبون اللبناني، بينبسطوا فيـه»، وفـق مـا يقـول ليـبرّر «طبعـاً لأنّـه اللبنانيـين كانـوا محـرّك أسـاسي للسـوق السـوري». كان عـلي

يشتري لحم الغنم والدواجن السورية «وكانت أقل من النصف مقارنة مع اللحوم في لبنان وخاصّة الأغنام، كما أنّ خواريفهم كلّها بلدية، ما عندهم خاروف أبو دنب». كان علي يعمل سائق تاكسي بين الهرمل وبعلبك وصولاً إلى زحلة وبيروت «ومع هيك كنت معيّش عيلة من تلات أولاد وزوجة بمستوى منيح، لأنّي كنت أتسوّق من سوريا، أنا بارم لبنان وبعرف الفرق بالأسعار». أما الخضار «فلا تسألي» كما يقول «بربع سعر الخضار بلبنان. كمان بعدهم بيهتمّوا بالمونة أكتر من عنّا، بيقدّدوا لوبيا وباميا وباتنجان وكل شي».

حتى أنّ تسوّقه من سوريا منحه فرصة إحياء أعياد ميلاد أبنائه وزوجته «قالب الكاتو كان بـ٥٠٠ ليرة من حمص لـ٣٠ شخص، بينما لم يكن يقلّ ثمنه في لبنان عن ٣٠ ألف من محلّ حلويات متواضع ولعشرة أشخاص». إضافة إلى الكاتو، يقول علي إنّه قبل وصول محلّات الحلويات إلى الهرمل قبل نحو عشر سنوات كحد أقصى أي بعد ٢٠١١ حين صار الدخول إلى سوريا صعباً، لم يكن أحد في الهرمل يشتري حلوياته إلّا من هناك «البقلاوة قد ربع حقها بلبنان ومتلها كلّ الحلويات العربية الأخرى».

سوريا التلفزيون

قبل انتشار موضة الصحن اللاقط والكابلات، لم يكن بثّ أي من القنوات التلفزيونية اللبنانية يصل إلى قضاء الهرمل. وحده التلفزيون السوري شكّل ولغاية سنة ٢٠٠٠ على الأقل بشاشته اليتيمة منبر أخبار ومسلسلات وبرامج منوعات وأخرى حوارية، إلى درجة لُقّب في الهرمل بـ«تلفزيون الغصب عنّك».

وكانت برامج الأطفال السورية هي برامج الصغار في القضاء من مسلسلات مدبلجة أو برامج تعليمية سورية فيها الكثير من التوجيه التربوي وكذلك الحزبي القائم على التنشئة وعلى رأسه برنامج طلائع البعث للفتية والفتيات.

وكان كثر ينتظرون برنامج «غداً نلتقي» الذي يختم به التلفزيون السوري بثه اليومي عند منتصف الليل وفيه أغان ومنوّعات وأخبار خفيفة بعضها فني وبعضها اجتماعي وفيه فقرة عن الغرائب والظواهر. حتى أنّ نجوم الإعلام عند أهالي المنطقة كانوا من التلفزيون السوري حصراً ومعهم نجوم الفن من سوريين وخصوصاً مصريين حيث كانت تُعرض المسلسلات المصرية بكثافة مع الإنتاج السوري الذي لم يكن في حينها قد تقدّم كما اليوم.

الجامعة نافذة على الثقافة

وسوريا هي الجامعة بالنسبة لكثيرين من أبناء الهرمل وقضائها. ورغم أنّ التعليم مجانّي في سوريا إلّا أنّ العديد من طلاب الهرمل حصلوا على منح دراسية وسكن جامعي يراعي بُعدهم الجغرافي سواء عن حمص أو الشام أو حلب. ويعتبر حسام أنّ للدراسة في سوريا بعد آخر لا يقلّ أهمية عن التوفير «في بعد ثقافي كتير كبير بمدن متل الشام وحلب حيث يدرس معظم اللبنانيين الذين يقصدون سوريا». درس

حسام في جامعة حلب «المدينة كانت من أجمل مدن العالم قبل تدميرها، فيها حياة ثقافية وفنية ناشطة، وبتحسّي حالك عايشة بمتحف حي، وأكلها طيّب كتير». وغيّرت الحياة في حلب بحسام كثيراً «تعرّفت ع كتير ناس، شفت الوجه الآخر لسوريا حيث كان اللبنانيون يرونها من خلال السوريين الذين كانوا يقصدون لبنان قبل الحرب للعمل فقط، نسجت علاقات مع شبّانها وشاباتها من الطلاب وتشاركنا أحلاماً وهواجس وبالحقيقة كانت الحياة الجامعية فيها أعمق ممّا عدت وعشته في لبنان».

منحت الدولة السورية حسام غرفة في السكن الجامعي «متلي متل السوريين تماماً»، يعني الكلفة أدنى بـ ٧٥٪ على الأقل مما كان زملائي يدفعونه للدراسة في الجامعة اللبنانية في بيروت «وحلب لا تقل جمالاً عن بيروت، بل أجدها قد احتفظت بطابعها التاريخي أكثر من بيروت بكثير، وطبعاً هذا قبل الحرب (في سوريا)، وأنا حزين جداً على ما فعلته الحرب فيها».

سوريا الصيدلية والمشفى وعيادة الطبيب

يكفي أن تطلب نصيحة من أحد ليدلّك على طبيب اختصاصي في الهرمل ومنطقتها حتى يأتيك الجواب من معظم أبنائها عن أسماء أطباء في حمص أو الشام، من أطبّاء العيون إلى الأذن وأنف وحنجرة إلى القلب والكلى والاختصاصات كافّة. هناك لم تكن معاينة الطبيب الاختصاصي تتجاوز ٢٠٠ إلى ٣٠٠ ليرة سورية أي لا تتعدّى سقف ١٠ آلاف ليرة لبنانية وهي أقل بـ٥٠٪ من معاينة طبيب الصحّة العامّة في قضاء الهرمل، باستثناء بعض الذين يراعون أوضاع فقراء المنطقة. كما أنّ أطبّاء الاختصاص لم يكونوا متوفّرين في الهرمل بشكل كبير قبل الحرب السورية وإقفال الحدود لسنوات، وحتى اليوم لا يتوفّر في القضاء أطبّاء بكلّ الاختصاصات.

وتعطي خزاعية مثلاً عن شقيقتها ديبة التي نقلتها إلى طبيب قلب في الشام في العام ٢٠٠٠ «طلع أختي بدها عملية قلب مفتوح»، هكذا أخبرها الطبيب وقال إنّ العملية عاجلة. «ركبني الهم وصرت رح إبكي»، تقول خزاعية. وعندما سألها الطبيب السوري عن سبب تجهّمها لم تخفِ قلقها: «من وين بدّي جيب لإعملّها العملية بلبنان، إنت بتعرف الغلا عنّا». عندها سطّر لها طلباً خطياً بحالة ديبة، وأرسلها لحجز موعد في مستشفى «المواساة» «وكانت من أحلى مستشفيات الشام». هناك خضعت ديبة لعملية القلب المفتوح «من دون ما ياخدوا منّا ولا ليرة لأنّها مستشفى حكومية «بس استأجرت غرفة بحيّ الست زينب لكون حدها، بسعر مقبول وحتى رخيص». لم تتجاوز كلفة إجراء العملية كمصاريف وسكن وبقاء نحو ١٥ يوماً في الشام مبلغ ٥٠٠ دولار وكانت قيمتها ٧٥٠ ألف ليرة لبنانية في حينها.

أمـا الـدواء فـكان «ببـلاش مقارنـة مـع أسـعاره في لبنـان» تقـول خزاعيـة، ومثلهـا يؤكّـد معظـم الذيـن كانـوا يشـترون أدويتهـم مـن حمـص وحـتى القصير «كمان في صيدليات كبيرة بالشام». وكان اللبنانيّـون يجـرون الكثـير مـن العمليـات الجراحيـة في سـوريا مـن العظـم إلى القلـب إلى الغـدّة وغيرهـا وبأسـعار رمزيـة جـداً ولا تقـارن مـع أكلاف لبنـان. عبـاس اشـتغل ٢٢ سـنّاً وضرسـاً واحـداً في سـوريا «كلّفـني تلبيـس زيركـون Zircon بكلفـة لم تتجـاوز ٥٠ دولاراً للسـن الواحـدة بينمـا دفعـت لزوجـتي في لبنـان ٣٥٠ دولاراً عـلى كلّ سـن». يؤكّـد عبـاس أنّـه لم يكـن ليسـتطيع دفـع كلفـة تلبيـس أسـنان زوجتـه «زيركـون» لـولا أنّهـا احتاجـت لتصليـح سـنّين فقـط «وكان بعـده وقتهـا الـدولار ع ١٥٠٠. أمّـا هـو فقـد انتظـر ليتمكّـن مـن الذهـاب إلى سـوريا حـتى أصلـح كلّ أسـنانه «وهيـدي رحمـة إلنـا».

بعـد حاجـز الجيـش اللبنـاني في بلـدة مطربـا، وقبـل الحاجـز السـوري، يوجـد مجمّـع عيـادات لأطبـاء سـوريين مـن كافّـة الاختصاصات ومـن بينهـا طـب الأسـنان. تؤكّـد إحـدى الموظفـات في المركـز إنّ عيـادة الأسـنان تسـتقبل يوميـاً مـا لا يقـلّ عـن ثلاثـين مريضاً لبنانياً «فيـكي تعبـتري إنّـه كلّ اللبنانيين على الحـدود بمنطقـة الهرمـل بيتحكّمـوا هـون، بيصفّـوا بالـدور».

وتـؤشّر حركـة السـير إلى خـط مطربـا إلى حجـم اللبنانيـين الذيـن يقصـدون العيـادات المتخصّصـة ومعهـا الصيدليـة السـورية الـتي تقـع عـلى بعـد مائتـيْ مـتر مـن المركـز الطبـي السـوري. يحـضر الأطبـاء السـوريون يوميـاً عـبر الحـدود ولا يقطعـون الحاجـز اللبنـاني إنّمـا يبقـون ضمـن المنطقـة مـا بـين حاجزيـن، وهـي سـورية ولكـن الجيـش السـوري لا يتـصرّف تجـاه المناطـق الـتي تقـع بينـه وبـين الحاجـز اللبنـاني عـلى أنّهـا أراضٍ سـورية ولـذا لا يتدخّـل في الداخلـين مـن اللبنانيـين إليهـا. وغالبـاً مـا يكـون صفّ منتظري دورهـم للدخـول إلى الصيدليـة ممتـداً إلى خارجهـا بخمسـة أمتـار وكلّهـم مـن لبنانيـي الحـدود. ويعمـل الصيـدلاني والصيدلانيـة المناوبـان عـلى منحهـم أدويـة مماثلـة بتركيبتهـا لأدويتهـم ولكـنّ صناعـة سـورية.

لبنانيو سوريا

قبـل العـام ٢٠١١، لم يكـن الحديـث عـن اللبنانيـين الذيـن يعيشـون في سـوريا ملحوظـاً لا في المجتمـع ولا في الإعـلام، ومعهـم لبنانيـي الحـدود الذيـن يزرعـون أراضيهـم الـتي أخذتهـا معهـا «سـايكس بيكـو» نحـو سـوريا والقـرى ذات السـكان اللبنانيـين وعددهـا نحـو ٢٣ قريـة وبلـدة. لم يكـن أحـد يعـرف تفاصيـل حياتهـم ولا مصـادر عيشـهم كمـا أخوانهـم المنسـيين عـلى الحـدود في الداخـل اللبنـاني. بعـد ٢٠١١، ونـزوح معظمهـم إبّـان معركـة القصـير وريفهـا ومـن ثم عـودة غالبيتهـم اليـوم بعـد حسـم المعركـة في هـذا الجـزء مـن سـوريا، تبـيّن عمـق علاقتهـم بسـوريا وارتبـاط عيشـهم فيهـا وخصوصـاً لمـن يسـكنوها مـن اللبنانيـين ومعهـم سـكّان البلـدات المتاخمـة.

يقـول محمـد الطفيـلي مـن سـكان حـوش السـيّد عـلي ولديـه أراضٍ في سـوريا، إنّ مـا يحظـى بـه فيهـا هـو نفسـه الـذي يُقـدم للفـلاح السـوري «بيطلـع لنـا أسمـدة شـبه مجانيـة حسـب مسـاحة أرض كل منّـا، إذا حـبّ الفـلاح مـا يـزرع أرضـه بيقـدر ببيـع الأسمـدة ويربـح». مـع الأسمـدة ينـال المـزارع مسـاعدات «مـازوت لموتـور المـي ولتراكتـور الفلاحـة وكمـان للتدفئـة بالبيـوت، وكان فينـا نبيـع المـازوت إذا بدنـا، وبيطلـع لنـا كمـان زيـوت لمحرّكات الآليّـات الزراعيـة» وكل ذلـك عـبر الرابطـة الفلاحيـة السـورية. ويمكـن للبنـاني مـن سـكان الحـدود حيـازة إقامـة رسميـة في سـوريا في حـال كان لديـه أرضٌ زراعيـة في الداخـل السـوري «وفينـا نمـشي بسـوريا ونفـوت ع الهويـة أو حـتى ع فاتـورة الكهربـا إذا اشـتركنا مـن الكهربـا السـورية». ويمكـن للبنـاني أن يحصـل عـلى ورقـة مختـار أو مـن رئيـس بلديـة ربلـة، البلـدة السـورية الأقـرب للحـدود الـتي تتمتّـع ببلديـة، تفيـد بأنّـه يعمـل بالزراعـة في سـوريا «وبياخـد عليهـا إقامـة». فقـط لا يمكـن لسـكان الحـدود اللبنانيـين الدخـول بسـياراتهم مـن المعابـر غـير الشرعيـة للبقـاء في سـوريا إلّا إذا دخلوهـا عـبر الأمانـة الحدوديـة، أي مركـز الحـدود الرسمـي والشرعـي.

عـاد معظـم اللبنانيـين الذيـن تهجّـروا مـن ريـف القصـير نتيجـة الحـرب السـورية إلى قراهـم في زيتـا وبلـوزة وحاويـك والنهريـة والمصريـة والساقيّـات الشرقيـة والغربيـة وتـل منـدو والجبانيـة والديابيـة والفاضليـة وغيرهـا. ومـع انتهـاء المعـارك في المنطقـة استأنـف المزارعـون اللبنانيـون في قـرى الحـدود لناحيـة لبنـان زراعـة أراضيهـم في سـوريا.

مـن عـلى مصطبـة داره في حـي المنقطـع في القـصر، يشـير محمـد قطايـا إلى فتحـة صغـيرة قـرب حاجـز الجيـش السـوري عـلى بعـد ٢٠٠ مـتر مـن منزلـه «هيـدي تاركـين لنـا إياهـا إلنـا لنفـوت ع أراضينـا» يقـول. عـاد سـكان الحـدود إلى زراعـة أراضيهـم كمـا السـوريين ممـن عـادوا إلى بلادهـم «الدعـم الزراعـي الرسمـي خـفّ بسـبب وضـع سـوريا اليـوم، بـس مـا في شي بياخـده المـزارع السـوري نحـن مـا مناخـده، متلنـا متلهـم». ويؤكـد أنّ سـوريا لم تميّز يومـاً ضـدّ اللبنانيـين فيهـا «بالعكـس بتشـتري منّـا المحاصيـل وخصوصـاً القمـح والتـبن بأسـعار جيّـدة أفضـل مـن لبنـان، ويُمنـع علينـا إخـراج القمـح مـن الحـدود وتـترك لنـا حرّيـة التـصرّف بباقي المحاصيـل مـن حبـوب وخضـار وثمـار أشـجار «بالعكـس أوقـات الجيـش اللبنـاني بيضيّـق علينـا برغـم أنّنـا نملـك أوراقـاً تفيـد أنّ هـذه محاصيلنـا في الداخـل السـوري».

أسواق بديلة بعد الحرب

تبـدو الحركـة نحـو سـوريا مـن المناطـق الحدوديـة في قضـاء الهرمـل اليـوم مفاجئـة للزائـر في ظـلّ حركـة التهريـب لـكل شيء باتجـاه الداخـل السـوري حيـث يوحـي المشـهد وكأنّـه لا يوجـد شيء في سـوريا لـولا التهريـب مـن لبنـان.
التهريـب يتجـلّى في الداخـل السـوري عمليـاً بسـلع لبنانيـة مدعومـة تمـلأ الدكاكـين والسـوبرماركت مـن كيـس الطحـين لأشـهر المطاحـن اللبنانيـة إلى ألـواح الشـوكولاته مـن «كيـت كات» و«سنيكرز» و«مـارس» وغيرهـا. عـلى الطرقـات الداخليـة

للقرى السورية يضع أشخاص على يمين الطريق ويسارها غالونات مليئة بالمازوت والبنزين تبدأ من حجم ليترين وصولاً إلى خمسين ليتراً، تُباع للمارّة والمحتاجين للوقود، هي أيضاً من منتجات النفط المدعوم المهرّب من لبنان إلى سوريا.

ومع ذلك، تجد سيارات اللبنانيين تصل إلى بلدة العقربية بالعشرات من قضاء الهرمل. يدخل هؤلاء عبر معبر قلد السبع في سهلات المي في أراضي عشيرة جعفر ثم يتوجّهون إلى جرماش، وهي قرية سورية يسكنها آل جعفر كلبنانيين إضافة إلى مواطنين سوريين، ومنها إلى العقربية. وقبل ٢٠١١، لم تكن العقربية على خارطة وجهة اللبنانيين إلى سوريا. ولكن مع المعارك الشرسة التي دمّرت القصير، تحوّلت العقربية إلى سوق بديل يؤدّي دور سوق القصير ونمَتْ بسرعة وصارت وجهة أساسية للبنانيين حيث لا يُسمح إلّا لمن لديه ورقة «مهمة» من السلطات السورية نفسها أو من حزب الله أو أحزاب حليفة كالحزب السوري القومي الاجتماعي بالوصول إلى حمص.

وماذا تشترون من سوريا اليوم؟ نسأل فراس أحد المواطنين الذي يقصد سوريا كل أسبوع على الأقل.

يشتري فراس الخضار ولحم الغنم والحلويات والقطنيات التي «تستعيد مجدها» صناعياً «كيلو لحم الغنم بسوريا ١٥ الف ليرة سوري يعني ٤٥ الف ليرة لبنانية، بينما سعره في لبنان ٧٠ ألف و٩٠ إلى ١٠٠ ألف ليرة حسب المنطقة». ويحبّ فراس الذهاب إلى سوريا «بتعرفي توقّفت عن الذهاب إليها خلال الحرب، اليوم بحس حالي مشتاقلها، نحن معوّدين ع سوريا». ويقول فراس إنّ اللبنانيين وخصوصاً سكّان الحدود موجودون في سوريا بكثرة «كل يوم بشوف ناس من المنطقة هونيك، نحن متعوّدين عَ سوريا ومنلاقيها أرخص من لبنان برغم الغلاء الفاحش هناك وتغيّر أوضاعها وانهيار اقتصادها كما لبنان». وما زال فراس يقصد سوريا مع أصدقائه ليتغدّوا و«منكزدر كمان، ومن حمص اشترى غطاء لسريره الزوجي «دفعت حقه ما يساوي مئة ألف لبناني. بتلاقيه بلبنان بنفس النوعية بـ٣٠٠ أو ٤٠٠ ألف ليرة». يختم فراس حديثه بأمنية «كتير بحب لمّن بقدر أوصل ع حمص وحسّها عم ترجع تحيا وترجع انشالله متل ما كانت».

فقراء لبنان اليوم يفتقدون سوريا «الفقيرة»

«في الليلة الظلماء يُفتقد البدر» بهذه العبارة، تلخّص لينا الوضع في الهرمل في ظلّ الأزمة التي فاقمها قانون قيصر في سوريا «ما كان رح يكون وضعنا اليوم سيئ هلقد لو سوريا بخير»، تقول. سوريا اليوم «أفقر منّا» بالنسبة للينا وإلاّ «لما شعرنا بالأزمة الخانقة اليوم، كنّا منجيب كل احتياجاتنا منها، وخاصة الغذائية الضرورية». ومع ذلك، تطلب لينا من زوجها أن «يتدبّر» لها مشواراً إلى حمص «ما عندي شراشف للبيت، مرقت ع محل ببيروت حق طقم الشراشف لتخت مزدوج ٥٠ دولاراً ع سعر السوق السودا،

يعني ٦١٠ آلاف اليوم (في ١٣ نيسان ٢٠٢١)، بجيبوا من سوريا مكسيموم بـ٢٠ دولار وقطن ١٠٠٪». وتضيف إلى القطنيات أدوات التنظيف وكل أنواع المحارم «النوعية الجيّدة من المحارم بلبنان بـ١١ ألف الكيس، عم جيبها من سوريا نفس النوعية بـ٧ آلاف»، وكذلك الشوكولاته والحلويات «أرخص بكتير من لبنان لأنّه صناعة سورية».

وفق ما أخبره صيدلي سوري يفتتح صيدلية على الحدود مع مطربا، أثّر حتى على المواد الأوّلية التي تستخدمها معامل الأدوية «بعد في أدوية مصنّعة في سوريا أرخص من لبنان، أمّا الدواء الأجنبي فيتمّ تهريبه من عنّا إلى سوريا». يرى محمد أنّ العلاقة اليوم صارت شبه معكوسة «التهريب عم يأمّن احتياجات سوريا، وكلّ



"الميكرو" السوري وسيلة النقل الأشهر عبر الحدود

يأسف محمد جعفر، أحد سكان سهلات المي بالقرب من القصر على وضع سوريا حالياً «مبارح إجا لعندي أستاذ مدرسة لبنانيّ يعيش في سوريا ليشتري حقن كورتيزون وصفها له الطبيب، برمنا كتير صيدليات حتى لقيناهم، في أدوية كتير ناقصة بسوريا». فقانون قيصر،

المواد المدعومة عم تروح من عنّا لعندهم، بس طبعاً بأسعار باهظة، ونحن مش عم نلاقي سلع مدعومة بالسوق لأنّه أرباح المهرّبين كتير كبيرة». يعطي محمد مثلاً عن صفيحة البنزين «كان إبن عمي بسوريا بـ١٠ نيسان ٢٠٢١ واضطرّ أن يملأ خزان سيارته بـ٢٠ ليتر بنزين دفع حقهم

١٢٠ ألـف لـيرة سـوري يعـني نحـو ٤٠٠ ألـف لـيرة لبنانيـة، بينما تبـاع الصفيحـة ٢٠ ليـتر في لبنـان بـ ٤٠ ألـف لـيرة، فـكلّ مهـرب يربـح بـكل صفيحـة بنزيـن ٣٦٠ ألـف لـيرة لبنانيـة».

ويـرى محمـد أنّ اللبنانيـين الذيـن يقصـدون سـوريا اليـوم «بيروحـو ع العقربيـة ومكسـيوم القصـير، مـش عـم يقـدروا يوصلوا ع حمـص مثـلاً»، يشـتري هـؤلاء «بعـض الخضـار وقـد ارتفـع ثمنهـا وتـكاد تـوازي أسـعارها في لبنـان، والأدويـة المصنّعـة في سـوريا إن توفّـرت وكذلـك أدوات التنظيـف والقطنيـات والملابـس والأحذيـة المصنعـة سـورياً». تقتصر الحركـة التجاريـة بـين سـوريا ولبنـان اليـوم عـلى المعابـر غـير الشرعيـة الـتي تشـهد تهريبـاً مـن الحـدود في الدبوسـية إلى وادي خالـد فالقـصر وحـوش السـيد عـلي وجـرد عرسـال والمصنـع وصـولاً إلى ديـر العشـاير في البقـاع الغربـي «لولانـا سـوريا مـا فيهـا شي اليـوم»، يقـول أحـد المهربـين بفخـر، فيضحـك محمـد ويقـول لـه «لـولا سـوريا إنتـو مـا معكـم مصـاري اليـوم، عـم تهرّبـوا مـش لأنّـه قلبكـم ع سـوريا، إنّمـا لأنّكـم عـم تجنـوا الملايـين يوميـاً».

كتـب محمـد العـلي، ابـن تـل كلـخ السـورية عـلى الحـدود مـع لبنـان لناحيـة وادي خالـد منشـوراً عـلى صفحتـه عـلى فيسـبوك يتحـدّث فيـه عـن العلاقـة بـين البلديـن «جدّي اشـترى أرضـه بعدمـا ذهـب للعمـل في لبنـان لسـنوات، أبـي لم يـتزوّج وينجبـني لـولا المـال الـذي جمعـه مـن عملـه في بـيروت، ومثلـه آلاف الشـبّان السـوريين، وأنـا شـخصياً اشـتريت بيتـاً في طرطـوس بعدمـا عملـت لعـشر سـنوات في لبنـان، وسـوريا كانـت مفتوحـة للبنانيـين وخصوصـاً سـكان الحـدود ولم تقفـل بابهـا في وجوههـم يومـاً مـن الطبابـة إلى المـواد الغذائيـة إلى المـدارس والجامعـات. وكمـا الثمانينيّـات عندمـا كنّـا لا نجـد شيئـاً في سـوريا لـولا لبنـان، اليـوم أيضـاً كل احتياجاتنـا تـأتي منـه» لعـن اللّٰه السياسـية والمهرّبـين، ويحيـا الشـعب هنـا وهنـاك».

عمليات التجميل والبوتوكس

استجدّ معطى طبي بعد حرب ٢٠١١ يتعلّق بتطوّر قطاع التجميل في سوريا مؤخراً وغلاء الأسعار في لبنان مقارنة بالخدمات التجميلية فيها، حتى قبل انهيار الليرة اللبنانية. رنا، هي سيدة ممن فتحن على سوريا تجميلياً بعد الحرب «عملت عملية تصغير صدر وشدّ بطن طلعو كتير حلوين». أجرت رنا عمليّتيها في الشام بكلفة لم تتجاوز ٣ آلاف دولار «طلبوا منّي ببيروت ١٠ آلاف دولار وفي طبيب تجميل قال سايرني وطلب ٨ آلاف دولار»، وتضيف: «صحتين ع قلب السوريين لأنّهم بيرضوا بالرّبح المعقول، بس اللبنانيين بدهن يغتنوا من أوّل عشر عمليات».

ملف

العدد

الهرمل 01

مجلة فصلية بحثية، تصدر عن المفكرة القانونية، تقدّم مقالات وأبحاث نقدية في المجتمع والقانون من أجل تحقيق العدالة الإجتماعية.